تاريخ العرب في الأندلس

عصر الإمارة

من عبد الرحمن الداخل
الى عبد الرحمن الناصر

١٣٨ هـ — ٣٥٠ هـ

٧٥٥ م — ٩٦٠ م

تأليف
الدكتور خالد الصوفي

منشورات جامعة قاريونس
كلية الآداب

الفَصْلُ الأوّل

سقوط الدّولة الأموية في المشرق على أيدي العبّاسيّين وتأسيسها في المغرب على يدي عبد الرحمن بن معاوية

لقد حملت الدولة الأموية في ثناياها بذورَ سقوطها قبل ان يحدث ذلك السقوط بزمن ، فعلاوةً على معارضة آل البيت والعباسيين لها ، ونشاطهم خاصةً منذ مطلع القرن الثاني الهجري ، فقد كانت هناك عوامل كثيرة أخرى تنخر في جسم الدولة الأموية منذ تأسيسها ، أخذت تُضعِف بنيتَها مع الزمن حتّى أدّت الى سقوطها ولما تكمل القرنَ من حياتها ، وقامت عوضاً عنها دولة فتية جديدة هي الدولة العبّاسية .

واذا أردنا ان نلقي نظرةً سريعةً على أهمّ العوامل التي أدّت الى سقوط الدولة الأموية ، نرى انّ المؤرّخين يُجملونها فيما يلي :

ا ــ أسّس معاوية بن ابي سفيان دولته منذ البداية بالقوة وبعد انتصاره على جماعة علي بن ابي طالب في موقعة صفّين ، فجرّ ذلك عليه عداءَ قطاع هام من الشعب الذي كان يحكمه .

ب ــ كان هناك فرق الخوارج التي أعلنت عداءها للدولة منذ البداية

فقام أفرادها بثورات متكرّرة . بل استطاع بعضهم وضعَ يده لفترة من الزمن على اجزاء هامة من الدولة .

ج : السنّة التي وضعها بعض الخلفاء الأمويين في تولية العهد من بعدهم لشخص او لأكثر . مما اوجد التنافس الشديد بل والتنازع بين أفراد العائلة الواحدة وبين الإخوة وابناء العم للوصول الى السلطة فأضعفت تلك المنازعات الدولةَ الأموية ؛ وتركتها عرضةً للمخاطر والأحداث .

د : تعصّب الأمويين لعنصر دون آخر . حقّاً ان تعصبهم كان للعنصر العربي المسيطر وصاحب الأفضلية الأولى في نصرة الدين الحنيف ، بيد ان مبادىء الدين نفسه لم تكن تسمح بذلك . وكان المسلمون من غير العرب يجدون ظلماً في تمييز العنصر العربي عليهم ؛ واستشهد الموالي بقول الرسول : « لافضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى » و « الناس سواسية كأسنان المشط » الخ ... وهذا ما سيجعل الأعاجم من أهل خراسان وما وراء النهر ينضمّون الى الدعوة العبّاسية حين أخذت تبشّر بمبادئها ، وينضوون تحت لواء أبي سلمة الخلاّل وأبي مسلم الخراساني . ويكوّنون العامل الأول في انتصار العباسيين على الأمويين .

ه : ظهورُ روح العصبية القبليّة خاصّة بين القيسيين واليمنيين حتى أعادت الى الناس ذكرى ثارات الجاهلية . وصار كلٌّ من الحيّين يتعصّب لرجاله مهما كانت الظروف والأحوال فأدّى ذلك الى انقسام العرب ، ذلك العنصر الذي كانت تعتمد عليه الدولة الأمويّة ؛ وأدّى ذلك بالتالي الى إضعافها وساعد على انهيارها .

و : انغماس بعض الخلفاء الأمويين في الترف والبذخ وانشغالهم بذلك عن شؤون الخلافة الهامة وعن اصلاح أمر الرعية ، بينما كان معارضوهم يبذلون ما في وسعهم للقضاء على الدولة الأموية حتى أتيح لهم ذلك أخيراً في عام ١٣٢ ه حين قتل آخر خليفة أموي وهو مروان بن محمد .

ولا شك ان هذه الأسباب ليست هي وحدها التي أدّت الى سقوط الدولة الأموية . بل ان هناك أسباباً فرعية كثيرة اخرى . لا نودّ هنا ان ندخلَ في تفاصيلها اذ انها ليست من صميم موضوعنا في الواقع ، وانما حرصنا على ان نبدأ البحث من بدايته كيلا نخوضَ في بحث عبد الرحمن بن معاوية بن هشام مؤسّس الدولة الأموية بالاندلس ، دون ان نكوّنَ فكرةً عن أسباب سقوط الدولة التي كان ينتمي اليها في المشرق .

وقد صوّر المسعودي[1] الأسباب التي ساعدت على زوال ملك بني أمية بقوله : « سئل بعض شيوخ بني أمية ومحصّليها [2] عقب زوال الملك عنهم الى بني العباس : ما كان سبب زوال ملككم ؟ قال : انا شغلنا بلذاتنا عن تفقّد ما كان تفقده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا ، فيئسوا من انصافنا وتمنّوا الراحة منّا ؛ وتحومل على أهل خراجنا فتخلّوا عنّا ، وخربت ضياعنا فخلت بيوتُ أموالنا . ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنّا . وتأخّر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم أعادينا فتظاهروا معهم على حربنا ، وطلّبنا أعداؤها فعجزنا عنهم لقلة انصارنا ، وكان استتار الأخبار عنّا من أوكد أسباب زوال ملكنا » .

هذا وقد كان زوال الخلافة الأموية على يد العباسيين ، فكيف نشأت فكرة الخلافة في بني العبّاس ؟

انتقال الدعوة من العلويين الى العباسيين :

وَحّدَ مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب في كربلاء صفوف الشيعة وأثار في نفوسهم الحماسة للأخذ بثأره ، كما أذكت مأساةُ كربلاء روحَ التشيّع الذي أصبح عقيدةً راسخةً في نفوس أصحابه وانتشر بين فئاتٍ واسعةٍ من المسلمين بما فيهم الفرس الذين كانت تربطهم بالحسين رابطة المصاهرة ويرونه

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٤ .

(٢) المطلعون على أخبار الدولة .

أحقّ الناس بالخلافة هو واولاده من بعده . وقد اشتدّ العداء بين الأمويين والعلويين بعد حادثة كربلاء وقام هؤلاء بعددٍ من الثورات في ولاياتٍ إسلامية مختلفة يسعون الى انتزاع الحكم من الأمويين واعادته الى من يعتبرونَ انهم أصحابه الشرعيون .

ولم يكن الشيعة بطبيعة الحال يؤلّفون فرقةً واحدة ، بل فرقاً مختلفة ، كلّ منها يؤمن بتسلسل معيّن للأئمة ويختلف في بعض تفاصيل معتقداته عن الفئة الاخرى ، وكانت أهمّ تلك الفرق في بداية أمرها هي الكيسانية والزيدية . بيد انّ جميع تلك الفرق الشيعية كانت متفقةً على شيءٍ واحد وهو عداؤها للأمويين واعتقادها بعدم أحقيتهم بالخلافة وخاصةً بعدَ حادثة كربلاء .

إذن فالدعوة الى إسقاط الخلافة الأموية وتحويل الحكم الى أصحابه من آل البيت هي دعوة ظهرت بين الشيعة في بادىء الأمر وليس بين أولاد عمهم من بني العباس . ولو انّ بعض المؤرّخين يذكرون ان علاقات بني هاشم من علويين وعباسيين فيما بينهم كانت تقوم على الودّ والصّفاء وان البيتين كانا متحدين على العدوّ المشترك وهو بنو أمية ، الى ان انتقل حقّ الإمامة من العلويين الى العباسيين . فكيف حدث ذلك الانتقال ؟ ولماذا حدث ؟

انتقل حقّ الإمامة بعد الحسين الى اخيه محمد بن علي بن ابي طالب المعروف بـ « ابن الحنفيّة » . فلما توفي عام ٨١ هـ ، انتقل ذلك الحقّ بوصيّةٍ منه الى ابنه عبد الله الملقّب بـ « أبي هاشم » ، فاستمرّ هذا يقوم بأمر الشيعة طيلة خلافة الوليد بن عبد الملك وجزء من خلافة سليمان بن عبد الملك . وقد استدعى هذا الأخير في عام ٩٨ هـ « ابا هاشم » واكرم وفادته وأظهر له التودّد ، ولكنه دبّر امر مقتله في الخفاء خشية ان يدعو بالخلافة الى نفسه ، فقيل انه أرسل من دسّ له السمّ وهو في طريقه الى « الحميمة » ، وهي قرية صغيرة في جنوبي بلاد الشام .

ولما شعر ابو هاشم بالانهيار والمرض ، قدّر ان أجله قد دنا ، فتوجّه

الى قرية « الحميمة » المذكورة حيث كان يسكنها ابن عمه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس فقصده وأفضى اليه بأسرار الدعوة الهاشمية ونزل له عن حقّه في الإمامة وأمدّه باسماء داعي دعاته في الكوفة ، ومن يليه من الدعاة ، كما سلّمه رسائل يقدمها اليهم .

هذه هي الحادثة التي يرويها المؤرّخون والتي أدّت الى انتقال الدعوة من العلويين الى العباسيين .

ونحن لو تساءلنا الآن عما دفع « ابا هاشم » الى ان يعدلَ عن اهل بيته من العلويين الى العباسيين ، لرأينا بأنّه لو صحّت رواية الحادثة كما هي لما كان هناك مندوحة لابي هاشم من ان يفعل ما فعل ، نظراً لأن أقربَ الناس اليه في ذلك الوقت ممن يمكن ان يثقَ بهم وأن يأتمنَهم على السرّ والدعوة كان ابن عمه محمد بن علي بن عبد الله بن العبّاس ؛ فأبو هاشم والحالة هذه ، لم يكن امامه خيار في اختيار خلفه .

وذكر آخرون ان ابا هاشم فعل ذلك لأنه لم يجد آنذاك وفي تلك الظروف بين أفراد البيت العلوي من يستطيع النهوض بأعباء إمامة المسلمين كما كان يستطيع ذلك ابن عمه محمد العباسي .

ثم هناك الشيء الذي ذكرناه عن حسن العلاقات بين العلويين والعباسيين واتحاد البيتين في وجه الأمويين الذين كانوا يعتبرونهم عدوّاً مشتركاً .

ولكن على الرغم من ذلك كلّه ، فان هذا التنازل لا يمكن ان يعتبر تنازلاً من قبل العلويين جميعهم ، لان فريقاً كبيراً منهم ظلّ متمسكاً برأيه ، بدليل قيامهم في وجه العبّاسيين بعد قيام دولتهم .

تنظيم الدعوة على يد محمد بن علي بن عبد الله العباسي :

رأى الامام محمد بن علي العباسي ان نقلَ السلطان من بيت الى بيت لا بدّ ان يسبقه إعداد الأفكار وتهيئة النفوس لهذا التغيير ، وانّ كلّ محاولة

فجائية قد تكون عاقبتها الفشل ، فرای ان يسيرَ بالدعوة بأناة مقرونة بالحزم . وقد طلب الى شيعته ان يؤلّفوا منهم دعاة يدعون الناس الى ولاية آل البيت دون تسمية أحد خوفاً عليه من بني أمية ، كما رأى ان أحسن منطقة يبثّون فيها الدعوة هي الكوفة وبلاد خراسان . فالكوفة مهد التشيّع لآل البيت منذ زمن طويل ، وأهل خراسان يفهمون فكرة التشيّع بسهولة، ويؤمنون بنظرية الحقّ الملكي المقدّس التي كانت سائدةً في بلاد الفرس منذ زمن بعيد . هذا الى ما كان يأخذه الفرس على الأمويين ، مما سهل على العبّاسيين نشر دعوتهم .

وقد وصف الامام محمد بن علي بن عبد الله العباسي أوضاع سكان بعض الولايات الإسلامية آنذاك بقوله : « اما الكوفة وسواها فشيعة علي ، واما البصرة فعثمانية[1] تدين بالكفّ ، واما الجزيرة فحرورية [2] ، واما اهل الشام فلا يعرفون الا ابا سفيان وطاعة بني مروان ، واما مكة والمدينة فقد غلب عليهما ابو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان . فانّ هناك العدد الكثير والجلد الظاهر . وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة ، لم تتقسّمها الأهواء ، ولم تتوزّعها النحل ، ولم يقدح فيهم فساد. وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ، ولغات فخمة تخرج من أجسام منكرة . وبعد فاني أتفاءل الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق »[3] .

نهض محمد بن علي العباسي بالدعوة نهضة قوية ، وعيّن النقباء والدعاة وأوصاهم ببثّ الدعوة سرّاً ، كما أوصاهم ان يتظاهروا بنشرها لآل البيت عامة .

---

(١) نسبة الى عثمان بن عفان .

(٢) الحرورية اسم يطلق على الخوارج .

(٣) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ج ٣ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

وقد بدأت هذه الدعوة السريّة في أوائل القرن الثاني للهجرة في الحميمة التي اتخذها العبّاسيون مركزاً لنشر دعوتهم ، وذلك في عهد عمر بن عبد العزيز . فأرسل الدعاة الى كلّ مكان يبثّون الدعوة في الخفاء وظاهر أمرهم التجارة او الحجّ الى مكة . واتفق الجميع على ان تكون الدعوة « للرضا من آل محمد او من آل البيت » كي لا يفرق فيه بين علوي وعباسي .

ويصطلح على تقسيم زمن الدعوة منذ ان بدأ تنظيمها العملي في أواخر القرن الأول الهجري حوالي عام ٩٨ ﻫ الى ان انتهت بالظهور على الخلافة الأموية الى فترتين : الأولى وقد امتدت قرابة سبعة وعشرين سنة اي حتى عام ١٢٥ ﻫ . تميزت بالابتعاد عن العنف واستعمال القوة وذلك قبل ان ينضمّ الى الدعوة رجل حازم قوي هو ابو مسلم الخراساني . والثانية امتدت قرابة سبع سنواتٍ فقط بعد انضمام ابي مسلم الخراساني الى الدعوة وتميزت بدخول النزاع بين الأمويين والعباسيين في دور العمل او دور العنف ، حين تهيّأت الأسباب للقائمين بالدعوة الجديدة لكي يقوموا باعلانها والجهر بها .

النزاع العلني بين الأمويين والعباسيين ــ سقوط الخلافة الأموية :

بينما كانت الدعوة العباسية تشقّ طريقها بين جموع المسلمين في كلّ مكان وخاصةً في النواحي الشرقية من أراضي الدولة الأموية ، توفي الإمام محمد بن علي بن عبد الله بن العباسي عام ١٢٥ ﻫ (٧٤٢ م) فأوصى بالإمامة من بعده لابنه ابراهيم ، فبايعه الشيعة وقاموا بالدعوة له مكان ابيه .

وفي الوقت ذاته توفي بكير بن ماهان ممثل الدعوة في الكوفة فعيّن مكانه ابو سلمة الخلاّل الذي لعب دوراً هامّاً في قيام الدولة العبّاسية .

وفي تلك الفترة ايضاً اتصل شاب اتصف بالشجاعة والإقدام والمقدرة والعزيمة ، بالإمام ابراهيم ودخل معه في الدعوة فأصبح منذ ذلك الوقت سنداً كبيراً لها واضطلع بأعباء الدعوة العباسية في خراسان حتى تمكن من القضاء على سلطان الأمويين فيها وقادها أخيراً الى منصب الحكم .

ولن ندخل هنا في الحديث عن ابي مسلم الخراساني وأصله ونشأته ودواعي انضمامه الى الدعوة العباسية فتلك امور مذكورة في كتب التاريخ الاسلامي لمن اراد الاضطلاع عليها .

المهمّ انه في عام ١٢٨ ﻫ تسلّم ابو مسلم الخراساني مقاليد الامور في خراسان فكتب اليه الإمام ابراهيم يقول : « انك رجل منّا أهل البيت ، احفظ وصيّتي : أنظر الى هذا الحيّ من اليمن ، فالزمهم واسكن بين أظهرهم ، فانّ الله لا يتمّ هذا الأمر الا بهم . واتّهم ربيعة في امرهم ، واما مضر فانهم العدوّ القريب الدار ، واقتل من شككت فيه .... ولا تخالف هذا الشيخ (يعني سليمان بن كثيّر) ولا تعصّه ، واذا أشكل عليك امر فاكتفِ به عنّي » .

وقد ساعدت الاضطرابات التي انتشرت في خراسان آنذاك ابا مسلم الخراساني على تحقيق سياسته .

كان الوالي الأموي على تلك المنطقة هو نصر بن سيّار وكان مضريّاً فأقصى اليمانيين ، وأثار بذلك عوامل الشقاق التي عرف ابو مسلم كيف يستغلّها لإضعاف الفريقين . وقد جعل ابو مسلم مركز قيادته في قرية قريبة من مدينة مرو عاصمة خراسان وجعل يستعدّ لمهاجمة نصر بن سيّار في مرو . ويبدو انّ هذا قد شعر بالخطر يحدق به فكتب الى آخر خلفاء الأمويين مروان ابن محمد كتاباً ينبّهه فيه الى ما يجري وختم كتابه ببعض ابياتٍ من الشعر قال فيها :

أرى بين الرماد وميضَ جمرٍ فأحْجِ بان يكونَ له ضِرام
فان النارَ بالعودين تذكى وانّ الحربَ أولها الكلام
فقلت من التعجب : ليت شعري أأيقاظٌ أمية ام نيام

بيد ان مروانَ كان مشغولاً عن خراسان على ما يبدو ، فلم يفعل حيال الأمر شيئاً . وكلّ ما هنالك ، يذكر انه علم بأمر الرسالة التي وجهها الامام

ابراهيم من مركزه في الحميمة الى ابي مسلم الخراساني او انها وقعت في يده فقبض على ابراهيم وسجنه في حرّان . ولما قدّر الإمام ابراهيم انه ربما يلاقي حتفه في السجن ، وقد قتل فيه فعلاً – أوصى من بعده لأخيه أبي العباس عبد الله بن محمد وأوصاه بمواصلة الدعوة والمسير الى الكوفة ، فسار هذا اليها فعلاً ومعه كبار بني هاشم من بني العبّاس بينهم أخوه ابو جعفر المنصور وابن اخيه عيسى بن موسى بن محمد وعبد الله بن علي .

خلال ذلك أعلن ابو مسلم الخراساني الثورة وهاجم مرو فاستولى عليها بسهولة وفرّ منها نصر بن سيّار . ورفع العبّاسيون أعلامهم السوداء – خلافاً لرايات الأمويين البيضاء – وساروا لتحرير بقيّة أجزاء الدولة الأسلامية من الحكم الأموي .

بعد ذلك حلّت الهزيمة بيزيد بن عمرو بن هبيرة قائد الأمويين بظاهر الكوفة ، وأرغم على اللجوء الى واسط ، فجاء ابو سلمة الخلاّل ، ونزل بجنده في مدينة الكوفة في أوائل عام ١٣٢ ه دون مقاومة تذكر .

أمام ذلك كلّه أعدّ الخليفة الأموي مروان بن محمد جيشاً كبيراً في حرّان لقتال العبّاسيين وسار منها الى الموصل ، فاختار ابو العبّاس عمه عبد الله ليكونَ قائداً للجيش الذي سيتصدّى للأمويين .

والتقى الفريقان على نهر الزاب الأعلى وهو أحد روافد نهر دجلة فكانت الوقعة شديدة جداً انتهت بانتصار الجند العباسي وهزيمة مروان الذي مضى الى قنّسرين .

اما عبد الله فسار الى حمص ثم الى دمشق . وكان عليها الوليد بن معاوية ابن مروان فتصدّى هذا له على رأس خمسين الفاً ، الا انه هزم وسقطت دمشق .

اما مروان فقد لوحق وعثر عليه في قرية بوصير من أعمال الفيّوم في مصر فقتل وأخذ رأسه الى السفاح في الكوفة ، فانتهت بذلك الدولة الأموية .

ملاحقة بقايا الأمويين وفرار عبد الرحمن بن معاوية الى الأندلس :

كان ابو العبّاس الملقّب بالسفّاح هو اول الخلفاء العباسيين . ويذكر البعض انّه لُقّب بالسفّاح لكثرة ما أراق من الدماء بينما يذكر البعض الآخر انه هو الذي أعطى نفسه هذا اللقب حين القى خطبته في مسجد الكوفة على اثر مبايعته بالخلافة فبدأها بقوله : « فاستعدّوا فانا السفّاح المبيح ، والثائر المنيح » . وايّاً كان الأمر فان ابا العباس عبد الله بن محمد لم يكتفِ بانتصاره الساحق على الأمويين وتمكنه من القضاء على آخر خلفائهم مروان ابن محمد ــ كما رأينا ــ بل حرص على تتبّع بقاياهم كي لا يفكرَ احدهم او بعضهم في تنظيم قواتهم من جديد لمناوأة الدولة العباسية .

وقد عهد على ما يظهر الى عمه عبد الله بن علي وهو بالشام بتنظيم تلك المطاردة الدموية ، فتتبع هذا وجوه بني أمية ومواليهم في كلّ مكان ، وأمعن في مطاردتهم وسفك دمائهم ، وقتل منهم جماعة كبيرة من الأمراء والسادة ولم يبقِ حتى على النساء والأطفال .

وكان بعض الشعراء المتطرّفين ، المؤيّدين للعباسيين يشجعونهم على استئصال شأفة الأمويين اذ انشد الشاعر سديف بن ميمون مثلاً امام ابي العباس شعراً يقول فيه :

لا يغرّنك ما ترى من رجال	ان تحت الضلوع داءً دويّـــا
فضعِ السيفَ وارفع السوط حتى	لا ترى فوق ظهرها أمويـــا

كما أنشد شعراء آخرون أبياتاً بنفس المعنى ، زادت من تأجيج نار البغضاء في نفوس الحكام الجدد حيال الأمويين ... حتى لجأوا الى الحيلة للقضاء على من تبقّى من هؤلاء .

فلقد زعم ابو العباس انه ندم على قسوته حيالهم وانه قرّر ان يشملَ بقاياهم بالعفو والأمان فخدع الكثيرون منهم بهذا الوعد ، وخرجوا من الأمكنة التي كانوا قد تواروا فيها ، فقبض على حوالي سبعين رجلاً من

وجهائهم فعذّبوا ثم قتلوا .

ولكن مع ذلك كلّه فانّ هذه المطاردة الدموية لم تستطع ان تصلَ الى غرضها بالقضاء الشامل على بقايا الأمويين ، وشاء القدر ان يفلتَ منها البعض كما شاء القدر ان يتمكنَ أحدهم وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ان يعيدَ إحياءَ الدولة الأموية في المنطقة الواقعة غربي البحر الأبيض المتوسط بعد ان كان مركزها طيلة قرنٍ من الزمان قبل ذلك في المنطقة المقابلة من البحر المذكور .

اما قصّة فرار عبد الرحمن بن معاوية من بلاد الشام عبر المغرب الى الأندلس فهي أشبه بالملاحم لطول المسافة التي قطعها وتنوّع الصعوبات التي تعرّض لها قبل ان يتمكن من الوصول الى هدفه وتأسيس ملكٍ له ولسلالته من بعده في جزءٍ من القارة الأوربية دعاه العرب فيما بعد : الأندلس .

وخلاصة هذه القصّة ان عبد الرحمن بن معاوية ، عندما بلغه نبأ نكوث ابي العباس السفّاح بالأمان الذي أعطاه للأمويين ، ومقتل عددٍ من كبارهم ينوف على السبعين ، غادر المكان الذي كان فيه [1] وهرع عائداً الى منزلٍ له في قرية « دير حنّا » في مقاطعة قنّسرين ، حيث كان يقيم آنذاك ، واوصى بان يتبع بولده الصغير الذي كان يبلغ الرابعة من العمر [2] وبأختيه ام الأصبغ وأمة الرحمن .

هذا وبعد ان عاد الى منزله ونظر في اموره وامور افراد عائلته ، قرّر مغادرة البلاد وتوجه من فوره برفقة بعضهم نحو قريةٍ واقعةٍ على الفرات ذات شجر وغياض ، فاختبأ فيها بعض الوقت ريثما تتيح له الظروف التوجه الى المغرب وربما الى الاندلس ، تلك البقعة التي كان عازماً على التوجه اليها منذ البداية .

---

(١) يقول صاحب اخبار مجموعة ان عبد الرحمن بن معاوية كان غائباً ذلك اليوم في الصيد ، فوقع الخبر عليه في جوف الليل ، فهرب ... (ص ٢٦) .

(٢) ولد في عام ١٣٠ ﻫ (اخبار مجموعة ص ٢٧) .

اما أسباب عزمه على ذلك فلا شك انها تعود :

١ ـ الى بعد تلك الأصقاع عن بلاد الشام واعتقاده بانه يمكن ان يعيش فيها بأمان دون ان يهدّد سلامته هناك ايّ خطر .

٢ ـ لأن غيره من الأمويين قد توجّهوا اليها قبله هرباً من مطاردة العباسيين لهم ، يذكر منهم المؤرخون السفياني الثائر وابناء الوليد بن يزيد وجزي بن عبد العزيز بن مروان وعبد الملك بن عمر بن مروان الخ[1] ...

٣ ـ لأن عبد الرحمن بن معاوية كان طموحاً دائم التفكير في تأسيس ملك له ، وكانت أوضاع الأندلس المضطربة تساعد في نظره على تنفيذ الأفكار التي كانت تعتمل في رأسه علاوةً على انه كان يعتبر ان له املاكاً وحقوقاً في الأندلس اذا اخذنا بعين الاعتبار جملةً يوردها المقرّي وفحواها انه لما مات والد عبد الرحمن وكفله مع إخوته جدّه الخليفة هشام بن عبد الملك « وهب لعبد الرحمن هذا جميع الأخماس التي اجتمعت للخلفاء بالأندلس ، وأقطعه اياها ووجّه لحيازتها من الشام سعيد بن ابي ليلى »[2] .

٤ ـ لأنه كان يوجد اقرباء لعبد الرحمن في بلاد المغرب يمكن الاعتماد على مساعدتهم وهم أخواله من بني نفزة الذين كانوا يقيمون في برقة ، اذ ان امّه كانت بربرية تدعى « راح » .

هذه هي اهمّ الاسباب التي دعت عبد الرحمن الى التفكير في الهجرة الى المغرب او الى الأندلس .

واذا كان لقصّة تنبؤ مسلمة بن عبد الملك بتولّي عبد الرحمن بن معاوية للملك في المستقبل ، بعض التأثير المعنوي في نفسه الذي جعله دائم التفكير في طرق وامكانية تحقيق تلك النبوءة ، فهي لا علاقة لها بتصميمه التوجه الى المغرب . ربما شجعته على المضيّ في طريقه ، على التصميم على بلوغ هدفه ،

---

(١) اخبار مجموعة ص ٢٧ .

(٢) المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٢ .

ولكن الأسباب التي سبق ان اوردناها هي التي دفعته في طريق المغرب والأندلس .

ونرى من المستحسن هنا ان نشيرَ الى قصة تنبؤ مسلمة بتولي عبد الرحمن ابن معاوية ذات يوم للسلطة ، وخلاصتها كما يرويها هذا الأخير :

« كان ابي قد هلك في زمن جدي رحمه الله وكنت صبياً اذ هلك ، فأقبل بي وبأخوتي الى الرصافة الى جدي ، ومسلمة بن عبد الملك لم يمت بعد . فنحن وقوف ببابه على دوابنا ، اذ سأل مسلمة عنّا ، فقيل أيتام معاوية ، فاغرورقت عيناه بالدمع ثم دعا بنا الاثنين فالاثنين فاقبل يدعو بنا حتى قدمتُ اليه فأخذني وقبّلني ثم قال للقيّم : هاته ، فانزلني عن دابتي وجعلني عن امامه وجعل يقبّلني ويبكي بكاءً شديداً فلم يدعُ بعدي من كان أصغر من اخوتي وشغل بي فلم يفارقني . فانا امامه على سرجه حتى خرج جدّي . فلما رآه قال ما هذا يا أبا سعيد . فقال : بُنيّ لابي المغيرة رحمه الله ، ثم دنا من جدّي فقال له : تدانى الأمر . هو هذا . قال : اي والله ! قد عرفت العلامات والإمارات بوجهه وعنقه . قال : ثم دعى القيّم فدفعت اليه وانا ابن عشر سنين يومئذٍ او نحوها ، فكان جدي رحمه الله يؤثرني ويتعاهدني بالصلة . وكنّا بكورةً قنّسرين بيننا وبينه مسيرة يوم حتى مات ومات مسلمة ابو سعيد قبله لسنتين فكانت تلك في نفسي مع اشياء كانت تذكر »[1] .

واما ما يذكره بعض المؤرّخين من ان عبد الرحمن توجه الى المغرب والأندلس لما كان في نفسه من امرها ومن الأثر المرويّ عنه فيها[2] وان بني أمية كانوا يسمعون في الرواية انّ مستراحهم بالمغرب[3] وكلاماً مثل هذا ... فانه لا يعدو التخمين والتنبؤ اللذين لا يمكن الأخذ بهما مع العلم بانّ التواريخ

(١) اخبار مجموعة ص ٢٧ ، ٢٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٦١ .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٦٠ .
(٣) اخبار مجموعة ص ٢٧ .

التي ذكرت ذلك ، انما ذكرته في أوقات متأخرة وبعد ان كان الصفحات الاولى من تاريخ العرب في الأندلس قد خطّتها فعلاً الجيوش العربية الفاتحة في تلك الأصقاع .

على ايّ حال نعود الآن الى قصّة فرار عبد الرحمن بن معاوية فنقول بانه بينما كان جالساً ذات يوم في ظلمة بيتٍ في تلك القرية الواقعة على الفرات وذلك بسبب رمدٍ المّ بعينيه آنذاك ، وابنه سليمان بكر ولديه يلعب أمام المنزل ، اذا بهذا الطفل يدخل المنزل مرتاعاً باكياً ويلجأ الى حجر ابيه للاحتماء به . وحاول عبد الرحمن دفع ولده عن حجره خوفاً عليه من العدوى بالرمد ، بيد ان الطفل كان يأبى الا ان يظلّ متعلّقاً بأبيه وقد بدت على وجهه علامات الدهشة وجعل يتلفظ بكلماتٍ تدلّ على الفزع .

فخرج عبدالرحمن يستطلع الخبر « فاذا بالروع قد نزل بالقرية، واذا بالرايات السود عليها منحطّة[1] » واذا بأخٍ صغيرٍ له اسمه « يحيي » يعيش معه قد أطلق ساقيه للريح وهويطلب اليه ان ينجوَ بنفسه من قوّات العباسيين .

ودخل عبد الرحمن المنزل مسرعاً لكي يأخذ بعضَ المال الذي كان لديه يستعين به على قضاء حاجاته ، ثم انطلق مع أخيه يحيى بعد ان أعلم أخواته بالطريق التي ينوي السيرَ فيها وطلب اليهن ان يرسلن مولاه بدراً في أثره .

وكمن عبد الرحمن في موضعٍ ناءٍ عن القرية فلما أقبلت خيل العباسيين الى منزله للتفتيش عنه لم تجد أثراً له ، مما سمح له ان يمضي في طريقه مع يحيى حتى وصل الى شاطىء الفرات واتصل برجلٍ يعرفه طالباً اليه ان يبتاعَ له بعضَ الأشياء اللازمة لسفره الطويل ... بيد انّ عبداً لذلك الرجل عرف عبد الرحمن فأبلغ ممثل الدولة العباسية عن مكانه ، فأسرعت قوة منهم لاعتقاله فلجأ الى الفرار بصحبة أخيه .

ووصل الشابّان الى النهر فرميا بنفسهما فيه في الوقت الذي وصلت اليه

---

(١) اخبار مجموعة ص ٢٨ ، المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٢٦ — ٢٧ .

خيل العباسيين فأخذ الجند ينادونهما ويطلبون اليهما العودة ولهما الأمان . بيد ان عبد الرحمن الذي كان متمكناً من السباحة تابع اجتيازه للنهر في الوقت الذي قصّر أخوه وتعب ومال الى تصديق أمان الجند ، فأخذ طريق العودة الى الشاطىء الذي سبح منه .

وشاهد عبد الرحمن ذلك وقلبه يتفتّت لأنه كان يعلم أنّ الجند لن يفوا بوعدهم بالأمان ونادى أخاه طالباً اليه الا ينخدعَ بقولهم وان يتابع السباحة « أقبل يا حبيبي اليّ » ولكن المسافة التي كانت تفصله عنه ، حالت على ما يبدو دون سماع الأخ لنداء اخيه فعاد بعد ان كان قد سبح اكثر من نصف المسافة .

وكان بعض الجند قد تجرّد من ثيابه يريد اللحاق بهما ؛ الا انّ الآخرين ثنوهم عن مطلبهم لابتعاد عبد الرحمن . اما أخوه الصغير فقد عاد اليهم سابحاً فأخرجوه وضربوا عنقه أمام عيني أخيه ومضوا برأسه وهو ابن ثلاث عشرة سنة « فاحتملتُ فيه ثكلاً ملأني مخافة ، ومضيتُ الى وجهي أحسبُ أني طائر وانا ساعٍ على قدميّ »(1) .

واختبأ عبد الرحمن في بستانٍ كثيف الشجر حتى تأكد بانّ السعي في اثره قد انقطع ، فخرج وتابع طريقه .

عبد الرحمن في بلاد المغرب :

سار عبد الرحمن نحو الجنوب فوصل فلسطين ولا بد انه اخترق مصر ايضاً في طريقه نحو برقة . وكان قد أدركه في سيره ، على الأرجح في فلسطين ، بدر مولاه وسالم ابو الشجاع مولى أخته أم الأصبغ ، شقيقته من أمّه ، ومع المولَيين بعض المال وشيء من الجوهر يستعين بها على النفقة والوصول .

ويدلّنا صمت الروايات التاريخية عن ايراد تفاصيل اجتياز عبد الرحمن

---

(1) المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٢٧ .

مع مولييه ، المسافة الفاصلة بين الشام والمغرب ، يدلّنا ذلك على انه لم تقع معهم خلال ذلك حوادث ذات شأن ، حتى اذا وصلوا الى برقة ، أقاموا فيها بعض الوقت يدبرون شؤونهم .

فيما يتعلّق باقامة عبد الرحمن وتنقّلاته في بلدان المغرب تبتعد الروايات العربية عن الموضوع ، فلا نرى واحدة منها تواكب الأمويّ الطموح في تنقلاته منذ البداية حتى النهاية ، بل نرى كلّ واحدة منها تورد شذرات وانباء متقطعة عن تلك التنقّلات فيذكر بعضها انه اقام مدةً من الزمن في برقة [1] بينما يذكر بعضُها الآخر انه اقام بين أخواله من بني نفزة من برابرة طرابلس [2] وتذكر فئة ثالثة انه اقام في القيروان عاصمة افريقية [3] بينما تقول رابعة ان امر عبد الرحمن قد آل بعد برقة الى ان استجار ببني رستم ملوك تاهرت من المغرب الأوسط وتقلّب في قبائل البربر الى ان استقرّ على البحر عند قوم من زناتة [4] .

ونحن اذا نسّقنا هذه الأقوال لأمكننا ان نخرجَ منها بنتيجة مفيدة ، اذ انّ هذه الروايات قد قدّمت لنا كلّ منها في الواقع جزءاً من خطّ سير عبد الرحمن .

---

(١) ذكر عبد الحكم ان اقامته ببرقة كانت لخمس سنوات وهذا مبالغ فيه حتماً اذ أن تنقلاته كلها من بدايتها حتى نهايتها لم تستغرق سوى اربع سنوات ونيف اي منذ خروجه من الشام في عام ١٣٤ هـ حتى استيلائه على الأندلس في عام ١٣٨ هـ . اما ابن عذاري فقد قال : « انه بقي مستتراً في برقة مدة » دون ان يحددها (البيان المغرب ج ٢ ص ٦٠) .

(٢) ذكر ذلك ابن خلدون في العبر ج ٤ ص ١٢١ . مع ان ذلك لا يتفق مع التحديد الجغرافي لمكان اقامة قبائل بني نفزة . فقد حدد صاحب اخبار مجموعة مكانهم عند « سبره » على البحر (ص ٢٩) وحدد ذلك المكان ايضاً المؤرخ الفرنسي ليفي بروفنسال قائلا : ان برابرة نفزة يقيمون قرب الشواطىء المراكشية المطلة على البحر الأبيض المتوسط وقرب مدينة الناقور بالفرات .

Levi-Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane TIV p. 64.

(٣) اخبار مجموعة ص ٢٩ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٦١ .

(٤) المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٢٨ .

وهكذا يكون قد وصل الى برقة فاقام فيها بعض الزمن اذ انّ مروره بها طبيعي وهو قادم من مصر . ثم توجّه منها الى طرابلس ومنها الى القيروان عاصمة افريقية (تونس الحالية) متابعاً سيره الى المغرب الأقصى حيث أنهى ترحاله .

اما خطّ سيره في هذه المرحلة الأخيرة اي بين تونس والمغرب الأقصى ، فقد حدّده لنا ايضاً مؤرّخان آخران هما صاحب اخبار مجموعة وابن خلدون فقال الأول : « ان عبد الرحمن خرج هو وعامة أصحابه من افريقية فافترقوا في بلاد البربر ، فسار ابن معاوية الى موضع يقال له « بارَى » فنزل في قبيلة يقال لها « مكناسة » فناله عندهم تضييق يطول ذكره ، ثم خرج من عندهم حتى بلغ البحر فنزل بـ « سَبْرَة » فكان في نفزة وهم أخواله ، اذ كانت امه نفزية » [1]

وقال ابن خلدون : « بعد خروج عبد الرحمن من افريقية ، لحق بمغيلة [2] ويقال بمكناسة ويقال نزل على قومٍ من زناته فأحسنوا قبوله واطمأن فيهم ثم لحق بمليلة [3] .

وهكذا بحصولنا على هذين النصّين لمؤرّخين موثوقين ، يكتمل عندنا خطّ سير عبد الرحمن وتنقّلاته عبر بلدان المغرب الى ان وصل أخيراً الى شاطىء المتوسط المقابل للأندلس ، فمكث هناك وأخذ يعدّ خططه لعبور المضيق في الوقت المناسب .

---

(١) اخبار مجموعة ص ٢٩ . وقد شاركه في جزء من هذه المعلومات ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٦١ .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢١ .

(٣) ذكر المقري بصدد هذا الموضوع ان عبد الرحمن صار في تلك القبائل عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس ويكنى ابا قرة ، فاستتر عنده وقتاً ، وان زوجة هذا الزعيم البربري واسمها « تكفات » قد خبأته تحت ثيابها عندما فتش رسل ابن حبيب بيتها بحثاً عنه ، فلم ينس لها هذا الصنيع فيما بعد ، حين لجأت اليه مع زوجها بعد ان ملك الأندلس (نفح الطيب جـ ١ ص ٣١٢ - ٣١٣) .

ولكن قبل ان ننتقل الى الموضوع التالي . علينا ان نذكر ما هي الأسباب التي دعت عبد الرحمن الى مغادرة إفريقية مع أصحابه بسرعة والى تفرّقهم في بلدان المغرب !

لم تكن اقامة عبد الرحمن في إفريقية خالية من الصعوبات ، فقد كان الحاكم على افريقية آنذاك هو عبد الرحمن بن حبيب الفهري . وكان هذا الرجل يُعد على ما يبدو لانفصاله عن مركز الخلافة واستقلاله بما كان بين يديه من بلدان المغرب .

فلما حصل اضطهاد الأمويين وبدأوا ينثالون عليه من كلّ مكان لم يقع ذلك من نفسه موقعاً حسناً خوفاً على سلطته فعمل على ملاحقتهم وقطع دابرهم «صار ابن حبيب يقتل الواصلين اليه من بني أمية ، ويأخذ اموالهم[1] .. » وقد قتل في هذا السبيل ولدين للوليد ابن يزيد بن عبد الملك كانا قد استجارا به ، واخذ مالاً كان مع اسماعيل بن ابان بن عبد العزيز بن مروان ، وتزوّج من اخته دون رضاه الى غير ذلك من الاجراءات التي اتخذها ضدّ الأمويين اللاجئين اليه . فلما بلغه خبر وجود عبد الرحمن بن معاوية في افريقية واخبر بطموح ذلك الأمويّ الفارّ ، سعى للقبض عليه والتخلّص منه ، بيد ان هذا علم بواسطة بعض أصدقائه ، بنيّة ابن حبيب حياله ، فتحايل للهرب مع جماعته وتمكن من ذلك فعلاً ، فكانت تنقلاته حسبما بيّنا ذلك منذ قليل .

وقد دفعت نجاة عبد الرحمن بن معاوية من براثن والي افريقية عبد الرحمن ابن حبيب ، دفعت المؤرّخين العرب الى ايجـــاد قصّة اليهودي الذي كان يعرف بالحدثان ويعيش في كنف ابن حبيب .

وهذه القصة البعيدة عن الواقع مؤدّاها انّ ذلك اليهودي كان يقول لابن حبيب انه سيغلب على الأندلس رجل من ابناء الملوك يقال له عبد الرحمن له ضفيرتان ... فاتخذ عبد الرحمن بسبب ذلك ضفيرتين تيمّناً بان يكون

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٦١ .

هو الذي سيكتب له الاستيلاء على الاندلس .

فلما ظهر عبد الرحمن في المغرب ورآه اليهودي ورأى ضفيرتيه عرف انه هو وأخبر ابن حبيب بذلك . فقال هذا : سأقتله . وأجابه اليهودي : اذا تمكنت من قتله فلن يكون هو ، واذا تمكن من التخلّص منك فسيصل الى هدفه . فكان ما أوردنا ذكره من نجاح عبد الرحمن في الابتعاد عن افريقيا وواليها عبد الرحمن بن حبيب .

عبد الرحمن بن معاوية يمهد لنفسه في الأندلس :

عندما استقرّ عبد الرحمن عند قوم من زناتة يسكنون الساحل قرب مضيق جبل طارق ، أخذ يجهّز مولاه بدراً الذي كان قد فرّ معه من الشام ، لإرساله الى الاندلس كي يستطلع له أخبارها ويتصل بأهلها ويعرف موقفهم منه في حال عبوره اليها .

وكان عبد الرحمن بن معاوية يعتمد بطبيعة الحال على بني أمية في الأندلس ومواليهم وشيعتهم وكانت رئاستهم آنذاك الى شخصين هما ابو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ، يتناوبان الرئاسة فيما بينهما .

وقد عبر بدر المضيق الفاصل بين المغرب والأندلس وسار حتى اجتمع بابي عثمان فدفع اليه كتاب عبد الرحمن وفيه يذكره بأفضال أسلافه من بني أمية ، ويعرّفه مكانته منهم واعتقاده باحقيته في السلطة لأن جدّه هو هشام ابن عبد الملك وهو حقيق بوراثته ، ويسأله ان يقوم بأمره وان يتصل بمن يرى فائدة الاتصال به من موالي الأمويين وغيرهم ، ثم يمهّد لدخوله الأندلس ... ويعده بمكافأته على ذلك وإعلاء منزلته مقابل هذه الخدمات التي يطلبها منه ، ويلحّ عليه في ان يكون حذراً في اتصالاته ،أميناً ممن يعرض عليهم الأمر ، كما يوصيه بان يعتمد على اليمانيين الحانقين على المضريين لما بين الحيّين من الثارات ...

قرأ ابو عثمان الكتاب عندما كان يهمّ بالسير نحو سرقسطة لمساعدة

حاكمها الصميل الذي كان محاصراً فيها كما رأينا ، من قبل عامر العبدي والحُباب بن رواحة الزهري. وكان ابو عثمان قد يجهّز مع عدد آخر من رؤساء القبائل لنجدة الصميل نظراً لتقاعس يوسف الفهري آنذاك عن مساعدته . فلما اطلع على الكتاب المذكور تشاور بموضوعه مع صهره عبد الله بن خالد ثم مع يوسف بن بخت[1] وكان من قادة جند قنّسرين ، فأجمع رأيهم على نصرة عبد الرحمن بن معاوية على ان يعرضوا الأمر على الصميل لتأكدهم من انّ هذا لن يشيَ بامرهم لما عرف عنه من المروءة والأنفة .

يذكر في هذا الصدد ان ابا عثمان قال لعبد الله بن خالد المتقدّم الذكر : « لو كنّا ذاكرنا الصميل خبر بدرٍ وما جاء به لنختبرَ ما عنده في موافقتنا وان نحن فعلنا لم نأمن من ان تدركه الغيرة على سلطان يوسف لما هو عليه من شرف القدر وجلالة المنزلة فيتوقّع سقط رئاسته فلا يساعدنا » ، قال ابو عثمان : « فنمسح اذا على أمره ، ونذكر انه قصد لإرادة الإيواء والأمان وطلب أخماس جدّه هشام لدينا ليتعيّشَ بها ، لا يريد غير ذلك[2] .

وقد اتفق الاثنان ويوسف بن بخت على ذلك فلما وصلوا مع غيرهم من رؤساء القبائل الذين هبوا لنجدة الصميل الى سرقسطة ، وتمكنوا من تخليصه من الحصار الذي كان مضروباً حوله وعادوا به مع أمواله وحشمه ، اختلوا به في الطريق فكلّمه الثلاثة في موضوع عبد الرحمن ومولاه بدر الذي قدم من افريقية بكتابه ، بل انهم أدخلوا اليه بدراً فأعطاه عشرة دنانير وشقة خزّ وطلب اليهم بعد ذلك ان يتركوا له بعض الوقت كي ينظرَ في الأمر ويفكرَ في الموقف الذي سيتخذه منه .

ثم سار الصميل بعد ذلك وجميع من معه حتى بلغوا قرطبة فانصرف الامويون الى منازلهم ومعهم بدر وظلّ القوم بعضَ الوقت في قرطبة الى ان

---

(١) اخبار مجموعة ص ٣٥ .

(٢) المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٢٩ .

عزم يوسف الفهري على الخروج الى الثغر فبعث ـ كما سبق ان ذكرنا حين تحدثنا عن سير يوسف في تلك الحملة ـ في طلب ابي عثمان وعبد الله بن خالد واعطاهما الف دينار ليوزّعاها بين مواليه فوزّعاها بين بني أميـة ومواليهم ... فلما رحل يوسف ومن معه وفرغ ابو عثمان وعبد الله بن خالد من وداعه توجّها للاجتماع بالصميل والاستفسار عن رأيه في شأن عبد الرحمن بن معاوية ، فألفياه راقداً وقد تناول بعضَ الخمرة اذ كان من عادته ان يفعلَ ذلك كلّ ليلة قبل النوم فدخلا اليه وظلاّ بقربه حتى تحرّك فكلّماه وسألاه عن رأيه فأجابهم بانه لم يكن قد أغفل ذلك وانه قد فكر في الأمر دون ان يفاتحَ فيه أحداً حرصاً على ما وعدهم به من كتمان امرهم وانه قرّر ان يرحبَ بمقدم عبدالرحمن وان ينضمّ اليه وطلب اليهم ان يكتبوا اليه يشجعونه على العبور .

هذا وقد لاحظ الثلاثة الذين يفاوضونه انه لم يكن راضياً كلّ الرضى عن يوسف الفهري لتخلّيه عنه خلال حصاره في سرقسطة . وقد كان مما قاله لهم الصميل أيضاً : « اذا حضر عبد الرحمن فاننا سنسأل يوسف ان ينزله في جواره وان يحسنَ له ويزوّجه ابنته ، فان فعل والا ضربنا صلعته بأسيافنا وصرفنا الأمر عنه اليه » [1] . فشكراه وانصرفا متوجهين الى مكان سكنهما بالبيره . وكانا قد تحدّث في ذلك مع عدد من وجوه الجند الموثوقين فوافقوهما على الانضمام الى قضية عبد الرحمن كما انهما ارسلا بعضَ ثقاتهما الى مختلف المقاطعات الأندلسية ، فجرى ذكر عبد الرحمن على كلّ لسان .

وتذكر الروايات على لسان ابي عثمان بعد ذلك انه لما انصرف عن قرطبة مع صهره عبد الله بن خالد وسارا نحو ساعة من الزمن بعيدين عنهما ، اذا بهما يسمعان صائحاً وراءهما ينادي : ابا عثمان . فالتفت هذا اليه فاذا به

---

(١) اخبار مجموعة ص ٣٨ ، المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٢٩ .

يرى احد وصفاء الصميل يلحق به وبصاحبه على فرس له فوقف له الاثنان ريثما يلحق بهما فقال لهما : « يقول ابو جوشن أقيما حتى آتيكما » . قال أبو عثمان « فأعظمنا إتيانه بنفسه اذ كان من المفروض فينا ان نذهبَ اليه وخفنا من ذلك الأمر ... » وما هي الا برهة قصيرة حتى أقبل الصميل وحده على حصانه الأبيض فزال عن الرجلين بعض خوفهما لأنه لو كان ينوي بهما شرّاً لأقبل مع عددٍ من أعوانه . ولما اقترب الصميل منهما قال لهما : « اني منذ اتيتموني برسولِ ابن معاوية وكتابه لم أزل في إدارة ، فاستحسنتُ ما دعوتُما اليه ثم كان منّي اليكما ما كان ، فلما فارقتكما روّيتُ فيه فوجدتُه من قومٍ لو بال احدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وانتم في بوله ... وهذا رجل قد حكمنا عليه مع ما لَهُ في أعناقنا ، والله لو بلغتما بيوتكما ثم رأيتُ هذا لظننتُ الا أقصّرَ حتى أرجعَ اليكما لئلا أغرّكما وأنا أعلمكما ان اول سيفٍ يسلّ عليه سيفي ، فبارك الله لكما في رأيكما ومولاكما »[1] .

فقال ابو عثمان « أصلحك الله ما لنا رأي الا رأيك » وانصرفا بعد ذلك نحو البيره وبعد ان اخذا منه وعداً بان يساعدَ عبد الرحمن بن معاوية اذا كان يريد جاهاً او مالاً ، وان يسعى لدى يوسف ليزوجه ابنته دون ان يساعده في الوصول الى الولاية .

وقد يئس الأمويان من امكانية الاعتماد على مضر وربيعة بعد مصارحة الصميل لهما بعدم انضمامه الى صفّهما وصفّ عبد الرحمن فقرّرا الاعتماد على اليمانية . ولم يفاتحا أحداً من اليمانية ذا شأن الا ورأيا لديه استعداداً تامّاً لتأييدهما في مشروعهما « لم نمرّ بيمانيّ له بال وثقنا به الا وعرضنا عليه امر ابن معاوية ودعوناه اليه فألفينا قوماً قد وغرت صدورهم يتمنون شيئاً يجدون به سبيلاً الى طلب ثأرهم »[2] .

---

(١) اخبار مجموعة ص ٣٨ – ٣٩ ، المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ٢٩ – ٣٠ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٦٤ .

(١) المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٠ ، اخبار مجموعة ص ٣٩ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٦٥ .

وابتاع بعد ذلك أصحاب عبد الرحمن من أمويي الأندلس مركباً وجّهوا فيه بدراً مولاه مع احد عشر رجلاً منهم شاكر غلام هشام وتمام بن علقمة الثقفي الذي زوّد بخمسمائة ديناراً للنفقات الضرورية.

وكان عبد الرحمن قد وجه خاتمه الى مواليه . فكتبوا تحت خاتمه الى من يرجون نصرتهم في طلب الأمر . فعمل هؤلاء على بثّ الأمر في مختلف الجهات وإعداد الناس لاستقبال الأموي الفاتح .

عندما وصل المركب المقلّ لأصحاب عبد الرحمن الى الشاطىء الافريقي كان هذا مقيماً عند ابي قرّة المغيلي ، منتظراً لعودة مولاه بدر ، وكان يقوم بصلاة المغرب عندما رسا القارب على الشاطىء فخرج منه بدر مسرعاً مبشّراً لعبد الرحمن بما تمّ له في الأندلس وما خلف فيه ابا عثمان وعبد الله بن خالد وغيرهما من رجال الاندلس من الاجتماع عليه والرضي به ، فاستبشر ابن معاوية خاصةً وان تمام بن علقمة كان قد خرج من المركب ووصل اليه فسأله عبد الرحمن عن اسمه فقال له : تمام . فسأله عن كنيته فأجابه : أبو غالب . فقال عبد الرحمن : « الله اكبر ! الآن تمّ أمرنا وغلبنا بحول الله » . وادنى منزلة ابي غالب واستحجبه فظلّ يشغل ذلك المنصب طيلة حياة عبد الرحمن .

ورأى عبد الرحمن بناءً على المعلومات التي تلقّاها من رجاله انّ الأمرَ معدّ لنزوله في الأندلس وان عليه ان ينتهزّ الفرصةَ دون إبطاء فدخل المركب وأمر أصحابه بالدخول معه ، فلما فعلوا ذلك أقبل عدد من سكان المنطقة يسعون وراء الفائدة المادّية ففرّق عليهم تمام بعضَ المال الذي كان معه حتى أخذ الجميع عدا واحدٍ تمسّك بالمركب وتعلّق بحبلٍ كانت مربوطةً فيه . فضرب شاكر يده بالسيف واضطره الى إفلات المركب ثم سار الجميع مخترقين عباب البحر نحو الشاطىء الأندلسي .

أعانتهم الريح في عبورهم وسرعان ما رأوا أنفسهم على ساحل البيرة

في جهة المنكب (Almuñecar) وذلك في ربيع الآخر عام ١٣٨ ﻫ (٧٥٦ م) فأقبل إليه نقيباه عبد الله ابن خالد وابو عثمان فنقلاه الى قرية طُرُش (Torrox) حيث يسكن ابو الحجاج يوسف بن بخت فانثالت عليه الأموية وجاءه جدّاد[1] بن عمرو المذحجي من اهل رِيّة Reyyo فكان بعد ذلك قاضيه في العسكر ، وجاءه عاصم بن مسلم الثقفي وابو عبده حسّان بن مالك الكتبي من اشبيلية فاستوزره ، ثم جاء ابو بكر بن الطفيل والكثيرون غيرهم فقوي أمره وأصبح طريق النصر ممهّداً امامه .

اما يوسف الفهري فقد كان حين نزول عبد الرحمن الأندلس ، عائداً من غزوته للثغر وقد وصل الى وادي الرملة Guadarrama —كما سبق ان ذكرنا— وأقدم على قتل عامر العبدري وابنه وهب والحباب بن رواحة الزهري ، فلم ينقض ذلك اليوم حتى أتاه رسول يخبره بهزيمة الجيش الذي أرسله بقيادة سليمان بن شهاب لغزو جلّيقية ثم أتاه رسول آخر قد أوفده ابنه عبد الرحمن بن يوسف من قرطبة ليعلمه بخبر نزول عبد الرحمن بن معاوية في ساحل المنكّب .

وقد اجتمع يوسف الى الرسول فوراً وعرف منه الأخبار التي أراد نقلها اليه ، فانتشر الخبر حالاً بين الجند وشمت الكثيرون بمولاهم يوسف الفهري لإقدامه على قتل عامر وابنه والحباب دونما سبب يدعو الى ذلك ، حتى انّ المؤرّخين يذكرون ان يوسف استدعى الصميل في تلك المناسبة وقال له : « اني أخاف ان يكونَ الله قد أنزل النقمةَ علينا بقتل هؤلاء[2] » ، فهوّن عليه الصميل ثم تشاور الرجلان فيما يجب عمله فكان رأي الصميل ان يسيرَ يوسف فوراً بمن معه الى عبد الرحمن فيقاتله قبل ان يستفحلَ أمره ...

---

(١) هكذا ذكر صاحب اخبار مجموعة الاسم في ص ٤٠ ، بينما ذكره المقري في نفح الطيب ج ٤ ص ٣١ « جدران » .

(٢) أخبار مجموعة ص ٤١ .

الا انّ يوسف تعلّل بان الكثيرين قد انفضّوا عنه لدى سماعهم نبأ نزول عبد الرحمن وانه يفضّل المسير الى قرطبة للاستعداد من جديد ومن ثمّ السير الى لقاء القادم الأموي الطامع في ملك الأندلس.

والحقيقة ان يوسف الفهري كان لا يزال يأمل في ان يعدلَ عبد الرحمن ابن معاوية عن رأيه في آخر لحظة فيقرّر العودة من حيث اتى اذا لم تساعده الظروف كما يشاء او يقرّر القبول ببعض المال ومصاهرته فيهدأ ويعيش في ظلّه .

وقد حاول يوسف من جهته ان يقنعَ عبد الرحمن بذلك ، وكانت محاولته تلك بايعاز من الصميل ايضاً على ما يظهر ، ذلك الرجل الذي كان هو الرأس المفكر والعقل المدبّر في زمن حكم الفهري . فقد قال له الصميل : « ان عبد الرحمن قريب عهدٍ بزوال نعمة . فهو يغتنم ما تدعوه اليه ، ثم انت بعد ذلك تحكم فيه وفي الذين سعوا اليه (١) » . ثم نصحه بعد ذلك ان يزوجَه ابنته ويسكنه في ايّ الجندين أراد : دمشق (إلبيرة) او الاردن (ريّه) ، او يسكن بينهما ويصير إليه أمر المقاطعتين وان يبعثَ اليه بكسوةٍ ومال .

وقد اقتنع يوسف بذلك كلّه وبعث الى عبد الرحمن وفداً يرأسه كاتبه ومولاه خالد بن يزيد ويضمّ عبيد بن علي وعيسى بن عبد الرحمن الأموي ، وكان هذا الأخير يومئذٍ على ارزاق الجند وحشم يوسف ، لعرض الأمر عليه ، وبعث معهم بكسوةٍ وفرسين وبغلين ووصيفين والف دينار ، (٢) وكتب اليه يذكر اصطناع آبائه لجدّ يوسف وهو عقبة بن نافع ولأهله ، ويدعوه الى مصاهرته والتوسعة عليه ...

وقد وصلت الينا بعض نصوص ذلك الكتاب الذي وجهه يوسف الفهري

---

(١) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب جـ ٢ ص ٦٧ .

(٢) اخبار مجموعة ص ٤٢ ، بينما ذكر ابن عذاري ان الهدية كانت فرساً ومائة دينار وكسوة (البيان المغرب جـ ٢ ص ٦٧) .

الى عبد الرحمن بن معاوية حيث يقول فيه :

« اما بعد ، فقد انتهى الينا نزولك بساحل المنكّب وتأبّش من تأبّش اليك ونزع نحوك من السرّاق واهل الختر والغدر ونقض الايمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا . وبه جلّ وعلا نستعين عليهم . ولقد كانوا معنا في ذرى كنفٍ ورفاهية عيش . حتّى غمصوا ذلك ، واستبدلوا بالأمن خوفاً ، وجنحوا الى النقض ، والله من ورائهم محيط ، فان كنتَ تريدُ المال وسعة الجناب فأنا أولى بك ممن لجأتَ اليه ، اكنفُك وأصل رحمك ، وأنزلك معي ان أردت ، او بحيث تريد .. ثم لك عهد الله وذمته بي ألا أغدرك ، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب افريقية ولا غيره ... [1] »

خرج خالد بن يزيد في الليل مع أصحابه فساروا حتّى بلغوا « إرْش Erco » في ادنى كورة ريّه Reyyo فقال عيسى بن عبد الرحمن لأصحابه انه يعتقد ان يوسف والصميل على خطأ في إرسالهما ذلك الوفد وتلك الهدايا لأنّ عبد الرحمن اذا رفض الفكرة فانه سيستولي على الهدية وسيقوى شأنه بها بينما يضعف شأن صاحبهم يوسف . فأعجب صاحباه بالفكرة واتفقوا جميعاً على ان يتأخر أحدهم وهو صاحب الفكرة ، عن الآخرين في الطريق ويبقي الهدية معه في حين يتابع الشخصان الآخران وهما خالد بن يزيد وعبيد بن علي طريقهما الى عبد الرحمن فان اعطاهما بيعته ورضي بما جاء اليه به أخبرا صاحبهما الثالث فقدم عليهما وقدم الهدية المرسلة اليه ، والا فيعود الى الأمير يوسف الذي هو أحقّ بهديته وماله .

وسار خالد بن يزيد وعبيد بن علي حتّى قدما على ابن معاوية في « طُرُش » Torrox عند ابي عثمان وعنده بعض جماعة بني أمية ورجال من اليمن يتردّدون عليه ويتناوبون المقام عنده منهم دمشقيّون واردنيّون وقنسّريون ، فتكلّم كلّ من الرجلين أمام عبد الرحمن ودعاه كلّ منهما الى الإلفة

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٦٧ — ٦٨ .

والمصاهرة مؤكدين حسن نيّة يوسف تجاهه ، ثم أخرجا الكتاب ودفعاه الى عبد الرحمن وجلسا .

وقد دفع عبد الرحمن الكتاب بدوره الى صاحبه ابي عثمان وقال له : إقرأه وأجب عليه بما تعلم من رأينا . وكان عبد الرحمن يقصد ان يقول انّ العرض الذي تقدم به رسولا يوسف عرضاً حسناً ، بيد انه اي عبد الرحمن ، ما جاء الا طالباً لحقّه ومواريثه ... فلما أخذ ابو عثمان الكتاب ، قال له خالد وقد أخذه الغرور لكونه كان أديباً معروفاً : « لتعرقنّ إبطاك قبل ان تحبّر فيه جواباً » فغضب ابو عثمان وضرب بالكتاب وجه خالد وقال له : « يا ... [1] ، لا يعرق لي فيه إبط ولا أحبّر فيه جواباً » . ثم أمر به فقبض عليه وكبّلت يداه فوراً بالحديد . وقال أصحاب عبد الرحمن له : « هذا أول الفتح ، هذا سلطان يوسف كلّه » [2] . فذكّرهم عبيد بن علي ان خالد ابن يزيد رسول ولا يجوز اعتقاله ، فأجابوه بأنهم يعتبرونه هو الرسول واما خالد فمعتد بدأ بالشتيمة والانتقاص من قدر الحاضرين .

ثم تذكر الرواية ان عبد الرحمن وأصحابه قد تركوا « عبيد » حرّاً وحبسوا خالداً وبلغهم خبر الأموال المخلّفة بإرْش . ونحن لا نعرف كيف علموا ذلك اللهم الا اذا كان بواسطة عبيد بن علي الذي ربما باح لهم بالسرّ . والمهمّ انهم ارسلوا ثلاثين فارساً لمصادرة الهدية فوجدوا الخبر قد وصل الى عيسى قبلهم ، ففرّ عن المكان .

وكان عبد الرحمن يعاتبه فيما بعد على تصرّفه فيعتذر منه عيسى بالوفاء ، فغفر له ذنبه وعامله معاملة حسنة الا انّ شأنه لم يبلغ ما بلغه شأن موالي عبد الرحمن الآخرين .

هذا وقد عاد عيسى الى يوسف ليخبره بقصة ما حدث فاضطرب يوسف

---

(١) نعتذر عن ذكر بعض كلمات العبارة لبذاءتها ، وقد أوردها صاحب أخبار مجموعة ص ٤٣ .
(٢) أخبار مجموعة ص ٤٣ .

واضطرب معه الصميل الذي أخذ يعتب عليه في عدم مسايرته لرأيه ومهاجمة عبد الرحمن منذ ان وطأت قدماه أرض الأندلس كما كان قد أشار عليه عدد من اصحابه وعلى رأسهم الصميل .

اما عبد الرحمن فقد قرّر ان يستولي على الأمر بالقوة فأخذ يكاتب مختلف الفئات التي يأمل في نصرتها للانضمام اليه في معركته القادمة مع يوسف « فأجابته اليمن بأسرها ولم يجبه من قيس الا جابر بن العلاء بن شهاب وابو بكر بن هلال العبدي والحصين بن الدجن ، هؤلاء الثلاثة فقط لما كان في أنفسهم مما صنع يوسف والصميل بابن شهاب وتطويحهما به ، وكان الصميل قد ضرب العبدي وهلالاً »[1] . اما من ثقيف فلبّى طلبه تمام بن علقمة وعاصم العريان وأخوه عمران بينما انضمّت مضر كلّها الى يوسف الفهري الذي بدا جمعه وكأنه اكثر وأقوى من جمع عبد الرحمن قبل ان تبلغَ الأمورُ مداها بعد، ويحصلَ التحامُ الطرفين .

وبدت المعركة القادمة وكأنّها مرج راهط جديدة ، فعبد الرحمن مؤيّدٌ من قبل اليمانية والأموية ويوسف مؤيَّد من قبل القيسية والمضرية ... وقد وجد من قام آنذاك بهذا التشبيه فعلاً كما سنرى بعد قليل .

ولما كان أصحاب عبد الرحمن يخشون الهزيمة بالأعداد القليلة التي كانت معهم فقد اقترحوا عليه التحرك الى ريّه حيث يوجد جند الأردن ، والى اشبيلية حيث يوجد جند حمص والى كورة شذونة حيث يوجد جند فلسطين ، فيكثر بذلك جمعهم ويضمنون الغلبة .

وقد وافقهم عبد الرحمن على رأيهم وتحرّك ركبه باتجاه البيره ومنها الى كورة ريّه ، حيث يوجد جند الأردن ، فأجابته اليمن وقضاعة كلّها ، ثم سار حتى أتى اطراف شذونة حيث أهل فلسطين ، فسارع اليه عليّة القوم وحماة الجند ، وكان بنو كنانة من أهل فلسطين الساكنين في أطراف شذونة

---

(١) اخبار مجموعة ص ٤٣ .

قد تحرّكوا للانضمام الى يوسف الفهري ، فلم يتعرّض عبد الرحمن لأحدٍ ممن يخصّهم او من عائلاتهم وأولادهم او لما خلفوه وراءهم ، بل اعتبر انّ كلّ انسانٍ يستطيع ان يختار الجهة التي يريد ان يقاتلَ معها .

ثم سار بعد ذلك الى جند اشبيلية فخرج اليه خيارهم من اليمن ، الشاميون منهم والبلديّون . وتلقّاه الناس بالبشر والترحيب وأظهروا قسطاً كبيراً من الانقياد والطاعة .

قال تمام بن علقمة : « دخلنا ريه في ستمائة (٦٠٠) فارس . وخرجنا منها في (٢٠٠٠) فارس . ثم دخلنا اشبيلية بهذا العدد وخرجنا منها بثلاثة آلاف (٣٠٠٠) فارس . فلما اجتمعت لنا الجموع ، وبلغنا ما يريد الفهري من الخروج الينا . كتّب الأمير عبد الرحمن الكتائب ، وعبّأ الأجناد ، وخرج اليه »[1] ...

وسار كلّ من الرجلين نحو صاحبه وقد عقد يوسف الفهري ألويته ، بينما لم يكن لدى عبد الرحمن لواء يعقده ، ولذا فان رئيس عرب اشبيلية ابو الصباح بن يحيى اليحصبي الذي كان يرافق عبد الرحمن اقترح عقدَ لواءٍ له ، عندما وصلوا الى قريه « قُلُنْبَيْرَه » من اقليم طُشّانه Toxana التابع لاشبيلية ، فجيء بقناة وعمامة ليعقدوها عليه ، فكرهوا كما تذكر الرواية ان يميلوا القناة ليعقدوا اللواء عليها تشاؤماً من ذلك ، فأقاموها بين شجرتي زيتون متجاورتين ، وصعد رجل الى احداهما فعقد اللواء والقناة قائمة .

وقد ردّد هذه الرواية اكثر من مؤرّخ ، كما ردّدوا انّ رجلاً عالماً بالحدثان اسمه « فرقد » كان قد مرّ بذلك الموضع فنظر الى الزيتونتين فقال : سيعقد بين هاتين الزيتونتين لواء لأمير لا يثور عليه لواء الا كسره . فكان ذلك اللواء يعتدّ به هو وولده من بعده[2] .

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٦٩ .

(٢) المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٢ ، اخبار مجموعة ص ٤٤ ، ابن عذاري جـ ٢ ص ٦٩ . =

ونحن اذ نورد هذه الأخبار فليس ذلك لقبولنا بها ، اذ انّ التنبؤ ومعرفة الغيب امر مرفوض أصلاً ولكن لكي نرى كيف ان المؤرّخين العرب فيما بعد قد حاولوا التمهيد لنصر عبد الرحمن في موقعة « المسارّة » بعدد من التفاصيل والحوادث الخيالية التي ربما كان لها دلائل نفسية ومعنوية ، نظراً للأهمية التي انطوت عليها نتائج معركة المسارة والتي أدّت الى تأسيس الدولة الأموية التي حكمت الأندلس ما يقرب من ثلاثة قرون .

تابع عبد الرحمن سيره نحو قرطبة ، بينما اقتصر يوسف على الخروج من المدينة دون ان يتوجه بعيداً في اتجاه عبد الرحمن ، لأن شيئاً من الخوف ، كان يساوره في الواقع من ذلك الأموي الداخل الذي استطاع ان يؤلّبَ الناس عليه وان يهدّده في عقر داره .

هذا عدا عن ان احوال يوسف الفهري لم تكن آنذاك على ما يُرام من بضعة نواحٍ . فعدا عن انه كان قد استجلب بتصرّفاته عداء الكثيرين له كما مرّ معنا ، وعدا عن انّ الكثيرين كانوا قد انفضّوا من حوله ، فانّ المجاعة كانت قد انتشرت في انحاء الأندلس ستة اعوامٍ متتالية ، فتركت معظمَ أهل الأندلس خائرين ضعفاء ، حتى انّ الجند الذين كانوا يسيرون الى القتال لم يكونوا يجدون لطعامهم غير الفول الأخضر الذي نبت آنذاك لأنّ الفصلَ كان ربيعاً والشهر ايّار (مايس) من عام ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) .

ومن المؤكد انّ جند عبد الرحمن لم يكونوا من الناحية الغذائية أفضل من جند يوسف بل على العكس من ذلك ، فان جند العاصمة يجدون دوماً ما يأكلونه اكثر من غيرهم خاصةً وان بيت المال في يد يوسف ، بيد ان عوامل كثيرة ستلعب دورها في المعركة القادمة : مدى تصميم كلّ من القائدين

= وزاد صاحب اخبار مجموعة على تنبؤ فرقد هذا تنبؤاً آخر عن المعارك التي ستحصل بين عبد الرحمن ابن معاوية ومحمد ابي الأسود ابن يوسف الفهري ... وذلك عند مرورهم بمدينة قسطلونة بكورة جيان ... فكان كما قال !

على القتال ، الاهتمام الجدّي بالمعركة والتحضير لها ، نتائج المبارزة الّتي حصلت قبل القتال ، اللامبالاة النسبيّة من قبل يوسف والتحفز من قبل عبد الرحمن الخ .. كلّ هذه العوامل سيكون لها اثرها الفعّال في تقرير نتيجة المعركة .

المعروف ان اللقاء قد حصل في موضع قريب من قرطبة يعرف بالمسارّة Sagrajas وهذا لا خلاف عليه غير ان بعض المؤرخين وعلى رأسهم صاحب أخبار مجموعة يقدم عدداً من التفاصيل عن الأيام القليلة الّتي سبقت المعركة فيقول بانّ يوسف الفهري قد نزل « بمدوّر صدف » ثم رحل بعد ذلك عنه حتى التقى بعبد الرحمن بن معاوية عند طشانه الواقعة على نهر الوادي الكبير ، ذلك النهر الذي حال بين الفريقين وذلك في الاول من ذي الحجّة عام ١٣٨ ﻫ (٧٥٥ م) . فتنـــاوش الطرفان بالسهام وغيرها والنهر بينهما لا سبيـــل الى اجتيازه لكثرة مائه الذي ما لبث ان زاد فتوقف الطرفان عن المناوشة انتظاراً لنقصانه .

ثم خطر لعبد الرحمن خاطر حاول ان يضعه موضع التنفيذ على الفور وهو ان يسارعَ الى قرطبة فيحتلّها في حين يبقى يوسف في مكانه على شاطىء النهر لا يشعر بما حدث ، خاصةً وانّ عدداً من اتباع عبد الرحمن شجعه على ذلك وقال له بانّ عدداً كبيراً من الأمويين يعيشون في قرطبة وهم لا بدّ سينصرونه حين وصوله .

وتحرّك عبد الرحمن في الليل نحو قرطبة الّتي كان يفصله عنها حوالي خمسة واربعين ميلاً ولكنه لم يسر اكثر من ميل واحد حتى علم يوسف بالخبر من بعض جواسيسه ، فأراد ان يسبقَ عبد الرحمن الى قرطبة وصار الاثنان « كفرسي رهان والنهر بينهما » [1] الى ان رأى عبد الرحمن عقم محاولته فتوقف عن الإسراع نحو العاصمة وعسكر عند المساره[2] وهو الموضع

(١) اخبار مجموعة ص ٤٥ .

(٢) كتبها ابن عذاري « المصارة » (البيان المغرب ج ٢ ص٦٩) وذكرها المقري «الصارة» (نفح =

الذي ستحصل فيه المعركة التي سميت فيما بعد باسم المكان الذي حصلت فيه ، كما عسكر يوسف في الجهة المقابلة له [1] .

وتميل بعض الروايات إلى القول بأن يوسف هو الذي اختـــار المكان أولاً وعسكر فيه وتبعه في ذلك عبد الرحمن . ونحن لا نرى أهمية لذلك أيٌّ من الطرفين كان البادىء طالما أن الاتفاق على المكان هو أمر حاصلٌ فعلا .

هذا وتتفق ايضاً الروايات على انّ الفريقين قد عسكرا في المسارة يوم الاثنين السادس من ذي الحجّة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) فأقاما هناك ثلاثة ايام متناظرين [2] والنهر يحجز بينهما الى ان جاء يوم الخميس التاسع من الشهر ذاته ، فانحسر ماء النهر وأصبح عبوره ممكناً . « وكان اليوم يوم عرفة » [3] فقال عبد الرحمن لأصحابه : « انا لم نجيء للمقام وقد دعانا هذا الرجل الى ما علمتم وعرض ما سمعتم ، ورأيي لرأيكم تبع ، فان كان عندكم صبر وجلد وحبّ للمكافحة فأعلموني ، وان يكن فيكم جنوح الى السلم والصلح فأعلموني » [4] فأجمع أصحابه على الحرب فبدأ يعدّ نهائياً للمعركة وبدأ بتنظيم قواته وتعيين القادة على الألوية ، فعرف منهم :

عبد الرحمن بن نعيم الكلبي	على	خيل اهل الشام
بلوهة اللخمي (من اهل فلسطين)	على	رجالة اليمن (المشاة)

= الطيب جـ ٤ ص ٣٢) بينما الاسم بالاسبانية هو Sagrajas. وقد قال عنها المقري انها صحراء غربي قرطبة (نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٢) .

(١) ذكر المقري في هذا الصدد « ان يوسف سار من قرطبة واقبل ابن معاوية على بر اشبيلية والنهر بينهما ، فلما رأى يوسف تصميم عبد الرحمن الى قرطبة رجع مع النهر محاذياً له ، فتسايرا والنهر حاجز بينهما ، الى ان حل يوسف بصحراء الصاره غربي قرطبة ، وعبد الرحمن في مقابلته وتراسلا في الصلح ... » . (نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٣) .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٦٩ .

(٣) اخبار مجموعة ص ٤٥ .

(٤) اخبار مجموعة ص ٤٥ — ٤٦ .

عاصم العريان [1]	على	رجالة بني امية ومن معهم من البربر
حبيب بن عبد الملك القرشي	على	خيل بني أمية
ابراهيم بن شجرة الأودي	على	خيل البربر
ابو عثمان عبيد الله بن عثمان		حامل اللواء

بينما كان بعض من يقابلهم في جيش يوسف الفهري :

عبيد بن علي	على	خيل اهل الشام ومضر
كنانة بن كنانة الكناني	على	قسم من الرجالة (المشاة)
جوشن بن الصميل	على	قسم آخر من الرجالة
عبد الله بن يوسف الفهري	على	كتيبةٍ من حماة الرجال
خالد سودى (غلامه)	على	خيل الغلمان والصنائع

ركب عبد الرحمن بن معاوية فرساً أشقر وحمل بيده القوس ثم حفّ به بنو أمية وأصدر أمره بعبور النهر في ذلك اليوم المذكور اي الخميس ٩ ذو الحجة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) فعبروا معه دون ان يتعرّض يوسف الفهري لعبورهم حتى اذا تمّ لهم ذلك أرسل يوسف رسله اليهم يفاوضونهم في الصلح من جديد وكأنه لم يفقد أمله بعد في إمكان الوصول الى تسوية . ويظهر ان جماعة بني أمية أنفسهم كان لا يزال يخامرهم تفكير ولو بسيط في إمكانية عقد الصلح ، فاجتمعوا برسل يوسف الفهري ففاوضوهم وكاد الصلح ان ينعقدَ بين الطرفين .

ويظهر ان رسل يوسف قد نقلوا اليه انباء المفاوضات بشيءٍ من التفاؤل اذ انه ما لبث ان أمر على اثر ذلك بذبح الذبائح وإعداد الطعام لكي يكفي الجيشين معاً بعد ان يعقدَ الصلح بينهما .

هذا وقد أورد عدد من الروايات ان مفاوضات الصلح هذه قد تمت قبل عبور جيش عبد الرحمن النهر الى الضفّة الأخرى مستبعدين ان يتمّ

(١) سمي يومئذ بالعريان لأنه تجرد وقاتل حتى النصر .

العبور دون ان تتعرّض قواتُ يوسف الفهري للقوّات المعادية . ونحن اذا ذكرنا الرواية بشكلها السابق فلأنّها لا تغيّر شيئاً من الحقائق الأساسية خاصةً وانها يمكن ان تكونَ مستقيمة الى أبعد حدّ نظراً لأنّ يوسف لم يكن يريد ان يقاتل وكان يأمل في عقد الصلح حتى آخر لحظة فليس من المستبعد ان يأمرَ قواته بعدم مهاجمة عبد الرحمن وأصحابه حين اقدم هؤلاء على اجتياز النهر .

اقام الفريقان بقية يومهما في هدوء وسكون [١] والرسل تروح وتغدو بين المعسكرين وهم يرجون إمكان عقد الصلح بينهما دون ان يمكن التوصل الى نتيجةٍ نهائية . فلما أصبح يوم الجمعة وقطع كل أمل في الوصول الى الصلح ، زحف كلّ من الفريقين في اتجاه الآخر ، فالتقى الجمعان واقتتلا قتالاً شديداً حتى ارتفعت الشمس وأصبحت في وسط السماء فجدّ الفريقان في القتال يحاول كلّ منهما حسمَ الموقف قبل غياب الشمس .

ويذكر في هذه المناسبة ان عبد الرحمن بن معاوية قال : « اليوم يوم جمعة ، والمتزاحفان أموي وفهري ، والجندان قيس ويمن ، وقد تتقابل الأشكال جداً ، وارجو انه اخو يوم مرج راهط ، فأبشروا وجدّوا » [٢] .

بينما ذكر مؤرخون آخرون ان هذا الكلام صدر عن العلاء بن جابر العقيلي موجّهاً اياه للصميل بن حاتم اذ قال له : « يا ابا جوش ، اتقِ الله ؛ فوالله ما أشبّه هذا اليوم الا بيوم المرج ، وان عاره لباقٍ علينا الى اليوم ، فانّ الأمور يُهتدى لها بالأقران والأمثال : أموي وفهري ، وقيس ويمن ، وهذا يوم عيد ويوم جمعة ؛ ويوم المرج يوم عيد في يوم جمعه ! والامر والله علينا لا شكّ في ذلك »[٣] .

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٦٩ .

(٢) المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٥٢ ، ابن الأبار : الحلة السيراء ج ٢ ص ٣٤٨ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٦٩ – ٧٠ ، المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٥٣ ، ابن الابار : الحلة السيراء ج ٢ ص ٣٤٩ .

ونحن نرجّح هذه الرواية الثانية ، اي ان يكونَ قائلها غير عبد الرحمن لتمسّك صاحب البيان المغرب بها علاوةً على المؤرّخين الآخرين واضافته جملة في النهاية هي « فاتقِ الله واغتنم بنا الأمر لنكونَ فيه اعزاء لا أتباعاً » ولأنّ بعض المؤرّخين اوردوا بوضوح إجابة الصميل للعلاء بن جابر العقيلي على كلامه اذ قال له : « كبرتَ وكبر علمك . الآن تنجلي الغماء ... ثم انثنى ابو عطاء (العلاء) لوجهه منقلباً ، وانهزم الصميل ... »[1]

على ايّ حال لم يأبه الصميل بما قاله له وتابعت المعركة سيرها في ذلك اليوم الحاسم في تاريخ الاندلس وتاريخ الاسرة الاموية في الغرب الإسلامي .

هذا ومن الأحداث التي تروى ابان تلك المعركة انه لما استمرّ القتال واشتد الامر ، وكان عبد الرحمن يركب آنذاك جواداً حسناً وقد حفّ به مواليه ، قال بعض أصحابه من اليمنيين للبعض الآخر : « غلام حدث فما يؤمننا ان يطير (يفرّ) على هذا الحصان فنهلك »[2] فبلغه ذلك فنادى زعيمهم ابا صباح اليحصبي وكان له بغل أشهب يسميه الكوكب . فقال له : « ان فرسي هذا قلق تحتي ، لا يمكنني من الرمي ، فقدّم اليّ بغلك أركبه » ففهم ابو صباح واستحيا وحاول ان يثبت عبد الرحمن على حصانه ، غير ان هذا ابى الا ان يركب البغل فقدمه له .

وحمي وطيس المعركة بعدها وشدّ حبيب بن عبد الملك القرشي بخيله على خيل ميمنة يوسف والقلب فهزمها وفرّ خالد سودى ومن معه ، ثم شدّ حبيب وابن نعيم بعد ذلك بخيل اهل الشام على القلب فقتل كنانة بن كنانة وعبد الله بن يوسف وجوشن بن الصميل فأوشكت المعركة ان تنتهي لصالح عبد الرحمن بن معاوية لولا ان ثبت عبيد بن علي في ميسرة يوسف ومعه جماعة قيس فتابعوا القتال ردحاً من الزمن الى ان تمت هزيمتهم بدورهم

(١) المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٥٣ .

(٢) اخبار مجموعة ص ٤٦ ، المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٥٢ .

فقتل عبيد بن علي وعدد من وجوه قيس وألوف ممن معهم وتمّ بذلك النصر لعبد الرحمن بن معاوية .

وذكر ان ابا الصباح رئيس اليمانية قال لجماعته عند هزيمة يوسف : « يا معشر يمن ، هل لكم الى فتحين في يوم ؟ قد فرغنا من يوسف والصميل ، فلنقتل هذا الفتى المقدامة ابن معاوية ، فيصير الأمر لنا نقدم رجلاً منا ونحمل عنه المضرية » [1] . فلم يجبه أحد لذلك، وبلغ الخبر عبد الرحمن فأسّرها في نفسه ، الى ان اغتاله بعد عام .

هذا ما يقوله المقري عن هذا الحادث . اما صاحب أخبار مجموعة فيذكر مزيداً من التفاصيل ويقول ان محاولة التآمر تلك قد وقعت بعد ان دخل عبد الرحمن بن معاوية قرطبة واحتلّ قصر الإمارة فيها ومنع الناس عن نهب محتوياته وانتهاك حرمات يوسف الفهري ، فغضب اليمانيون وفكروا في التدبير عليه .

يقول بالنصّ : « لما دخل ابن معاوية القصر ... وجد الناس قد سبقوه الى عيال يوسف فسلبوا وانتهبوا ... فلما جاء ، طردَ الناسَ وكسى من عري منهم وردّ ما قدر على ردّه ، فغضبت اليمانية ، وساءهم اذ حجر عيال يوسف مما كانوا ارادوه من فضيحتهم ، وقالوا : عصب ... وقال بعضهم لبعض : ويحكم قد فرغنا من اعدائنا مضر وهذا ومواليه منهم ، فلنضع ايدينا عليهم فيصير لنا فتحان في يومٍ واحد . فكره كاره ورضي راضٍ وأصفقت قضاعة على الكراهة . واتى ثعلبة بن عبد ... الجذامي وهو يومئذٍ من وجوه أهل فلسطين من جذام الا انه لم يكن يومئذٍ من قوّادهم اذ كان فيهم رجال فوقه فانتصح ابنَ معاوية وأعلمه بما تشاور فيه القوم من قتله وقتل مواليه ، وزعم انه فيمن كره ذلك . وأخبره بإباية قضاعة وقال له : احترس وضمّ اليك مواليك . وقال لـه : ان اشدّ النـاس قولاً في

(1) المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٣٣ .

ذلك كان ابا الصبّاح ... فولّى عبد الرحمن آنذاك شرطته عبد الرحمن بن نعيم ، وضمّ مواليه فجعلهم أحراسه ، وانضمّ اليه بنو أمية بقرطبة ، وكان بها منهم بيوتات لها وفر وثروة ... »(١)

هذا وقد كان الداخل الأموي قد أوكل خلال المعركة بأسيره خالد بن يزيد الذي كان قد أتاه رسولاً موفداً من قبل يوسف فألقي القبض عليه ، كان قد أوكل به رجلين من بني أمية وأوصاهما بان يقتلاه اذا دارت الدائرة عليهم والا فيبقيان على حياته . فيذكر ان خالداً هذا كان لا يستقرّ على دعاءٍ يتوجه به الى ربه اذ لو دعاه الى نصرة عبد الرحمن كان في ذلك هلاك صاحبه وربما هلاكه بعده ولو دعاه الى نصرة صاحبه يوسف لكان موته محتّماً ... حتى انجلت المعركة وأبقي فيما بعد على حياته وظلّ في السجن الى ان اصطلح مع عبد الرحمن وعادت المياه بينهما الى مجاريها .

اما يوسف والصميل فقد فرّ الأول بنتيجة المعركة الى جهة ماردة(٢) او كما ذكر البعض الى جهة البيرة وفرّ الثاني الى كورة جيّان (٣) في حين ان عبد الرحمن بن معاوية دخل قرطبة وتوجه من توّه الى قصر الامارة فاعترض طريقه احد قادة يوسف وهو عبد الأعلى بن عوسجة وحاول أن يمنعه من دخول القصر ، فهزمه عبد الرحمن بسرعة ، فولى وجهه منهزماً الى سفح جبل قرطبة . واستولى عبد الرحمن يومه ذلك على الإمارة وتمت له بيعة العامة في قرطبة .

---

(١) اخبار مجموعة ص ٤٧ — ٤٨ .

(٢) المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٣ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٠ .

الفصل الثاني

حكم الأمير عبد الرحمن بن معاوية

١٣٨ – ١٧٢ هـ (٧٥٥ – ٧٨٨ م)

كان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم يكنّى بأبي مطرف؛ وكانت أمه بربرية من سبي المغرب تسمّى «راح» وكان نقش خاتمه: «بالله يثق عبد الرحمن، وبه يعتصم».

وولد عام ١١٣ هـ (٧٣١ م) في قرية تدعى «ديرحنّا» من أعمال قنّسرين في بلاد الشام وقيل بل انّ مولده كان «بالعليا» من تدمر، والرأي الأول هو الأرجح. وقد مات أبوه في أيام جدّه هشام سنة ١١٨ هـ (٧٣٦ م) ولم يكن عمره (الأب) يبلغ واحداً وعشرين عاماً، فكفله مع إخوته جدّهم هشام الذي وهب لعبد الرحمن هذا – كما تذكر الرواية التاريخية وكما سبق ان المعنا الى ذلك – وهب له جميع الأخماس التي اجتمعت للخلفاء بالأندلس، وأقطعه إيّاها، ووجّه لحيازتها من الشام سعيد بن أبي ليلى[1].

لقد بويع عبد الرحمن بالإمارة في يوم الأضحى من عام ١٣٨ هـ وكانت

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٣١٢.

سنّة آنذاك خمس وعشرون عاماً ، وتوفي في عام ١٧٢ هـ فكانت مدة خلافته بذلك ثلاثة وثلاثين عاماً ونيّف ، أسّس خلالها الدولة الأموية في الأندلس واضطلع بشؤون الحكم أحسن اطلاع .

يصفه المؤرّخون فيقولون عنه بانه كان طويل القامة ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، له ضفيرتان ، أصهب ، أعور ، أخشم[١] .

كما يصفون خلاله المعنوية بقولهم : « كان عبد الرحمن راجح الحلم ، فاسح العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئاً عن العجز ، سريع النهضة ، متصل الحركة ، لا يخلد الى راحة ، ولا يسكن الى دعة ، ولا يكل الأمور الى غيره ، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه ، شجاعاً ، مقداماً ، بعيد الفور ، شديد الحدة ، قليل الطمأنينة ، بليغاً ، مفوّهاً ، شاعراً ، محسناً ، سمحاً ، سخيّاً ، طلق اللسان »[٢] هذا وسنعرض الى تحليل شخصيته في حينه .

اعتمد عبد الرحمن بن معاوية في حكمه بصورة خاصّة على الرجال الذين رافقوه وأيّدوه وساندوه وأوصلوه الى السلطة ، فعيّنهم للمناصب الهامة في الحجابة والوزارة والكتابة والقضاء ...

فكان اول حجابه مولاه تمام بن علقمة الذي عاش عمراً طويلاً . ثم خلفه في ذلك المنصب يوسف بن بخت الفارسي مولى عبد الملك بن مروان ، وله بقرطبة ذرية معروفة . ثم عبد الكريم بن مهران من ولد الحارث بن ابي شمّر الغسّاني ، ثم عبد الرحمن[٣] بن مغيث بن الحارث ابن حويرث بن جبلة بن الأيهم الغسّاني ، فأبوه مغيث فاتح قرطبة ، ثم فتاه منصور الذي رافقه في النهاية حتى وفاته .

اما فيما يتعلّق بالوزارة فان عبد الرحمن لم يطلق في الواقع لقبَ وزيرٍ

(١) المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٣١١ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٧٢ .
(٢) المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٣٦ .
(٣) ذكر ابن عذاري انه « عبد الحميد » والرواية الاولى هي الأصح (البيان المغرب ج ٢ ص ٧٢) .

على أحدٍ من أعوانه ولو انّ المشايخ الذين كانوا يؤازرونه ويتشاور معهم كانوا يقومون بأعباء الوزارة . وكان اولهم ابو عثمان عبيد الله بن عثمان ثم عبد الله بن خالد وابو عبدة حسّان بن مالك زعيم اشبيلية ، وشهيد بن عيسى ابن شهيد[1] ، وعبد السلام بن بسيل الرومي ، وثعلبة بن عبيد بن النظام الجذامي صاحب سرقسطة ، وعاصم بن مسلم الثقفي من كبار شيعته واول من خاض النهر وهو عريان يوم الوقعة بقرطبة فعرف بعدها « بالعريان » .

ومن حيث الكتابة فقد كان اول من كتب له عند خلوص الأمر لــه واحتلاله قرطبة كبير نقبائه ابو عثمان وصاحبه عبد الله بن خالد ، ثم لزم كتابته أمية بن يزيد مولى معاوية بن مروان وكان في عديد من يشاوره ايضاً ويفضل أمره وآراءه ، وكان يكتب قبله ليوسف الفهري .

اما القضاء فقد ألفى الداخل عند وصوله الى الأندلس يحيى بن يزيد اليحصبي وهو يقوم بمهمة القضاء فأقرّه حيناً ثم ولّى بعده ابا عمرو معاوية ابن صالح ثم عبد الرحمن بن طريف ثم عمر بن شراحبيل ثم الصعب بن عمران . وكان جدّار بن عمرو يعمل كقاضٍ متنقّلٍ بين معسكرات الجند .

هذا ويقدم لنا ابن حيّان وصفاً عاماً لأعمال الأمير عبد الرحمن بن معاوية بعد دخوله الأندلس واستيلائه على الحكم فيقول : « لما ألفى الداخل الأندلس ثغراً قاصياً غُفْلاً من حلية الملك ، عاطلاً ، أرهف أهلها بالطاعة السلطانية ، وحنّكهم بالسيرة الملوكية ، وأخذهم بالآداب ، فأكسبهم عما قليل المروءة ، وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدوّن الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وجنّد الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آلته ، وأخذ للسلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحذروا جانبه ، وتحاموا حوزته ، ولم يلبث ان دانت له بلاد الأندلس ،

---

(١) ذكر ابن عذاري اسماً آخر عوضاً عن هذا هو « يوسف بن بخت » الذي عمل حاجباً ايضاً . (البيان المغرب ج ٢ ص ٧٢) .

واستقلّ له الأمر فيها »[1] .

كما يصف ابن خلدون اهمّ أعمال عبد الرحمن بقوله : « استقام له الأمر ، واستقرّ بقرطبة ، وبنى القصر والمسجد الجامع ، أنفق فيه ثمانين الف ديناراً ومات قبل تمامه . وبنى مساجد ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق وكان يدعو للمنصور ثم قطعها لما تمّ له الملك بالأندلس ومهّد أمرها وخلّد لبني مروان السلطان بها ، وجدّد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها ، واستلم الثوار في نواحيها ، وقطع دعوة العبّاسيين من منابرها ، وسدّ المذاهب منهم دونها وهلك سنة اثنتين وسبعين ومائة »[2] .

والواقع ان هذا الوصف يلخص بشكلٍ جيد أهمّ أعمال عبد الرحمن ابن معاوية والأحداث التي حدثت في عهده والتي سنتحدث عنها نحن فيما بعد بالتفصيل ونعني بها قضاءه على الثورات التي قامت في عهده وعلى الأخطار الخارجية التي هدّدت دولته أكان ذلك من جانب العبّاسيين ام من جانب الفرنجة ، وتبنّيه لأهل بيته وطريقة معاملته اياهم ، وأهمّ الأعمال العمرانية التي قام بها طيلة حكمه الذي دام حوالي ثلث قرن .

لقد عُرف عبد الرحمن بن معاوية باسم عبد الرحمن الأول لأنه اول امير ٍ امويٍ حكم الأندلس بهذا الاسم . وعرف باسم عبد الرحمن الداخل لأنه اول من دخل من ملوك بني مروان الى الأندلس ، ولأنّ دخوله كان بقوةٍ وهيبة وعظمة ... وعرف باسم « صقر قريش » لأنّ ابا جعفر المنصور لقّبه بذلك على ما يذكر عندما رأى انه فعل ما فعل بالأندلس ، وما ركب فيها من الأخطار ، وانه توجه اليها من أبعد ديار المشرق من غير أتباع ولا أنصار ، فغلب أهلها على أمرهم ، واخذ الملك من أيديهم بقوة شكيمةٍ ومضاءِ عزم حتى انقاد له الأمر وجرى على اختباره وأورثه عقبه .

---

(١) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣١٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢١ — ١٢٢ .

هذا وسنورد فيما بعد وعند كلامنا عن شخصية عبد الرحمن بن معاوية ، سنورد بالدقة أقوال الخليفة ابي جعفر المنصور المتعلّقة بعبد الرحمن بن معاوية وبتسميته « صقر قريش » كما سنذكر رأي المنصور فيه ، ذلك الرأي الذي تناقلته الروايات التاريخية نظراً لصدوره عن رجل كالمنصور كان يضمر العداء لابن معاوية ويحاول القضاء عليه بكلّ الوسائل .

هذا ولم يشأ عبد الرحمن بن معاوية ان يتلقّب بالخلافة أبداً بل اكتفى بلقب الإمارة هو وبنوه من بعده الى ان اتى عبد الرحمن الثالث المعروف بالناصر فتلقّب بالخلافة ، لأسباب سنوردها في حينها .

واما امتناع عبد الرحمن الأول عن التلقّب بالخلافة ، على الرغم من السلطان الذي حازه والقوة التي كان يتمتع بها ، فيعود حسب رأي العالم الاجتماعي والمؤرخ ابن خلدون « الى تأدّبه في حقّ الخلافة بمقرّ الإسلام ومنتدى العرب » (١) كما يعود « الى القصور عن ملك الحجاز ، أصل العرب والملّة ، والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية .. » (٢)

ونحن نعتقد ان امتناع عبد الرحمن بن معاوية عن اتخاذ لقب الخلافة كان من قبيل مداراة الظروف التي تحيط به ؛ لأنه كان يخشى إغضاب الناس بإقدامه على تلك الخطوة ، كما كان يخشى الدخول في منازعات عنيفة لا تنتهي مع الدولة العبّاسية الناشئة التي كانت لا تزال في أول حكمها آنذاك ، ويصعب عليها قبول وجود خلافة أخرى في مكان آخر من العالم الإسلامي آنذاك .

القضاء على بقايا الفهريين :

وجد عبد الرحمن بن معاوية انّ من أوائل الأمور التي يجب عليه القيام

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٢ .
(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ١٩٠ .

بها ، القضاء على بقايا الفهريين بعد هزيمتهم في معركة المسارة وفرار يوسف الفهري نحو الشمال .

وكان يوسف حين سار للقاء الداخل الأموي قد طلب الى ابنه عبد الرحمن ان يلحقه بخيل الثغر(١) في خمسمائة فارس ، فحدث انّ الهزيمة تمت قبل وصول عبد الرحمن بن يوسف وفرّ أبوه متجهاً نحو طليطلة فالتقى بابنه وبالفرسان الذين يرافقونه في طريقه فانضمّوا اليه وتوجّهوا نحو طليطلة حيث أخذ يوسف يحشد أهلها ويستعدّ لدخول معركةٍ جديدة ضدّ عبد الرحمن الداخل(٢) .

اما الصميل بن حاتم فكان قد هرب هو ايضاً بدوره واخذ يجمع أنصاره من المضربين ثم ما لبثوا ان انضمّوا الى يوسف وجنده فقوي بذلك شأنهم وأصبحوا يشكّلون من جديد خطراً على سلطة عبد الرحمن بن معاوية . وتحرّك الفهري والصميل ومن معهما الى جيّان فحشدا فيها من أراد الانضمام اليهما ثم توجها الى البيرة وكان عبد الرحمن بن معاوية قد عيّن عليها او على كورة غرناطة بصورةٍ عامة (التي يسمّيها المؤرّخون العرب : دمشق) جابر بن العلاء بن شهاب الذي ما لبث ان غادر البيرة حين سمع بقدوم يوسف والصميل اليها ولجأ الى بعض جبالها واجتمع على اثر ذلك أهل البيرة وخاصة القيسيّون منهم حول يوسف وأصبح الجميع مستعدّين للسير نحو قرطبة .

لم يكن عبد الرحمن قد أهمل شأن يوسف الفهري وأنصاره بل انّنا ذكرنا انه اعتبر انّ من اول الامور التي يجب عليه عملها هو القضاء على خطرهم المستجدّ . ولذا فانه عندما بلغه نبأ نزولهم في البيرة ، حشد الناس ثم تحرّك نحوهم تاركاً أبا عثمان في بعض القوّات من يمانية قرطبة وبني أمية فيها للمحافظة على المدينة .

---

(١) الثغور هي المدن الواقعة على الحدود مع العدو .

(٢) اخبار مجموعة ص ٤٨ .

وعلم يوسف الفهري بخبر مسيرة عبد الرحمن نحوه فأمر ابنه ابا زيد عبد الرحمن بن يوسف ان يتوجهَ الى قرطبة بعد خروج عبد الرحمن منها وان يضعَ يده عليها. وتمّ ذلك فعلاً لعبد الرحمن بن يوسف إذ أغار على قرطبة وتمكن من دخولها وحصر أبا عثمان في صومعة المسجد الجامع الموجود في القصر، ثم ما لبث ان انزله منها وكبّله وانطلق به مع جاريتين لعبد الرحمن كان قد تركهما في قرطبة [1].

بيد ان اصحاب عبد الرحمن بن يوسف عابوا عليه صنيعه ذاك بالنسبة للجواري وقالوا له: «صنعتَ ما لم تُسبق اليه. فقد ظفر عبد الرحمن باخواتك وامهاتك فستر عورتهن وكسا عريهن وظفرتَ بخادمتين فأخذتهما! ..» فظهر لعبد الرحمن بن يوسف سوء رأيه وأمر بخباءٍ في قلعة «تُدمين» بجوفي قرطبة على بعد ميلٍ من المدينة أنزل فيه الجاريتين وما كان معه من متاعهن ومضى يتابع طريقه يجرّ وراءه ابا عثمان حتى وصل الى ابيه في البيره.

كان عبد الرحمن بن معاوية قد وصل ايضاً الى قرية من قرى إلبيره يقال لها «أرملة» فتراسل مع يوسف والصميل وحذّرهما من مغبّة حركتهما التي ستؤدي بهما الى الهلاك. ويبدو انّ الرجلين، حيال ما شاهداه من قوة عبد الرحمن وتصميمه على القتال، قبلا ان يتخليا له عن الأمر، ويتركا له شؤون السلطان بشروطٍ كان أهمها تأمينهما في أموالهما حيث كانت، ومنازلهما، وان يسمحَ لهما بسكنى قرطبة، وان يؤمّن كذلك جميع أصحابهما [2].

فوافق عبد الرحمن على شروط يوسف والصميل ولكنه فرض عليهما هو بدوره شروطاً أهمّها: ان يتردّدَ يوسف الفهري يومياً على عبد الرحمن

---

(١) اخبار مجموعة ص ٤٩. ويذكر ان عبد الرحمن أهديت له جاريتان واشترى ثالثة تركهن في قرطبة حين خروجه لقتال يوسف الفهري، فلما دخل ابنه عبد الرحمن اصاب جاريتي معاوية بينما هربت الثالثة وكانت حاملا فأعانها بعض الناس في محنتها وأخفوها لديهم.

(٢) المقري: نفح الطيب ج ٤ ص ٣٤، أخبار مجموعة ص ٤٩.

ابن معاوية في قصره ليثبتَ حضوره وليتأكدَ الأمير من ان يوسف لم يخلع عصا الطاعة ، كما طلب اليه ان يودعَ لديه ابنيه عبد الرحمن ابا زيد ومحمداً أبا الأسود رهينةً لديه ريثما تهدأ الأمور فيفرج عنهما .

ولم يعترض يوسف على ذلك وكلّ ما هنالك انه طلب من ابن معاوية ان يعامل ابنيه معاملة حسنة وانه اذا كان لا بدّ من حجزهما فليكن ذلك في قصره بقرطبة وليس في سجنٍ عاديّ [1] .

وكتب ذلك كلّه في اتفاقية الصلح بين الطرفين واختلط الجيشان بعد ذلك وانضمّ يوسف والصميل الى الداخل وأطلق سراح ابي عثمان الذي أسره ابن الفهري في قرطبة كما أطلق الداخل سراح خالد بن زيد وعاد الجميع معاً في طريقهم الى قرطبة .

وقد سار يوسف عن يمين عبد الرحمن في طريق العودة بينما سار الصميل عن يساره وكان عبد الرحمن حين يتحدث عن مرافقة الرجلين له آنذاك يقول عن الصميل : « لله درّه ! لقد صحبني من إلبيرة الى قرطبة ما مسّت ركبته ركبتي ولا تقدم رأس بغله رأس بغلي ، ولا استفهمني في حديث ، ولا افتتح حديثاً بغير ان اسأله عنه ... » [2] بينما لم يذكر مثل ذلك عن يوسف .

وصل الجميع الى قرطبة فتوجّه عبـــد الرحمن الى القصر ، بينما توجه يوسف الى منزله المعروف « ببلاط الحرّ » لأنه كان قبله ملكاً للحرّ بن عبد الرحمن الثقفي والي الأندلس ، فأخذه يوسف منه شراءً ومصادرةً ، وتوجه الصميل الى منزلٍ كان يملكه في قرطبة .

أمضى يوسف والصميل بعض الزمن في قرطبة يعيشان عيشةً هادئة عادية

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) اخبار مجموعة ص ٤٩ .

ويترددان على عبد الرحمن بن معاوية الذي كان كثيراً ما يناقش أمور الدولة امامهما بل ويأخذ رأيهما فيها [1] .

بيد ان البعض قد غصّوا بالمكانة الجديدة التي تربّع فيها كلٌ من يوسف والصميل ، ذينك الرجلين اللذين كان يعتبرهما اليمانيون زعيمي المضرية غير المنازعين ، وسبب معظم النكبات التي حلّت بهم والمسؤولين عن يوم « شقندة » الذي أزهقت فيه أرواح كثيرة والذي تحدثنا عنه في كتابنا « الفتح وعصر الولاة » .

وقام بعض الناس في قرطبة اما بدسيسة واما بحقٍّ طبيعي فعلاً ، يدّعون حقوقاً لهم في أملاك يوسف الفهري ويطّالبون باعادتها اليهم زاعمين انه اغتصبها منهم ايام ولايته وطالبين الى القضاء انصافهم منه .

ولم يسع الدولة بطبيعة الحال الا ان تقبل الدعوى فأحيل المتخاصمون الى القضاء . وعلى الرغم من انّ القاضي آنذاك كان يزيد بن يحيى المعروف بنزاهته وعدالته ، فان يوسف الفهري لم يتحملّ مراحل تلك المحاكمة التي وجدها طويلةً وثقيلة على نفسه وهو الذي تعوّد ان يأمر لا ان يُؤمَر .

ويظهر ان تألمه قد دفعه الى توجيه بعض النقد الذي سرعان ما حمله عنه أعداؤه وأوصلوه الى ابن معاوية أملاً في إيغار صدره عليه ، فنجحت سعايتهم وأصبح يوسف يشعر خلال إقامته بالمزيد من التوحش والمضايقة .

يقول المقرّي في هذا الصدد : « دُفع يوسف الى الحكام فأعنتوه ، وحُمل عنه في التألم بذلك كلام رفع الى ابن معاوية ، أصاب اعداءُ يوسف به السبيلَ الى السعاية والتخويف منه ، فاشتدّ توحّشه » [2] .

يضاف الى ذلك كلّه انه كانت في قرطبة بيوتات من موالي بني هاشم

---

(١) اخبار مجموعة ص ٥٠ .

(٢) المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٣٤ .

وبني فهر وقبائل قريش وغيرهم ... كانوا قد نالوا مع يوسف رفعةً ومناصب هامة زالت عنهم بنزوله عن الحكم ، فكان هؤلاء يتردّدون عليه ويعتبون عليه قبوله للحالة التي هو فيها ويدفعونه الى استرداد سلطانه(١) .

وأخيراً قرّر يوسف الخروج عن الطاعة فعلاً ، فكاتب الناس وطلب منهم الانضمام اليه حين إعلانه للثورة ، فلم يستجب له في الواقع كثيرون بل انّ قادة الجند كرهوا الرجوع الى الحرب بعد السلم وحتى الصميل وكبار القيسيين نفروا من ذلك ورفضوا ان يخلعوا الذمام . فاضطر يوسف للاتجاه نحو آخرين : نحو أهل البلد او عامة الشعب وخاصته نحو اهل ماردة ولقنت ، اللتين كان قد لجأ اليهما معظم عياله وعدد من انصاره بعد فرارهم من المسارة كما كان بعضهم الآخر قد لجأ الى طليطلة .

وكان يوسف بعد تصالحه مع عبد الرحمن قد أرسل الى بعضهم بالعودة الى قرطبة ، بينما بقي البعض الآخر مقيماً هناك . وترك يوسف آنذاك بعض بناته مع أزواجهنّ فأتته كتب هؤلاء بقبول دعوته وتأييدها ، مما جعله يقرّر الهرب من قرطبة في عام ١٤١ هـ (٧٥٨ م) .

اذن فان فرار يوسف الفهري قد حصل بناءً على تدهور العلاقة بينه وبين عبد الرحمن بن معاوية نظراً لسعي الوشاة بين الرجلين وبناءً على إلحاح أصحابه ودفعهم اياه الى النكث بعهده . يؤيّد ذلك ما يذكره ابن عذاري من انه « اختلف في امر يوسف الفهري ، فقال بعضهم: انه لم ينكث بغياً ، وانما خوفاً ... »(٢)

جعل يوسف وجهته مدينة ماردة ، حيث كان يوجد كما ذكرنا قسم من عياله وعدد من انصاره ، فبدأ الناس يجتمعون حوله .

وعلم عبد الرحمن بنبأ فراره فأمر بالقاء القبض على الصميل بن حاتم وعلى

---

(١) أخبار مجموعة ص ٥٠ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٤ .

ولديّ يوسف الفهري ، عبد الرحمن ومحمد ، واحضارهم جميعاً امامــه فأحضروا . وقد حقّق عبد الرحمن معهم والحّ على الصميل خاصةً في ان يبوحَ له بالمكان الذي توجه اليه يوسف فأجابه الصميل انه لا يعلم شيئاً عن ذلك. فقال له عبد الرحمن: «ما كان ليخرج حتى يعلمك» فتضايق الصميل وأجابه : « لو انه تحت قدمي هذه ما رفعتُها لكَ عنه ، فاصنع ما شئتَ [1] » فأمر عبد الرحمن حينذاك بحبسه وحبس ولدي يوسف معه .

اما يوسف الفهري فقد اجتمع اليه اهل ماردة « عربها وبربرها » ثم سار بعدها الى لقنت Alicante فلم ينضمّ اليه أهلها فسار الى اشبيلية فخرج اليه كثير من سكانها وانخرطوا في صفوفه على الرغم من ولاء واليها الشديد عبد الملك بن عمر المرواني لعبد الرحمن بن معاوية .

كان عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم الذي يعرف بالمرواني قد دخل الأندلس قبل ذلك بسنةٍ واحدة فقط اي عام ١٤٠ هـ (٧٥٧ م) ومعه عشرة رجال من قومه ، مشهورين بالبأس والنجدة ، فنزلوا على عبد الرحمن بن معاوية فأكرمهم وعاملهم أحسنَ معاملة ، وولّى عبد الملك هذا على اشبيلية ، كما ولّى ابنه عبد الله على مورور Moron .

تمكن يوسف الفهري من جمع ما يقرب من عشرين الف جندي بينما كان عبد الرحمن يتمّ استعداداته بقرطبة وينتظر وفود القادة والجند عليه . وعلم يوسف وهو قريب من اشبيلية بان عبد الملك بن عمر المرواني سيكون أحدَ خصومه الى جانب عبد الرحمن ، فقرّر الإسراع الى مجابهته وفرض حصاراً على اشبيلية ، فأسرع عبد الملك الى طلب النجدة من ابنه في مورور ، فغذّ هذا السيرَ في طريقه اليه .

غير ان يوسف استهان بقوة المرواني واعتقد انه لن يكونَ له تأثير كبير ، هو والنفر من الشاميين الذين يؤيّدونه ، ففضّل تركهم وراءه والسير نحو

---

(١) المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٥ .

القوّة الكبرى ، قوة عبد الرحمن بن معاوية للانتهاء منها اولاً والالتفات الى القوة الاخرى بعد ذلك .

وبلغ يوسف الفهري مكاناً يعرف باسم « برج أسامة »[1] فعسكر فيه في الوقت الذي كان عبد الرحمن يتحرّك فيه من قرطبة الى المدوّر للقائه .

وكانت كلّ الدلائل تشير الى ان الصدام الاول سيكون بين جيش عبد الرحمن وقوات يوسف الفهري ، الا ان ما حدث لم يكن كذلك . فان ابن المرواني كان قد وصل الى اشبيلية لنجدة أبيه فأخبره هذا بما حدث وبان يوسف الفهري رفع الحصار عن المدينة بعد ان كان قد وضعه عليها وفضّل التوجه لقتال عبد الرحمن. فأسرع الرجلان ومن معهما للحاق بيوسف الذي كان قد استأنف سيره نحو قوّات عبد الرحمن الداخل. وعلم رجال يوسف بذلك فنبّهوه الى الخطر فاستدار يوسف نحوه خوفاً من ان يصلَ عبد الرحمن في نفس الوقت فينحصرَ بين قوّتين .

ويذكر ان عبد الملك بن عمر وابنه وقوّاتهما قد أرادوا التقاعسَ عن المعركة بعض الوقت لعلّ قوات عبد الرحمن تصل في الوقت المناسب فيُهاجمون يوسف من الجانبين، الا انّ هذا لم يتح له مجال التردّد وفرض عليه المعركة التي بدأت بالمبارزة .

خرج من صفوف يوسف الفهري رجل من موالي الفهريين البرابرة ، عرف بالشجاعة والبأس ودعا الى النزال والمبارزة ، ولما لم يسرع لمبارزته أحد التفت المرواني الى ابنه عبد الله فقال له : « هذا اول الشرّ ، ونحن في قلّة فانزل على عون الله »[2] . فلما اراد النزول اعترضه احد مواليه من الحبشة يعرف بأبي البصري فقال له : « دعك منه فأنا أكفيكه » .

ونزل ابو البصري الى البربري وكان قد تساقط بعض الرذاذ على الأرض

(١) اخبار مجموعة ص ٥١ .
(٢) نفس المصدر السابق .

فتجاولا بعض الوقت وكلاهما جسيم وشجاع حتى حدث ان زلقت رجل البربري فسقط وانتهز ابو البصري الفرصة فضربه بالسيف على رجليه فقطعهما وكبّر جماعة المرواني وحملوا حملة رجل ٍ واحد فلم يبدِ يوسف وجماعته الا مقاومةً بسيطة تفرّقوا على اثرها بعد ان قتل عدد منهم يرجّح انه كان قليلاً نظراً لضآلة عدد الجند المروانيين . اما يوسف نفسه فقد فرّ باتجاه طليطلة.

وعلم عبد الرحمن بن معاوية وهو بالمدوّر بما حدث ثم أتاه عبد الله بن المرواني بروؤس القتلى فحمد الله وأمر بمضاعفة مخصّصات عبد الملك بن عمر ورفع شأنه وشأن ابنه وظلّ يعترف بجميلهما ذلك طيلة مدة إمارته وحتى وفاته .

اما يوسف فقد مضى الى فرّيش ثم الى فحص البلّوط ثم الى طليطلة يريد اللجوء الى واليها هشام بن عروة الفهري . فبينما هو متجه اليها ، بعيد عنها مسافة عشرة أميال مرّ بعبد الله بن عمر الأنصاري وهو بقريةٍ من قرى طليطلة ، فقيل له : « هذا يوسف منهزماً » . فقال لأصحابه: « ويحكم اخرجوا بنا نقتله ونريح الدنيا منه ونريحه من الدنيا ونريح الناس من شرّه ، فقد صار رجلاً ناجشاً للحرب » [1] وخرج في اثره حتى لحقه وليس بينه وبين طليطلة سوى أربعة أميال ولا يرافقه سوى احد مواليه المدعو «سابق الفارسي» ووصيفٍ واحد ، وقد تعبوا من الهرب فقتل عبد الله يوسف الفهري وقتل مولاه سابق ، اما الوصيف فقد هرب وتمكن من دخول طليطلة .

توجه عبد الله بن عمر بعد ذلك الى قرطبة وهو يحمل رأس يوسف الفهري فلما بلغ ابنَ معاوية إقباله عليه ، أمر بضرب عنق عبد الرحمن بن يوسف المكنى بابي زيد ورفع الرأسين كل منهما على قناة فوق جسر قرطبة [2] .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٥٢ .

(٢) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٢ ص ٧٤ ، المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٣٥ ، اخبار مجموعة ص ٥٢ .

بيد ان قَتَلَةَ يوسف الفهري وهم عبد الله بن عمر ومن معه لم ينالوا جزاءً حسناً من عبد الرحمن على فعلتهم هذه اذ يذكر صاحب البيان المغرب بانهم عندما حملوا اليه الرأس قال لهم : « هل عرفتم من هو ؟ » قالوا : « نعم . هو يوسف الفهري » . قال : « انتم لم تحفظوا مولاكم ، فكيف تحفظوني وتنتظمون في طاعتي ! » فأمر بضرب أعناقهم وأمر بأبي الأسود الى السجن(١) .

اذن فان عبد الرحمن الداخل لم يقتل سوى احد ولدي يوسف وهو عبد الرحمن . اما محمد أبو الأسود فاكتفى بسجنه . وقد ذكر بعض المؤرّخين في هذا الصدد انه لم يقتله لانه « استصغره » ومنهم من يقول بانه لم يقتله لانه كان قد فرّ من سجنه .

وبمناسبة الحديث عن فرار محمد بن يوسف الفهري الملقّب بأبي الأسود من سجنه فلا بأس أن نتتبعَ حياة هذا الرجل حتى نهايتها ، ولو انّ تلك النهاية لن تكونَ الا بعد حوالي ثماني عشرة سنةً من فراره .

يذكر انه ادّعى العمى وهو في سجنه بعد ان كان قد قضى بعضَ الزمن في ذلك السجن وتاقت نفسه الى الحرية والى رفع لواء الثورة من جديد .

وقد ظلّ ابو الأسود فترةً من الزمن يدّعي العمى ويحاول ان يكونَ تصرّفه كتصرّف العميان تماماً كي ينطلي ادعاؤه على سجّانه ، فحصل ذلك بالفعل وجازت حيلته عليهم حتى اقترح البعض تخفيف قيوده فخففت وصار عندما يذهب للوضوء او لقضاء الحاجة يهمل الموكّل به مرافقته وينادي ابو الأسود : « من يقود الأعمى الى محبسه ؟ »(٢) فيتبرع احد السجناء بمرافقته أحياناً بينما يضطر للذهاب منفرداً في أحيانٍ أخرى .

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٧٥ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء : ج ٢ ص ٣٥١ .

وكان اهل السجن يومئذٍ ينزلون الى النهر الأعظم [1] القريب منهم للطهور والوضوء . فيسلكون سرداباً خصّص لهم تحت الأرض كان مكانه بملاصقة القصر . بينما يقوم الرقباء بمناظرتهم .

وعندما وجد بان أبا الأسود أعمى لا خطر منه ، أهملت مراقبته اذ اعتقد سجّانه انه لا سبيل له الى الهرب وهو على تلك الحال ، فتحايل مع بعض مواليه في قرطبة ورمى نفسه في النهر ذات يومٍ فعبره سباحةً وامتطى بعد خروجه خليلاً كان قد أعدّها له ثقاتُ أصحابه . فركب معهم وفرّوا بسرعة نحو طليطلة .

هناك أخذ ابو الأسود يدعو لنفسه وللقيام على عبد الرحمن بن معاوية فالتفّ حوله الكثيرون وتمكن ان يسير في جيشٍ جرّار باتجاه قرطبة .

وعلم عبد الرحمن بذلك فاستعدّ وسار اليه فوجد أبا الأسود قد حلّ قرب مدينة جيّان Jaen فاقتتل الطرفان مرة بعد مرة كان ابو الأسود يخرج من كلّ معركةٍ منها وقد اشتدت شكيمته ونقص عدد الجند الذين كانوا مع عبد الرحمن بمقتلهم ، إلى ان حدثت المعركة الفاصلة قرب مدينة «قسطلونة» فمكر خلالها عبد الرحمن بأبي الأسود اذ راسل صاحب ميمنته واتفق معه على خيانة صاحبه وجرّ الهزيمة عليه ، فطبّق هذا الاتفاق فعلاً وانهزم ابو الاسود فقتل عدد كبير من رجاله يقدّر بأربعة آلافٍ سوى من غرق في النهر او وقع في المهاوي ، او تلف في الشعاب .

وقد ذكر الرازي[2] انّ هذه الواقعة قد حدثت يوم الأربعاء اول شهر ربيع الأول عام ١٦٨ هـ (٧٨٤ م) بعد عدة معارك جرت قبلها كما ذكرنا .

اما ابو الأسود نفسه فقد هرب متوجّهاً الى قسطلونة على وادي الأحمر ، ومضى على وجهه الى ناحية الغرب ، فبلغ مدينة قورية وتمادى في ثورته

---

(١) نهر الوادي الكبير Guadalquivir

(٢) الرازي عن ابن الابار : الحلة السيراء ج ٢ ص ٣٥١ .

وخلافه الى ان هلك عام ١٧٠ ﻫ (٧٨٦ م) .

ويظهر انّ عبد الرحمن نفسه قد غزاه في هذا العام المذكور فلما أحسّ به فرّ عن قورية واختبأ في غياضٍ كثيفةٍ بعضَ الوقت ثم توجّه الى بلدة « ركانة Requena » القريبة من « بلنسية Valencia » ، حيث مات فيها .

وقام بعده اخوه القاسم بن يوسف الذي لم تهتمّ المصادر التاريخية بذكره عند الحديث عن ولاية ابيه يوسف الفهري ، نظراً لحداثة سنّه او لضآلة الدور الذي كان يقوم به ، فغزاه عبد الرحمن بن معاوية وتمكن من أسره في مدينة شذونة ثم نقله معه الى قرطبة ، وما لبث ان عفا عنه . وكان آخر المخالفين عليه من آل الفهري .

هكذا كانت نهاية الفهريين على يد عبد الرحمن الداخل . حتّى ان الصميل نفسه لم يسلم بعد مقتل يوسف الفهري اذ أدخل عليه عبد الرحمن آنذاك من خنقه . ودخل عليه مشيخة المضرية في السجن ، فوجدوه ميتاً وبين يديه كأس وطعام كأنّه مات وهو يتناول الشراب . فقالوا : « والله انا لنعلم ابا جوشن انكَ ما شربتَها ولكن سُقيتَها »

الداخل يجابه الحركات الثورية :

بعد ان قضى عبد الرحمن الداخل على بقايا الفهريين في البلاد ، كان عليه ان يلتفتَ نحو الفتن الأخرى التي رفعت رأسها في كلّ مكان كي يوطّدَ أركان دولته وكي يستحقّ عن جدارةٍ لقبَ مؤسّس الدولة الأموية في الأندلس .

وقد جرت العادة لدى المؤرّخين القدماء منهم والمحدثين ان يعمدوا الى معالجة الثورات التي قامت في عهد عبد الرحمن الداخل حسب تسلسلها الزمني . غير اننا رأينا ان نشذّ عن هذه القاعدة لعدة عوامل يأتي على رأسها العدد الضخم لتلك الثورات ، والرغبة في تسهيل البحث ... فلجأنا الى تصنيفها في مجموعاتٍ كان دليلنا اليها الدوافع التي أدّت الى قيامها او ظهورها .

لقد كانت التيّارات السياسية والعقائدية التي تجتاح شبه الجزيرة الأندلسية آنذاك قوية ومتعددة أدّت الى ظهور نوعين من الحركات : اولها نابع من داخل البلاد نفسها دون ان يكونَ له ايّ ارتباط خارج الحدود ، وثانيها كان على صلةٍ بدولٍ خارجية او قوىً اجنبية كانت تشجعه وتدعمه جهد استطاعتها كي تحقّق بواسطته اهدافها .

وهذا النوع الثاني من الحركات يمكن تجزئته في حدّ ذاته الى جزئين : أحدهما كان سياسياً محضاً وثانيهما كان سياسياً عقائدياً .

وهكذا اذن فان الحركات التي ظهرت في عهد عبد الرحمن الداخل يمكن تصنيفها كما يلي :

١ – الحركات الداخلية او المحلية .

٢ – الحركات السياسية ذات الارتباط الخارجي . وسنرى بان ذلك الارتباط كان مع جهتين : العباسيين والفرنجة .

٣ – الحركات السياسية ذات الطابع العقائدي ونعني بها ثورة الفاطمي التي قام بها على أساس الدعوة الشيعية ، غير معترفٍ بشرعية اية من الدولتين الأموية في المغرب او العباسية في المشرق .

ولنبدأ تسهيلاً للبحث بالحديث عن الحركات التي كانت ذات صلة بالخارج ، ونعني بها ثورة العلاء بن مغيث اليحصبي وثورة عبد الرحمن بن حبيب الفهري اللتين قامتا بتشجيعٍ من العباسيين... وثورة الحليفين الحسين ابن يحيى الأنصاري وسليمان بن يقظان الكلبي اللذين اتصلا بقارله «شارلمان» زعيم الفرنجة وطلبا مساعدته ضدّ حكومة قرطبة ، فأدّى ذلك الى محاولة غزوه للأندلس .

الحركات السياسية ذات الارتباط الخارجي

١ : ثورة العلاء بن مغيث اليحصبي :

قامت هذه الثورة بعد بضع سنواتٍ من وصول عبد الرحمن بن معاوية الى سدّة الحكم عام ١٤٦ هـ (٧٦٣ م)، وبعد ان بدا واضحاً ان الدولة التي أسّسها بعيدة كلّ البعد عن الاعتراف بسلطة العباسيين. ويبدو ان الخليفة العباسي ابا جعفر المنصور قد غصّ بقيام تلك الدولة على الشواطىء الغربية للبحر الأبيض المتوسط فعمل على إزالتها.

اتصل العلاء بن مغيث اليحصبي بالخليفة ابي جعفر المنصور فنال منه الدعم المادي والتعليمات المناسبة للقيام بثورته كما انّه تلقّى منه العلم الاسود شعارَ العباسيين لنشره في الأندلس ودعوة الناس للانضمام تحت لوائه.

وأبحر العلاء من شمال افريقية الى الساحل الأندلسي فنزل في مدينة لقنت التابعة لباجه فأخرج العلم ووضعه في رمح ثم دعا الناس الى طاعة أبي جعفر المنصور فالتفّ حوله خلق كثيرون كان على رأسهم جند مصر[1]. كما كان ممن انضمّ اليه واسط بن مغيث وأمية بن قطن الفهري. بيد انّ زعماء العصبية اليمانية كانوا حانقين على هذا الأخير فقبضوا عليه وكبّلوه على الرغم من وجودهم جميعاً في جانبٍ واحدٍ معادٍ لعبد الرحمن الأموي.

ولما شعر العلاء بانّ جمعه قد قوي وانه أصبح يستطيع التحرك نهض الى باجة Beja فأخذها وتغلّب على جميع المقاطعات المجاورة لها الى ان « كادت دولة الأمير ان تنصرم، وخلافته ان تنخرم »[2]. وعلاوةً على ذلك فقد أقبل غياث بن علقمة اللخمي من شذونة لدعم قوات العلاء فلما سمع الأمير عبد الرحمن بخبره بعث اليه بدراً مولاه في عددٍ من الجند، فالتقى بغياث

---

(١) اخبار مجموعة ص ٥٣ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ .

في مكانٍ ضيّق بين وادي إبرُه Ebro والنهر الأعظم (الوادي الكبير) فتراسلا حتى انعقد الصلح بينهما ورجع غياث بن علقمة اللخمي الى بلده دون حرب كما رجع بدر الى الأمير فأخبره بما حدث[1].

اما الأمير عبدالرحمن فقد خرج من قرطبة وتوجّه نحو قرمونة Carmona. ويبدو انّ استعدادات عبد الرحمن لم تكن كبيرةً جداً فتحسّب للمواجهة الصريحة مع العلاء وفضّل ان يحاصر في قرمونة بانتظار وصول العلاء اليها اذ كان يسير في ذلك الاتجاه. وبالفعل ما عتّم هذا ان وصل الى قرمونة وفرض الحصار عليها عدة ايام والمناوشات قائمة بين الطرفين من وراء الأسوار. ورأى انصار العلاء انّ احتلال المدينة ليس بالأمر الميسور فتململوا وحصل شيء من الفوضى بينهم، بل انهم رغبوا في رفع الحصار.

وعلم عبد الرحمن بذلك الظرف فأراد ان يستغلّه فجمع اليه رجاله الذين لم يكن عددهم يزيد على سبعمائة، فأمر بنارٍ فأوقدت ثم أمر بأغمدة سيوف أصحابه فأحرقت وقال لهم: «اخرجوا معي لهذه الجموع، خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع»[2] فأخذوا سيوفهم بايديهم وخرجوا من المدينة وهاجموا محاصريهم بعنف فدارت رحى معركةٍ عنيفةٍ دام اوارها زمناً لم يحدّده المؤرّخون والأرجح الا يكون طويلاً، رجحت كفة الأمير عبد الرحمن بعدها وقتل العلاء بن مغيث مع سبعة آلافٍ[3] من اصحابه وانهزم الباقون.

اما امية بن قطن الفهري فقد وقع في يد عبد الرحمن وهو مكبّل فمنّ عليه بالعفو. وقطعت على اثر المعركة رؤوس العلاء وبعض أنصاره فنظفت

(١) اخبار مجموعة ص ٥٣.
(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ج ٢ ص ٧٧.
(٣) اخبار مجموعة ص ٥٤، ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٢٢، ابن عذاري: البيان المغرب ج ٢ ص ٧٧، المقري: نفح الطيب ج ١ ص ٣١١.

وأرفق بها صكوك باسمائهم وجعلت في أوعية ثم ندب الأمير قوماً توجهوا بها الى القيروان فطرحوها في الأسواق ليلاً وتناقل الناس خبرها حتى وصل مسامع ابي جعفر المنصور فحمد الله على انّ مركز حكمه كان بعيداً عن ابن معاوية ، بينما اكدّ البعض الآخران ابا جعفر لم يسمع بالأمر فقط ، بل ان هنالك بعض الناس حملوا رأس العلاء معهم من القيروان الى مكة اثناء الحجّ فوضعوه في سفطٍ برفقة اللواء الأسود وكتاب المنصور الى العلاء ، وألقوه امام سرادق المنصور ، فلما رآه ارتاع لذلك وقال : « ما هذا الا شيطان ، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر »(١)

٢ ــ ثورة عبد الرحمن بن حبيب الفهري :

اتصل عبد الرحمن بن حبيب هو ايضاً بدوره بالعباسيين لينالَ منهم الدعمَ في ثورته على الدولة الأموية في الأندلس . واذا قبلنا التاريخ الذي تحدّده الروايات لثورة عبد الرحمن بن حبيب اي عام ١٦٣ هـ (٧٧٩ م) يكون اتصاله قد تمّ مع المهدي العباسي (١٥٨ ــ ١٦٩ هـ) خليفة ابي جعفر المنصور . ولم يكن عبد الرحمن بن حبيب هذا هو والي افريقية المعروف بهذا الاسم بل كان رجلاً غيره يحمل نفس الاسم ويعرف « بالصقلبي » نظراً لأنه كان طويلاً أشقر ، ازرق العينين .

انّنا لا نملك مع الأسف اية وثائق او معلومات عن طبيعة الاتفاق الذي عقد بين عبد الرحمن بن حبيب والعباسيين وكلّ ماً نعلمه ان هذا الرجل قد نزل الساحل الاندلسي عند « تُدمير » قبل الجهر بثورته بحوالي سنتين فأظهر الدعوة العباسية ودعا الناس اليه فايّده عدد منهم لم يعرف مقداره كان اكثرهم من البربر(٢) .

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٢ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣١١ ، ابن عذاري البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٨ ، اخبار مجموعة ص ٥٤ .

(٢) ابن خلدون العبر جـ ٤ ص ١٢٣ .

وكان قيام ثورته في نفس الوقت الذي قامت فيه ثورة حسين بن يحيى الأنصاري في سرقسطة وسليمان بن يقظان في برشلونة ، فدعا عبد الرحمن هذا الأخير الى تأييده فلم يجبه حسب بعض الروايات [1] بينما ذكرت اخرى بانه كتب اليه : « اني لا ادع عونك » [2] اي انه يساعده ولكن بشكل غامضٍ غير محدّد .

وغضب ابن حبيب من والي برشلونة وجمع أعوانه وسار نحوه لقتاله فخرج هذا للقائه وحصلت معركة بين الطرفين كانت الهزيمة فيها على عبد الرحمن بن حبيب ، فكرّ راجعاً الى تدمير .

ونحن قبل ان نصلَ الى نهاية هذه الحركة لا بدّ ان نقفَ لحظةً أمام هذا الخبر الفائت ومؤدّاه ان عبد الرحمن بن حبيب اتصل بسليمان بن يقظان والي برشلونة .

اننا نرى ان لهذا الحادث أهميته لأنّ عبد الرحمن بن حبيب كان متصلاً بالعباسيين ولأنّ سليمان بن يقظان كان قد اتصل او سيتصل بشارلمان ملك الفرنجة . وهنا يبدو لنا انه ليس من المستغرب ان يكونَ ذلك الاتصال مهيئاً سلفاً أو موعزاً به من قبل العباسيين أنفسهم لانه من المعروف ان العداوة المشتركة ضدّ أمويي الأندلس كانت تجمع بين دولة الفرنجة في شمال الأندلس وبين الدولة العباسية في شرقي البحر الأبيض المتوسط... بل انّنا نقرأ عن بعثات وسفارات تبودلت بين الفرنجة والعباسيين نوقش خلالها موضوع الدولة الأموية في الأندلس وأبدى كلٌّ من الطرفين استعداده للعمل السريع من أجل القضاء على تلك الدولة الناشئة .

ولكن على اي حال اذا كانت هنالك اية خطط مهيّئة مسبقاً لتنسيق العمل بين انصار العباسيين في الأندلس الذين كان يمثلهم آنذاك عبد الرحمن بن

---

(١) Ibidem .

(٢) اخبار مجموعة ص ٥٧ .

حبيب وأنصار الفرنجة الذين كان يمثلهم سليمان بن يقظان او صاحب سرقسطة حسين بن يحيى ، فان تلك الخطط قد فشلت لان الاتفاق لم يتمّ بين ممثلي الطرفين ، بل حصل نزاع كما رأينا ربما أدّى الى إضعافهما بدلاً من ان يؤدّي الى تقويتهما .

هذا وبعد ان تراجع اذن عبد الرحمن بن حبيب الى تدمير كما رأينا ، لم يشأ الأمير الأموي ان يتركه يستريح فأسرع لمهاجمته ، فهرب ابن حبيب بعد مناوشاتٍ بسيطة الى جبل بلنسية واعتصم فيه .

اما عبد الرحمن فقد اجتاح منطقة تدمير وتقدّم الى كورة بلنسية بعد ان احرق السفن التي كانت مرابطةً امام الشاطىء والتي كان يمكن ان يلجأ اليها الصقلبي ، ولجأ بعدها الى بذل الأموال[1] ، لمن يقدم على اغتيال ابن حبيب حتى تمّ ذلك فعلاً على يد أحد اصحابه من البربر المدعو «مشكار»[2] فقتله في عام ١٦٢ هـ (٧٧٨ م) ، وحمل رأسه الى الأمير عبد الرحمن الذي ما لبث ان عاد الى مقرّ حكمه في قرطبة بعد أن قضى على تلك الثورة .

٣ ـ ثورة ابن يحيى في سرقسطة وابن يقظان في برشلونة :

ذكرنا انه في الوقت الذي ثار فيه ابن حبيب على عبد الرحمن الأول ، كانت هناك ثورة مشتعلة في الشمال يقودها رجلان هما الحسين بن يحيى الانصاري[3] والي سرقسطة وسليمان بن يقظان[4] والي برشلونة اللذان اتحدا للقيام ضد حكم عبد الرحمن الأول في قرطبة .

---

(١) حدد النويري المبلغ الذي وضع مكافأة لمن يأتي برأس عبد الرحمن بن حبيب بألف دينار وقال بان الذي قتله قبض هذه المكافأة فعلا (نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ١٣) .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٨٣ .

(٣) ذكر صاحب اخبار مجموعة انه سليمان بن يقظان الاعرابي الكلبي (ص ٥٩) وكذلك المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ٤٨ .

(٤) ذكر ابن عذاري انه الحسين بن يحيى بن سعد بن عبادة الانصاري (البيان المغرب جـ ٢ ص ٨٤) . وذكر المقري انه الحسين بن يحيى بن سعد بن عبادة الخزرجي (نفح الطيب جـ ٤ ص ٤٨) .

كما اننا رأينا منذ قليل في حديثنا عن ثورة الصقلبي انه طلب المعونة من والي برشلونة فلم يعره هذا أذناً صاغية مما ادّى الى القتال بين الرجلين وهزيمة الصقلبي كما بيّنا وتراجعه الى تدمير حيث هاجمه الأمير عبد الرحمن وقضى على حركته .

اما وقد فرغ عبد الرحمن من ثورة الصقلبي فقد وجّه اهتمامه الى ثورة الشمال حيث كان واليا مدينتي برشلونة وسرقسطة قد اجتمعا كلاهما في هذه المدينة الأخيرة وتحصّنا فيها متحدّيين سلطة حكومة قرطبة .

ويبدو حسبما تذكر الروايات التاريخية ان حسين بن يحيى الأنصاري المتحدّر من سعد بن عبادة لم يكن والياً شرعياً على سرقسطة وانما كان احد المغامرين الذي أتاح لهم حظّهم الاستيلاء على المدينة . بل يذكر بعضهم انه كان يعمل لحساب والي برشلونة سليمان بن يقظان الأعرابي . وانه عندما تمّ للحسين وضع يده على سرقسطة اعتبر ابن يقظان انّ المدينة أصبحت مدينته فانتقل اليها وجعل الحسين مساعده في الحكم وصار يدير شؤون المنطقة من سرقسطة بينما يفترض انه ترك نائباً عنه في برشلونه يحكمها باسمه ، ولا شك ان سبب اختياره لسرقسطة كي يقيم فيها هو مركزها الحسّاس وقربها من مركز الحكم في قرطبة اكثر من برشلونة .

وجه الأمير عبد الرحمن جيشاً لحصار سرقسطة بقيادة احد قادته ثعلبة ابن عبيد فضرب هذا الحصار على المدينة ونشب القتال بين الطرفين اياماً عدة حتى طلب سليمان بن يقظان الاعرابي صاحب سرقسطة عقد هدنة موقتة . فاستجاب له ثعلبة ووقفت الحرب .

ويبدو ان سليمان قد فعل ذلك تحايلاً منه على ثعلبة . اذ بينما كانت أبواب المدينة موصدة فتحت فجأةً وخرج منها سليمان على رأس عدد من قوّاته فهجم على ثعلبة وقبض عليه وساقه أسيراً في الوقت الذي انفرط فيه

عقد الجيش الذي كان معه بعد أسر قائدهم [1] . واعتبرت تلك الحملة الأولى من عبد الرحمن على سرقسطة حملةً فاشلة كان عليه ان يرسلَ غيرها للقضاء على الثورة .

وعرف سليمان بن يقظان انّ انتصاره على الأمير عبد الرحمن لن يكونَ الا موقّتاً ، فعمد الى الاتصال بملك الفرنجة قارله (شارلمان) وطلب اليه مساعدته ضدّ حكومة قرطبة .

علم ابن يقظان ان شارلمان كان حينذاك في مدينة « باذربون » فسار اليه وبرفقته القائد ثعلبة بن عبيد الذي كان قد قبض عليه ، فقدّمه له عربوناً على صدقه وإخلاصه في التحالف معه ، وشجعه على عبور جبال البيرنيه نحو الأندلس للقضاء على الدولة الأموية فيها .

هذا ولن ندخلَ في تفاصيل حملة شارلمان على سرقسطة اذ انّ بحثاً خاصّاً سيكرّس بعد قليل للتحدث عنها وعن دوافعها وأهدافها وخطّ سيرها ونتائجها ، الى جانب الحديث عن علاقات عبد الرحمن بصورةٍ عامة بدولة الفرنجة وبالدويلات الاسبانية في الشمال ... وعلى هذا الأساسً فاننا نكتفي هنا بالحوادث المتعلّقة مباشرةً بثورة سرقسطة وطلب صاحبها العون من شارلمان لكي نصلَ الى القول بانّ شارلمان وافق على غزو الأندلس فسار الى سرقسطة وفشل في احتلالها نظراً لتغيّر رأي الحسين بن يحيى الذي كان مسؤولاً عنها في غياب سليمان بن يقظان فاضطر شارلمان الى رفع الحصار والعودة يرافقه سليمان بن يقظان شبه أسير والذي ما لبث اثنان من اولاده ان حرّراه على رأس قوةٍ عربية وعادا به الى سرقسطة .

ويبدو انّ التدخل الفرنجي قد اساء بصورةٍ عامة الى العلاقات بين الرجلين : سليمان ابن يقظان والحسين بن يحيى فما لبثً الخلاف ان دبّ

(١) أخبار مجموعة ص ٥٩ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٤ .

بينهما وأقدم الحسين بن يحيى على قتل سليمان بن يقظان والانفراد بحكم سرقسطة .

بعد ذلك مباشرةً وصلت قوات الأمير عبد الرحمن يقودُها هو بنفسه لحصار سرقسطة ، ففرض الحصار على المدينة ، إلا ان الحسين لجأ الى تحايله كعادته ، فأبدى انصياعه للأمير وأعلن دخوله في طاعته ، فقبل الأمير منه ذلك على ان يسلمه ابنه « سعيد » رهينةً يأخذه معه خوفاً من قيام ابيه ثانية[1] ، وعلى ان يدفع جزيةً معيّنةً كلّ سنة .

ورفع الأمير عبد الرحمن الحصار عن سرقسطة وانتهز فرصة وجوده في تلك المناطق الشمالية فانساح في أراضي الدويلات الاسبانية غازياً —كما سنتحدث عن ذلك فيما بعد — وعاد بعدها الى قرطبة .

بيد ان سعيد بن الحسين بن يحيى لم يبقَ على ما تذكر التواريخ اكثر من يومٍ واحد في معسكر الأمير[2] وفرّ منه عائداً الى سرقسطة ، فما كان من الحسين الا ان نقض عهده « ثم ان الحسين ختر الذمة وكفر النعمة وأعلن بالنفاق اعلاناً وارسل في الشقاق عناناً [3] » فغضب عبد الرحمن غضباً شديداً وأسرع فوجه الى سرقسطة جيشاً كبيراً بقيادة عامله ابن علقمة حاصر المدينة وقاتل صاحبها الحسين وتمكن من الانتصار عليه وأسر عددٍ من جماعته عاد بهم معه مكبّلين الى قرطبة .

ولم يكتفِ عبد الرحمن بذلك بل قاد في العام التالي جيشاً سار هو بنفسه على رأسه ، فحاصر سرقسطة عام ١٦٧ هـ (٧٨٣ م) ونصب عليها المجانيق ، من كلّ جانب « يقال انه حفّها بستة وثلاثين منجنيقاً [4] » وضيّق على

(١) أخبار مجموعة ص ٥٩ .
(٢) أخبار مجموعة ص ٥٩ .
(٣) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٨٤ .
(٤) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ١٥ .

أهلها أشدّ الضيق فعرضوا الاستسلام وان يسلّموه الحسين . على ان يؤمنّهم على حياتهم . فقبل الأمير عبد الرحمن وسُلّم اليه الحسين فعلاً فقطع يديه ورجليه وتركه حتى مات ثم عاد الى قرطبة بعد ان قضى نهائياً على تلك الثورة التي هدّدت الدولة الأموية في الأندلس باستعانتها بدولة وراء الحدود هي دولة الفرنجة .

هذا ولا بد لنا في نهاية حديثنا عن ثورة سرقسطة بصورة خاصة وعن الثورات ذات الارتباط الخارجي بصورة عامة والتي قامت على عبد الرحمن الداخل ، لا بدّ ان نشير الى انّ بعض المؤرّخين يذكرون انّ الداخل فكر في عام ١٦٣ هـ وقبل ان يصلَ الى علمه نبأ ثورة سرقسطة مباشرةً ، ان يسيرَ الى الشام في حملة برية كبيرة لانتزاعها من بني العباس وانه كاتب من أجل ذلك جماعةً من أهل بيته ومواليه وشيعته ونظّم أمور الأندلس وأوصى بان يحلّ ابنه سليمان في الإمارة محلّه اثناء غيابه وان تساعده طائفة من الوجهاء وأصحاب الرأي ... غير انه بدّل رأيه فيما بعد بسبب انتزاء الحسين بن يحيى الأنصاري الذي رفع لواء الثورة في سرقسطة(١) .

ونحن نفضّل عدم التعرّض لمناقشة صحة هذا الخبر او بطلانه لاننا لا نستطيع ان نبرهنَ على ايّ من الرأيين نظراً لفقدان الوثائق المتعلّقة بهـذا الموضوع .

الحركات ذات الطابع السياسي العقائدي

ثورة شقيا البربري :

لا نستطيعُ ان نجدَ بين الثورات العديدة التي قامت على عبد الرحمن

(١) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣١٢ و جـ ٤ ص ٥٤ .

الداخل سوى واحدة فقط تتسم بهذا الطابع ، وهي ثورة شقيا [1] بن عبد الواحد الذي دعا الى اقامة دولة شيعية فاطمية في الأندلس .

كان شقيا بن عبد الواحد بربرياً من قبيلة مكناسة يسكن في شرقي الأندلس . وكان يمتهن تعليم الصبيان ويدّعي انه من نسل الحسين بن علي . وقد تسمّى بعبد الله بن محمد ودعا الناس الى اعتناق الدعوة الفاطمية التي يؤمن بها لتخليصهم من حكم الدولة الأموية في الأندلس وذلك في عام ١٥٢ هـ (٧٦٩ م) .

وسرعان ما نما عدد أنصاره إذ هرع اليه قسم كبير من برابرة الأندلس الذين كانت توجد بينهم وبين العرب خصومة قديمة هناك ، والذين كانوا ينتهزون اية فرصة للثورة وللقيام على الحكم العربي .

وعندما آنس شقيا من نفسه قوة ومن جمعه ازدياداً سار الى « شنت بريه » او « شنتمرية » Santaver فاحتلّها وقتل عاملها من قبل عبد الرحمن وأعلن استقلاله بتلك المنطقة .

وقد سيّر اليه عبد الرحمن جيشاً لمقاتلته ، إلا انّ شقيا كان يتبع طريقةً معينة في نزاعه المسلّح مع الأمير وهو ألا يقاتل جيوشَه وجهاً لوجه بل يقوم بحرب العصابات فيفرّ الى الجبال عندما يرى انه غير قادر على مقاتلة الجيش المرسل اليه . وهكذا حصل فعلاً فان شقيا لجأ الى الجبال فاضطر الأمير الى العودة الى قرطبة ، فما لبث الثائر البربري ان عاد الى منطقته وقد قوي أمره وزاد انضمام الناس اليه عندما رأوا أنّ عبد الرحمن بذاته لم يتمكن من إخضاعه .

وكان عبد الرحمن عند رجوعه عنه ، قد عيّن على طليطلة حبيب بن عبد الملك فولّى هذا من قبله على شنت بريه Santaver ، التي كانت بيد الثائر البربري قبل فراره ، عيّن عليها سليمان بن عثمان من نسل عثمان بن عفّان ،

---

(٢) ذكر ابن خلدون ان الاسم هو « شقنا » (العبر جـ ٤ ص ١٢٣) بيد ان الأصح هو شقيا لإجماع المصادر التاريخية الأخرى على ذلك .

وكلّفه بالدفاع عن المنطقة ضدّ محاولات الثائر. بيد انّ شقيا الثائر تمكن من قتل سليمان واحتلاله المنطقة من جديد، ثم ما لبث ان تغلّب على «قورية Coria» وعلى «مدلين» Medellin وكان عاملها من قبل عبد الرحمن هو ابو زعبل الصدفوري[1] ثم على ماردة Mérida، حتى ان الامير عبد الرحمن عندما أرسل اليه حملة بقيادة مولاه بدر وجده هذا في «سبطران» Sopetran فاتبعه رجاء ان يدركه ولكنه دخل المفاوز وغاب عن انظار بدر الذي اضطر ان يعود عن ملاحقته دون نتيجة.

وتحدثنا الروايات التاريخية عن حملات كثيرة وجهتها حكومة قرطبة للقضاء على الفاطمي ولكنه كان ينجح في كلّ مرة بالتخلّص من خطرها او بالانتصار عليها. فقد خرج الأمير عبد الرحمن في الغزوة التي تسمى «غزوة الدور»[2] فرفض شقيا الالتحام معه مما جعل الأمير يقسو في معاملة كلّ من شايعه من سكان المنطقة حتى انه نسف وخرّب كثيراً من الأمكنة التي كان يمكن لشقيا ان يلجأ اليها ويستفيدَ منها ولم يعد عن تلك المنطقة إلا عندما أتاه كتاب مولاه بدر يخبره فيه بقيام ثورة حيوه بن ملامس في اشبيلية، آنذاك أرجأ القضاء على خطر الفاطمي ريثما يقضي على الثورة الجديدة.

وأرسل عبد الرحمن بعد ذلك مولاه عبيد الله ابا عثمان على رأس فرقة اخرى لمقاتلة الفاطمي فخرج هذا للقائه وتمكن من استمالة جنده من البربر وبثّ الخلاف بين صفوفه، فضعف جنده وتمكن شقيا من الاستيلاء على معظم ما كان في معسكراته، بل قتل عدداً من قوّاده.

ولما حاول عبد الرحمن من جديد في عام ١٥٥ هـ (٧٧٢ م) اي بعد بضعة سنوات من قيام ثورة الفاطمي، السير اليه من جديد في شنت بريه

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب جـ ٢ ص ٨١، بينما ذكر صاحب أخبار مجموعة ص ٥٦، ان ابا زعبل المذكور كان والياً على ماردة.

(٢) اخبار مجموعة ص ٥٦، ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ١٢٣.

وفرّ هذا امامه ثانية . لجأ إلى خطة جديدة وهو انه تبنّى زعيماً بربرياً آخر هو « هلال الميديوني » فعيّنه حاكماً على المناطق التي كان الفاطمي يسيطر عليها « وكتب له عهداً على قومه وأقره على موضعه ، وكان رأس البربر في شرق الأندلس »[1] ، وكلّفه بالقضاء على خصمه ، فنجحت تلك الخطة فعلاً الى حدّ بعيد وانفضّ الكثيرون من البربر عن شقيا ليلتفّوا حول الزعيم البربريّ الجديد الذي ولّته السلطة رسمياً على تلك النواحي والذي كان يعتبر الولاء له ولاءً للدولة نفسها .

على اثر ذلك اضطر شقيا بن عبد الواحد للانصراف عن شنت بريه الى الجوف حيث أخذ يستعدّ لفرض سيطرته من جديد . وظلّ الفاطمي بضعة أعوامٍ أخرى يزعج بثورته حكومة قرطبة التي أرسلت جيشاً لغزوه في عام ١٥٩ هـ (٧٧٦ م) فهاجم منطقته وقتل كثيراً من أتباعه . كما وجهت اليه صائفة أخرى في عام ١٦٠ هـ (٧٧٧ م) شنّت عليه الغارة بالخيل وأضعفت قواته دون ان تصلَ الى نتيجةٍ حاسمة .

ثم وجه اليه الأمير « تمام بن علقمة » و « عبيد الله ابا عثمان » وهو في أحد الحصون فحاصراه وأرسلا اليه رسولاً يدعى « وجيه الغسّاني » وهو ابن اخت القائد ابي عثمان ، فتفاوضا في امر استسلام الفاطمي فما كان من هذا إلا ان دعا وجيهاً الى الدخول في أمره وأكد له انه سيكون هو الرابح في النهاية ، فاقتنع هذا بكلامه وانضمّ اليه فعلاً وأقام عنده[2] .

على اثر ذلك قام تمام وابو عثمان بهجومٍ شامل عليه فاقتتل الطرفان اقتتالاً شديداً كان الظفر فيه للفاطمي وانصرف بعدها الى جهة شنتبرية فنزل في قرية تدعى « وادي العيون » حيث كانت نهايته .

وقد أتت تلك النهاية بعد ثورة عارمة دامت ما يقرب من عشر سنوات

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٨٢ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٥٨ .

على يد اثنين من اتباعه هما ابو معن داود بن هلال وكنانة بن سعيد الأسود اذ ائتمرا به وقتلاه فهرب صاحبه وجيه الغسّاني وحلّ بساحل البيرة فأرسل اليه الأمير شهيد وعبدوس بن ابي عثمان فلقياه يوم عيد في حال اغترار فقتلاه ، وقضي بذلك على آخر ذيول تلك الحركة[1] .

الثورات الداخلية أو المحلية

كما اننا لم نجعل الترتيب الزمني هو الأساس الذي بنينا عليه دراستنا للثورات التي سبق ان تحدثنا عنها ، فاننا سنحاول الآن أيضاً ألا نتقيّدَ بالترتيب الزمني وذلك تسهيلاً للبحث في نظرنا لا تعقيداً له ، بل سنتخذ أساساً لدراستنا للثورات الداخلية في عهد الأمير عبد الرحمن مكانَ حدوث تلك الثورات ، فلا ننتقل من مكانٍ الى آخر الا بعد ان نفرغَ من الحديث عن مختلف الحركات التي ظهرت فيه ، حتى اذا فرغنا من معالجة منطقةٍ معينة ، انتقلنا الى غيرها عوضاً عن ان ننتقل بين تلك الثورات على غيرِ هدىً فنضيع في كثرتها وفي تشعب المناطق التي ظهرت فيها واختلاف الأشخاص القائمين بها .

هذا وسنخصّص في نهاية هذا الفصل بحثاً خاصّاً للمؤامرات التي حاول أقرباء عبد الرحمن القيامَ بها ، تمييزاً لها عن باقي الثورات الداخلية التي قامت ضدّه من قبل اشخاص آخرين عاديين .

الفتنة في إشبيلية

ثورة رزق بن النعمان الغسّاني :

كانت ثورة رزق هي أولى الثورات التي واجهها عبد الرحمن بن معاوية

(١) نفس المصدر السابق .

بعد القضاء على ثورة الفهريين (١) . وكان قد لجأ اليه القاسم بن يوسف الفهري بعد ان فرّ من طليطلة فعزم على تأييده . وقد تمكن رزق بن النعمان من احتلال شذونة وتوجه منها بصحبة حليفه الى اشبيلية فاستوليا عليها بسهولة وشرعا في تحصينها .

أما الأمير عبد الرحمن فقد أسرع على رأس قواته نحو اشبيلية ونشبت بينه وبين الثائرين أمام أبوابها معركة عنيفة كان الظفر فيها حليفه وأسفرت عن مقتل رزق بن النعمان وتمزيق جيشه ، فدخلت القوّات الأموية اشبيلية في اواخر عام ١٤٣ هـ (٧٦٠ م) . واما القاسم فقد التجأ بقواته الى شذونة فأرسل الأمير في اثره « تمام بن علقمة » والي طليطلة ، فطارده حتى أسره وشتّت أنصاره .

ثورة أبي الصبّاح يحيى اليحصبي :

كنّا قد رأينا بانه قاتل الى جانب عبد الرحمن يوم « المسارّة » وانه فكّر آنذاك بالتخلّص من عبد الرحمن كما تخلّص القوم من يوسف الفهري فعلم عبد الرحمن ذلك عنه دون ان يفاتحه بالأمر ، بل انه عهد اليه بولاية اشبيلية .

بيد ان عبد الرحمن حين عمد الى عزل أبي الصبّاح عن اشبيلية بعد بضع سنوات أعلن هذا الثورة عليه وكاتب قوّاد الجند فانضمّ اليه البعض .

وأعمل عبد الرحمن هذه المرة الحيلة للقضاء على ثورة ابي الصبّاح اليحصبي ، إذ كلّف عبد الله بن خالد ان يتوجه اليه في اشبيلية وان يدعوه لمقابلة عبد الرحمن بعد ان يؤمّنه ويعطيه عهده . ففعل عبد الله بن خالد ما طلب منه ولبّى ابو الصبّاح الدعوة فسار الى قرطبة يرافقه اربعمائة فارس من أنصاره حمايةً له على الرغم من العهد الذي أعطي له .

ولما تمّ اجتماع الرجلين في قرطبة تعاتبا وتصايحا وهدّد كلّ منهما الآخر

---

(١) ذكر صاحب أخبار مجموعة ان ثورته حدثت بعد سنة واربعة أشهر من مقتل يوسف الفهري (ص ٥٣) .

فما كان من عبد الرحمن إلا ان دعا فتيانه وأمرهم بإسكاته فانهالوا عليه طعناً بالخناجر في أوداجه حتى أوهنوه وقتلوه فأمر عبد الرحمن بلفّه في بساطٍ وتنحيته وإزالة آثار دمائه . ثم استدعى اليه الوزراء فأخبرهم بانه امر بالقبض عليه دون ان يخبرهم بانه قتله وطلب منهم رأيهم في الإقدام على قتله ؛ فلم يوافق أحد منهم على ذلك وقالوا له : « على الباب اربعمائة فارس وجند الأمير غائب ، ولا نأمن من ان يحدث من ذلك بلاء [1] ؛ ما عدا المرواني اي عبد الملك بن عمر الذي مرّ معنا ذكره في مناسباتٍ عدّة ؛ فقد أشار عليه بقتله وارتجل في ذلك ابياتاً من الشعر كان منها :

لا يفلتنْكَ فيأتينـــا ببائقـــةٍ أشدُدْ يديكَ به تبرأ من السَّقَـم

فأخبر عبد الرحمن وزراءه بانه قد قتله وصاح المنادي في الناس ان ابا الصباح قد قتل وان من أراد منهم ان يلحقَ ببلده فليفعل آمناً على نفسه ، فافترقوا دون ايّ حدث .

اما عبد الله بن خالد الذي استخدمه الأمير عبد الرحمن واسطة لاستقدام ابي الصبّاح اليحصبي فقد استاء أيما استياء للمصير الذي لقيه هذا على يدي الامير بعد ان أعطاه عهده ، فابتعد عن « الداخل » بقية عمره واعتزل الحياة العامة ولم تمكنه نفسيته من العودة الى التعاون مع عبد الرحمن أبداً مكتفياً بذلك دون الاقتداء بالكثيرين غيره من الرجال الذين اعتقدوا في إعلان الثورة دواءً ناجعاً لخلافاتهم مع الأمير .

ثورة حيوة او حياة[2] بن ملامس الحضرمي وعبد الغفّار اليحصبي :

يجعل بعض المؤرّخين هذه الثورة مستقلّة عن ثورة عبد الغفار اليحصبي [3]

---

(١) اخبار مجموعة ص ٥٥ .

(٢) اورد معظم المؤرخين الاسم على انه « حيوة » ما عدا ابن عذاري فقد اورده «حياة» ولا فرق بين الاسمين وذلك تابع لنوع الخط او نوع الكتابة .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٧٦ – ٧٧ .

بينما يجعلها البعض الآخر ثورة واحدة [1] . وفي الوقت الذي تذكر فيه بعض الروايات ان حليف حيوة بن ملامس يدعى عبد الغافر اليحصبي [2] ذكرت روايات أخرى ان اسمه عبد الغفار [3] اليحصبي .

ونحن نخرج من هذا كلّه :

١ — ان ثورة حيوة بن ملامس الحضرمي وثورة عبد الغفار اليحصبي هي ثورة واحدة .

٢ — ان الاسم الصحيح للحليف الثاني هو عبد الغفار بن حميد اليحصبي وليس بعبد الغافر .

٣ — يتبيّن لنا من المصادر التاريخية انه وجد حليف ثالث للثائرين المذكورين سابقاً هو عمرو بن طالوت صاحب مدينة باجة Béja [4] .

اذن فقد اجتمع ثلاثة زعماء على الثورة هم حيوة بن ملامس الحضرمي رئيس اشبيلية وعبد الغفّار بن حميد اليحصبي رئيس لبلة وعمرو بن طالوت رئيس باجة ، اتحدوا للثأر لدم ابي الصباح اليحصبي « اجتمعوا وتوجهوا نحو قرطبة يطلبون دم رئيس اليمانية ابي الصبّاح » [5] وقد انضمّ اليهم من اعيان اشبيلية مهلّب الكلبي وابن الخشخاش وولده ، فقوي جمعهم وتغلّبوا على معظم المناطق القريبة اليهم .

يقول أحد المؤرّخين في هذا الصدد : « تغلّب حياة بن ملامس على اشبيلية واستجه Ecija واكثر الغرب Algarve ، وحشد جموعاً فخرج اليه الأمير وقاتله اياماً حتى همّ الأمير بالهزيمة ... » [6]

(١) اخبار مجموعة ص ٥٦ .
(٢) Ibidem
(٣) المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ٤٨ .
(٤) المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ٤٨ .
(٥) Ibidem
(٦) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٧ .

كان الأمير عبد الرحمن آنذاك يخمد ثورةً في شرق الأندلس هي ثورة البربري الفاطمي شقيا بن عبد الواحد ، فانتهز المتحالفون الفرصة لإرسال قوة الى قرطبة لعلّها تتمكن من احتلالها قبل عودة الأمير اليها ، بيد ان هذا أسرع في التوجّه نحوهم وخاصةً قريبه وقائده عبد الملك بن عمر[1] الذي أسرع على رأس قسم من الجيش فاشتبك مع المتحالفين وأوقف زحفهم نحو قرطبة ريثما يصل الأمير عبد الرحمن .

يروي صاحب نهاية الأرب قصة ذلك النصر الاول الذي احرزه عبد الملك بن عمر فيقول : « قدم الأمير عبد الرحمن ابن عمه عبد الملك بن عمر لمقاتلة الثائرين ، فلما قارب عبد الملك اشبيلية ، قدم ابنه أمية ليعلمهم حالهم ، فرآهم متيقظين ، فرجع الى أبيه فلامه أبوه على رجوعه وإظهار الوهن فضرب عنقه وجمع بنيه وخاصته وقال : « طردنا من المشرق الى أقصى هذا الصقع ، ونحسد على لقمة تبقي الرمق ، اكسروا جفون السيوف فالموت اولى او الظفر » . ففعلوا وحملوا وحمل بين أيديهم فهزمت اليمانية واهل اشبيلية وجرح عبد الملك. وبلغ الخبر عبد الرحمن فاتاه وجرحه يجري دماً وسيفه يقطر ، وقد لصقت يده بقائم سيفه فقبّله بين عينيه وجزاه خيراً وقال له : يا ابن عم ، قد أنكحتُ ابني وليّ عهدي هشاماً ابنتك فلانه وأعطيتها كذا وكذا وأعطيتك كذا وكذا وأقطعتك واياهم كذا وكذا ووليتُك الوزارة[2] .

وتوجه عبد الرحمن بعد ذلك نحو جموع المتحالفين ، فوجدها معسكرة في مكانٍ يدعى وادي قيس ، فلم يشأ الداخل ان يخوض المعركة فوراً مع الثوّار بل فضل ان يحاول في بادىء الأمر فضّ بعض الجموع عنهم فراسل عدداً من كبار البربر الذين كانوا ينضوون تحت لوائهم ونجح فعلاً في استمالتهم فنزعوا اليه وصاروا معه .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٣ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١١ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١١ — ١٢ .

بعد ذلك راى عبد الرحمن انه يستطيع ان يدخل المعركة مطمئناً فهاجم الثوّار واشتبك معهم في معركة عنيفة انتهت بهزيمة الثوار الثلاثة ومقتل عدد كبير من اتباعهم بالغ بعض المؤرّخين في تقديره فذكر انه وصل ثلاثين الفاً [1] .

وذكر ان عبد الغفّار فرّ الى ناحية لقنت Alicante ومنها ركب البحر ونجا الى المشرق في الوقت الذي فرّ فيه حيوة بن ملامس الى ناحية فريّش ثم كتب الى الأمير عبد الرحمن يطلب الأمان ...

والمهمّ ان الثورة قد قضي عليها ولم يعد لأيّ من زعمائها بعد ذلك شأن يذكر .

الفتنة في طليطلة

ثورة هشام بن عروة الفهري :

قامت ثورة هشام في زمنٍ مبكر بالنسبة لغيرها من الثورات اذ كان موعدها بعد سنةٍ واحدة من مقتل رزق بن النعمان الغسّاني اي في عام ١٤٤ هـ (٧٦١ م) ولوَ انّ القضاء عليها لم يتمّ في السنة ذاتها ولكن بعد ذلك ببضع سنوات في ١٤٧ هـ (٧٦٤ م) .

وقد ثار مع هشام بن عروة ، حيوة بن الوليد التجيبي وهشام بن حمزة ابن عبيد الله بن عمر بن الخطاب فتوجّه اليهم عبد الرحمن على رأس جيش وضرب الحصار على المدينة وضيّق على أهلها أشدّ تضييق . وسئم سكان طليطلة الحصار وكذلك هشام بن عروة الذي « عضّته الحرب وناله الحصار » فدعا الى الصلح ، وعرض على عبد الرحمن تقديم ابنه رهينةً وعربوناً لطاعته ، فقبل الأمير ذلك منه وأمر برفع الحصار عن المدينة وانصرف عائداً نحو قرطبة .

بيد ان هشاماً عاد الى رفع لواء الثورة في السنة التالية ، فأمر عبد الرحمن

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٦ .

بغزوه من جديد فسار اليه جيش حاصره ودعاه الى الرجوع عن غيّه دون نتيجة ... فلما يئس منه أمر بقطع رأس ابنه الذي كان رهينةً لديه ثم وُضع الرأسُ في منجنيق ورمى به اليه فسقط في المدينة لكي يعلم هشام بمصير ابنه . ورجع عنه الجيش ذلك العام لانه لم يكن مستعدّاً لقضاء وقتٍ طويل أمام أسوار طليطلة .

وهكذا تردّدت الغزوات والبعوث الى طليطلة حتّى كان آخرها بقيادة بدر مولى عبد الرحمن وقائده تمام بن علقمة فشعر سكان المدينة بالتعب والملل من طول الحصار والحرب فاتصلوا بالقائدين الأمويين وعرضوا عليهما تسليمهما زعماء الثورة الثلاثة هشام بن عروة الفهري وهشام بن حمزة وحيوة ابن الوليد مقابل تأمينهم على حياتهم وأموالهم فوافق بدر وتمام على ذلك وسلّم اليهما زعماء الثورة فعلاً فكبّلهم تمام وخرج بهم يريد قرطبة بينما ظلّ بدر في موضعه منتظراً لرأي الأمير حول مصير المدينة .

ولما وصل تمام الى أوريط لقي عاصم بن مسلم الثقفي قادماً من قبل الأمير وقد حمل تعليماته الى قادة جيشه وهي تقضي بأن يكون تمام والياً على طليطلة وان يعودَ بدر الى قرطبة . وبطبيعة الحال كان على تمام ان يرجع الى طليطلة ليتسلمَ ولايتها وان يسلّم الأسرى الذين كانوا معه الى عاصم بن مسلم الثقفي . وهكذا حدث فعلاً فقفل عاصم بالأسرى عائداً في طريق قرطبة فلما وصل الى احدى القرى القريبة من العاصمة خرج العبدي صاحب الشرطة بناءً على أوامر عبد الرحمن ، للقاء الأسرى ، فألبس كلا منهم جبّةً من الصوف واخذ معه حلاقاً حلق لهم رؤوسهم ثم وضعهم في سلالٍ كبيرةٍ وأركبهم على حمير وادخلهم الى قرطبة على هذا الشكل حيث طيف بهم في أنحاء قرطبة ثم اقتيدوا الى خشب نصبت لهم فصلبوا عليها وكتب الى البلدان بدخول طليطلة في الطاعة .

ثورة السلمي :

ظلّت طليطلة على طاعتها للحكومة المركزية بضع سنوات ما لبثت ان نقضت عهدها بعد ذلك وعادت ال الثورة عندما قام فيها القائد السلمي .

ومن المؤسف ان المصادر التاريخية لا تتحدث عن السلمي بأكثر من لقبه هذا وتقول بانه كان من خاصّة عبد الرحمن والمقرّبين اليه وانه كان يسكن قرطبة .

وسكر ذات ليلة خارج المدينة وعاد اليها فوجد أبوابها مقفلة فأراد ان يفتح باب القنطرة غير انّ الحراس منعوه من ذلك فحمل عليهم بالسيف واشتبك معهم فعلم صاحب الشرطة « العبدي » بالخبر فذهب اليه وأمّنه وهدّأه لما رآه فيه من اثر الشراب ، فلما صحا بعد بضع ساعات وأخبر بتفاصيل ما فعل ، خشي غضب الأمير عبد الرحمن فهرب الى طليطلة وهناك وجد أنّ النفوس مهيّأة للثورة فأعلن خروجه على الحكم الأموي .

وأرسل اليه عبد الرحمن القائد حبيب بن عبد الملك القرشي فحاصره وقضى على ثورته بعد ان قتله[1] .

هذا ويذكر لنا النويري بان قتله كان عن طريق المبارزة اذ طلب السلمي البراز فخرج اليه عبد أسود « فاختلفا[2] ضربتين فوقعا صريعين وماتا معاً [3] ».

الفتنة في لبلة

ثورة سعيد اليحصبي المعروف بالمطري :

كان لهذا الرجل عدة دوافع للثورة منها انه كان يعطف على ثورة العلاء

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٣ .

(٢) اختلفا ضربتين اي تبادلاها .

(٣) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ١٤ .

ابن مغيث التي قتل فيها عدد من أصحابه من اليمانيين كما كان ينقم على عبد الرحمن قسوته بصورة عامة نحو اليحاصبة . اما ما يذكره بعض المؤرّخين من انه شرب ذات ليلة وتأثر لذكر مقتل اليمانيين الذين كانوا يحاربون الى جانب العلاء بن مغيث فعقد في رمحه لواء ، ولما أفاق من سكره ورآه لم يتذكر ما حدث في الليلة السابقة ، فاستوضح عن الأمر فقيل له بانه عقد اللواء غضباً لقتل قومه فقال : « حلّوا العقدة قبل ان يرفع خبرها »[1] ثم غيّر رأيه فقال : « ما كنتُ لأرجع عن رأيي »[2] ، نقول ان هذه الحادثة ما كانت في الواقع لتدفعه الى الثورة لو لم يكن مقتنعاً بضرورة ذلك في داخله ومصمّماً على القيام به .

المهمّ انه اعلن الثورة في لبلة وانضمّ اليه الكثيرون من اليمانية حتّى قوي جمعه وتمكن من السير الى اشبيلية والاستيلاء عليها ولو ان لبلة بقيت مركز عصبيته .

وكان مما زاد في تفاقم خطر ثورة المطري ان غياث بن علقمة اللخمي صاحب مدينة شذونة عقد اتفاقاً معه ووعده بالمساعدة فيما اذا هاجمه الأمير عبد الرحمن .

ونهض الأمير الى لبلة بعد ان رأى ان الأمر قد تفاقم فامتنع المطري في قلعة « رعواق » فشدّد عليه عبد الرحمن الحصار فما كان من اللخمي الا ان تحرك لمساعدة حليفه .

وبادر عبد الرحمن بدوره الى ارسال مولاه بدر على رأس قوة لتحولَ دون وصول المدد الى المطري فتمكنت من الوقوف بوجهها فعلاً . واضطرتها الى العودة الى شذونة ، بينما تابع عبد الرحمن حصاره للمطري في قلعة « رعواق » الحصينة .

---

(١) أخبار مجموعة ص ٥٥ .
(٢) Ibidem

وطال ذلك الحصار حتّى لم يعد المطري يطيق عليه صبراً فحاول أن يخرج مع أصحابه من الحصن لعلّه يشقّ طريقاً لنفسه . فاشتبك لدى خروجه مع جيش الأمير ، ولم تدم المعركة إلا قليلاً حتى قتل المطري ومعظم من خرج معه بينما عاد سكان مدينة لبلة إلى إغلاق الأبواب على أنفسهم وتسمية رئيس جديد لهم هو « خليفة بن مروان » .

وعلى هذا الأساس فإن الأمير عبد الرحمن لم يرفع الحصار عن المدينة طالما أنها لم تسلم وتابع تشديده عليها إلى أن وجد أهلها انه لا فائدة من المقاومة ، فعرضوا على عبد الرحمن الدخول في طاعته ، وتسليمه المدينة أو الحصن مقابل تأمينهم على حياتهم . فقبل الأمير ودخل القلعة . ولم يعفُ عبد الرحمن عن الزعيم الجديد خليفة بن مروان بل أمر بقتله مع بعض أصحابه من كبار الجند وخرّب معظم أسوار الحصن حتّى لا يفكر أهله في العصيان من جديد .

ولم ينسَ الأمير رغم ذلك كلّه حليف المطري ونعني به غياث بن علقمة اللخمي ، فسار إليه في شذونة وحاصره حتى تمكن من دخول المدينة فأمّن أهلها ونظّم شؤونها ثم عاد إلى قرطبة .

الثورة في الجزيرة الخضراء :

ثار فيها الرماحس بن عبد العزيز الكناني الذي كان عاملاً عليها ، فأسرع الأمير عبد الرحمن بالسير إليه قبل أن يستفحلَ أمره حتى أن جيوشه وصلت الجزيرة الخضراء ولم يكن قد مضى عشرة ايام على خلع واليها الطاعة .

يقول صاحب أخبار مجموعة : « أعلن الرماحس خلعانه يوم الإثنين وجاء الخبر إلى الأمير يوم الجمعة فخرج إليه يوم السبت فلم يشعر الرماحس يوم الأربعاء إلى عشرة أيام من خلعانه حتّى طلعت الخيل عليه » ..[1]

---

(١) أخبار مجموعة ص ٥٨ .

وكان الرماحس في الحمام يطلي شعره عندما علم بوصول خيل عبد الرحمن إلى مشارف المدينة ، فطرح الطلاء عن نفسه وخرج مسرعاً يلتفّ في ملحفةٍ مخططة كالنساء وذهب إلى منزله حيث أخرج أهله ووضعهم في قارب وتوجه نحو السّاحل الإفريقي[1] . وتذكر إحدى الروايات أنه قدم على أبي جعفر المنصور[2] . ووجد الأمير عبد الرحمن في سجنه جماعةً من الأمويين فأطلق سراحهم وعاد بعدها إلى قرطبة .

ثورات صغيرة في أماكن متفرقة في الأندلس :

ثار أيضاً على عبد الرحمن الداخل « دحية الغسّاني » في البيرة **Elvira** فاحتلّ بعض حصونها وخلع الطاعة مما اضطر الأمير إلى إرسال جيشٍ بقيادة شهيد بن عيسى حاربه وتمكن من قتله .

كما ثار « خراشه الأسدي » في جيّان **Jaen** فأرسل إليه عبد الرحمن الجيوش فحاربته ومزّقت جمعه واضطر إلى طلب الأمان فأمّنه عبد الرحمن وانتهت بذلك حركته .

وخرج ثائر آخر من آل الأسدي على الداخل في بعض نواحي مقاطعة باجة **Béja** فوقع على حاكم المقاطعة نفسها عبء القضاء على ثورته ، فسيّر إليها الجيوش وتمكن من قتل زعيم الثورة وبعث برأسه الى عبد الرحمن بقرطبة.

وتزعّم أحد البرابرة ثورةً في بعض أطراف الأندلس فبعث عبد الرحمن بدراً مولاه فقتله وفرّق جموع أنصاره .

ثم ثار في مورو **Moron** « إبراهيم بن شجرة البرنسي » فوجّه الأمير إليه مولاه بدراً فتقاتل الفريقان قتالاً شديداً انتهى بمقتل ابن شجرة .

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٨٤ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٥٨ .

محاولة بعض أقارب الداخل القيام بثورات عليه :

وأخيراً فكأنّ جميع تلك الثورات التي قامت على عبد الرحمن في مختلف أنحاء الأندلس لم تكن كافية حتى يفضي الأمر إلى ثورة بعض أقاربه إذ تذكر لنا الروايات التاريخية أنه حين شجع معاوية قدومَ الأمويين عليه من كلّ مكان وأكرمهم ووسّع عليهم كان من جملة من وفدوا أخوه الوليد بن معاوية وابن لهذا اسمه المغيرة وابن أخٍ آخر للداخل اسمه عبيد الله بن ابان ابن معاوية بن هشام وابن عم له هو عبد السلام بن يزيد بن هشام المعروف باليزيدي ، وجزي بن عبد العزيز أخو عمر بن عبد العزيز وغيرهم ... فمنهم من رضي بالنعم التي أسبغها عليه عبد الرحمن الداخل ومنهم من طمع في المزيد وتطلّع إلى أكثر مما حصل عليه فحدّثته نفسه بالثورة .

هكذا كان شأن عبد السلام المعروف باليزيدي الذي اتفق في القيام على عبد الرحمن مع أخيه عبيد الله بن ابان وساعدهما عدد من الأشخاص المعروفين يعدّد لنا صاحب أخبار مجموعة بعضهم دون أن تكون أسماؤهم واضحة أو معروفة[1] ، اللهم عدا واحد منهم مرّ ذكره معنا مرات كثيرة وكان من أقرب المقرّبين إلى عبد الرحمن الداخل وهو أبو عثمان عبيد الله بن عثمان إذ يذكر أنه « ساعد الرجلين على ما هما به من الخلاف ولم ينله ما نالهما »[2] .

وقد عقد هؤلاء عدداً من الاجتماعات قرّروا خلالها اتباع خطةٍ معيّنة وتنفيذها في الوقت المناسب ، إلا أن أحد موالي عبيد الله بن ابان الذي أتيح له الإطلاع على ما دار بينهم توجه إلى قصر الإمارة وطلب مقابلة بدر مولى الداخل وأطلعه على المؤامرة التي تدبر في الخفاء ضدّ الأمير بينما كان هذا يقوم بنزهةٍ للصيد في وادي شوش[3] فأسرع بدر بإرسال رسولٍ إلى

(١) الأسماء المذكورة هي : ديوان الحيشاني ، وابن يزيد بن يحيى التجيبي وابن أبي غريب ... ولا نعلم شيئاً عنها (أخبار مجموعة ص ٥٧) .

(٢) المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ٤٦ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٥٧ .

عبد الرحمن يخبره بالخبر فدعا هذا « سماعة » رئيس مواليه وصاحب خيله وقال له : « امض فيمن أمكنك من أصحابك الى عبيد الله بن ابان فتقبّض عليه » ثم دعا عبد الحميد بن غانم صاحب الرجّالة فقال له : « اذهب وتقبّض على عبد السلام بن يزيد ... » فتوجه كل منهما في مهمته ونفذّها وقاد كلّ منهما أسيره إلى قصر الإمارة بالرصافة حيث حلّ الأمير عبد الرحمن بعد عودته .

وقد أودع الرجلان السجن ريثما يتمّ القبض على جميع أعوانهما ، فلما تمّ ذلك فعلاً جيء بهم إلى حضرة الأمير عبد الرحمن فوبخهم ثم أمر بضرب أعناقهم وذلك في عام ١٦٣ هـ (٧٨٠ م) .

أما أبو عثمان الذي يقال أنه اتفق مع الثائرين فذلك لأن عبد الرحمن بعد أن توطد مركزه وقويت سلطته ، استغنى عن مشورته إلى حدّ بعيد ، فغاظه ذلك وأراد أن يشغل بال الأمير في شيء يجعله بحاجة إلى مشورته من جديد ، فجعل ابن أخيه يثور عليه إلى أن انتهى الأمر كما ذكرنا . وحين علم الداخل باشتراك أبي عثمان بالمؤامرة قال : « هو أبو سلمة [١] هذه الدولة ، فلا يتحدث عنه الناس بما تحدّثوا عن بني العباس في شأن أبي سلمة ، لكن سأعتبه عتباً أشدّ من القتل »[٢] .

أما المؤامرة التالية التي قامت على عبد الرحمن من قبل بعض أقاربه فقد قام بها أيضاً ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية بن هشام بالاتفاق مع هذيل بن الصميل بن حاتم وسمره بن جبله[٣] . وقد وقف الأمير على خبرها

(١) أبو سلمة الخلال هو أحد دعائم الدولة العباسية الذين ساعدوا في تقويض أركان الدولة الأموية ، ومع ذلك فقد تخلص منه السفاح فيما بعد بقتله .

(٢) المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ٤٤ .

(٣) أورد عدد من المؤرخين الإسمين الأولين وانفرد النويري بايراد الإسم الثالث الذي ربما كان في تحقيقه بعض الخطأ نظراً لغرابته (نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ١٥) .

قبل تنفيذها فأمر بالقبض على المتآمرين ثم مالبث أن أعدمهم وذلك في عام ١٦٧ هـ (٧٨٤ م) .

هذا وقد تخوّف بعد ذلك من أخيه الوليد نفسه فأمر بنفيه إلى إفريقية مع عائلته وأهله وسمح له بأن يأخذ معه كلّ ما يملكه من المتاع والمال .

ويحدّث في هذا الصدد بعض موالي عبد الرحمن الخاصّين به أنه دخل على الأمير إثر قتله ابن أخيه المذكور وهو مطرق شديد الغمّ ، فرفع رأسه وقال : « ما عجبي الا من هؤلاء القوم ، سعينا فيما يضجعهم في مهاد الأمن والنعمة ، وخاطرنا فيه بحياتنا ، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا ، ويسّر الله تعالى أسبابه ، أقبلوا علينا بالسيوف . ولما آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله تعالى به حتى أمنوا ودرّت عليهم إخلاف النعم ، هزّوا أعطافهم ، وشمخوا بآنافهم ، وسموا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحنا الله تعالى ، فخذلهم الله بكفرهم النعم ، إذ أطلعنا على عوراتهم ، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا ، وأدّى ذلك إلى أن ساء ظنّنا في البريء منهم ، وساء أيضاً ظنّه فينا ، وصار يتوقّع من تغيّرنا عليه ما نتوقّع نحن منه ، وان أشدّ ما عليّ في ذلك أخي والد هذا المخذول ، فكيف تطيب لي نفس بمجاورته بعد قتل ولده وقطع رحمه ؟ أم كيف يجتمع بصري مع بصره ؟ أخرج إليه الساعة فاعتذر إليه ، وهذه خمسة آلاف دينار ادفعها إليه ، واعزم عليه في الخروج عنّي من هذه الجزيرة إلى حيث شاء من برّ العدوة »(١) .

قال : فلما وصلتُ إلى أخيه وجدتُه أشبه بالأموات منه بالأحياء ، فآنستُه وعرفته ، ودفعت له المال ، وأبلغتُه الكلام ، فتأوّه وقال : « إنّ المشؤوم لا يكون بليغاً في الشؤم حتى يكونَ على نفسه وعلى سواه ؛ وهذا الولد العاقّ الذي سعى في حتفه ، قد سري ما سعى فيه إلى رجلٍ طلب العافية ، وقنع بكسر بيت في كنف من يحمل عنه معرّة الزمان وكلّه ، ولا حول ولا

---

(١) المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٤٧ .

قوة الا بالله ، لا مردّ لما حكم به وقضاه » ثم ذكر أنه أخذ في الحركة نحو الشاطىء الإفريقي .

قال : ورجعت إلى الأمير فأعلمته بقوله ، فقال : « إنه نطق بالحقّ ، ولكن لا يخدعني بهذا القول عما في نفسه ، والله لو قدر أن يشربَ من دمي ما عفّ عنه لحظةً ، فالحمد لله الذي أظهرنا عليهم بما نويناه فيهم ، وأذلّهم بما نووه فينا »[1] .

هكذا نرى أن عبد الرحمن بن معاوية قد اضطر أن يقضي معظم أوقاته في مقارعة الثائرين الذين قاموا ضده في كلّ ناحية ، إذ أن أحوال الأندلس كانت غايةً في الاضطراب قبل وصوله وتسلمه الحكم ، وكان الزعماء والوجهاء قد اعتادوا على الفوضى وعلى ضعف السلطة المركزية ، فلم يكن بوسعهم أن يقبلوا بسهولةٍ الخضوع التام لهذا القادم الأموي الجديد فأدلى كلّ منهم بدلوه في محاولة السيطرة على الإقليم الذي ظهر فيه ، علّه يتجح في ذلك فينتزع جزءاً من الأراضي الأندلسية يستقلّ بحكمها هو وذرّيته من بعده .

غير أن عبد الرحمن كان مصمّماً على أن يمسكَ دفة الحكم بقوة وعلى ألا يسمحَ بالانتزاء والخروج لأيّ زعيم وقائد كي لا تتفكك البلاد وتتقطع أوصالها فضحّى براحته في سبيل ذلك وهو الذي كان يستطيع أن يريحَ نفسه ويتمتعَ بأطايب الحياة تاركاً الأمور تسير على هواها طالما ان بيده شيئاً من السلطة وما يكفي من المال والجاه .

ولكن الداخل حرص قبل كلّ شيء على تأسيس دولة ولا بدّ إنه كانت لديه فكرة عن مقوّمات الدول إذ أنه سليل عائلة عريقة في الحكم ، فبذل كلّ ما بوسعه للمحافظة على أجزاء الدولة دون الضياع ونجح في ذلك فأخضع كلّ الثورات التي قامت عليه بل وتمكن من القيام بالغزو في أرض العدوّ كما سنرى بعد قليل وخصّص ما تبقّى من وقته بعد ذلك كلّه وهو القليل

---

(١) Ibidem

للبناء والعمران فكان صاحب الفكرة في بناء – أو على الأقلّ في تجديد – أعظم مسجد جامعٍ في الأندلس وهو مسجد قرطبة .

غزوات الداخل وعلاقته بالفرنجة :

لا شك أن الثورات المتعدّدة والمختلفة التي قامت على عبد الرحمن في كلّ مكان منذ مطلع حكمه ، لم تترك له الوقت الكافي للقيام بكثير من الغزوات نحو الشمال أكان ذلك في أراضي الدويلات الإسبانية الشمالية أم كان ذلك في أراضي دولة الفرنجة حيث كان للمسلمين بعض المراكز العسكرية التي لم يلبثوا أن فقدوها مع الزمن ، واضطروا إلى الانسحاب منها والاكتفاء بالأجزاء الواقعة جنوب جبال البرانس او « البرت » الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا .

وعلاوةً على قلّة الغزوات التي قام بها عبد الرحمن في تلك الأنحاء الشمالية فإن إقلال المصادر العربية في الحديث عنها يضعنا في موقفٍ حرجٍ حين نودّ التعرّض لها بالتفصيل ، وذلك إما لقلّة المعلومات التي وصلت إلى أيدي المؤرّخين العرب عنها وإما لأنها لم تكن ذات نتائج هامة .

ففيما يتعلّق بالدويلات الإسبانية في الشمال نعلم أن الأمير عبد الرحمن قد أرسل مولاه بدراً في غزوة نحو منطقة ألبة والقلاع Alavà في عام ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) أصابت كلّ النجاح واضطر حاكم المنطقة إلى تقديم خضوعه للمسلمين والقبول بدفع الجزية. ولقد أورد أحد الكتاب العرب وهو احمد النحاس الدمياطي نصّاً لمعاهدة عقدها بدر مولى عبد الرحمن مع حاكم مقاطعة ألبة كنتيجةٍ لتلك الغزوة باسم « الأمير الأكرم والملك المعظّم عبد الرحمن الأول ، لبطارقة ورهبان مقاطعة قشتاله وتوابعها ... » نصّت على أن يدفع سكان تلك المقاطعة للمسلمين سنوياً مبلغ إحدى عشرة الف اوقية من الذهب وعشر آلاف اوقية من الفضّة ويقدمون لهم عشرة آلاف حصاناً وعدداً

مماثلاً من البغال وألف خوذه وألف درع وألف رمح الخ ...[١] وهذا كلّه يدل على أن انتصار العرب في تلك الغزوة كان ساحقاً .

أما الغزوة التالية التي نملك عنها بعض المعلومات فهي تلك التي قام بها عبد الرحمن في عام ١٦٥ هـ (٧٨١ م) بمناسبة توجهه لإخضاع ثورة سرقسطة التي قام بها الحسين بن يحيى الأنصاري وسليمان بن يقظان الاعرابي ، اذ طلب الحسين بن يحيى الأمان من عبد الرحمن وقدم له ابنه رهينةً فقبل الأمير منه ذلك ورجع عنه ومعه «سعيد » ولد الحسين ، فلم يبقَ هذا مرافقاً للأمير أكثر من يومٍ واحد ثم فرّ من معسكره وتوجّه إلى أرض «بليارش Pallares » فانتهز عبد الرحمن فرصة وجوده في تلك المناطق الشمالية النائية ليقومَ ببعض الغارات العسكرية فاخترق بلاد البشكنس (Bascos) وخرّب بنبلونه Pamplona وقلهرّة Calahorra واجتاح ولاية شرطانية Cerdana التي أرغم أميرها على تقديم الطاعة وأداء الجزية وأخذ ابنه رهينة على ما يفهم من رواية صاحب أخبار مجموعة[٢] . ثم عاد بعد ذلك إلى قرطبة ظافراً بعد أن أكد قوة السلطة العربية في قرطبة .

غير أن الثورة التي أعلنت في سرقسطة لم تنتهِ بسهولة بل سبّبت لعبد الرحمن كثيراً من المتاعب إذ ما لبث زعماؤها أن عادوا الى العصيان بعد رحيل عبد الرحمن وتوجه أحدهم « سليمان بن يقظان » ــ كما سبق أن رأينا في حديثنا عن هذه الثورة في المكان المخصّص لها سابقاً ــ إلى بلاد الفرنجة حيث اجتمع بشارلمان زعيم الفرنجة وعرض عليه مساعدته في احتلال سرقسطة

---

(١) لم نستطع أن نطلع على نص المعاهدة الحرفي في الكتاب العربي الأصلي فاضطرنا إلى أخذ معلوماتها من كتاب المؤرخ الفرنسي الموثوق . ا.ليفي بروفنسال في كتابه « تاريخ إسبانيا الإسلامية » جـ ٤ ص ٧٧ .

(٢) يذكر صاحب أخبار مجموعة في هذا الصدد أن عبد الرحمن «كر على البشقنس ثم على بلاد الشرطانيس فحل بابن بلسكوط ؟ فأخذ ولده رهينة (ص ٥٩ – ٦٠).

إذا كانت له أية مطامع في الأندلس .

ولما كانت العلاقات بين الحكومة الإسلامية في قرطبة وبين دولة الفرنجة ليست على ما يُرام منذ احتلال العرب لشبه الجزيرة العربية ، بل إنه لما كان جزء هام من أراضي دولة الفرنجة في الجنوب قد خضع قبل ذلك للحكم العربي فإن قارله (شارلمان) قد رحّب بالعرض الذي قدّم له لاحتلال سرقسطة خاصة وأن سليمان بن يقظان أكّد له إن احتلال المدينة سيكون سهلاً وإنه سيجد أبوابها مفتوحةً لاستقباله ، وإنه قدم له علاوةً على ذلك ، « ثعلبة » قائد عبد الرحمن الذي تمكن من أسره ، رهينةً ودليلاً على صدق كلامه وصدق حلفه معه ضدّ الأمير الداخل .

ولقد شكّ بعض المؤرّخين في أن يكون سليمان بن يقظان قد عرض فعلا على شارلمان أن يأتي لاحتلال جزء من الأرض الأندلسية ، ولكن ذلك لم يكن بعيدَ الاحتمال أو مستحيلاً نظراً لأنّ عدداً من المغامرين قد أدلوا آنذاك بدلوهم أيضاً في الأندلس وحاولوا الوصول إلى السلطة بأيّ ثمن دون اخذ المفاهيم الوطنية دائماً بعين الاعتبار ، خاصةً وأن عدداً من ثقاة المؤرّخين العرب يؤيدون ذلك مثل ابن خلدون وصاحب أخبار مجموعة إذ يقول الأول : « قبض سليمان على ثعلبة وبعث به إلى ملك الفرنج »[1] كما يقول الثاني : « هجم سليمان بن يقظان على ثعلبة فأخذه في المظلّة فصار عنده أسيراً وبعث به إلى قارله ... »[2]

والمهمّ في الأمر أن شارلمان قرّر فعلاً اجتياز جبال البرانس والوصول إلى سرقسطة لاحتلالها ، فأعدّ حملةً كبيرة في عام ١٦١ هـ (٧٧٨ م) سار على رأسها بنفسه فعبر مضيق رونسسفال Roncevaux ووصل إلى مدينة بنبلونه فهاجمها وأخضعها على الرغم من إنها كانت تابعة للإسبان وليس

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٤ .
(٢) أخبار مجموعة ص ٥٩ .

للعرب ، مما يدلّ على أنّ شارلمان لم يكن يهتمّ بهذه الناحية ويتطلّع إلى المكاسب العسكرية والسياسية كيفما اتت .

ثم تابع طريقه بعد ذلك حتى وصل إلى أبواب سرقسطة فوجدها مغلقةً بوجهه ووجد أن عليه أن يفرضَ الحصار الطويل كي يتمكنَ من فتحها ، فبدأ بمحاصرتها فعلاً . ويبدو أن الحسين بن يحيى الأنصاري بعد أن بقي يحكم المدينة لمفرده دون مشاركة حليفه سليمان بن يقظان قد تعلّق بالحكم وصعب عليه التخلّي عنه ، فغيّر رأيه في الأمر وعوضاً عن ان يكونَ مع جنده في استقبال شارلمان كما كان هذا يتصوّر بناءً على وعد ابن يقظان ، أغلق الأبواب وطلب إلى شارلمان أن يعودَ من حيث أتى .

وبدأ حصار سرقسطة فدافع الحسين بن يحيى عنها باستماتة وصمّم على بذل كلّ ما باستطاعته قبل أن يسلمها إلى شارلمان . وطال الحصار حتى نفذ صبر زعيم الفرنجة وأراد الرحيل فكان ابن يقظان يشجعه على مواصلته ويؤكد له أن المدينة لن تستطيعَ الصمودَ طويلاً أكثر مما صمدت .

بيد أن شارلمان قد تعب من جهة وأتته على ما تذكر الروايات أنباء عن قيام ثورةٍ عليه في بلاده من جهةٍ أخرى ، فقرّر رفع الحصار وأمر جيشه بالعودة من حيث أتى ، وقبض على سليمان بن يقظان وساقه معه في طريق العودة معتبراً إياه كاذباً في الوعود التي قدّمها له . وقد هاجم الجيش الفرنجي مدينة بنبلونه مرةً ثانية في طريق العودة وهدّم حصونها ثم تابع بعد ذلك مسيره نحو ممرّ رونسسفال الذي قدم منه .

ومن الطبيعي ان يضطر شارلمان وجيشه عند عبورهم هذا الممرّ أن يسيروا في صفوفٍ ضيّقة وطويلة نظراً لضيق الممرّ نفسه وهنا كان جيش عربي قد هيّأ نفسه للحاق بشارلمان بعد هزيمته أمام أبواب سرقسطة يقوده مطروح وعيشون ابنا سليمان بن يقظان الذي قاده شارلمان معه أسيراً في طريق العودة ، لتخليص أبيهما من الأسر والانتقام من تلك الغارة الفرنجية . فلما

عبر جيش شارلمان ذلك الممرّ انقضّت القوات العربية على مؤخرة جيش شارلمان وأعملت فيها القتل فلم ينجُ منها أحد .

ونحن وإن كنّا لا نعلم عدد القتلى من الطرفين إلا أننا نقدّر أنه كان كبيراً في الجانب الفرنجي بينما كانت الخسائر في الجانب العربي طفيفةً نظراً لاعتماده على عنصر المفاجأة ونظراً لأنّ معظم الجيش كان قد اجتاز الممرّ ولم يكن بوسعه العودة لإنقاذ أفراد المؤخرة . إنّ معظم المعلومات التي توجد بين أيدينا عن حملة شارلمان هذه مستقاة من مصادر فرنجية وليست عربية لصمت هذه عن حوادث هذه الحملة ، غير أن هذه المصادر الفرنجية ترجّح أن تكون معظم القوّات التي هاجمت مؤخرة جيش شارلمان من الإسبان الذين نقموا عليه لمهاجمته مدينة بنبلونة وتدميره لحصونها فأصرّوا على اللحاق به والانتقام منه بينما كانت الأقلية من المسلمين ، في حين نرى من الطبيعي جداً وللأسباب التي سبق ذكرها أن تكون القوات التي قضت على مؤخرة جيش شارلمان عربية او ان يكون القسم الأكبر منها عربياً على الأقلّ ، إذ كانت الحملة في الأساس موجّهةً ضدّ الأندلس العربية وليس ضدّ الدويلات الإسبانية . غير أنّ هذا لا يمنع أن تكون قوتان احداهما عربية والأخرى إسبانية قد اشتركتا بدافع المصلحة المشتركة في تلك العملية العسكرية .

هذا ويورد « إيجيناردو » مؤرّخ شارلمان نصّاً عن هذه الموقعة يقول فيه : « لما كانت جيوش شارلمان تسير في صفوف طويلة نظراً لضيق ممرّ رونسسفال ، وكانت الغابات الكثيفة كثيرةً هناك ومناسبةً للكمائن ، فإن القوات الباسكية التي كانت مختبئةً هناك ، انحدرت من بعض القمم وهاجمت قوافل مؤخرة جيش شارلمان والقوات التي كانت تقوم بحراسة تلك القوافل فتمكنت من إبادتها عن آخرها ووضعت يدها على كلّ ما كانت تحمله ثم اختفت عن مسرح المعركة بسرعةٍ غريبة ، مختبئةً تحت جنح الظلام ».

« وكان مما ساعد الباسكيين على ربح المعركة آنذاك خفة السلاح الذي

يحملونه ومعرفة الأرض التي يتحركون فوقها ، في حين كانت أسلحة الفرنجة ثقيلة وخطوطهم عميقة متباعدة . ولقد قتل في هذه المعركة عدد من كبار رجال الدولة على رأسهم النبيل « إيجيهاردو » وأمير القصر « انسلمو » ودوق مقاطعة بورغونيا « رولان » دون أن تستطيع بقية الجيش الفرنجي الانتقام لما حصل نظراً لأن الأعداء قد تفرّقوا حالما فرغوا من توجيه ضربتهم ، ولم يعرف أحد أيّ مكان قصدوا[1] » .

ويبدو من هذا النصّ أن صاحبه يعتقد بأنّ الضربة كانت موجهة من قبل الباسك لا من قبل العرب ، ومع ذلك فقد أبدينا وجهة نظرنا في ذلك . كما يبدو من هذا النصّ أن ما حصل في ممرّ رونسسفال كان ضربةً أليمة بالنسبة للجيش الفرنجي الذي لم يعد يفكر في عبور تلك الجبال مرةً أخرى للوصول إلى المدن الأندلسية ومحاولة احتلالها .

وقد تبيّن شارلمان مما حدث أن الاتفاق الذي عقده مع بعض الثائرين لا يعتمد على أساسٍ سليم وأنّ المهمّ بالنسبة إليه ليس مهاجمة الممتلكات العربية في الجنوب بل المحافظة على ممتلكاته من هجوماتٍ عربية مقبلة .

ولذا نراه على اثر تلك الحملة ، يعتني بتنظيم مقاطعة أكيتانيا في الجنوب لكي يقعَ على عاتقها العبء الرئيسي للدفاع عن البلاد ضدّ أية محاولة للغزو يحاول حكام قرطبة القيام بها . بل إنه أراد أن يعطي المزيد من الأهمية لتلك المقاطعة المذكورة فرسم حدودها بحيث تشمل مساحةً شاسعة من الأرض وجعلها مملكة تابعة له بطبيعة الحال عيّن عليها ابنه لويس الذي سيعرف فيما بعد بلويس التقيّ واصطحبه معه إلى روما حيث توّجه ملكاً على اكيتانيا في عام ٧٨١ م[2] .

---

(١) Eginardo apud E. Levi — Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane TIV pp. 82-83.

(٢) Jbidem p. 84.

بعد ذلك كلّه ساد الهدوء حدود الدولتين المتجاورتين العربية في الأندلس والفرنجية في فرنسة لبعض الوقت وحصلت اتصالات بين شارلمان والأمير عبد الرحمن الأول حاول الطرفان فيها ان يتوصلا فيما بينهما إلى أساسٍ للصلح بل وللمصاهرة . يقول صاحب نفح الطيب في هذا الصّدد : « وخاطب عبد الرحمن قارلة ملك الإفرنج ، وكان من طغاة الإفرنج ، بعد أن تمرّس به مدة ، فأصابه صلب المكسر ، تام الرجولة ، فمال معه إلى المداراة ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فأجابه للسلم ، ولم تتمّ المصاهرة »(١) .

ويظهر أن أساس المصاهرة كان يعتمد على إمكان اقتران عبد الرحمن بابنة شارلمان ولكن أياً من الطرفين لم يعلّق على الموضوع أهمية ، وكانت هناك قضية الاختـلاف الديني ، التي وقفت حائلاً حسبما يذكر بعض المؤرّخين ، دون إتمام ذلك الأمر .

ولكن من المؤكد أن تلك الاتصالات قد أدّت إلى إيجاد حالةٍ من المهادنة بين الطرفين فلم يعرفْ عن الداخل أنه قام بأية غزوة في أراضي الفرنجة كما أن شارلمان لم يعد إلى التدخل في شؤون الأندلس ولو أن المصادر تتحدث عن اتصاله بهارون الرشيد فيما بعد وبالدولة العباسية على أساس المصلحة المشتركة التي تجمع بين العباسيين والفرنجة ضدّ الدولة الأموية في الأندلس .

أعماله العمرانية :

كما أن الثورات الكثيرة لم تترك للأمير عبد الرحمن بن معاوية وقتاً كافياً كي يخصّصه للغزو ، فإنها لم تترك له كذلك وقتاً كبيراً لشؤون البناء والعمران . ولكن مع ذلك فلا بدّ أن يكونَ قد أنجز عدد من المشاريع العمرانية في عهد مؤسّس دولةٍ مثله ، علاوةً على المسجد الجامع والقصر التي لا زالت آثارهما دليلاً على عظمتهما « بنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة ، وأنفق فيه ثمانين

---

(١) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣١٠ .

ألف دينار ، ومات قبل تمامه ، وبنى مساجد ... »[1]

وأبرز في ذات الاله ووجهــه ثمانين الفاً من لجين وعسجد
وأنفقها في مسجد زانه التقــى وقرّ به دين النبيّ محمــد
ترى الذهب الوهاج بين سموكه يلوح كلمح البارق المتوقــد

هذا وقد خصّص عدد كبير من المؤرّخين العرب القدماء صفحات طويلة للحديث عن هذا المسجد الجامع الذي بناه الداخل في قرطبة أو بالأحرى جدّد بناءه إذ أن بعض المؤرّخين يذكرون أن المسجد كان يوجد بشكل متواضع قبل الداخل – كما سبق أن ذكر في حينه – فخرج المسجد آية في فنّ البناء والهندسة والزخرفة حتى وصفه صاحب « مسالك الإبصار » بقوله : « إنه مسجد عظيم ليس في مساجد المسلمين مثله بنيةً وتنميقاً وطولاً وعرضاً[2] » كما تابع هذا المؤرّخ وصف ثرياته وسقفه والخشب الذي استعمل في بنائه والأقواس التي تخلّلته والألوان التي لوّن بها « تروق العيون وتستميل النفوس بإتقان ترسيمها ومختلفات ألوانها وتقسيمها »...[3]

ووصف أعمدته فقال « أن لكل عمود رأس رخام وقاعدة . وقد عقد بين العمود والعمود على أعلى الرأس قسيّ غريبة عليها قسي أخر[4] ، على عمد من الحجر المنحوت متقنة »[5] وشاركه صاحب « الروض المعطار » في ذلك الوصف فقال عن قبلة المسجد أنها « قبلة يعجز الواصفون عن وصفها ، وفيها إتقان يبهر العقول تنميقها ، وفيها من الفسيفساء والذهب الملوّن »[6] ...

(١) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٠٨ .
(٢) ابن العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ص ٢١٢ .
(٣) نفس المصدر السابق .
(٤) « قسي غريبة عليها قسي أخر » عنى بها وصف الأقواس المزدوجة التي تصل بين أعمدة المسجد الجامع والتي تميز فن بنائه وزخرفته عن غيره من المساجد .
(٥) نفس المصدر السابق .
(٦) الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ص ١٥٥ .

ثم قال : « أنه كان يوجد في الجهة الشمالية منه الصومعة ، الغربية الشكل والصنعة ، الجليلة الأعمال الرائعة ، ارتفاعها مائة ذراع ، منها ثمانون ذراعاً إلى الموضع الذي يقف عليه المؤذّن ومن هناك إلى أعلاها عشرون ذراعاً »[1] .

هذا وقد زيد في بناء ذلك المسجد زيادات كثيرة في عهد كلّ من أمراء بني أمية واشتهرت بخاصة الزيادات التي أحدثها الخليفة الناصر والحاجب المنصور ابن أبي عامر .

وقد بنى عبد الرحمن الداخل كذلك قصراً منيفاً للإمارة أصبح مقرّاً دائماً له ولمن تولّى الحكم بعده من أمراء وخلفاء بني أمية بالأندلس ، فكان عبد الرحمن بذلك كلّه المؤسّس الأول والحقيقي لدولة بني أمية في تلك البقعة من العالم .

شخصيته الإدارية والإجتماعية :

لن نعودَ هنا إلى ذكر الصفات الفيزيولوجية التي أوردها المؤرّخون لعبد الرحمن بن معاوية ، إذ إثبتناها عند بدء حديثنا عنه ويمكن الرجوع إليها. كما إننا أوردنا آنذاك نصّاً للمقري يتحدث عن التصميم والعزيمة وحسن الإدارة التي أظهرها الداخل في تصريف الأمور منذ دخوله الأندلس ، ونصّاً لابن خلدون يلخّص فيه أهم الأعمال التي قام بها موسس الدولة الأموية في الأندلس خلال حكمه . غير أنّ هذه النصوص القليلة التي أوردناها عن شخصيته لم تكن في الواقع إلا نذراً يسيراً من التعليقات الكثيرة التي خصّصها المؤرّخون لتحليل شخصيته والحديث عن ذلك الرجل الذي يعتبر نجاحه في الاستيلاء على الحكم بمفرده وبمن انضمّ إليه فيما بعد من الأعوان ، ملحمةً من ملاحم ذلك العصر .

يتحدث ابن حيّان عن صفاته النفسية فيقول بأنه « كان راجح الحلم ،

---

(١) Ibidem

فاسح العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئاً من العجز ، سريع النهضة ، متصل الحركة ، لا يخلد إلى راحة ولا يسكن إلى دعة ، ولا يكل الأمور إلى غيره ، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه ، شجاعاً ، مقداماً ، بعيد الفور ، شديد الحدّة ، قليل الطمأنينة .. »[1]

ثم يتحدث عن كرمه فيقول بأنه « كان محسناً ، سمحاً ، سخياً »[2] ويتحدث عن بلاغته فيقول بأنه « كان بليغاً ، مفوّهاً ، شاعراً ، طلق اللسان »[3] . ثم يتابع ابن حيّان حديثه عن بعض العادات الإجتماعية للأمير عبد الرحمن فيصفه بأنه كان يحبّ لبس البياض ويحبّ أن يعتمّ به كما كان يحضر الجنائز ويصلّي عليها ويتردّد على المساجد للصلاة في الناس خاصة أيام الجمع والأعياد ، ويخطب على المنبر ، ويزور المرضى ويكثر من التحدث مع الناس والتنقل بينهم .

ثم حدث معه ذات يوم ٍ حين كان يحضر إحدى الجنائز أن تصدّى له عند منصرفه رجل من عامة الناس له ظلامة فقال له : « أصلح الله الأمير ! إن قاضيكَ ظلمني ، وأنا أستجيركَ من الظلم » . فقال عبد الرحمن : « تنصف أن صدقت » . فمدّ الرجل يده إلى عنان فرسه وقال : « أيها الأمير أسألك بالله لما برحت من مكانك حتى تأمر قاضيك بإنصافي فإنه معك » . فوجم الأمير والتفت إلى من حوله من حشمه فرآهم قليلاً ، ودعا بالقاضي ، وأمر بانصافه .

فلما عاد إلى قصره كلّمه بعض رجاله في الأمر ورجوه أن يخفّف من خروجه تفادياً لحدوث ما من شأنه أن يعكّر صفوه ويعرضه للاحتكاك بالعامة . فيذكر أنه ترك على أثر تلك الحادثة شهود الجنائز وحضور المحافل وأوكل بذلك ابنه هشاماً .

---

(٢) ابن حيان عن المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦ والنويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ١٧ .
(٢) المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦ .
(٣) Ibidem

وقد عرف عن الداخل أنه كان يجلس للعامة ويسمع منهم وينظر بنفسه فيما بينهم ، ويوصل إليه من أراده من الناس ، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظلامته أليه دون مشقّة . وكان من عادته أن يأكلَ معه من أصحابه من أدرك وقتَ طعامه ، ومن وافق ذلك من طلاّب الحوائج .

هذا وقد كان عبد الرحمن حريصاً على ألا يريقَ أحد ماءَ وجهه أمامه ، فقد حدث أن مثل بين يديه رجل من جند قنّسرين أخذ يستجديه لكي يهبَه بعض المال . فألقى عليه درساً في المروءة وأجابه بأنه لن يخيّب طلبه في هذه المرة وسيأمر بإعطائه بعض المال ولكن عليه ألا يعودَ في المرّات القادمة إلى مقابلة الأمير لمثل ذلك الغرض . كما أن عليه أن يحفظ ماء وجهه فيعدل عن الطلب صراحة بهذا الشكل وعن الإلحاح في الطلب ، مكتفياً بتوجيه رقعةٍ صغيرةٍ إليه كي يسترَ حاجته .

وقد قال عبد الرحمن ذلك كلّه بلغة فصيحة وأدب بديع أدهش سامعيه ، وسنعمد إلى إيراد ذلك النصّ حرفياً عندما نتحدث عن شخصيته الأدبية .

كما ان عبد الرحمن الداخل لم يكن يسمح بالاجتراء عليه . فلما اتخذ مكانه ذات يومٍ في مجلسه لكي يهنئه الناس على أثر اخماده للثورة التي قام بها الحسين الأنصاري في سرقسطة ، كان من جملة المهنّئين جندي عادي هنّأه بصوتٍ عالٍ دون ان يتهيّب مركز الإمارة ، فوبّخه عبد الرحمن وأكّد له بأنّ عقابهً كان سيكون كبيراً لولا المناسبة . فاعتذر الجندي بأدبٍ وفصاحة مما جعل عبد الرحمن يرضى عنه . وسنعود كذلك إلى ذكر هذه الحادثة عند التعرّض لأدب الأمير .

وفي مجال محافظة « الداخل » على هيبته وسلطته فقد رأينا بانه عندما رأى بأنّ تلك الهيبة يمكن أن تنتقص حتّى من قبل أقرب الناس إليه ، أوقفهم عند حدّهم بل وبطش بهم عندما لزم الأمر كما فعل مع رئيس اليمانية أبي الصبّاح يحيى اليحصبي الذي كان أحد دعائم دولته ، وكما فعل مع ابن

اخيه الوليد بن المغيرة وابن عمه عبد السلام بن يزيد بن هشام المعروف باليزيدي وابن أخٍ آخر له هو عبيد الله بن ابان ومع أبي عثمان وحتى مع مولاه بدر حين أخذ هذا العجب بنفسه وظنّ انه حرّ التصرّف في أمور الدولة كما يشاء « ذكر أنه غضب عليه في عام ١٥٦ هـ (٧٧٣ م) لفرط إدلاله عليه فأخذ ماله وسلب نعمته ونفاه إلى الثغر ولم يدعْ له حقوقَ الخدمة »[١] . هذا كلّه دفع المؤرّخين إلى أن يقولوا عن عبد الرحمن إنه « أعطي هيبة من وليّه وعدوّه »[٢] .

وفي مجال الحديث عن الصفات الشخصية لعبد الرحمن الداخل لا بدّ من القول بأنه كان يبتعد عن الصغائر ومنها شرب الخمر ومعاشرة النساء . فيذكر أنه لما خرج من البحر اول قدومه من الأندلس أتوه بخمره فقال : « إني محتاج لما يزيد في عقلي ، لا لما ينقصه ». ثم أهديت إليه جارية جميلة ، فنظر إليها وقال: « إنني إن اشتغلتُ عنها بهمّتي فيما أطلبه ظلمتُها ، وان اشتغلتُ بها عما أطلبه ظلمتُ همتي ، ولا حاجةَ لي بها الآن »[٣] ، وأمر بردّها إلى صاحبها .

هذا ويذكر أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور كان من أشدّ الناس تقديراً لعبد الرحمن بن معاوية إذ يروى عن لسانه بضعة أحاديث تتعلّق به وبأعماله . فعلاوةً على ما ذكرناه من قوله : « الحمد لله الذي جعل بيني وبينه البحر » على أثر مشاهدته لرأس العلاء بن مغيث أثناء وجوده في الحج بعد أن قتله عبد الرحمن بن معاوية ، يذكر عنه إنه قال : « لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذي الفذّ في جميع شؤونه ، وعدمه لأهله ونسبه ، وتسلّيه عن جميع ذلك ببعد مرقى

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ١٢ .
(٢) المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦ .
(٣) نفس المصدر السابق ص ٤٢ .

همته ، ومضاء عزيمته . حتى قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بسياسته ، حتى انقاد له عصيهم ، وذل له أبيهم ، فاستولى فيها على أريكته ، ملكاً على قطيعته ، قاهراً لأعدائه ، حامياً لذماره ، مانعــاً لحوزته ، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه ، إن ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه »(١) .

كما يروى عن لسان أبي جعفر المنصور أنه قال يوماً لبعض جلسائه : «أخبروني من صقر قريش من الملوك ؟ » قالوا : « ذاك أمير المؤمنين الذي راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء وحسم الأدواء » . قال : « ما قلتم شيئاً » . قالوا : « فمعــاوية » قال : « لا » قالوا : « فعبد الملك ابن مروان » قال : « ما قلتم شيئاً » قالوا : « فمن يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « هو عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر وقطع القفر ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ودون الدواوين، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته » ..

« إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ؛ وأمير المؤمنين بطلب عترته واجتماع شيعته ؛ وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين وأذل الجبابرة الثائرين . فقال الجميع : صدقت والله يا أمير المؤمنين »(٢) .

وقد دفع إعجاب المنصور العباسي هذا بالداخل الأموي بعض المؤرخين

---

(١) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣١٠ .

(٢) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب جـ ٢ ص ٨٨ – ٨٩ ، أخبار مجموعة ص ٦٢ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٢ .

الى محاولة إيجاد أوجه شبه بين الرجلين فذكر المقري أن الداخل يقاس بأبي جعفر المنصور في عزمه وشدته وضبط مملكته ... وإن أم كلّ منهما بربرية وأن كلاً منهما قتل ابن اخيه الخ[1] ....

شخصيته الأدبية

سبق أن ذكرنا في جملة صفات عبد الرحمن أنه كان فاسح العلم ، ثاقب الفهم ، بليغاً ، مفوّهاً ، شاعراً ، طلق اللسان ... وبناء على ذلك فإننا لا نستغرب أن تكون له آثار أدبية وشعرية وأن يكون قد نظم الشعر إلى جانب تميّزه بأسلوبٍ أدبي متين .

ولقد لاحظ الناس الذين احتكّوا بعبد الرحمن الداخل أن لغته كانت رفيعةً فعلاً « وإنه كان يكلّم رؤساء الناس ووجوههم بكلامٍ يسرّهم ويطيب نفوسهم ، فينصرفون عنه مغتبطين مسرورين ، يتدارسون كلامه ويتهافتون بشكره »[2] .

كما تحدث صاحب المسهب عن طول باعه في اللغة والأدب بقوله : « إن عبد الرحمن كان من البلاغة بالمكان العالي ، الذي يرتدّ عنه أكثر بني مروان حسيراً »[3] .

وكان مما أثبته المؤرّخون في أسفارهم من حديث عبد الرحمن تلك المقاطع التي وجّهها إلى رجلٍ طلب مقابلته لكي يطلب منه مالاً فقال له : « قد سمعنا مقالتك ، وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على دهرك، على كرهنا لسوء مقامك ، فلا تعودنّ ولا سواك لمثله من إراقة ماء وجهك ، بتصريح المسألة والإلحاف في الطلبة ، وإذا ألمّ بك خطب أو ضر بك أمر ، فارفعه إلينا

---

(١) المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٥٤ وذكر المؤرخ نفسه نصاً مشابهاً نقله عن ابن حيان في ج ١ ص ٣١١ .

(٢) ابن حيان عن المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٣٨ .

(٣) نفس المصدر السابق ص ٣٩ .

في رقعةٍ لا تعدوك ، كيما نستر عليكَ خلّتك ، ونكفّ شمات العدوّ عنك . بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا عزّ وجهه باخلاف الدعاء وصدق النيّة »(١) وأمر له بجائزةٍ حسنة ، وخرج الناس يتعجبون من حسن منطقه وبراعة أدبه ، وكفّ فيما بعد ذوو الحاجات عن مقابلته بها شفاهاً في مجلسه .

كما وصلت إلينا مقاطع من مخاطبته لأحد الجند الذين أقبلوا عليه يهنئونه بمناسبة سحقه لثورة سرقسطة ، مع أن العادة لم تجرِ بأن يقدّم الجند العاديون التهنئة للأمراء ، علاوةً على أنه رفع صوته أثناء الحديث ، فقال له عبد الرحمن :

« والله لولا أن هذا اليوم قد أسبغ عليّ فيه النعمة من هو فوقي فأوجب على ذلك أن أنعم على من هو دوني لأصلينّك ما تعرضت له من سوء النكال ؛ من تكون حتى تقبل مهنّئاً رافعاً صوتك غير متلجلج ولا متهيّب لمكان الإمارة ولا عارف بقيمتها ؟ حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك ، وإن جهلك ليحملك على العود لمثلها ، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة » ؛ فقال له الرجل « ولعلّ فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي ، فتشفع لي متى أتيت بمثل هذه الزلّة ، لا أعدمنيه الله تعالى » . فتهلّل وجه الأمير ، وقال : « ليس هذا باعتذار جاهل . نبّهونا على أنفسكم ، إذا لم تجدوا من ينبهنا عليها(٢) » ورفع مرتبته ، وزاد في عطائه .

اما المراسلات التي دارت بينه وبين ساعده الأيمن مولاه « بدر » عندما فترت العلاقات بين الرجلين للأسباب التي مرّ ذكرها ، فلا يجوز أن تهمل كذلك لقيمتها الأدبية ، علاوةً على دلالتها التاريخية . ويظهر ان بدراً قد عتب على الأمير عبد الرحمن بعد أن قوي أمره واستقرّ حكمه ، لعدم اعتماده عليه في كلّ شيء وعدم إسناد المكانة الأولى في الدولة إليه . فنمي عن بدر

---

(١) Ibidem

(٢) نفس المصدر السابق جـ ٤ ص ٤١ .

في هذا المجال قوله : « إنما تعبنا اولاً لنستريح آخراً ، وما أرانا إلا في أشدّ مما كنّا. وردّد مثل هذه الأقوال فزاد ابتعاد الأمير عنه ، فكتب إلى عبد الرحمن يقول : « أما كان جزائي في قطع البحر ، وجوب القفر ، والإقدام على تشتيت نظام أُمملكة واقامة اخرى غير الهجر ، الذي أهانني في عيون أكفائي ، وأشمت بي أعدائي ، وأضعف أمري ونهيي عند من يلوذ بي ، وبتّر مطامع من كان يكرمني ويحفدني على الطمع والرجاء ، وأظنّ أعداءنا بني العبّاس لو حصلتُ بأيديهم ما أبلغوا بي أكثر من هذا، فانا لله وإنا إليه راجعون »[1] .

فلما وقف عبد الرحمن على رقعته اشتدّ استياؤه منه فكتب إليه على نفس الورقة : « وقعت على رقعتك المنبئة عن جهلك ، وسوء خطابك ، ودناءة أدبك ، ولئيم معتقدك ، والعجب أنك متى أردت ان تبني لنفسك عندنا متاتاً أتيتَ بما يهدم كل متات مشيّد مما تمنّ به ، مما قد أضجر الأسماعَ تكرارُه ، وقدحتْ في النفوس إعادتُه ، مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك ، وزدنا في هجرك وإبعادك ، وهضنا جناح إدلالك ، فلعلّ ذلك يقمع منك ويردعك حتى نبلغَ منك ما نريد إن شاء الله تعالى ، فنحن أولى بتأديبك من كلّ أحد ، إذ شرّك مكتوب في مثالبنا ، وخيرك معدود في مناقبنا » .

فلما وردَ هذا الجواب على بدر أسقط في يده وعلم أنه لا ينفع فيه قول ؛ ووجه عبد الرحمن إليه من استأصل ماله وألزمه داره ... ومع هذا فقد ظلّ بدر يرجو عودة مولاه إلى سابق عهده ويكثر من مخاطبته يستلينه تارة ، ويذكره بحالته تارةً أخرى، فكان مما كتب إليه: « قد طال هجري ، وتضاعف همّي وفكري ، وأشدّ ما عليّ كوني سليباً من مالي ، فعسى أن تأمر لي بإطلاق مالي ، واتحد به في معزل لا أشتغل بسلطان ، ولا أدخل في

(١) نفس المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٩ .

شيء من أموره ما عشت » . فأجابه عبد الرحمن : « إن لك من الذنوب المترادفة ما لو سلب معها روحك لكان بعض ما استوجبته ، ولا سبيل إلى ردّ مالك . فإن تركك بمعزل في بلهنية الرفاهية وسعة ذات اليد والتخلي من شغل السلطان ، أشبه بالنعمة منه بالنقمة ، فايأس من ذلك ، فانّ اليأس مريح » .

وقد استسلم بدر بعض الوقت صامتاً بعد ذلك إلى أن أتى عيد فاشتدّ به حزنه فكتب إليه يقول : « وقد أتى هذا العيد الذي خالفت فيه أكثر من أساء اليك وسعى في خراب دولتك ممن عفوت عنه ، فتبنّك[1] النعمة في ذراك ، واقتعد ذروة العزّ ، وأنا على ضدّ من هذا ، سليباً من النعمة ، مطّرحاً حضيض الهوان ، أيأس مما يكون ، وأقرع السنّ على ما كان » .

فلما وقف على هذه الرقعة أمر بنفيه عن قرطبة إلى إحدى المدن الشمالية من خطوط العدوّ وكتب إليه : « لتعلم إنك لم تزل بمقتك حتى ثقلت على العين طلعتك ، ثم زدتَ إلى أن ثقل على السمع كلامك ، ثم زدتَ إلى أن ثقل على النفس جوارك ، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر فبالله إلا ما أقصرت ، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيق معي الدنيا ، ورأيتك تشكو لفلان وتتألم من فلان ، وما تقوّلوه عليك ، وما لك عدوّ أكبر من لسانك ، فما طاح بك غيره ، فاقطعه قبل أن يقطعك »[2] .

ومتابعةً للأمثلة الأدبية التي نقلت على لسان الداخل ، إجابته لسليمان بن يقظان الأعرابي الذي سار في سرقسطة ، على كتابٍ منه سلك فيه سبيل الخداع : « أما بعد ، فدعني من معاريض الأعذار ، والتعسّف عن جادّة الطريق ، لتمدنّ يداً إلى الطاعة والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لأزوينّ بنانها عن رصف المعصية ، نكالاً بما قدمت يداك ، وما الله بظلامٍ للعبيد »[3] .

---

(١) تبنك النعمة : تمكن منها .

(٢) المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ٤١ .

(٣) المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ٤٢ .

ولما اشتدت الحرب يوم قتاله مع عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي كان قد اتصل بأبي جعفر المنصور ، قال : « هذا اليوم هو أسّ ما يبنى عليه ، أما ذلّ الدهر وإما عزّ الدهر . فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون »[1] .

فلما انتصر أصحابه وأخذوا يتتبعون فلول الفهري قال : « لا تستأصلوا شأفة أعداءٍ ترجون صداقتهم . واستبقوهم لأشدّ عداوة منهم »[2] .

وكتب عنه أمية بن زيد كتاباً إلى بعض عماله يستقصره فيما فرّط من عمله ، فأكثر واطال الكتابة ، فلما لحظه عبد الرحمن بن معاوية أخذ منه الورقة وكتب بخطّ يده : « أما بعد فإن يكن التقصير لك مقدّماً ، فعند الاكتفاء يكون لكَ مؤخّراً ، وقد علمتُ بما قدمتَ فاعتمد على أيّهما أحببت »[3] .

وثار عليه ثائر فقاتله وظفر به ، فبينا هو في الطريق إذ نظر إلى الثائر وهو مكبّل فوق البغل وتحت الأمير عبد الرحمن فرس ، فلما لحقه ، ضرب رأس البغل بالسوط وقال : « يا بغلُ ماذا تحمل من الشقاق والنفاق ! » فقال الثائر : « يا فرسُ ماذا تحمل من العفو والإشفاق » فقال : « والله لاذقتَ موتاً على يديّ »[4] وأطلقه .

ولما استقامت الأمور لعبد الرحمن وتوطّدت أركان دولته ، بلغه عن بعض من أعانه في ذلك أنه قال : « لولا أنا ما توصّل لهذا الملك » وعن آخر أنه قال : « سعده أعانه لا عقله وتدبيره » فدفعه ذلك إلى نظم الأبيات التالية :

لا يُلفَ ممتنٌّ علينا قائل « لولاي ما ملك الأنامَ الداخلُ »

(١) نفس المصدر السابق ص ٣٩ .
(٢) نفس المصدر السابق ص ٤١ .
(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٨٧ .
(٤) نفس المصدر السابق .

سعدي وحزمي والمهنّد والقنا ... ومقادر بلغت وحال حائل
إنّ الملوك مع الزمان كواكب ... نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كلّ الحزم ان لا يغفلوا ... أيرومُ تدبيرَ البرية غافلُ
ويقول قوم سعده لا عقله ... خير السعادة ما حماها العاقل
أبني أمية قد جبرنا صدعكم ... بالغرب رغماً والسعود قبائل
ما دام من نسلي إمام قائم ... فالملك فيكم ثابت متواصل

وذكر أن جماعةً أفاضوا أمامه بالحديث عن الغمر بن يزيد بن عبد الملك وعن بعض مواقفه الجريئة ومعارضته لأعدائه وهم في مركز القوة ، فنظم عبد الرحمن بعض الأبيات التي أراد أن يقول فيها أن ما فعله كان أعظم مما فعله الغمر بن يزيد وأن جرأته كانت أعظم من جرأة الغمر ، فقال :

شتّان من قام ذا امتعاض ... فمرّ ما قال واضمحلاّ
ومن غدا مصلتاً لعزم ... مجرّداً للعداة نصلا
فجاب قفراً وشق بحراً ... ولم يكن في الأنام كلاّ
فشاد ملكاً وشاد عزّاً ... ومنبراً للخطاب فصلا
وجنّد الجند حين أودى ... ومصّر المصر حين أجلى
ثم دعا اهله جميعاً ... حيث انتأوا أن هلمّ أهلا
فجاء هذا طريد جوع ... شديد روع يخاف قتلا
فنال أمناً ونال شبعاً ... ونال مالاً ، ونال أهلاً
ألم يكن حقّ ذا على ذا ... أعظم من منعم ومولى(١)

وذكر الرازي أنّ الأمير عبد الرحمن أول نزوله في منية الرصافة واتخاذه لها نظر فيها إلى نخلةٍ فأهاجت أشجانه وقال بديهة :

---

(١) وردت بعض الأبيات بشكل مختلف بين مصدر وآخر في بعض الكلمات وفي عدد الأبيات . فالبيت الأخير لم يرد إلا في هامش « المعجب » ص ١٨ للمؤرخ عبد الواحد المراكشي . أما البيتان اللذان سبقاه أي قبل الأخير ، فلم يوردها المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٤٣ بينما أوردها صاحب المعجب وابن عذاري في البيان المغرب ج ٢ ص ٨٧ — ٨٨ ، بتغيير بسيط في بعض الكلمات .

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلتُ شبيهي في التغرّب والنوى وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي
نشأتِ « بأرضٍ » أنتِ فيها غريبة فمثلكِ في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتكِ غوادي المزن من صوبها الذي يسحّ ويستمري السماكين بالوبل

كما أنه نظم بضعة أبياتٍ يحنّ فيها إلى موطنه في بلاد الشام ، فقال :

أيهــا الركب الميمّم أرضي أقرِ من بعضي السلام لبعض
إن جسمي كما علمتَ بأرضٍ وفؤادي ومالكيــه بأرض
قدّر البين بيننــا فافترقنــا وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينــا فعسى باجتماعنا سوف يقضي

إنّ جميع هذه الأمثلة النثرية والشعرية للأمير عبد الرحمن الأول تدلّ على طول باعه في عالم الأدب ، فتضيف صفة هامةً إلى صفاته الشخصية الأخرى التي تميّز بها والتي ساعدته على التغلّب على كلّ الصعوبات التي لقيها أثناء حكمه وعلى إقامة دولةٍ ثابتة الدعائم ، موطّدة الأركان توارثها هو وابناؤه من بعده قرابة ثلاثة قرونٍ .

ولاية عهد الداخل :

كنّا قد رأينا في بداية حديثنا عن إمارة عبد الرحمن بن معاوية ، أنه حينما فرّ أمام الجيوش العباسية من بلاد الشام ، ترك وراءه ولدين أكبرهما اسمه سليمان وكان عمره آنذاك أي في عام ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) أربع سنوات .

فلما تمّ لعبد الرحمن السيطرة على مقاليد الأمور في الأندلس وتمكن من القضاء على أوائل الثورات التي قامت ضدّه في السنوات العشر الأولى وأصبح مطمئناً إلى إمكانية تأسيس عائلةٍ مالكة في عقبه من الأمويين ، أرسل رسولاً خاصّاً إلى بلاد الشام في عام ١٤٧ هـ (٧٦٤ م) لإحضار سليمان إلى الأندلس فقدم هذا فعلاً واستقرّ منذ ذلك الوقت إلى جانب أبيه الذي ما لبث أن ولاّه على طليطلة كما ولّى ابنه الآخر هشاماً على مارده .

وتمتع هشام منذ ذلك الوقت بسمعة حسنة ، وفضّله الناس على أخيه الأكبر سليمان إذ اعتبروا هذا متعجرفاً ، مبتعداً عن المعارف والعلوم ، غير مكترث بتحصيلها بينما اعتبر أخوه هشام أكثر تواضعاً وأكثر اهتماماً ومعرفة بالعلوم والآداب .

وكان الداخل كثيراً ما يسأل عن ابنيه سليمان وهشام ، فيذكر له « أن هشاماً إذا حضر مجلساً امتلأ أدباً وتاريخاً وذكراً لأمور الحرب ومواقف الأبطال ، وما أشبه ذلك ، وإذا حضر سليمان مجلساً ، امتلأ سخفاً وهذياناً ، فيكبر هشام في عينه بمقدار ما يصغر سليمان »[1] .

ويظهر أن الداخل أراد يوماً أن يقومَ بنوعٍ من الامتحان العلمي والأخلاقي لأكبر ولدين من أولاده الذكور الذين كان يبلغ عددهم أحد عشر [2] ــ بينما كان عدد الأناث تسع ــ وهما هشام وسليمان ، فنادى الأول وقال له : لمن هذا الشعر :

وتعرف فيه من أبيــه شمائـــلاً ومن خاله أو من يزيد ومن حُجُرْ
سماحةُ ذا ، مع برّ ذا، ووفاءِ ذا، ونائل ذا ، اذا صحا وإذا سكر

فقال له هشام : « يا سيدي ، لامرىء القيس ملك كنده ، وكأنه قاله في الأمير أعزّه الله » فسرّ منه إلى أبعد حدّ وأمر له بإحسان كثير وزاد شأنه في نظره .

ثم سأل سليمان على انفراد عن البيتين ذاتهما فأجابه : « لعلّهما لأحد أجلاف العرب ، أليس لي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب ؟ » .

فأطرق عبد الرحمن وعلم قدر ما بين الاثنين من المزية . هذا وغيره

---

(١) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣١٣ .

(٢) عدد النويري أولاد عبد الرحمن الذكور فقال إنهم : سليمان الذي ولد بالشام وهشام ولي عهده والوالي بعده ولد بالأندلس وعبد الله ولد ببلنسية وعرف بالبلنسي ، ومسلمة المعروف بكليب وأمية ويحيى والمنذر وسعيد ومحمد والمغيرة ومعاوية (نهاية الأرب : جـ ٢٢ ص ١٨) .

جعل الداخل يفكر في أن يترك الحكم من بعده إلى ابنه هشام الذي كان أصغر سناً من سليمان ، نظراً لما كان يجد عليه الأول من الكفاءة والمقدرة على الإطلاع بشؤون الحكم ، ولو ان ولاية العهد وعدم وجود نظام ثابت لها في الخلافة الإسلامية ، كانت دون شك من العوامل التي ساعدت مع الزمن على إضعاف الدولة بسبب المنازعات الكثيرة التي كانت تنشأ عنها والتي ستنشأ الآن أيضاً بين هشام وسليمان بسببها .

وعلى أيّ حال فإن عبد الرحمن بقي متردداً على ما يبدو في مبايعة واحد من الإثنين بيعة نهائية حتى إذا رقد على فراش المرض وشعر أن وفاته قد دنت دعى ابناً آخر له اسمه « عبد الله » وسيعرف فيما بعد بلقب « البلنسي » نسبة إلى مدينة « بلنسية » على الشاطىء الشرقي للأندلس ، دعاه إليه وقال له : « من سبق إليك من إخوتك ، فارم إليه بالخاتم والأمر ؛ فإن سبق اليك هشام فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه ، وإن سبق إليك سليمان فله فضل سنّه ونجدته وحبّ الشاميين له[1] .

فلما توفي كان أول القادمين هو هشام فسلّم إليه أخوه مقاليد الحكم بموجب وصية أبيه .

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٢ .

الفصل الثالث

حكم الأمير هشام بن عبد الرحمن

تولى الإمارة بعد وفاة أبيه الداخل إذ كان في ماردة عندما بلغه نبأ وفاته فأسرع في التوجه إلى قرطبة ووصلها بعد ستة أيام فبايعه الخاصة والعامة يوم الأحد أول جمادى الاولى ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) .

ولم يتردد أخوه عبد الله « البلنسي » في تسليمه مقاليد الأمور على الرغم من أنه يُذكر أن هشاماً خاف من أن يمتنع أخوه عن ذلك بعد أن أصبح متمكناً من قرطبة والقصر والأموال ، ولكن عبد الله سلّم عليه بالخلافة ودفع إليه بالخاتم كما أوصاه أبوه ، وأدخله القصر . ولكنّنا سنرى بأن عبد الله ما لبث أن ندم على ما يبدو لانقياده التام لأخيه هشام وانضمّ الى أخيه الأكبر سليمان لكي يعلن الاثنان خروجهما عن طاعة الأمير الجديد .

كان هشام في الثالثة والثلاثين من عمره عند توليه الإمارة ، إذ ولد في عام ١٣٩ هـ وكانت أمه أم ولد تدعى « حُلَل »[1] وكنيته « ابو الوليد »

(١) ذكر اسمها بهذا الشكل المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٣ والنويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٩ وهو أصح الاسماء التي ذكرت ، إذ أن ابن عذاري ذكر أن اسمها « جمال » (البيان المغرب ج ٢ ص ٩١) كما ذكر عبد الواحد المراكشي أن اسمها « حوراء » (المعجب ش ١٩) .

بينما لقّب فيما بعد « بالرضيّ » نظراً لحسن سمعته وأخلاقه ولتمسّكه بتعاليم الدين .

أما عن صفاته الفيزيولوجية فيذكر أن لونه كان أبيضاً مشرباً بحمرة وأنه كان بعينه حول [1] . ويمتدح المؤرخون صفاته النفسية فيجعلونه من أفضل أمراء بني أمية الذين حكموا الأندلس ويفيضون في الحديث عن عدله واستقامته وحسن سيرته في رعيته وانصياعه للأحكام ومثابرته على غزو أرض العدوّ . ويصفونه بأنه كان « كريماً ، عادلاً ، فاضلاً . متواضعاً ، عاقلاً ، لم تعرف عنه هفوة في حداثته ، ولا زلّة في أيام صباه » [2] كما يصفونه بأنه كان « بسيط اللسان ، فصيح الجنان ، وسيع الجناب ، حاكماً بالسنّة والكتاب ... » [3] .

هذا ويبرز بعض المؤرّخين صفة الزهد عند الأمير هشام وانصرافه عن الملذّات واللهو وتقريبه لرجال العلم والفقه وإجلاله لهم .. . فيحاول بعضهم أن يجدّ تعليلاً لذلك في نشأته وتربيته ونوع ثقافته التي تلقّاها ، بينما يحاول البعض الآخر أن يعزوها لميلٍ طبيعيٍ في داخله إلى العلوم الفقهية والمشتغلين فيها وخاصة إلى تعاليم مالك بن أنس . كما أن بعضهم حاول أن يغروها إلى اجتهاد أحد المنجّمين المعروفين الذي أخبر هشاماً بأنه سيعيش قرابة ثمانية أعوامٍ بعد وصوله الى الحكم ، فاستقلّ هذه المدة وزهد في الدنيا .

يروي المقرّي هذه الحادثة التي نذكرها نحن بدورنا لا اعتقاداً بصحتها مطلقاً وإنما إيراداً لبعض ما ذكره المؤرّخون حول هذا الموضوع ولكي نرى كيف أن هذه الأمور النفسيّة المعنوية كانت تعطي من القيمة أكثر بكثير مما لها في عصرنا اليوم .

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٩١ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٩٨ .

(٣) نفس المصدر السابق ص ٩٧ .

قال : « لما ولي هشام أشخص المنجم المعروف بالضبّي من وطنه بالجزيرة الخضراء إلى قرطبة ، وكان في علم النجوم بطليموس زمانه ، حذقاً وإصابة ، فلما أتاه خلا به وقال له : « يا ضبّي ، لستُ أشكّ أنه قد عناكَ من أمرنا إذ بلغك ما لم ندعْ تحديدَ النظر فيه ، فأنشدك الله ألاما نبأتنا ، بما ظهر لكَ فيه » ، فلجلج وقال : « اعفني ايها الأمير ، فاني ألممتُ به ، ولم أحقّق النظر فيه لجلالته في نفسي » ، فقال له : « قد أجلتك لذلك ، فتفرّغ للنظر فيما بقي عليك منه » . ثم أحضَرَه بعد أيام فقال : « إن الذي سألتك عنه حدّ مني ، مع إني والله ما أثق بحقيقته ، إذ كان من غيب الله الذي استأثر به ، ولكنّي أحبّ أن أسمعَ ما عندك فيه ، فالنفس طُلعَه » وألزمه الصلة أو العقوبة . فقال : « اعلم أيها الأمير انه سوف يستقرّ ملكك ، سعيداً جدّك ، قاهراً لمن عاداك ، إلا أن مدتك فيه فيما دلّ عليه النظر تكون ثمانية أعوام أو نحوها » فأطرق ساعةً ثم رفع رأسه وقال : « يا ضبي ما أخوفني أن يكونَ النذير كلّمني بلسانك ، والله لو أنّ هذه المدة كانت في سجدةٍ لله تعالى ، لقلّت طاعةً له » ووصله وخلع عليه ، وزهد في الدنّيا ، ولزم أفعال الخير والبرّ [1] .

هذا وانا اذ نرفض — كما سبق أن ذكرنا — أيّ نوعٍ من النبوءات ، نرى بأنّ طبيعة هشام ، ونوع ثقافته ، ونفسيته الخاصّة هي الّتي كانت السببَ الحقيقيّ في ميله إلى الزهد .

يُروى في هذا الصدد أنه كان يهتمّ بتعاليم مالك بن أنس وأن الحُجّاج الذين كانوا يذهبون من الأندلس إلى مكة وفي كثيرٍ من الأحيان بتشجيعٍ من الأمير هشام ، كانوا يروون له الكثير من أحاديث مالك بن أنس كما كانوا يحدّثون هذا على ما يبدو عن إعجاب الأمير به ، حتى أنه روي عن مالك أنه قال : « وددتُ لو أن الله زيّن موسمنا به »[2] أي موسم الحج .

(١) المقري : جـ ١ ص ٣١٤ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٦٣ .

وروي أيضاً في هذا المجال أنه دخل عليه رجل يعرف « بالهواري » فأخبره بأنّ فلاناً قد مات وأنه ترك ضيعةً تعود بكذا وأنها تباع لأن الرجلَ كان عليه دين . ثم نصحه بشرائها بعد ان فخّم أمرها . فأجابه الأمير هشام : « أنا أريد أمراً إن بلغته استغنيتُ عنها ، وإن لم أبلغه ، فما أقلّها ، واصطناع رجلٍ واحد أحبّ إليّ من ضيعة » . قال : « فاصطنعني بها » فأمر له بثمنها[1] .

هذا وقد كان هشام ، يضع الأموال في صرر ويبعث بها في ليالي المطر والشتاء إلى المساجد ، فتعطى إلى من وجد فيها .

حكمه الداخلي :

ذكر بعض المؤرّخين – كما رأينا – أن الأمير هشام « حكم بالسنة والكتاب» ، وأضافوا إلى ذلك انه « قبض الزكاة من طرفها، ووضعها في حقّها ، ولم يأخذه في الله لومة لائم ، ولا تعلّق به ظلم »[2] .

وقد ساد الهدوء والأمن نسبياً أنحاء الأندلس خلال السنوات الثماني التي امتدّ عبرها حكم الأمير هشام حتى دعا ذلك القاضي أبا معاوية إلى القول : « أدركتُ عدداً من الناس يحكون أن أيام هشام هذا كانت من الدعة والعافية والهدوء بحيث لم يعلم لها مثيل »[3] .

وقد تميّز في بعض تصرّفاته الاجتماعية والمتعلّقة بحكمه الداخلي بعددٍ من الصفات المشابهة لصفات أبيه فيما يتعلّق بحضور الجنائز وعيادة المرضى والاحتكاك بالناس وعدم الترفّع عنهم ... كما عرف عنه التواضع والانقياد للأحكام ويروى في هذا الصدد أنه كان لرجلٍ من خاصّة هشام قضية عند القاضي مصعب بن عمران ، فحكمه القاضي فيها . فما كان من الرجل إلا

(١) Ibidem

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٧ .

(٣) Ibid. p. 98

أن نهض إلى هشام وأخبره بما حدث وطلب إليه أن يتدخلَ في الأمر . فأجابه هذا : « والله لو حكم عليّ القاضي في مقعدي هذا لخرجتُ عنه انقياداً منّي للحق » .

وكان في الوقت ذاته من أشد الناس قمعاً للمسلط من عماله وموظفيه : ذكر أنه تعرّض لموكبه رجل متظلّم من بعض عماله ، فاستمع إليه ثم قال له : إنكَ إذا حلفتَ على أيّ شيء صنعه بك ، فإني سأجعلك تنتقم منه بمثله ، فإن كان ضربك فاضربه ، أو هتك لكَ ستراً فاهتك ستره ، أو أخذ لك مالاً ، فخذ من ماله مثله ، إلا أن يكونَ أصابَ منكَ حدّاً من حدود الله . فجعل الرجل لا يحلف على شيء إلا بلغ مثله من خصمه . فكان زجره هذا لعمّاله أبلغ فيهم من أيّ عقاب[1] .

هذا ويذكر أنه كان يحاول أن يقلّدَ بسيرته الخليفة عمر بن عبد العزيز إذ كان يبعث بقومٍ من ثقاته إلى الكور فيسألون الناس عن سير عماله ، ويخبرونه بحقائقها ، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه وانصف منه ولم يعد الى توليته .[2]

هذا ولم يتردّد هشام عن التدخل لإنصاف مظلوم حتى لو كان الظالم أخاً له . وقد حدث فعلاً أن أخاه سليمان الذي كان في فترةٍ من الفترات والياً على جيّان ، في حياة أبيه الداخل ، قد أساء إلى أعرابي ، فتوجّه هذا إلى هشام لينصفَه ، فلم يقصّر هذا ، وأوصله الى حقّه .

وخلاصة القصّة إنه قدم يوماً على هشام إعرابي من كنانة فقال له : « يا سيدي ، قتل رجل من قومي رجلاً خطأ ، فحملت الدية على العاقلة ، فأخذ بها من كنانة عامة ، وحمل عليّ من بينهم خاصة ، وقصدني أخوك بالاعتداء إذ عرف مكانتي منك » . فمدّ هشام يده إلى جارية كانت وراء

(١) أخبار مجموعة ص ٦٣ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٨ .

(٢) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣١٦ .

الستر ، وقطع قلادة عقد نفيس كان في نحرها ، وقال : « دونك هذا العقد يا كناني ، وشراؤه عليّ ثلاثة آلاف دينار ، فلا تُخدَعنّ عنه ، وبعه ، وأدّ عن نفسك وعن قومك ، ولا تمكن الرجل من اهتضامك » .

فقال : « ياسيدي ، لم آتك مستجدياً ولا لضيق المال عما حملته ، ولكنّي لما اعتمدتُ بظلمٍ صراح أحببتُ أن يظهرَ عليّ عزّ نصرك ، وأثر ذَبّك وامتعاضك ، فأتمجد بذلك عند من يحسدني على الإنتماء إليك » . فقال هشام : « فما وجه ذلك ؟ » . فقال : « أن تكتبَ إلى أخيك في الإمساك عنّي ، والقيام بذمتك لي » . فقال : « أمسك العقد » وركب في حينه إلى والده الداخل ، واستأذن عليه في وقتٍ أنكره ، فانزعج ، وقال : « ما أتى بأبي الوليد في هذا الوقت إلا أمر مقلقٌ ، ائذنوا له » . فلما دخل سلّم عليه ومثل قائماً بين يديه ، فقال له : « أجلس يا هشام » فقال : « أصلح الله الأمير سيدي ، وكيف جلوسي بهمّ وذل مزعج ، وحقّ لمن قام مقامي ان لا يجلسَ إلا مطمئناً ، ولن يقعدَني إلا طيب نفسي بإسعاف الأمير لحاجتي وإلا رجعت على عَقِبي » . فقال له : « حاشى لكَ من انقلابك خائباً ، فاقعد مجاباً مشفّعاً » . فجلس . فقال له أبوه : « فما الحدث المقلق ؟ » . فأعلمه ، فأمر بجعل الدية عنه وعن عشيرته من بيت المال ، فسرّ هشام وأطنب في الشكر ، وكتب الأمير إلى ولده سليمان في ترك التعرّض لهذا الكناني .

ولما دخل الكناني لوداع هشام قال له : « يا سيّدي قد تجاوزتُ بكَ حدّ الأمنية ، وبلغتُ غاية النصر ، وقد أغنى الله عن العقد المبذول بين يدي العناية الكريمة ، فتعيده إلى صاحبته » . فأبى هشام وقال له : « يا كناني ، أنه لا سبيل إلى ردّ شيءٍ قد خرج عنّا ، فخذه مباركاً لك فيه »[1] .

وقد ذكر في معرض الحديث عن اهتمامه بأفراد شعبه أنه حرص على

---

(١) أخبار مجموعة ص ٦٣ — ٦٤ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٩ — ١٠١ ، المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٤ — ٣١٦ .

تخليص كل من استطاع تخليصه من الأسر أو السبي بأية وسيلة كانت حتى ولو بتأدية المال عنهم [1] . كما أنه لم يقتل أحد من جنده في أحد الثغور أو في إحدى المعارك إلا ألحق أولاده في ديوان أرزاقه وأجرى عليهم الأعطيات[2].

يُضاف إلى ذلك كلّه عنايته الكبرى بالبناء والعمران ، فيذكر أنه بنى المسجد المقابل لباب الجنان من أكوام التراب التي حملها الأسرى الذين وقعوا بين يديه أثر إحدى الغزوات التي قام بها في أرض العدوّ . وجدّد القنطرة المبنية فوق نهر الوادي الكبير بقرطبة والتي كان قد أنشأها السمح ابن مالك الخولاني كما رأينا ، إذ أن سيلاً أدّى إلى تصدّعها فقام بإصلاحها وزخرفتها وأنفق في ذلك مبلغاً كبيراً . ولما نُمي إليه بعد ذلك أن أهل قرطبة يقولون أن الأمير ما بناها إلا ليمضي فوقها إلى صيده ونزهته ، حلف إلا يجوزَ عليها الا لغزوٍ أو مصلحة .

هذا وقد قام علاوةً على ذلك بإكمال المسجد الجامع الذي شرع أبوه ببنائه فاعتبر ذلك من فضائله .

وعلى ذلك فإننا نرى أن مجموع القواعد التي سار عليها هشام في حكمه الداخلي جعلته يستحقّ عن جدارة اللقب الذي أطلقه عليه الناس وصار يعرف فيه بينهم وهو « الرضيّ » .

الفتن في عهده :

ثورة أخويه سليمان وعبد الله :

نظراً لأن سليمان كان هو الإبن الأكبر للأمير الداخل فقد أغضبه أن

---

(١) ذكر صاحب أخبار مجموعة أن رجلا في زمان هشام قد أوصى بمال في فك سبية من أرض العدو فلم توجد اي منها احتراساً منه بثغره واستنقاذاً لمن سبي (ص ٦٣) .

(٢) أخبار مجموعة ص ٦٣ .

يخلف أباه في الحكم أخوه الأصغر هشام . وكان سليمان آنذاك في طليطلة ، فلما اتصل به خبر وفاة أبيه وتولّي أخيه أعلن الثورة وحشد الحشود ثم سار يريد الاستيلاء على قرطبة . ولم يبقَ هشام ساكناً بل أعدّ جيشاً كبيراً توجّه على رأسه للقاء أخيه وحصلت بالفعل معركة بين الأخوين في منطقة « جيّان Jaen » كانت نتيجتها بجانب الأمير هشام ، مما اضطر أخاه سليمان إلى التراجع نحو طليطلة ليعدّ العدة من جديد ، بينما التقى هشام بذلك النصر الموقّت وعاد إلى طليطلة .

بعد أشهر من ذلك غيّر عبد الله بن عبد الرحمن موقفه أيضاً من أخيه هشام وأعلن انضمامه إلى الأخ الثائر سليمان وتوجّه في طريقه إلى طليطلة للعمل معه . وقد كان هشام على ما يذكر بعض المؤرّخين يترضّاه ويبرّه ويحسن معاملته ويفضّله على الكثير من إخوته ومع ذلك فلم ترضَ نفسه وكان أن قرّر الخروج على أخيه كما ذكرنا .

وقد حاول هشام أن يعيده إلى قرطبة بالوسائل السلمية قبل أن يبلغ طليطلة فلم يتمكن من ذلك . وعلى هذا فإن الخطر العائلي ضدّ هشام قد استفحل طالما أن أخوين من إخوته هما سليمان وعبدالله أصبحا يناصبانه العداء علناً . ولذا فإنه رأى من الضروري السير لقتالهما فتوجّه على رأس جيشٍ نحو طليطلة ، فلما بلغها خطر لسليمان أن يقومَ بخطةٍ معاكسة وهي الإسراع الى احتلال قرطبة في غياب الأمير .

وبالفعل فقد خرج سليمان من طليطلة مصطحباً معه عدداً من جنده بعد أن عهد بحكم المدينة إلى ابنه وإلى أخيه عبد الله وأخذ يطوي المراحل مسرعاً نحو قرطبة حتى وصل ضاحيتها المسمّاة « شقندة » . ولكن إخلاص القائمين على أمرها جعل خطته تفشل إذ قاوموه أشدّ مقاومة حتى أن أهل قرطبة أنفسهم خرجوا يدافعون عن مدينتهم . ويبدو أن هشاماً كان واثقاً ممن تركهم في مكانه بقرطبة ، فلم يكترث عندما وصلته أخبار محاولة سليمان وتابع

محاصرته لطليطلة مكتفياً بإرسال ابنه عبد الملك لاقتفاء أثر سليمان [١] .

ولما وصل عبد الملك إلى ضواحي قرطبة ، خشي سليمان عاقبة الاشتباك معه وفرّ نحو ماردة حيث أراد الإستيلاء عليها فردّه عاملها عنها وهزمه واضطره إلى تغيير وجهته .

أما الأمير هشام فقد ظلّ يحاصر طليطلة أكثر من شهرين دون أن ينجحَ في فتحها ، فتركها لشأنها بعد أن عرف بأنها لا تشكل خطراً عليه بدون أخيه سليمان وعاد عنها بعد أن قطع أشجارها [٢] .

وبعد أشهر من ذلك ومع دخول عام ١٧٤ هـ (٧٩٠ م) قدم عبد الله الذي سيعرف فيما بعد « بالبلنسي » على أخيه هشام دون مكاتبة سابقة أو طلب أمان ، فأسلم نفسه إليه ، فعامله هشام معاملة حسنة وأنزله في دار ابنه الحكم .

أما سليمان فقد جعل وجهته بعض ثغور مقاطعة تدمير (مرسية) فأرسل اليه الأمير جيشاً بقيادة ابنه معاوية ، هاجم المنطقة وبلغ البحر دون أن يستطيعَ القضاء عليه نهائياً ، إذ فرّ سليمان إلى جبال بلنسية فاعتصم بها [٣] ورجع معاوية إلى أبيه بقرطبة . ولكن تسليم عبد الله نفسه إلى الأمير هشام فتّ في عضده ورأى بأنه لن يستطيعَ التغلّب على الإمارة بالقوّة ففضّل أن يسلّم نفسه بدوره إلى أخيه هشام الذي قبل العفو عنه مقابل خروجه عن الأندلس وعلى أن يزوده الأمير هشام بمبلغ ستين ألف ديناراً [٤] كثمنٍ للجزء الذي يخصّه من تركة أبيه أو كما عبّر عنها أحد المؤرّخين « مصالحة عن ميراث

---

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٢٠ .

(٢) Ibidem

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٤ .

(٤) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٤ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١١ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٤ ، النويري : نهاية الارب ج ٢٢ ص ٢١ .

أبيه عبد الرحمن »[1] .

وقد قبل سليمان بأخذ المبلغ المذكور فعلاً وركب مع أهله وولده مركباً أقلّه الى شمال إفريقية ، كما أن أخاه عبد الله فعل فيما بعد الشيء ذاته وذهب ليسكنَ الشمال الإفريقي . وبالنسبة لمدينة طليطلة فقد أرسل إليهـا هشام ابنه الحكم والياً فضبطها وأقام فيها .

الثورة في سرقسطة :

بعد أن قاسى الأمير الداخل ما قاساه في إخضاع ثورة الحسين بن يحيى الأنصاري التي أعلنها في سرقسطة ، قام الآن ابن الحسين ويدعى « سعيد » بثورة جديدة في إقليمٍ قريب إلى سرقسطة هو إقليم « طُرطوشه Tortosa » الذي كان قد لجأ إليه حين قتل أبوه وذلك بعد حوالي ثمانية أعوام من إعلان أبيه الثورة في سرقسطة .

وكان أول ما حاوله سعيد بن الحسين هو أن يستولي على المدينة التي ثار أبوه فيها أي سرقسطة . إذ يقول لنا صاحب البيان المغرب : « وأقبل إلى سرقسطة فأخرج منها وإليها وضرب بين الناس ودعا إلى نفسه وإلى الفتنة ، فأرسلها مضرية ويمانية »[2] . إذن يفهم من ذلك أنه تمكن من تحقيق الأمنية التي يسعى إليها وهي الاستيلاء على سرقسطة ، كما أخرج منها واليها الذي يقدم لنا ابن خلدون اسمه وهو « يوسف العبسي »[3] .

إلا أنّ حسن طالعه لم يستمرّ إذ قام يعارضه في تلك المنطقة احد قادة المولدّين وهو موسى بن فرتون الذي كان الأمير هشام قد جعله قائداً من قادة جيشه ، فسار على رأس جيشٍ قويّ نحو سرقسطة وخرج إليه سعيد

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٢١ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٢ — ٩٣ .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٤ . وقد ذكر النويري الاسم أيضاً ، ولكن الناشر وضع « القيسي » عوضاً عن « العبسي » (نهاية الأرب : جـ ٢٢ ص ٢١) .

ابن الحسين فاشتبك الطرفان في معركة حامية تمّ النصر فيها لابن فرتون ودخل سرقسطة فاستخلصها من سعيد الذي اضطر إلى الفرار ولم يُسمع عنه بعد ذلك .

وهنا ينفرد صاحب نهاية الأرب بمتابعة هذا الموضوع بقوله : « بعد أن سار موسى بن فرتون إلى سرقسطة وملكها ، خرج عليه مولى للحسين بن يحيى اسمه « جحدر » في جمع كثير فقاتله وقتل موسى »[1] .

ومعنى ذلك أن سرقسطة لم تصفُ لأيّ من المتنازعَين الرئيسيين وهما سعيد بن الحسين بن يحيى وموسى بن فرتون ، وستكون فريسةً سهلةً كما سنرى لكي يسيطرَ عليها بعد قليل مطروح بن سليمان بن يقظان .

الثورة في برشلونة :

وكما ثار سعيد بن الحسين انتقاماً لأبيه في سرقسطة ، فقد ثار مطروح ابن سليمان بن يقظان الأعرابي ايضاً في برشلونة . وكنا قد رأينا بأن الحسين ابن يحيى الأنصاري وسليمان بن يقظان الأعرابي كانا قد أعلنا الثورة في سرقسطة وفي برشلونة ضدّ الأمير الداخل واستعان سليمان بشارلمان ملك الفرنجة ... فكان مما يلفت النظر أن يثورَ فيما بعد كل من الإثنين في المدينة التي كان أبوه والياً فيها ، أو بالأحرى التي ثار فيها أبوه .

وقد تمكن مطروح بن سليمان بن يقظان من التغلّب على برشلونة ثم سار إلى وشقه **Huesca** وسرقسطة فاستولى عليهما واتسع ملكه وأصبح يشكّل خطراً حقيقياً على سلطة الأمير هشام .

ويظهر أن هذا كان لا زال مشغولاً في ذلك الوقت بفتنة أخويه كما أنه كان قد تعوّد على خروج سرقسطة على الطاعة ، فتمهّل قرابة عامين حتى أرسل جيشاً بقيادة ابي عثمان عبيد الله بن عثمان فوضع هذا الحصار على

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٢١ .

سرقسطة واحتلّ في خلال ذلك مدينة طرطوشة وأقام فيها بانتظار نتيجة الحصار وليثبتَ لمطروح بن سليمان بأنه لن يفكَّ الحصار حتّى تسقط المدينة .

ويخبرنا ابن خلدون عن نتيجة ذلك الحصار باختصارٍ قائلاً بأن بعض أصحاب مطروح قد غدروا به فقتلوه وجاؤوا برأسه إلى ابي عثمان(١) . في حين أن مؤرّخين آخرين يقدّمون لنا مزيداً من التفاصيل عن كيفية الغدر به فيذكرون بأن أهل سرقسطة قد ضاقوا ذرعاً بالحصار وضجّوا من تماديه ، وأنه حصل أن « مطروح » خرج في بعض الأيام متصيّداً ومعه عمروس بن يوسف وابن صلتان ، فلما أرسل بازيه على طائر ونزل على الصيد ، هاجمه هذان الإثنان وتعامداه بسيوفهما حتى قتلاه واحتزّا رأسه وتقدما به الى ابن عثمان وهو بطرطوشه ، فتحرّك إلى سرقسطة ، فلم يمتنع عليه أحد من أهلها ودخل المدينة فنزلها وبعث برأس مطروح إلى الأمير هشام(٢) .

الثورة في تاكرنا Takoronna :

ولقد كانت هذه الثورة هي رابع وآخر ثورة قامت في عهد هشام ، وبذلك يكون عدد الثورات في الحقيقة قليلاً إذا قيس بتلك التي ظهرت في زمن أبيه الداخل أو حتى في زمن ابنه الحكم .

وكان زعيم الثورة في هذه المرة احد البرابرة الذي تزعّم جماعة ممن كانوا يسكنون تلك المنطقة « فأغاروا على الناس وقتلوا وسبوا ، فبعث الإمام هشام إليها الأجناد »(٣) فتمكنوا من قتل عددٍ كبيرٍ منهم وفرّ الباقي الى طلبيره Talavera وترجيله Trujillo بينما هدأتْ مدينةً تاكرنا التابعة لإقليم رُنْدَه Ronda أو ظلّت بالأحرى خاليةً مقفرةً مدة سبع سنوات نتيجةً للقسوة التي استعملت في القضاء على الثورة .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٤ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٤ ، ٩٥ والنويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٢٢ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ .

الغزو في زمن هشام :

بعد أن تخلّص هشام من الثورات التي ظهرت في السنوات الثلاثة الأولى من حكمه ، تفرّغ للغزو الخارجي فشرع به في عام ١٧٥ هـ (٧٩١ م) إذ أرسل قائده أبا عثمان عبيد الله ابن عثمان إلى منطقة ألبة والقلاع Alava ، حيث التقى بجيوش العدوّ وتمكن من هزيمتهم « فقتلوا في السهل والوعر » وهلك منهم على ما يذكر المؤرّخون ما يقرب من تسعة آلاف[١] .

وفي العام نفسه أرسل الأمير هشام حملة أخرى إلى جليقية Galicia بقيادة يوسف بن بُخت ، فالتقى بالملك « برمودو الأول Bermudo I » الذي تسمّيه الروايات العربية « ابن مند »[٢] ، فاشتبك معه في معركة من أشدّ المعارك كان الظفر فيها للجيوش العربية وقتل فيها من جند ملك أشتورياس Asturias ما لا يقلّ عن عشرة آلاف[٣] .

وفي عام ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) أرسل الأمير هشام حملةً أخرى بقيادة حاجبه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث اخترقت منطقة ألبه والقلاع من جديد وأثخنت في نواحيها ثم انتقلت بعد ذلك إلى أرض الفرنجة فهاجمت مدينة جيرونه Gerona وجرنده[٤] الواقعة في أقصى شمال شرقي إسبانيا والتي كانت في يد الفرنج فحاصرتها وثلمت أسوارها بالمجانيق دون أن تستولي عليها . ثم تابعت الحملة طريقها في بلاد الفرنجة فبقيت فيها أشهراً تحرق القرى وتخرّب الحصون[٥] حتى وصلت مدينة أربونه ووطأت أرض « شرطانية Sardaigne » ولما حاول دون طولوشه Toulouse التصدّي

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٩٥ .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٥ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٥ .

(٤) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٥ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣١٦ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٢٣ .

(٥) ابن عذاري البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٥ .

للجيش العربي نظراً لتغيّب لويس ملك أكيتانيا في حملة عسكرية في إيطاليا هزم هزيمة شنعاء (١) ووقعت في أيدي المسلمين كميات هائلة من الغنائم والسبي علّق عليها بعض المؤرّخين بقوله : « كان فتحاً عظيماً بلغ فيه خمس السبي إلى خمسة وأربعين ألفاً من الذهب العين »(٢) .

وقد فهم بعض المؤرّخين هذه العبارة على أنها تعني ان عدد السبايا في هذه الحملة كان (٤٥) ألفاً وانه لذلك يعتبر مبالغاً فيه إلى أقصى حدّ (١) بينما قصد المؤرّخ العربي في اعتقادنا القول بأن السبي كانت تساوي قيمته المبلغ المذكور .

بعد ذلك بثلاثة أعوام أي في ١٧٩ هـ (٧٩٥ م) وهي السنة التي سبقت وفاة الأمير هشام أرسل قائده عبد الكريم بن مغيث بالصائفه الى جلّيقية فانتهى الى مدينة استرقه Astorga وبلغه أن الملك « الفونسو » الذي تدعوه الروايات العربية » ملك الجلالقة »(٣) أو « اذفونش »(٤) قد حشد أهل بلاده وطلب المعونة من البشكنس Bascos وأهل تلك النواحي التي تليه ... وانه عسكر ما بين حيّز جليقية و « الصخرة »(٥) وأذن لسكان السهل بالتفرق في شواهق جبال السواحل... فأمر الحاجبُ عبد الكريم أحدَ قادته فرج بن كنانه بأن يسيرَ نحوهم على رأس أربعة آلاف فارس ثم رحل هو في أثره . هذا وقد خرجت من قرطبة في الوقت ذاته حملة أخرى نحو جليقية بقيادة عبد الملك بن مغيث أخي الحاجب عبد الكريم بن مغيث ، فبثّ المسلمون الخيل في القرى وانتسفوا ما وجدوه من الزرع وما مرّوا به من الحصون .

ويبدو ان الملك اذفونش (الفونسو الثاني) عندما بلغه خبر تقدّم المسلمين

---

(١) Levi - Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane. TIV p. 96

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٥ .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٥ .

(٤) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٦ .

(٥) هو الجبل الذي لجأت إليه بقايا المقاومة الإسبانية – كما رأينا – سابقاً وعلى رأسهم بلايو « Pelayo »

نحوه تفادى الإصطدام معهم إذ يذكر بأنه تنحّى عن الجبل الذي كان فيه ، منحازاً عنه إلى حصن كان قد بناه على وادي نلون Nalon ، فسار الحاجب عبد الكريم نحوه مقتفياً أثره حتى أطلّ على الحصن الذي يوجد فيه، فما كان من الملك إلا أن رحل عنه أيضاً وتركه بما فيه من غنيمة بيد الحاجب عبد الكريم الذي احتلّه ووجد فيه من الأطعمة وضروب الذخائر شيئاً كثيراً .

وفي اليوم الثاني أرسل قائده فرج بن كنانه في عشرة آلاف فارس لتتبّعه ، فكاد أن يقعَ في يده لولا أنه أفلت من جديد بعد أن أسلم جميعَ عدته وذخائره فغنمها المسلمون .

أما الحملة التي قادها عبد الملك فقد اشتبكت مع الفرنجة وكادت أن تكون النتائج في غير صالحها لولا أن تمكنت من الصمود أخيراً وإجبار العدوّ على التراجع بينما تمكنت الجيوش العربية أن تنسحبَ محمّلةً بغنائمها . يقول المؤرّخون العرب في هذا الصدد : « وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية اخرى ، فالتقوا بعبد الملك ، وأثخنوا في البلاد، واعترضتهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعض الشيء ، ثم خرجوا سالمين ظافرين »[1] .

وفي العام التالي لهذه الحملة الأخيرة الكبرى المزدوجة التي اشترك فيها الأخوان عبد الكريم وعبد الملك ابنا مغيث ، توفي الأمير هشام ، وكان ذلك في عام ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) فكانت تلك الحملة آخر الحملات التي أرسلها للغزو . وهو في الواقع لم يقصّر في ذلك أبداً بل يعتبر من أنشط الأمراء الأمويين في هذا المجال إذا أخذنا بعين الاعتبار عدد الغزوات التي قام بها الى المناطق الشمالية في إسبانيا وإلى بلاد الفرنجة ، بالنسبة للمدة القليلة التي حكمها والتي لم تصل إلى ثماني سنوات .

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٥ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣١٧ .

الفصل الرابع

إمارة الحكم الأول بن هشام بن عبد الرحمن

بويع بعد وفاة أبيه هشام مباشرة وكان له من العمر آنذاك أي في صفر من عام ١٨٠ هـ (ابريل « نيسان » ٧٩٦ م) ما يقرب من ستةٍ وعشرين عاماً إذ كانت ولادته في عام ١٥٤ هـ .

أمه أم ولد اسمها « زخرف » وكنيته « أبو العاصي » ونقش خاتمه « بالله يثق الحكم ، وبه يعتصم » .

وصفت هيئته الجسمية بأنه كان شديد السمرة ، طويلاً ، أشمّ ، نحيفاً[١] . وقيل في خصاله أنه « كان من أهل الخير والصلاح ، كثير الغزو والجهاد[٢] » وانه كان « شديد الحزم ، ماضي العزم ، عظيم الصولة ، حسن التدبير »[٣] وانه كان « أفحل بني أمية بالأندلس وأشدهم إقداماً ونجدة ، عرف بشدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء » ..[٤] وأنه « أول من جعل للملك

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٠٢ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣١٩ .
(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٥ .
(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٤ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١١٦ .
(٤) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣١٩ .

بأرض الأندلس أُبهة »[1] وانه « كان مع نجدته وعزة نفسه متواضعاً للحقّ ، منقاداً للإنصاف من نفسه ، فضلاً عن ولديه وسائر خاصّته ... »[2] كما عرف عنه بأنه « كان فصيحاً ، بليغاً ، شاعراً ، مجيداً »[3] .

ولقد شذّ عن هذه الأوصاف الحسنة عدد أقلّ من المؤرّخين فقال صاحب المعجب عنه أنه « كان طاغيةً مسرفاً ، وله آثار سوء قبيحة ، وهو الذي أوقع بأهل الربض ... »[4] وقال ابن حزم : « أنه كان من المجاهرين بالمعاصي ، السافكين للدماء ، ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء »[5]. ثم قال عنه بعد ذلك : « أنه تنصّل أخيراً ، وتاب »[6] .

حكمه الداخلي :

لقد تميّز عهد الحكم بثلاثة أمورٍ رئيسية وهي كثرة الفتن في عهده كما حدث في عهد جده عبد الرحمن الداخل ، واهتمامه بالغزو والجهاد أكثر من سابقيه من أمراء بني أمية ، وعدم اكتراثه برجال الدين والفقهاء مما أدّى إلى إغضابهم وإعلان معارضتهم الدامية له .

وإنّنا إذ سنخصّص لكلّ من هذه الأمور بحثاً مستقلاً على حدة ، قصدنا الآن بالحديث عن حكمه الداخلي أن نتعرضَ لطبيعة تصرّفاته ونوعيّة حكمه ، والصفات النفسية والخلقية التي كانت تملي عليه أعماله وتوحي إليه بها، أكثر من أيّ شيء آخر ، وقد رأينا ضرورة التنويه عن ذلك ، كي لا يتبادر للقارىء أننا أهملنا الأمور الثلاثة الرئيسية المذكورة سابقاً عند حديثنا عن حكمه الداخلي .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٣٢٠ .
(٢) أخبار مجموعة ص ٦٥ .
(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١١٨ .
(٤) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ١٩ .
(٥) ابن حزم عن المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٠ .
(٦) نفس المصدر السابق .

بالنسبة لتصرّفاته كأمير عرفت عنه القسوة والصرامة والبطش والتقيّد بأحكام القضاء والانصياع لها ولو كانت في غير مصلحته حتى أنّ بعضَ المؤرّخين ذكر في هذا الصدد أنه كان يتحيّز لأحكامه أورعَ من يقدر عليه وأقضاهم بالحقّ وأنّه كان له قاضٍ قد كفاه أمور رعيته لفضله وزهده وورعه وأنه عظم في عينه حين حكم عليه بأن يعيدَ جارية كانت عنده إلى صاحبها . وخلاصة قصّتها أن تلك الجارية كانت لرجل عاديّ من سكان جيّان أخذها منه العامل على المنطقة ثم أرسلها فيما بعد إلى الحكم ، فعلم الرجل بذلك وأقام الدعوى فحكم القاضي بعد التأكد من صحّة الإدّعاء بأن الجارية يجب أن تعودَ إلى صاحبها . وعبثاً حاول الحكم أن يدفعَ فيها أغلى الأثمان لصاحبها إلا أن القاضي تمسّك بأنها يجب أن تعادَ لإحقاق الحق فرضخ الأمير الحكم وأمر بإخراجها من قصره .

وعوضاً عن أن يغضبَ الحكم من ذلك القاضي ويعمدَ إلى عزله ، آثره لديه ورفع شأنه واغتمّ الى حدّ بعيد بعد بضعة سنوات حين علم بوفاته واعتبر أن مشكلةً قد نشأت لديه عليه أن يحلها بأقصى سرعة وهي يقين قاضٍ آخر مكانه يسير على منوال القاضي السابق ويقتدي بطريقته وأحكامه.

وتعطي جارية للحكم اسمها « عجب » فكرةً عن انشغال سيّدها الأمير بوفاة قاضيه « مصعب بن عمران » السابق الذكر والذي استقضاه أبوه قبله ، فتقول بأنها شاهدت جميع تصرّفات الحكم في الليلة التي أُعلم بوفاة القاضي فكانت تدلّ على أقصى القلق والكآبة وإنها رأته قائماً يصلّي خلال الليل « فقعدتُ أنتظره ، فسجد سجدة أطالها حتى غلبتني عيناي ، ثم انتهيتُ فإذا هو ساجد على مثل حالته ثم غلبتني عيناي فما راعني إلا وهو يحرّكني لانصداع الفجر ، فأقبلتُ عليه أسأله ما الذي أقلقه عن فراشه ، فقال : خطب عظيم ومصاب جليل . كنتُ قد تفرجتُ من أُمور الرعية بالقاضي الذي كان الله قد كفاني به ما كفاني فخشيت ألا أُصيب منه خلفاً .

ودعوتُ الله عزّ وجلّ أن يوفق لي قاضياً مثله أجعله بيني وبين الناس »[1] .

ويظهر ان الحكم قد دعا وزراءه في ذلك الصباح وطلب إليهم أن يتخيّروا للرعية من يتولّى الحكم فيهم ، فتداولوا في الأمر وقرّ رأيهم على « محمد بن بشير » وكان كاتباً للدولة في باجة ، لما عرف عن فضله وورعه ، فوقع ذلك الإقتراح من الأمير موقعاً حسناً فوافق عليه وأصدر الأوامر بتوليته القضاء فظهر منه الكثير من العدل والورع والزهد حتى إنه لم يكن يقلّ عن سلفه .

هذا كلّه يدل على مدى اهتمام الحكم بشؤون الرعية بصورةٍ عامة وبسيادة العدل وخاصة عنايته بشؤون القضاء واختيار الرجال الأكفاء لذلك المنصب. ويروى عنه في هذا المجال قوله : « ما تحلّى الخلفاء بمثل العدل » . ويذكر المؤرّخون في صدد الحديث عن القاضي « محمد بن بشير » أنه كان إذا خرج للمسجد جلس للأحكام وهو في أحسن زيّ فكان يلبس رداءً مورّداً ويعتني بتصفيف شعره ، فإذا طلب ما عنده وجد أفضل الناس وأورعهم .

كما يُحكى عن القاضي محمد بن بشير إثباتاً لعدله أن عباس بن عبدالله ابن مروان القرشي ، أحد خاصّة الأمير الحكم ، قام عليه رجل في ضيعة كانت له تحت يده ، فأثبتها عند ابن بشير القاضي . فلما علم القرشي بأن القاضي سيحكم في القضية بغير مصلحته ، استنجد بالأمير الحكم وشكا إليه تصرّفات قاضيه وحاول أن يطعنَ فيه وفي أحكامه واستقامته الخ .. فقاطعه الأمير الحكم وقال له بما معناه : لوكانت تصرّفات القاضي غير صالحة فعلاً لقبل أن يستقبلك في بيته لعلمه بمكانتك منّي ، فامضِ بنفسك إليه في داره وهو غير قاعد للحكم ، كي نرى إذا كان يدخلك على نفسه ، فإن فعل صدّقناك وعزلناه . فمضى الرجل بعد ان أوصى الأمير ان يرافقه بعض فتيانه ليشاهدوا

---

(١) أخبار مجموعة ص ٦٦ .

ما سيحدث ، فوصل الى منزل القاضي وطرق بابه ، فخرجت له عجوز تسأله عن غرضه فأعلمها بأنه يريد الاستئذان على القاضي لمقابلته . فلما أُعلم القاضي بذلك نهر العجوز وقال لها : أجيبيه بانه اذا كانت له حاجة فليتوجّه الى المسجد مع طلاّب الحوائج حتى أخرجَ اليه فليس الى إدخاله سبيل. فتردّد عباس بن مروان وألحَّ دون جدوى واضطر الى العودة خائباً فأعلم الأمير الحكم بما جرى، فسرّ بتصرّف قاضيه وعرف انه عند حسن ظنّه .

هذا وكان من أهمّ ما وجّه اليه الحكم اهتمامه علاوةً على القضاء ، الشؤون العسكرية من إعدادٍ للجيوش ومتطلباتها المختلفة وقيامٍ بالغزو والقتال في معظم سنوات حكمه .

ولقد ذكر في هذا السبيل انه عني بجلب واستخدام المماليك حتى بلغ عددهم في جيوشه خمسة آلاف : منهم ثلاثة آلاف فارس ، والفا راجل[1] . كما ذكر انه « أول من جنّد بالأندلس الأجناد والمرتزقة، وجمع الأسلحة والعدد ، واستكثر من الخدم والحواشي والحشم ، وارتبط الخيول على بابه، واتخذ المماليك ، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ... »[2] وانه كان له الفا فرس مرابطة على شاطىء النهر مقابل قصره جاهزةً للانطلاق في اية لحظة كان يستعملها كلّها او بعضها في حسم المشاكل الخطيرة التي تحتاج الى سرعة البتّ فيها .

ولقد اختلف المؤرّخون حول عدد تلك الخيل بين الف[3] والفين[4] وذكروا انها كانت مقسّمة الى عشر فرق على كلّ منها عريف تحت يده مائة فارس او مائتان حسب قبولنا لكلّ من العددين السابقين ، فاذا بلغه

---

(١) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٠ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١١٨ .

(٣) ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ١٤ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١١٨ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٤١ .

(٤) اخبار مجموعة ص ٦٨ ، المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٠ .

حدوث ثورة في ايّ مكان ، عجّل بإصدار اوامره الى أولئك الفرسان للتوجّه الى مكان الثورة فلا يشعر صاحبها الا وقد أحيط به .

وهذا ما حدث مثلاً حين اتاه نبأ قيام « جابر بن لبيد » في جيّان اذ امر عرفاءه بان يتوجهوا فوراً لإخماد تلك الثورة الواحد بعد الآخر ، فلم يشعر ابن لبيد الا وجند الأمير قد حاصروه من كلّ مكان خاصة وان وصولهم كان يحدث تباعاً وبانتظام ، فانهارت عزيمته تجاه ذلك، وتخلّى عن المدينة التي كان يحاصر فيها وفرّ امام قوات الحكومة ...

وحدث مثله ايضاً حين أعلمه عامله على ماردة بخروج أحد البربر على طاعة الأمير ، فاستدعى رئيس عرفائه وسأله عن أصحابه اذا كانوا مجتمعين ومستعدّين للتحرّك فأجابه بالإيجاب ، ثم سأله عن الرجل الثائر في جهة ماردة وما اذا كان يعرفه ، فلما أجابه ايضاً بالإيجاب قال له : « فأتني برأسه والا فرأسك مكانه ، وخذ من الحرب في أجدّ ما أخذتَ قطّ » قال الرجل فلما هممتُ بالانسحاب ناداني ثانية وقال : « اني غير مبارح مقعدي هذا ، منتظر لك » ويضيف قائلاً : « فتعجبتُ من تأكيده عليّ وتحذيره لي وخرجتُ من فوري حتى قدمتُ على الثائر فوجدتُه صعب المرام ، ولقيتُ من شدة الحرب معه ما لقيت ، وكنتُ أهمّ أحياناً بالانحلال عنه فأذكر قول الأمير « والا فرأسك مكانه » فأعود الى مناجزته حتى اظفرني الله به ، فقدمت اليه برأسه في اليوم الرابع فوجدتُه قاعداً في المكان الذي فارقتُه فيه ، فأخبرني الفتيان انه لم يقم عنه بعد مفارقتي اياه الا لوضوء او صلاة »[1] .

اما للبرهان على نجدته واندفاعه في إغاثة المظلوم فتقدم لنا الروايات التاريخية حادثة الشاعر الذي كان يجول في بعض مناطق الحدود الشمالية مع العدوّ ، فسمع امرأة تستغيث بالحكم ونظم في ذلك قصيدةً ألقاها على مسامع الحكم بعد عودته الى قرطبة فما كان من الحكم الا ان امر باعداد الجيوش

---

(١) أخبار مجموعة ص ٦٨ – ٦٩ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٤٠ .

وسار على رأسها فغزا تلك الجهات وخلّص تلك المرأة وسواها من الأسر .

وعلى الرغم من كلّ ما يقال عن عدم اكتراثه بالعلماء والفقهاء وبواجباته الدينية ، فقد ذكر المؤرّخون — كما سبق ان رأينا — انه كان من أهل الخير والصلاح والغزو والجهاد ، وانه كان يؤثر الفقيه زياد بن عبدالرحمن ويتراجع عن احكامه اذا كان فيها صالح الرعية .

حضر الفقيه المذكور عنده يوماً وقد غضب الحكم من خادم له فأمر بقطع يده فقال له زياد : أصلح الله الأمير ! فان مالك بن أنس حدثني في خبر رفعه ان « من كظم غيظاً يقدر على إنفاذه ملأه الله تعالى أمناً وايماناً يوم القيامة » فأمر ان يمسك عن الخادم ويُعفى عنه .

إخماد الفتن والثورات :

كما فعلنا في عهد الداخل حين كانت الثورات متعدّدة فعالجناها على أساس معيّن بنيناه آنذاك على الدوافع التي أدّت الى قيام تلك الثورات ، فاننا سنعالجها الآن في عهد الحكم على أساس الوحدة الجغرافية لقيامها اي سنتخذ قاعدةً لها الأساس الذي اتخذناه في الحديث عن الثورات الداخلية في عهد عبد الرحمن الأول ، طالما ان الفتن في عهد الحكم ايضاً كانت ذات صبغة داخلية ، اللهم اذا استثنينا اتصال عبد الله بن عبد الرحمن الداخل بشارلمان من جديد — كما سنرى فيما بعد — دون ان يؤدّي ذلك الى اية نتائج عملية .

وعلى هذا فاننا نبدأ بالحديث عن الثورات التي قامت في قرطبة والتي سنعتبر جزءاً منها ثورتي عمّيه سليمان وعبد الله اللذين عادا عند تولّيه الحكم في بلاد المغرب وثارا عليه من جديد كما ثارا على أخويهما من قبل . نقول بأننا سنعتبر بأن هاتين الثورتين تنتميان الى حركات قرطبة طالما انهما كانتا تستهدفان في الواقع الاستيلاء على العاصمة وطالما انه لم يكن لكل منهما مركز جغرافي معيّن يمكن ان نجعل الثورة تنتمي اليه .

الثورة في قرطبة

فتنة العمّين : عبد الله بن عبد الرحمن :

كان عبد الله في المغرب حين علم بنبأ وفاة أخيه هشام في عام ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) فعبر المضيق من جديد وعاد الى الأندلس حيث اتجه الى منطقة الثغر الأعلى التي تقع فيها مدينة سرقسطة وحيث كان يعرف بانّ مشاعر الناس لم تكن دوماً الى جانب حكومة قرطبة . وحاول ان يدعو الناس اليه ضدّ الأمير الحكم ولكنّ نداءه لم يلقَ بين سكان الأندلس الصّدي الذي كان هو يأمله فقضى بضعة أشهرٍ في تلك المنطقة توجّه بعدها في مطلع عام ١٨١ هـ (٧٩٧ م) يصحبه ابناه عبيد الله وعبد الملك الى شارلمان (١) ، بقصد طلب العون منه على ما يظهر . فرحّب به هذا وأضافه مدةً من الزمن ولكن لم تُعرف اية انباء عن تدخل جديد لشارلمان في الأندلس ، والأغلب انه لم يكن يرغب في خوض مغامرة جديدة بعد ان أصيب بصدمةٍ في المرة الأولى أمام أسوار سرقسطة وتعرّضت مؤخرة جيشه للفناء عند ممرّات جبال البيرنيه .

وهكذا فقد اضطر عبد الله الى مغادرة بلاد الفرنجة بعد قضاء فترةٍ من الزمن فيها ، فعاد الى منطقة الثغر الأعلى وسرقسطة وتمكن من الاستيلاء على مدينة وشقه ولو ان احد الثائرين وهو « بهلول بن مرزوق » نجح فيما بعد باخراجه منها والاستيلاء عليها وعلى سرقسطة — كما نبيّن في حينه — ورأى عبد الله نفسه مضطراً الى مغادرة تلك المنطقة من جديد حيث توجه الى منطقة بلنسية واستمرّ هناك في خروجه على الطاعة وفي الدعوة الى الثورة حتى أخرج اليه ابن أخيه الأمير الحكم في عام ١٨٦ هـ (٨٠٢ م) أماناً يعده فيه بالعفو

---

(١) ذكر ابن عذاري : « ان وجهة عبد الله آنذاك كانت بلاد الفرنجة » (البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٣) .

عنه والتوسعة عليه وابقائه في منطقة بلنسية اذا أحبّ [1] . فسرّ عبد الله بذلك واستأذن للبقاء في بلنسية فأجريت عليه الأرزاق (الف دينار كلّ شهر) والف دينار في العام لبعض اللوازم والنفقات الخاصة .

وكان الذي حمل ذلك الأمان اليه هو الفقيه يحيى بن يحيى وابن أبي عامر، فعقد الصلح على ذلك . وعاد الرسولان من منطقة بلنسية يصحبهما أحد اولاد عبد الله الذي زوجه الحكم ابنته [2] .

وقد استمرّ عبد الله بعد ذلك يعيش في بلنسية ويعرف « بالبلنسي » محافظاً على العهد الذي قطعه حتّى وفاة الأمير الحكم ، فلما توفي هذا عاد الى الفتنة من جديدٍ كما سنرى .

ب ــ سليمان بن عبد الرحمن .

ومن جهةٍ اخرى فان سليمان ايضاً اخا عبد الله ، عندما علم بوفاة أخيه هشام جاز المضيق الى الأندلس وأخذ يجمع الناس حوله بعد نزوله فيها في عام ١٨٢ هـ (٧٩٨ م) فاجتمع اليه الكثيرون وقصد قرطبة مباشرةً لمقاتلة الحكم فخرج هذا اليه في شوّال من العام المذكور ودارت بينهم معركة هزم فيها سليمان وانسحب في اتجاه آخر .

ويبدو انه استعدّ من جديد في نهاية العام المذكور وعاد الى قتال الحكم فالتقى معه بموضع يسمى « بخيطه »[3] فهزم سليمان من جديد .

واتجه العمّ الثائر في هذه المرة الى استجه **Ecija** حيث اجتمع اليه عدد

---

(١) ذكر بعض المؤرخين ان عبد الله هو الذي بادر بالكتابة الى اخيه الحكم يطلب منه الأمان بعد ان رأى عدم جدوى استمراره بالثورة .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٠٦ . هذا وقد ذكر المؤرخ بروفنسال « بان ولدي عبد الله وهما عبد الملك وعبيد الله قد عادا مع رسل الحكم فزوجهما هذا بنتيه عزيزه وأم سلمة »
(**Hist. de l'Esp. Mus. TIV p. 155**)

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٠٦ .

كبير من البربر ، فغزاه الحكم هناك والتقى معه على مقربة من المدينة المذكورة فدارت بينهما حرب شديدة دامت أياماً وأسفرت عن هزيمة سليمان للمرة الثالثة بمن معه في عام ١٨٣ ﻫ (٧٩٩ م) .

وحدث صدام رابع بين الطرفين في نفس العام ثم صدام خامس في العام التالي اي ١٨٤ ﻫ (٨٠٠ م) كان أخطر الصدامات بالنسبة للحكم ولكن مع ذلك فقد انتصر فيه ايضاً . ويصفه لنا المؤرّخون بقولهم : « وفي عام ١٨٤ ﻫ حشد ابو ايوب سليمان بن عبد الرحمن في المشرق ، فاحتلّ بجيّان ثم بالبيرة ، فاتبعه جماعة في الكورتين ، والتقى معه الحكم فدام القتال بينهم أياماً حتى همّ الحكم بالهزيمة ، ثم انهزم سليمان وأفلت ، وقتل في المعترك بشر كثير » وأخيراً لجأ سليمان الى منطقة ماردة لمتابعة ثورته على ابن أخيه الحكم ، فكلّف هذا الزعيم البربري في مارده وهو « أصبغ بن والسوس » ان ينهضّ لقتال سليمان فلاحقه هذا فعلاً وتمكّن من القبض عليه وساقه أسيراً الى الحكم فأمر بقتله .

ثورة الربض الأولى ١٨٩ ﻫ (٨٠٥ م) :

قام بها رجال الدين والفقهاء ضدّ الحكم في قرطبة عام ١٨٩ ﻫ (٨٠٥ م) وأدّت الى صلب اثنين وسبعين من زعمائها . فما هي الأسباب التي دعت اليها وكيف تمّ اكتشاف أمرها ؟

يورد المؤرّخون أسباباً كثيرة لتلك الفتنة التي حاول الفقهاء ورجال الدين الأندلسيون القيام بها للإطاحة بعرش الحكم ، ولكن يمكن جمعها في ثلاثة عوامل رئيسيّة هي :

١ ــ عدم سير الحكم على خطّة أبيه هشام في الاعتماد على الفقهاء ورجال الدين ومشاركتهم في تقرير أمور الدولة ، اذ كان هشام كما رأينا يميل الى الزهد والقيام بفرائض الدين على أكمل وجه ، ويدعو الفقهاء باستمرار الى مجالسته والاجتماع عنده في قصره ، بينما لم يتابع الحكم السير على قواعد

هذه السياسة ، فلم يعد يعتمد بشكل أساسي على رأي الفقهاء ، ولم يعد يدعوهم للاجتماع به ، وأصبحت قيمتهم في عهده كقيمة بقية المواطنين ، فأغاظهم ذلك بعد العزّ الذي كانوا يتربّعون فيه ايام أبيه .

٢ ـ ما عرف عن الحكم او بالأحرى ما روي عنه من معاقرةٍ للخمرة وانهماكٍ في الملذات « تظاهر بشرب الخمر والانهماك على اللذاتً وكانت قرطبة دار علم وبها فضلاء أهل علم وورع »[1] وعلى الرغم من ان غيره من الحكام والملوك لم يكن يمتنع عن مثل ذلك ، انما كان الفقهاء يبحثون عن أقلّ سببٍ للارتكاز عليه في مهاجمة الحكم ونشر الدعاية ضدّه ، فبولغ في وصمه بتلك الأفعال مع انها اعتبرت عادية في عهد غيره ولم تسبّب قيام اية ثورة .

٣ ـ القسوة التي كان يظهرها الحكم في تصرّفاته وفي أحكامه « كان طاغية مسرفاً »[2] مما جعل له عدداً كبيراً من الأعداء وخافه الناس ، فانضمّ عدد منهم الى دعاة الثورة من الفقهاء ورجال الدين في محاولةٍ للتخلّص منه .

هذه هي العوامل الرئيسيّة الثلاثة التي يمكن إيرادها في معرض الحديث عن اسباب التحرّك الأول في قرطبة ضدّ الحكم ، وان يكن بعض المؤرّخين قد اورد اسباباً اخرى ، فاننا لا نستطيع ان نعتبرها الا ثانوية في الواقع . فقد ذكر ابن الخطيب ان الناس انكرت عليه أموراً منها « إطلاق يد ربيع القومس متولّي المعاهدين بالأندلس من النصارى[3] » وذكر انه فرض على الناس مغارم جديدة فاستاؤوا لذلك الخ ...

الا اننا لا نعتقد انه كان لهذه الأسباب الأخيرة كبير أهمية حتى ان مؤرّخاً كصاحب البيان المغرب لا يرى أصلاً ما يدعوللثورة وينحي باللائمة

---

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٣١ ، المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٨ .

(٢) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ١٩ .

(٣) ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ١٥ .

على أولئك الذين حرّضوا على قيامها ودبّروا لها فيقول : « كان أصل ذلك الهيج الأشر والبطر ، اذ لم تكن ثمة ضرورة من إجحاف في مال او انتهاك لحرمة ولا تعسّف في مملكة ، والحال تدلّ على صحة ذلك ، فإنه لم يكن على الناس وظائف ولا مغارم ولا سخر ولا شيء يكون سبباً لخروجهم على السلطان ، بل كان ذلك أشراً وبطراً ، وملالاً للعافية ، وطبعاً جافياً ، وعقلاً غبيّاً ، وسعياً في هلاك أنفسهم ، أعاذنا الله من الضلال والخذلان واسباب البوار والخسران »[1] .

والمهمّ فقد بدأ عدد من الفقهاء بعقد الاجتماعات السرية فيما بينهم للتدبير على الحكم يذكر لنا المؤرّخون منهم يحيى بن مضر القيسي ومالك بن يزيد التجيبي وابو كعب بن عبد البرّ[2] وعدد من غير الفقهاء من وجهاء البلد مثل مصرور الخادم[3] وصاحب السوق[4] وغيرهم ممن انضمّوا الى الأوّلين لأشياء نقموها على الحكم لا تخرج عما سبق ان ذكرناه . وصار الفقهاء يعمدون الى انشاد أشعار الزهد والحضّ على قيام الليل في صوامع المساجد ويمزجون ذلك كلّه بشيءٍ من التعريض بالأمير الحكم كقولهم : « يا ايها المسرف المتمادي في طغيانه ، المصرّ على كبره ، المتهاون بأمر ربه ، أفق من سكرتك ، وتنبّه من غفلتك ... »[5] وما شاكل ذلك من القول ، فبدأوا يوغرون صدر الحكم ضدّهم ، قبل ان يعلنوا حركتهم .

وفي خلال عام ١٨٩هـ (٨٠٥م) عقد المتآمرون من الفقهاء ومن يؤيدهم ، سلسلة من الاجتماعات لتقرير خطة عملهم ولاختيار رئيسٍ لهم . وقد اتصلوا في جملة من اتصلوا به بمحمد بن القاسم احد ابناء عم الأمير الحكم فأطلعوه

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١١٣ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٠٦ .

(٣) Ibidem

(٤) Levi - Provençal : Hist. de l'Esp. Mus. TIV p. 107

(٥) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٠ .

على أمرهم ودعوه للقيام معهم فادّعى هذا موافقتهم على ما طلبوه منه ثم ذهب فأخبر الحكم بما جرى معه .

يقول النويري في هذا الصّدد : « حضر أهل قرطبة وفقهاؤها عند محمد ابن القاسم القرشي المرواني عمّ هشام بن حمزة وأخذوا له البيعة على أهل البلد ، وعرّفوه أنّ الناس قد ارتضوه كافةً ، فاستنظرهم ليلة ليرى رأيه ويستخيرَ الله تعالى ، فانصرفوا وحضر هو عند الحكم واعلمه الحال وانه على بيعته له ، لم يتغيّر ... » (١)

وقد طلب الحكم من قريبه محمد بن القاسم الذي نقل اليه خبر المؤامرة ، دليلاً على ما يقوله قبل ان يقدم الأمير على البطش باولئك المتآمرين . واتفق معه على ان يعود للاجتماع بهم فعلاً في اليوم التالي كما وعدهم ، على ان يحضرَ ذلك الاجتماع بعض رجال الحكم الثقاة وهم مختبئون في بعض مواضع المنزل .

ويذكر ان محمداً بن القاسم أجلس رجال الحكم الذين رافقوه في قبةٍ في داره وأخفى أمرهم وما لبث ان حضر المتآمرون الى بيته يستعلمونه عمّا قرّر بالنسبة لتزعم حركتهم فأظهر الخوف على نفسه وهوّل عليهم الخطب وسألهم تعداد اسماء رفاقهم الآخرين كي يكونَ مطمئناً لهم ، فذكروا له كلّ من كان مشتركاً معهم في الأمر ، فوعدهم خيراً وقال لهم بانه سيحاول وضع المؤامرة موضع التنفيذ يوم الجمعة القادم حينما يخرج المصلّون من المسجد بعد صلاة الجمعة .(٢)

بعد ذلك اتجه محمد بن القاسم مع رجال الحكم فوراً الى قصر الإمارة فأعلموه بما تمّ وبما شاهدوا وسمعوا فأمر بالقبض على المتآمرين في نفس الليلة فلم يتمكن من الفرار سوى عدد قليل منهم اما الذين سيقوا الى السجن فقد

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٣٢ .

(٢) نفس المصدر السابق .

أمر الحكم باعدامهم بعد بضعة ايام وصلبهم أمام قصره وكان عددهم اثنين وسبعين رجلاً [1] . كما أمر في الوقت ذاته بقتل اثنين من أعمامه أبناء عبد الرحمن الداخل وهما مسلمة المعروف بكليب وأميّة اللذان كانا في السجن منذ وصول الحكم الى كرسيّ الإمارة .

وكانت تلك الإجراءات القاسية كفيلةً بان تخمد الحركة ولكن بصورةٍ موقتة اذ انّ العدد الذي قتل لم يكن يحتوي بين جنباته على كلّ المتذمّرين من حكم الأمير الأموي ، كما انّ نطاق الاستياء قد اتسع الآن بانضمام اقرباء وعائلات القتلى الى زمرة الراغبين في التخلّص من الأمير الحكم ، ولو انّ عاماً كاملاً سيمضي قبل ان يستفيقَ الناس من الصدمة التي سبّبها لها اعدام ذلك العدد من الناس أمام قصر الإمارة .

اما بالنسبة لردّ فعل الحكم غير المباشر حيال المؤامرة التي اكتشفها وعاقب القائمين بها ، فقد كان مزيداً من الحذر وقلّة الثقة بسكان العاصمة بحيث شرع في تحصين قرطبة وترميم أسوارها وحفر الخنادق حولها وزيادة الحرّاس امام القصر والاستكثار من المماليك الذين سلّمهم ورتبهم على باب قصره بحيث لا يفارقونه أبداً ... قال ابن عذاري في هذا الصدد : « اتقن سور قرطبة وحفر خندقها » [2] . وقال النويري : « شرع في تحصين قرطبة وعمارة أسوارها وحفر خنادقها وارتبط الخيل على بابه واستكثر من المماليك ، ورتّب جمعاً لا يفارقون باب قصره بالسلاح ... » [3]

ولقد ظهر الحكم كأمير صائب النظر بالنسبة لكلّ هذه الاحتياطات التي اتخذها اذ ما ان حال الحول على محاولة الثورة الأولى وابتعدت ذكريات العام الفائت الرهيبة عن أذهان الناس نوعاً ما ، حتى عادت الفتنة الى الظهور من جديد .

---

(١) Ibidem

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٠٧ .

(٣) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٣٧ .

في ذلك العام ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) خرج الأمير الحكم غازياً الى ماردة وفرض عليها الحصار ، فانتهز أهل قرطبة فرصة غياب الأمير فحملوا السلاح وحاولوا قلب الحكومة « أعلنوا بالنفاق ، وتداعوا الى صاحب السوق بالسّلاح »(١) فأسرع القائمون على الأمر في العاصمة مكان الحكم بارسال الرسل اليه يخبرونه بما حدث ، فما ان علم هذا بالأمر حتى جدّ بكلّ ما يستطيعه من سرعة في طريق العودة فقطع المرحلة في ثلاثة ايام ودخل قرطبة حيث تمكن من القبض على رأس الحركة وهو أحد تجار المدينة فأمر باعدامه مع عددٍ من أنصاره لم تحدّده الروايات التاريخية ولو انّه من المرجح انه كان أصغر من عدد الذين أعدموا في العام الماضي .

ووجد الناس على اثر ذلك ان نجاح حركتهم ليس بالأمر السهل وان عليهم ان يركنوا فترة من الزمن الى الهدوء وان يحاولوا إعداد العدّة لثورةٍ قادمة ، سنرى بانها ستكون عنيفةً فعلاً وستحصل بعد اثني عشر سنة من الحركة الأولى .

ثورة الربض الثانية رمضان ٢٠٢ هـ (٨١٨ م) :

مضت تلك الأعوام الفاصلة بين تحرّكات الربض الأولى في قرطبة وهذه التحرّكات الجديدة بهدوء وسكون حتى خيّل للكثيرين بان سكان العاصمة قد استكانوا أخيراً لحكم أميرهم في الوقت الذي كانت فيه النار لا زالت مشتعلة تحت الرماد وكان سكان ذلك الحيّ الثائر في قرطبة والذي يُعرف « بالربض » ينتظرون ايّ سببٍ لإعلان سخطهم وعصيانهم من جديد . كما كان الفقهاء لا زالوا ينقمون على الحكم نفس الأشياء التي كانوا ينقمونها عليه من قبل ، وقويت صفوفهم بانضمام وجوه جديدة اليهم كان على

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٨ .

رأسها يحيى بن يحيى الليثي وأخوه طالوت بن عبد الجبّار وابن وزير[1] وغيرهم ...

اما السبب المباشر الذي كان ينتظره أُولئك الفقهاء ومن يناصرهم من اهل قرطبة عامة وسكان الربض خاصة ، ذلك السبب الذي أثارهم وأشعل الثورة بينهم ، كان في الحقيقة بعيداً عن إرادة الحكم .

فقد ذهب أحد مماليك الحكم الى أحد الصياقلة ودفع اليه بسيفه ليشحذه له فماطله الصيقلي بعضَ الوقت ونشب نقاش حادّ بين الرجلين ادّى الى التماسك بالأيدي فما كان من المملوك الا ان سحب سيفه فطعن به الصيقلي فقتله مما ادّى الى هياج الشعب وإعلانه العصيان .

هذا ويحاول بعضُ المؤرّخين ان يغرو هذه الثورة الجديدة الى زيادة الضرائب التي لمّحنا اليها عند حديثنا عن الثورة الأولى فيقول : « وضع الحكم عليهم عشر الأطعمة في كلّ سنة من غير حرص فكرهوا ذلك »[2] . ولكن من الظاهر ان هذا السبب كان من جملة الأسباب غير المباشرة وانّ السبب الذي ادّى الى الاصطدام هو حادثة فتك الجنديّ بالصيقلي .

وحدث آنذاك أيضاً وربما في نفس اليوم الذي وقعت فيه حادثة الصيقلي ان كان الحكم خارجاً للصيد ، فلما كان في طريق عودته الى القصر ، اعترضه بعض الناس وأسمعوه بعض الكلمات الجارحة ، وتصرّفوا حياله بما لا يليق « شافهه بعضهم بالقول ، وصفّقوا عليه بالأكفّ »[3] . فأمر بالقبض على عشرة من رؤساء سفهائهم ثم صلبهم فأدّى ذلك ايضاً الى زيادة الهياج .

---

(١) ذكر ابن الخطيب انه كان من جملة الفقهاء الثائرين « جد لنا يعرف بابن وزير ، ممن طرحت النوى بركابه ، واستقر بطليطلة ومنها تحول الى مستقرنا بلوشه ، فكان خطيباً بها ، وله ينتسب بيتنا من بعد النسبة الاولى » (أعمال الاعلام ص ١٥) .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٣٧ .

(٣) Ibidem

اذن فهذه الحادثة ، حادثة اعتّراض بعض العامة للحكم وانتقامه منهم مضاف اليها حادثة المملوك والصيقلي ، أدّتا الى اندلاع الثورة .

وكان اول من ثار اهل الربض القبلي ثم اجتمع اليهم أهل الأرباض الأخرى بالسلاح بينما وصلت أخبار الهياج الى القصر فاجتمع الجند والأمويون والعبيد وأخذوا يستعدّون للدفاع عن أنفسهم ففرّق الحكم عليهم السلاح وجعل أصحابه كتائب ووزعهم على الأماكن المختلفة بالشكل المناسب .

وما لبث الثائرون ان اشتبكوا مع جند الأمير في كلّ مكان وتمكنوا من التغلّب عليهم وجعلوا وجهتهم القصر فأحاطوا به من كلّ مكان « نابذوه وجاهروا بخلعه ، ورجعوا الى باب قصره في السلاح وأحاطوا به في أمم لا يحصيها الا الله ... »[1] اما الحكم فقد نزل من أعلى القصر حيث كان يراقب تطوّر الأحداث ولبس سلاحه واخذ يحرّض الناس على القتال .

وذكر في هذا المجال ان الحكم رأى الخطى قاب قوسين منه او أدنى ، فقرّر المقاومة حتى الموت ودعا بأحد فتيانه وطلب اليه ان يأتي له بالغالية (زجاجة العطر) فوجم الفتى وقال لسيّده متسائلاً : « أهذا يوم طيب يا سيّدي ؟ » فصاح به الحكم : « ائت به ويحك ! وإلا فمن اين يُعرف رأس الحكم من غيره من الرؤوس اذا لم يكن مضمّخاً بالغالية ؟ »[2]

وتابعت المعركة مجراها بين الطرفين وتكاثر أهل قرطبة المسلّحون بكل ما وصلت اليه أيديهم من السلاح ، على جند الأمير حتى كادوا ان يظهروا عليهم ، واصبح القصر نفسه مهدّداً بالسقوط في أيديهم ، على الرغم من محاولات الحاجب عبد الكريم بن مغيث والقائد فطيس بن سليمان لإيقاف هجمات الثائرين العنيفة .

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٥ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٦٨ ، ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ١٥ ، عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٠ .

وهنا خطرت لقائدين آخرين من قادة الحكم هما عبيد الله بن عبد الله البلنسي المعروف بصاحب الطوائف واسحاق بن المنذر القرشي ، خطرت لهما فكرة جديدة وهي الالتفاف حول الثائرين من الوراء وحصرهم بين قوّتين ، قوة المدافعين ضدّهم من الأمام ، والقوة التي ستلتفّ حولهم وتحاول إحراق منازلهم .

واصطحب القائدان معهما عدداً من الفرسان ثم أسرعوا جميعاً الى باب الجسر حيث التقوا مع عددٍ من العامّة فجالدوهم حتى أزاحوهم عن الجسر وفتحوا باب الحديد ودخلوا منه[1] .

ثم اقتحموا بعد ذلك الزقاق الكبير وخرجوا على الرملة حتّى وصلوا الى نهر الوادي الكبير فاجتازوه ثم ساروا عبر قطعة الأرض المعروفة «بدمنة الخشّابين » الى ان وصلوا الى الربض الثائر فبدأوا فوراً باشعال النيران في منازله .

جرى كلّ ذلك وأهل قرطبة يناصبون القتال جندَ الأمير حول القصر ، فلما بدأت ألسنة اللهيب ترتفع من ورائهم وهي تلتهم منازلهم وما فيها ، بدأوا يتخلّون عن القتال لإنقاذ منازلهم فأحاط بهم الجند من الأمام ومن الوراء وأعملوا فيهم القتل ، فهزموا وسقط عدد منهم من القتلى يصعب تقديره ولو ان البعض بالغ فيه وجعله يقرب من العشرة آلاف[2] « لم يبقَ احد منهم دون أهله ومنزله وانصرفوا راجعين نحوها ، فأخذتهم السيوف من امامهم وورائهم ، فقتلوا قتلاً ذريعاً ، وتتبعوا في الأزقة والطرق يقتلون ، ونجا منهم من تأخر أجله ، ففرّ لم يلوِ على أهل ولا ولد »[3] .

وقد استمرّت ملاحقة الثائرين وقتلهم مدة ثلاثة ايام كاملةٍ ، قبض

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١١٤ .
(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٦ .
(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١١٤ .

خلالها على عدد كبير من رؤوس الفتنة فأمر الحكم باختيار ثلاثمائة منهم وصلبهم أمام القصر فصلبوا على الوادي صفاً واحداً من المرج الى المسارّة ورؤوسهم منكّسة .

وبعد ان استمرّ القتل والنهب والحريق في أرباض قرطبة ثلاثة ايام كما ذكرنا استشار الحكم قوّاده في الكفّ عنهم او في متابعة الانتقام منهم فأشار عليه حاجبه عبد الكريم بن مغيث بالصفح عنهم والعفو ، في حين أشار غيره (فطيس بن سليمان) بالاستمرار في معاقبتهم ، فقرّر الحكم الأخذ برأي الحاجب عبد الكريم ونودي بالأمان عليهم شريطة ان يرحل المشتركون في الثورة عن قرطبة مع أهلهم وعيالهم خلال ثلاثة ايام من ذلك التاريخ والا أبيح دمه . فصار الناس يخرجون جماعاتٍ من قرطبة قبل ان تنقضي الأيام الثلاثة . ومع ذلك فلم يسلموا من اعتداءات بعض الجند والانتهازيين الذين حاولوا ان يستولوا على بعض ما معهم في تلك الظروف الحرجة ، فلما انقضت الأيام الثلاثة ، شدّد الحكم في منع الأذى عن الناس والمحافظة على أموالهم ومتاعهم ثم أمر بجمعهم في مكانٍ واحدٍ بعيدٍ عن الربض الثائر .

وقرّر الحكم بعد ذلك هدم الربض وفلاحة الأرض التي كانت تقوم فوقها دوره ومنازله فنفذ ذلك على الفور « أقسم الحكم بمحرجات الايمان الا يمشي عن الربض حتى يدعه دكّاً ، فصيّره على عظمه وهوله وأصالة بنائه ، مزرعة »[1] .

وتفرّق اهل الربض في جميع انحاء الأندلس ومنهم من جاز المضيق الى شمالي إفريقية فسكن عدد منهم في مدينة فاس وسكن آخرون في مناطق أخرى ، بينما استقلّ عدد كبير منهم البحر في مراكب أقلّتهم الى الاسكندرية فحطّوا فيها الرحال وتغلّبوا عليها واستوطنوها سنواتٍ الى ان طردهم منها عبد الله بن طاهر الذي قدم الى مصر أميراً من قبل الخليفة المأمون فسار الى

---

(١) ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ١٦ .

الإسكندرية وحاصرها واضطر الأندلسيون الى التسليم والصلح فغادروا المدينة في سفنهم وتوجهوا نحو جزيرة إقريطش « كريت » بقيادة زعيمهم ابي حفص عمر البلّوطي فافتتحوها ونزلوا فيها عام ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) وأسّسوا فيها دولة مزدهرة استمرت قرابة قرن ونصف ٢١٢ – ٣٥٠ هـ (٨٢٧ – ٩٦١ م) إلى ان استعادها منهم البيزنطيون في التاريخ المذكور .

يتحدث المؤرّخون عن تشرّد أهل الربض بعد تلك الوقعة التي اشتهرت فيما بعد باسم « وقعة الربض » واشتهر الحكم بعدها باسم « الحكم الربضي » فيقول أحدهم : « منهم من جاز الى العدوة بالأهل والولد فاحتلّوا بعدوة فاس ... ومنهم اهل جزيرة اقريطش . فذكر انه لم يخرج منهم طائفة بناحية من نواحي الدنيا إلا وتغلّبوا عليها واستوطنوها على قهرٍ من أهلها ؛ واكثر من هرب من أهل العلم والخير ، ممن اتُّهم او خاف على نفسه ، إلى ناحية طليطلة . ثم أمّنهم الحكم وكتب لهم أماناً على الأنفس والأموال وأباح لهم التفسّح في البلدان حيثما أحبّوا من أقطار مملكته حاشا قرطبة او ما قرب منها »[1] .

ويقول آخر : « ما استقرّ منهم طائفة ببلدٍ من البلدان إلا وثاروا ، حتى لقد حكي ان آلافاً منهم استقرّت بالإسكندرية ، وان رجلاً منهم تكلّم مع جزّار ، فرمى الجزار بوجهه بكرش كانت في يده ، فبطش به وقتله ؛ ونادى مناديهم في المدينة ، فتألّبوا ، وثاروا ، وتغلّبوا على المدينة ، حتى صُرفوا عنها صلحاً إلى جزيرة إقريطش »[2] .

ويذكر صاحب المعجب خطأ أنهم ذهبوا إلى إقريطش اولاً ثم إلى الاسكندرية فيقول : « أُمر بنفي من بقي منهم عن البلاد فخرجوا حتى نزلوا جزيرة اقريطش من جزائر البحر الرومي المقابلة لبرّ برقة اول المغرب ،

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١١٥ .
(٢) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ١٦ .

فلم يزالوا هنالك سنين الى ان تفرّقوا ، فرجع بعضهم الى الأندلس ، واختار بعضهم سكنى صقلية ، وانتقل بعضهم الى الاسكندرية »[1] .

هذا وقد أشار النويري في حوادث تلك الفتنة الى مولى من موالي أمية ابن الأمير عبد الرحمن بن معاوية اسمه « بزيع »[2] فذكر بأنه لعب دوراً هاماً في الدفاع عن دولة الأمويين مع انه كان سجيناً آنذاك وفي رجليه قيد ثقيل ، فلما علم بأنّ أهل قرطبة غلبوا على الجند الرسميين ، طلب الى رئيس السجن ان يفرج عنه كي يتمكنَ من تأدية دوره في المعركة فأخذ عليه هذا العهودَ على ان يعودَ الى السجن بعد المعركة ، اذا بقي حيّاً .

وخرج موالي أمية فعلاً من السجن فقاتل قتالاً شديداً وأبلى بلاءً حسناً ثم عاد الى سجنه بعد ان هزم أهل الربض ، فأخبر الحكم بخبره فأطلقه وأحسن اليه[3] . ولقد كان الفقيه المعروف يحيى بن يحيى الليثي من جملة الذين أمر الحكم بإعدامهم كما صدر الحكم بالنفي والتغريب على فقيه شهير آخر هو طالوت بن عبد الجبّار المعافريّ[4] .

ويبدو ان هذا قد شقّ عليه ان يفارقَ وطنه ، فرأى الاختفاء عند بعض معارفه حيث ظلّ هناك ما يقرب من سنة ، فلما استثقل نفسه بعد طول تلك المدة ، أراد ان ينتقلَ الى دار صديق آخر له متنفّذ ومقرّب من الحكم اسمه « ابو بسّام » ، فما كان من هذا إلا ان وشى به لدى الأمير ، فاعتقله ووبّخه على خروجه عليه قبل ذلك ، ثم سأله كيف قضى تلك السنة فحكى له قصّته وذكر له كيف ان ابا بسّام قد وشى به ، فاستاء الحكم من الرجل واستغنى

---

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢١ .
(٢) هكذا ذكر اسمه النويري في نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٣٨ بينما ذكره آخرون « يذيغ » وذكره غيرهم « دربع » بدون اي نقط .
(٣) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٣٨ .
(٤) كان جليل القدر في الفقهاء ، رحل الى المدينة وسمع من مالك بن أنس وتفقه على أصحابه ، وكان قوياً في دينه (عبد الواحد المراكشي : المعجب ش ٢١) .

عن خدمته ورأى ان يكسبَ قلبَ طالوت بالتقرّب منه فعفى عنه ، وأطلقه [1] .

وقد عاش الحكم بعد « وقعة الربض » ما يقرب من أربع سنوات ، لم تظهر خلالها في قرطبة أية بادرة للخروج عليه ، حتى ان خلفاءه فيما بعد تقيّدوا برغبته في إبقاء مكان الربض خالياً بدون بناء فظلّ على ذلك زمناً طويلاً ولم يبدأ ببنائه من جديد إلا في أواخر القرن الرابع الهجري او العاشر الميلادي اي بعد ما يقرب من مائتي عام .

الثورة في طليطلة – وقعة الحفرة :

كانت مدينة طليطلة دوماً على رأس المدن الثائرة في شبه جزيرة الأندلس نظراً للموقع الطبيعي الذي كانت تتمتع به بوقوعها فوق هضبة عالية مطلّة على نهر التاج Tajo ، ونظراً لمناعة الأسوار التي كانت تحيط بها وكذلك نظراً لأنها كانت عاصمة دولة القوط عندما احتلّ العرب شبه الجزيرة .

فإذا أضفنا الى ذلك بأن سكانها أنفسهم لم يكونوا في غالبيتهم من العرب الذين احتلّوا البلاد بل كانوا من المولّدين اي من الإسبان الذين اعتنقوا الإسلام واندمجوا في المجتمع العربي موثرين ان يتمتعوا بالمزايا التي يتمتع بها كل من يدخل في الإسلام ، ولو انّ بعضهم لم يكن يؤمن في صميمه بالدين الجديد ... علمنا إذن تعدّد العوامل التي كانت تجعل من طليطلة مدينةً ثائرة بشكل مستمرّ تقريباً لا تخضع إلا للعنف ولا تنقاد إلا للقوّة .

هذا ولم يخلُ الأمر من وجود عددٍ من المستعمرين ايضاً في طليطلة اي من النصارى الإسبان الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم ولكنّهم ظلّوا يعيشون بأمان في ظلّ الحكم الإسلامي ، دون ان يكونَ ولاؤهم لذلك الحكم مضموناً تماماً .

ويعلّق ابن خلدون على النزعة الثورية لدى اهل طليطلة بقوله : « كان

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢١ – ٢٢ .

أهل طليطلة يكثرون الخلاف ونفوسهم قوية لحصانة بلدهم ، فكانت طاعتهم ملتاثة ، فأعيا الحكم أمرهم » [1] .

وما ان مضى عام واحد على تولّي الحكم منصب الإمارة اي في عام ١٨١ هـ (٧٩٧ م) حتى ثار في طليطلة رجل اسمه « عبيدة بن حميد » فاستدعى الحكم القائد عمروس بن يوسف ، وكان أصله من أهل مدينة وشقة Huesca من المولّدين ، بل كان حاكماً لتلك المدينة ، استدعاه لمحاربة عبيدة بن حميد ، فالتقى هذا به في عدّة معارك لجأ بعدها الى الإيقاع بالثائر المذكور عن طريق الاتصال بأهل طليطلة أنفسهم .

فقد كاتب عمروس رجالاً من أهل المدينة واستلطفهم حتى مالوا اليه ، فدعاهم الى القيام على عبيدة والفتك به ووعدهم على ذلك بمكافأة جليلة من الأمير ، فبادروا الى عبيدة وقتلوه وتوجّهوا برأسه الى عمروس الذي كان يوجد آنذاك في مدينة طلبيرة Talavera. ولكن عندما علم بعض بربر هذه المدينة بما جرى — وكان بينهم وبين ذلك النفر من أهل طليطلة الذين قتلوا « عبيدة » ثارات — هاجموهم في الليل فقتلوا بعضهم ، فما كان من عمروس إلا أن أرسل الى الحكم رأس « عبيدة » ورؤوس الذين قتلوا بسببه بعد ذلك ، ذاكراً له ما جرى .

ولكن إذا كان رأس الثورة قد سحق ، فان طليطلة ظلّت تحتفظ في داخلها بعوامل الثورة ، بل ان أهلها لم يعلنوا ولاءهم للأمير الحكم حتى بعد مقتل « عبيدة بن حميد » فكان على الحكم معالجة الموقف بطريقة ما .

وقد رأى الأمير انه طالما تمكن عمروس بن يوسف من النجاح في إخماد الثورة في بادىء أمرها فربما تمكن من إخمادها نهائياً خاصة وانّ الرجل كما ذكرنا من المولّدين اي كمعظم أهل طليطلة ، فعيّنه والياً عليها وأوعز اليه بان يتصرّف بالشكل المناسب للقضاء على عناصر الفتنة في المدينة الثائرة .

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٦ .

سار عمروس الى طليطلة في نفس العام الذي نتحدث عنه اي في ١٨١ هـ (٧٩٧ م) وليس كما ذكر بعض المؤرّخين المحدثين من انّ ذلك حدث بعد ثورة عبيدة بن حميد بسنوات ... فلما اقترب من طليطلة أعمل جهده في استجلاب أهلها حتى أدخلوه المدينة [١] . فلما تمكن منها عمل على التقرّب من أهلها وعلى كسب ثقتهم .

وكان الحكم قد وجّه الى أهل طليطلة بمناسبة تعيين عمروس والياً عليها كتاباً قال لهم فيه : «إنّي قد اخترتُ لكم فلاناً وهو منكم لتطمئنّ قلوبكم اليه وأعفيتُكم ممن تكرهون من عمالنا وموالينا ولتعرفوا جميل رأينا فيكم ..[٢] » فأنس أهل المدينة بعمروس واطمأنوا اليه فعلاً خاصةً وانه قد أحسن إدارتهم وأظهر موافقتهم على بعض بني أمية وخلع طاعتهم ، فمالوا اليه ووثقوا به ورضوا بحكمه .

وكان أول ما اهتمّ به عمروس هو تقوية مركزه ، ففكّر ببناء قصرٍ على باب الجسر يكون بمثابة حصن له عند اللزوم وفي حال لجوء أهل المدينة الى الثورة من جديد ، فأقنعهم بأن تنفيذ فكرته يعود عليهم بالخير العميم إذ قال لهم : « انّ سبب الشرّ بينكم وبين أصحاب الأمر ، اختلاطهم بكم ، وقد رأيت ان أبني بناء أعتزل فيه أنا وأصحاب السلطان رفقاً بكم »[٣] .

وقد أجابه أهل طليطلة الى ذلك وبنى قصراً في وسط البلد أحكم أسواره واتقن أمره[٤] . ثم أرسل الى الحكم سرّاً يخبره بالوضع وبالقلعة او القصر الذي بناه ، ويشير اليه بالقيام بزيارة الى طليطلة على رأس جيشه .

ولم يشأ الحكم ان يسيرَ الى طليطلة بشكلٍ مفتوح ويعلن ان وجهته المدينة ،

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٠٤ .
(٢) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٣٣ .
(٣) نفس المصدر السابق .
(٤) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٠٤ .

بل ادّعى على العكس من ذلك ان رسالةً وصلته من أحد عماله على الثغر الأعلى يستصرخه ان ينجدَه عسكرياً للوقوف بوجه العدوّ الذي تمادى في اعتداءاته على حدود المسلمين الشمالية .

وأعدّ الحكم جيشه وولّى عليه ابنه عبد الرحمن وجهّز معه القوّاد والوزراء ، فسار الجيش حتى اجتاز مدينة طليطلة دون ان يتعرّضوا لدخولها ، فلما قطعها بمسافة ، أعلن ابن الأمير الحكم بأنه قد تلقّى خبراً من ذلك العامل الذي طلب منه الغوث ان الأزمة قد انتهت وان الجنود الأجانب قد تفرّقوا ولم يعد هناك خطر منهم ، وانه لا داعي لمتابعة المسير ، بل يجب الأخذ في طريق العودة[1] .

كان عمروس على علمٍ بتلك التحركات كلّها ، فما ان اقترب جيش الأمير الحكم من طليطلة حتّى أعلن النبأ لأهلها وقال لهم ان الواجب يضطره للخروج لاستقباله ، وسألهم اذا كانوا يريدون الخروج معه دون ان يكونَ ذلك إجبارياً ، فوافق وجوه أهل طليطلة على الخروج معه .

وفي خارج أسوار المدينة حصل اللقاء بين قائد الجيش ووجوه طليطلة الذين قدموا للتسليم عليه فأكرمهم وأحسن اليهم فطلب هؤلاء الى ابن الأمير ووليّ العهد ان يتفضّل بزيارة مدينتهم ــ وذلك بإيحاء من عمروس نفسه إكمالاً للخطّة ــ فوافق عبد الرحمن ودخل المدينة مع جيشه حيث نزلوا في القصر الذي بناه عمروس .

وكان من الطبيعي ان يتردّد وجوه القوم على القصر للتسليم على عبد الرحمن ابن الأمير الحكم ، كما ان عمروساً كان قد أشاع بأن أُولئك الوجوه مدعوون للطعام على مائدة الأمير في يومٍ معيّن ، وانه نظراً لعددهم الكبير فقد رتّبت الأمور على ان يدخل الزائرون من باب ويخرجون من آخر منعاً للزحام وتسهيلاً للحركة .

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٣٣ .

كان عمروس والأمير الحكم قد قرّرا بالاتفاق فيما بينهما ، التخلّص من وجهاء القوم وزعماء المدينة ، لعلّ ذلك يقضي على أسباب الفتنة في طليطلة ، فقرّروا إقامة تلك الوليمة لتنفيذ خطتهم . وأمر عمروس بأن تحفر حفرة عميقة في الطريق التي يتوجّب على المدعوّين اجتيازها بين بابي الدخول والخروج . فلما جاء اليوم المعيّن وقدم الناس بالمئات للتسليم على ابن الأمير ، طبّقت الخطة فعلاً فكانوا يدخلون من بابٍ ثم لا يخرج منهم أحد ، إذ انهم عند وصولهم الى الحفرة ، يقبض عليهم بعض الموكلين بتنفيذ الخطة من الجند ويضربون رقابهم ويرمونهم في الحفرة .

يقول أحد المؤرّخين في هذا الصدد : « فلما تعالى النهار ، أتى بعضهم فلم ير أحداً ، فقال : أين الناس ؟ فقيل له انهم يدخلون من هذا الباب ويخرجون من الآخر . فقال : لم ألقَ منهم أحداً ، وعلم الحال. فعاد وصاح بالناس وأعلمهم هلاك أصحابه ، فكان ذلك سبب نجاة من بقي منهم »[1] .

إذن فقد نجحت الخطّة للتخلّص من زعماء طليطلة ولو انها اكتشفت قبل انتهائها فقيل ان عدد من لقوا حتفهم في تلك الحادثة قد بلغ السبعمائة[2] وبالغ البعض في ذلك حتى أوصله الى (٥٣٠٠)[3] من وجوه المدينة .

وقد سميت تلك الحادثة « بوقعة الحفرة » وكان تأثيرها كبيراً على أهل المدينة من جميع النواحي ، حتى انها قضت على فكرة الثورة عندهم لمدة لا تقلّ عن خمسة عشر عاماً ، واعتبرها بعض المؤرّخين ، الى جانب وقعة الربض ، رمزاً للقسوة التي ميّزت عهد الحكم .

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٣٤ . هذا وقد ذكر « ابن الخطيب » سبباً غير مقبول او غير منطقي في اكتشاف المذبحة قبل انتهائها فقال : « ان بعض المدعوين فطن الى البخار المرتفع من القصر فقال : هذا والله بخار الدماء ، لا بخار الطعام ، وعرف الأمر (أعمال الأعلام ص ١٥) .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٠٤ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٥

الثورة في سرقسطة :

وكما كانت طليطلة من أوائل المدن التي رفعت لواء الثورة في كلّ عهد . فاننا نستطيع ان نقول الشيء ذاته تقريباً عن سرقسطة . واذا كان لطليطلة وسكانها من الأسباب التي ذكرناها ما يدعوها الى ان تكونَ دوماً في صفّ المدن الثائرة فقـــد كان لسرقسطة أيضاً ما يدعوها الى ذلك ونعني به وقوعها على الحدود الشمالية للدولة الأموية في الأندلس بحيث انها كانت تجاور الدويلات الإسبانية وتضطر للاحتفاظ دوماً بقوة عسكرية كبيرة كي تتمكنَ من الدفاع عن نفسها حيال محاولات العدوّ المتكرّرة لدفع حدوده شيئاً فشيئاً نحو الجنوب . هذا عدا عن المسافة الطويلة التي تفصل سرقسطة وما يليها وهي المنطقة التي كانت تعرف بالثغر الأعلى ، عن مركز الحكومة في قرطبة .

هذه العوامل الأساسية وغيرها من العوامل الثانوية كانت إذن تجعل من سرقسطة ايضاً بؤرةً للثورة .

في بداية عهد الحكم قامت ثورة فيها تزعمها رجل اسمه بهلول بن مرزوق ويعرف بأبي الحجّاج ، فتمكن من دخول سرقسطة والسيطرة عليها في عام ١٨١ هـ (٧٩٧ م) . وقد قدم على بهلول هذا عبد الله البلنسي ابن الأمير عبد الرحمن الذي تحدثنا عن ثورته في بداية عهد الحكم ، وكان متوجّهاً آنذاك الى بلاد الافرنج (١) ثم مرّ في المنطقة نفسها عند عودته — كما سبق ان رأينا في حينه — وأراد ان يتمركزَ في تلك المنطقة فاحتلّ مدينة وشقة ، غير ان بهلول سرعان ما تمكن من طرده منها ، فتوجّه عبد الله الى مدينة بلنسية حيث أقام فيها وآل أمره بعد ذلك الى الصلح مع ابن أخيه الحكم .

إذن فقد سيطر بهلول بن مرزوق على سرقسطة وما يحيط بها ، فحاول قائدان من قادة الدولة الأموية المعروفين وهما الأخوان عبد الكريم بن مغيث

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٠٣ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٢٨ .

وعبد الملك بن مغيث ان يطردا بهلول منها دون ان يحالفهما الحظّ . ويبدو ان عملهما ذاك لم يكن بإيعاز من الأمير الحكم بقدر ما كان مبادرةً شخصية منهما في فترة بسيطة ساءت خلالها العلاقات بينهما وبينه[1] . ولكنّ حملةً رسمية من قرطبة نجحت حيث فشل الأخوان فتمكنت من استعادة سرقسطة وفرّ بهلول بن مرزوق الى دولة « أراجون Aragon » الإسبانية في الشمال ، ولكنه ما لبث ان عاد الى طليطلة ثانية في عام ١٨٤ هـ (٨٠٠م) وتمكن ان يحتلّ وشقة من جديد .

وقرّر الأمير الحكم آنذاك الاعتماد على القائد يوسف بن عمروس صاحب الوقعة الشهيرة في طليطلة ، فأمره بالسير من طليطلة الى سرقسطة للقضاء على بهلول بن مرزوق فتوجّه هذا بالفعل الى الثغر الأعلى في عام ١٨٦ هـ (٨٠٢ م) وتمكن من الانتصار على بهلول وقتله بعد معركة عنيفة بين الطرفين ، ثم فرض بعض العقوبات على المولّدين في وشقة نظراً لخروجهم المتكرّر عن طاعة أمير قرطبة .

وفي تلك السنة بالذات بنى عمروس على الطريق الموصلة بين سرقسطة وبنبلونة قلعة حصينة انقلبت فيما بعد الى مدينة عامرة وهي « تطلية Tudela » التي أبقى فيها ابنه يوسف مع حامية عسكرية . اما وشقة فيُذكر انه قد حصّنها ايضاً وعهد بإدارتها الى قريبٍ له يُدعى « شبريط » .

وهكذا هدأت أمور الثغر الأعلى فترةً من الزمن وطيلة المدة التي عاشها عمروس حتى عام ١٩٦ هـ (٨١٢ م) ولو ان الحكم سيقلق فيما بعد بالنسبة لسيطرة عمروس على المنطقة ويخشى انفصاله بما تحت يده فيرسل اليه عبد الكريم بن مغيث مع رسالة تذكره بواجباته نحو حكومة قرطبة ، فينصاع عمروس لما في الرسالة ويظهر خير قبول لمضمونها بل ويتوجه الى قرطبة ليؤكد للأمير بانه ما زال على طاعته .

---

(١) Levi - Provençal : Hist. de l'Esp. Mus. TIV p. 102

الثورة في مارده :

كان زعيم الثورة في هذه المنطقة هو أصبغ بن وانسوس الذي تمكن من احتلال المدينة وطرد عاملها من قبل الأمير الحكم. وقد خرج الحكم في عام ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) غازياً الى ماردة ففرض عليها الحصار حتى أتاه — كما سبق ان ذكرنا — نبأ تحرّك أهل قرطبة في غيابه على أثر محاولتهم الأولى الفاشلة وإعدام اثنين وسبعين من زعمائهم، فاضطر الى رفع الحصار والعودة مسرعاً الى العاصمة حيث بلغها بعد مسيرة ثلاثة أيام فقضى على الفتنة.

وعاد الحكم بعد ذلك الى الاستعداد لغزو ماردة التي ظلّت خارجةً عن الطاعة. ويحدّثنا صاحب البيان المغرب عن سبب ثورة أصبغ بكلمات عامة لا تشبع الفضول العلمي إذ يقول: «وكان سبب ثورته ان عدوّ الأصبغ طالبه عند الحكم وأغراه به؛ ثم مشى الى أصبغ بمثل ذلك وروّعه منه؛ فتوقّع العقوبة والسطوة به، فكان ذلك سبب دخوله ماردة وقيامه بها ...» (١)

ونحن نفهم من هذا بطبيعة الحال ان هناك عدوّاً للأصبغ لم نستطع التعرّف على اسمه دسّ بينه وبين الأمير الحكم الى ان دفع أصبغ الى الثورة. وعلى ايّ حال فقد عاد الحكم الى حصار ماردة أكثر من مرة بعد ذلك دون ان يتمكنَ من فتح المدينة او ان يظفر بزعيم الثورة فيها.

وظلّت الحملات الرسمية تترى على المدينة سبعة أعوام اي حتى ١٩٧ هـ (٨١٣ م) حين تمكن الأمير الحكم من فتح المدينة بعد ان طلب أهلها الصلح على ان يفتحوا أبواب مدينتهم لجيش الحكم، فتمّ ذلك فعلاً وانتهت الثورة في ماردة.

ولكن في حين يذكر بعض المؤرّخين ان الأصبغ ظلّ على ثورته حتى انتهت في العام المذكور سابقاً اي ١٩٧ هـ حين أمنه الحكم فخرج من ماردة

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب جـ ٢ ص ١٠٨.

وصار في صفّ الأمير وسكن قرطبة[1] ... نرى أنّ مؤرّخين آخرين يذكرون أن أهل ماردة « قد عاودوا الخلاف على الحكم عام ١٩٤هـ فافتتح الحصون وخرّب النواحي وأثخن في القتل والسبي وعاد الى قرطبة ظافراً »[2] . وهذا يعني ان الثورة الأولى اي ثورة أصبغ قد انتهت قبل ذلك وان ماردة قد عادت الى إعلان الثورة ثانية .

يؤيد هذه الروايات القديمة بعض المؤرّخين المحدثين إذ يذكر « بروفنسال » ان أصبغ بن وانسوس قد توفي في عام ١٩٢ هـ (٨٠٨ م) ولكن الثورة لم تنته بوفاته وظلّت قائمة الى ان أخضعها الحكم في عام ١٩٧ هـ (٨١٣ م) .

نستنتج من ذلك كلّه ان الجميع يتفقون على ان الثورة في ماردة قد بدأت في عام ١٩٠ هـ وانتهت في عام ١٩٧ هـ ، ولكنهم يختلفون فيما إذا كانت قد استمرّت بزعامة أصبغ بن وانسوس نفسه أم بزعامة رجل آخر غيره . ونحن نميل الى ترجيح الرأي الأخير اي انها استمرّت بزعامة غيره بدليل ما ذكرناه من النصوص التي تذكر عودة أهل ماردة الى الثورة في عام ١٩٤ هـ ، ولو انّ القائم بها كان لا يزال هو نفسه أصبغ بن وانسوس لما احتاج أولئك المؤرّخون للقول بان أهل ماردة قد عادوا الى الثورة ، ولاعتبروا تلك الحركة امتداداً للأولى[3] .

ثورات صغيرة متفرّقة :

سبق ان قلنا كلمة في ثورتين حدثتا في زمن الحكم ، غير الثورات التي فصّلنا في الحديث عنها ، وهما ثورة جابر بن لبيد التي أعلنها في جيّان والتي أرسل لإخمادها عرفاءه العشرة الذين قاد كل منهم مائتين من الفرسان وقضوا

(١) Ibidem

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٧ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٣٦ .

(٣) يذكر المؤرخ بروفنسال ان الثائر الآخر الذي قام في ماردة يدعى « طملوس » .
(Hist. de l'Esp. Mus. TIV p. 104)

بسرعة خاطفة على الثورة المذكورة قبل ان يستفحلّ أمرها ، وثورة البربري التي أعلنت في موررور والتي أخمدها الحكم ايضاً بنفس الطريقة ، ورأينا انه ظلّ جالساً في مكانه حتى عاد اليه القادة وهم يحملون رأس الثائر .

ولا نريد العودة الى تفاصيل هاتين الثورتين اللتين كانتا في حدّ ذاتهما قليلتي الأهمية واللتين أقدمنا على إيراد نبذة عنهما عند استطرادنا في الحديث عن الاستعدادات العسكرية التي اتخذها الحكم واعتماده الكبير على تلك الفرق الخفيفة من الفرسان التي كانت ترابط باستمرار تجاه قصره .

ولقد ذكرت المصادر التاريخية ثورة أخرى حدثت في عهد الحكم في باجة عام ١٩١ هـ (٨٠٧ م) وكان زعيمها حزم بن وهب ، فقصد مع أتباعه مدينة لشبونة . فلما بلغ الحكم الخبر ، سار اليه في جمع كثير فنازله وقطع الأشجار وضيّق عليه حتى أذعن ومن معه الى طلب الأمان ، فأمّنه وأخذ رهائنه على المصالحة والطاعة وعاد عنه الى قرطبة (١) .

الحكم والدويلات الإسبانية في الشمال :

لم تقف غزوات الحكم عند الدويلات الإسبانية في الشمال بل تعدّتها الى بلاد الفرنجة (فرنسة) كما سنرى ، بيد أنّنا نفضّل ان نخصّص لكلٍ من الموضوعين بحثاً على حدة ، موضوع الغزو في شبه الجزيرة الأندلسية نفسها ، وموضوع العلاقات مع الفرنجة نظراً لتميّز كلّ منهما في حوادثه عن الآخر .

انّ المصادر العربية كعادتها يشوبها شيء من الغموض عندما تتحدث عن غزوات أمراء قرطبة في أرض العدوّ ناحية الشمال وذلك إما لضآلـة المعلومات او لصعوبة الأسماء في تلك النواحي أكانت أسماء الأشخاص ام أسماء الأماكن . ولذا فانّ المؤرّخ يضطر الى الاعتماد في مثل هذه البحوث

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٣٦ .

على المصادر الأجنبية بشكلٍ رئيسي .

كانت أول غزوةٍ قام بها الحكم نحو الدويلات الاسبانيـــة في الشمال في صيف نفس العام الذي تولّى فيه السلطة اي عام ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) . وتذكر لنا المصادر العربية ان تلك الغزوة كانت بقيادة الحاجب عبد الكريم ابن عبد الواحد[١] (او ابن مغيث) وانها توجهت الى دار الحرب في جيشٍ عظيم . ويبدو انها تبعت في خطّ سيرها وادي الايبرو Ebro فاستولت على مدينة قلهرّة Calahorra ثم تابعت سيرها بعد ذلك نحو الشمال فاجتاحت منطقة اشتورياس « وملأ المسلمون أيديهم بالغنائم »[٢] .

لا يقدم لنا المؤرّخون العرب عن هذه الغزوة سوى معلومات عامة فيقول صاحب البيان المغرب : « احتلّ عبد الكريم بالثغر وتوافت عليه الجيوش . ثم تقدم فاحتلّ على شاطىء البحر ، وقسّم الجيش على ثلاثة أقسام وقدم على كلّ قسم رئيساً وأمر كل واحد منهم بأن يغيرَ على الناحية التي قصدها ووجه اليها ؛ فمضوا وأغاروا واستباحوا وأباحوا ، وانصرفوا غانمين ظافرين ، ثم عادوا ثانية الى الإغارة وجاوزوا خلجاً كانت تحدّ وتحصر ، وكان أهل تلك النواحي قد تحرّزوا بها ونقلوا اليها العيال والماشية والأموال ، فأغاروا عليها واحتووا على جميع ما وجدوا فيها وانصرفوا سالمين غانمين »[٣] وذكر النويري[٤] نصّاً مشابهاً لهذا ، لا نرى داعياً لإثباته .

مرت بعد ذلك خمس سنوات شغل الحكم خلالها بالثورات الداخلية وبمقاومة محاولات الفرنجة في الأرض الأندلسية ، تلك المحاولات التي انتهت بتمكنهم من دخول مدينة برشلونة في عام ١٨٥ هـ (٨٠١ م) — كما سنرى بعد قليل — غير ان هذا لم يمنع الأمير الحكم من إرسال حملةٍ الى منطقة

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٢٦ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٠٣ .
(٢) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٢٧ .
(٣) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٠٣ .
(٤) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٢٧ .

جلّيقية اجتاحتها ثم اتجهت بعد ذلك نحو « برشلونة » نفسها فوصلت الى ضواحيها دون ان تحاول فتحها على ما يظهر . وقد تمكنت تلك الحملة ان « تثخن في أرض العدو وان تحرز النصر وتعود الى قرطبة ظافرة »[1] .

وبعد سنتين من هذا التاريخ اي في عام ١٨٧ ﻫ (٨٠٣ م) قام عبد الملك ابن مغيث بحملةٍ نحو منطقة « البه والقلاع » لم يعرف شيء عن تفاصيلها على ما يبدو[2] . ثم بعد خمس سنوات اي في عام ١٩٢ ﻫ (٨٠٨ م) أرسلت صائفة أخرى بقيادة هشام بن الحكم نحو جلّيقية غزت جزءاً من الأراضي التي تحتلّها دولة البرتغال الحالية ففتحت وعادت مظفّرة[3] ـــ

ونصل بعد ذلك الى حملة عام ١٩٤ﻫ (٧١٠ م) التي قادها الحكم نحو منطقة « وادي الحجارة Guadalajara » والتي كان من جملة أسبابها ما سمعه عن وجود بعض أسرى المسلمين في يد العدوّ او بشكل أدقّ ما سمعه عن وجود امرأةٍ أسيرةٍ في تلك النواحي استغاثت به لكي يخلّصها من الأسر .

وكان الشاعر العباس بن ناصح على ما تذكره الرواية التاريخية العربية قد توجه الى ناحية الثغر ، فلما نزل بوادي الحجارة سمع امرأة تقول : « واغوثاه يا حكم ، قد ضيّعتنا وأسلمتنا واشتغلتَ عنّا حتى استأسد العدوّ علينا »[4] فأثر ذلك فيه ونظم قصيدة بهذا المعنى تلاها أمام الحكم وكان منها :

تململتُ في وادي الحجارة مسئداً   أراعي نجوماً ما يرون تغيّرا

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٥ .

(٢) Levi - Provençal : Hist. de l'Esp. Mus. TIV p. 113

(٣) Ibidem

(٤) وردت هذه الجملة بأشكال شتى حسب كل رواية. فلقد أوردها بهذا الشكل المذكور أعلاه ابن عذاري في البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٩ بينما ذكر المقري ان المرأة قالت : « واغوثاه ياحكم ، لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا ، فايمنا ويتمنا ... » (نفح الطيب ج ١ ص ٣٢١) وذكر صاحب أخبار مجموعة انها قالت : « واغوثاه بك يا حكم ، فلقد غفلت عنا حتى تركتنا نهباً للعدو » (ص ٦٧) .

اليكَ أبا العاصي نضيتُ مطيّتي تسير بهمَ سارياً ومهجّراً
تداركْ نساءَ العالمين بنصرةٍ فإنك أحرى ان تغيثَ وتنصرا

فتأثّر الحكم بدوره لما سمع بالخبر وأمر بإعلان النفير والتوجّه فوراً الى تلك النواحي فأوغل فيها وافتتح الحصون وهدم المعاقل وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى ثم سأل الشاعر ابن العبّاس عن المكان الذي كانت المرأة فيه فدلّه عليه فاجتاحه وتمكن من تخليصها . ويذكر انه قال آنذاك للعباس : « سلها : هل أغاثها الحكم ؟ » فقالت المرأة : « والله لقد شفى الصدور ، وأبلى العدوّ ، وأغاث الملهوف ، فأغاثه الله وأعزّ نصره » فارتاح لقولها ، وبدا السرور في وجهه ، وقال :

ألم ترَ يا عباسُ أني أجبتُها على البعد أقتادُ الخميسَ المظفّرا
فأدركتُ أوطاراً وبرّدتُ غلّة ونفستُ مكروباً وأغنيتُ معسرا[1]

وأخيراً فلقد كانت خاتمة الغزوات التي خصّصها لمناطق الأندلس الشمالية التي تشكلت فيها الدويلات الإسبانية ، هي غزوة عام ٢٠٠ هـ (٨١٦ م) التي اكتفى المؤرّخون العرب القدماء بالنسبة لاتجاهها بالقول انها كانت في ناحية « وادي أرون »[2] والتي اختلف المؤرّخون المحدثون فيما بعد حول تحديد موقع ذلك الوادي او ذلك النهر ، فقال بعضهم انه كان في منطقة جليقية[3] ، اعتقاداً منهم بان النهر هو نهر Naharon ، بينما قال آخرون انه كان في منطقة أخرى تقع الى شرقي المنطقة المذكورة قريبة من وادي الايبرو ، اعتقاداً منهم بأن النهر المذكور هو نهر Oroncillo[4] .

والواقع ان في الجزم بالأمر بعض الصعوبة نظراً لوجود أسماء تتشابه

---

(١) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٢ .
(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١١٢ .
(٣) اخذ بهذه النظرية Dozy : Hist. des Mus. d'Esp. TII p. 224
وعدد غيره من المؤرخين مثل كوديرا وديهيجو Dihigo ...
(٤) ايد هذه النظرية Levi - Provençal : Hist. de l'Esp. Mus. TIV p. 114.

مع اسم النهر العربي المذكور في كلّ من المنطقتين اللتين حدّدهما المؤرّخون الأجانب المعاصرون . ولو انّ ابن خلدون مثلاً يذكر ان الملك الذي حاربه العرب آنذاك هو « ملك الجلالقة »[1] ولكن ذلك لا يحسم الأمر لأنه ليس من المستبعد ان ينتقل ملك الجلالقة (اي مقاطعة جليقية) الى منطقة أخرى لمواجهة العرب ، خاصةً وان ابن خلدون لا يذكر اسم النهر إذ يكتفي بالقول : « وفي سنة مائتين بعث الحاكم العساكر مع الحاجب ابن مغيث ، فأقبل اليه ملك الجلالقة في جموعٍ عظيمة وتناولوا على النهر واقتتلوا عليه أياماً ونال المسلمون منهم أعظم النيل ، وأقاموا على ذلك ثلاث عشرة ليلة ثم كثرت الأمطار ومدّ النهر ، وقفل المسلمون ظافرين » .

على ايّ حال ما نعلمه بالتأكيد هو ان العرب قد انتصروا في المعارك الأولى واضطر أعداؤهم الى التقهقر أمامهم الى ان وصلوا في تراجعهم نحو نهر « أرون » ، وهنا حجز النهر بين الفريقين ، وحاول الحاجب عبد الكريم اجتياز النهر في الأماكن القابلة للاجتياز فاصطدم مع العدوّ في كلّ مكان وعلى كلّ مخاضة ، ولم يصل ايّ من الطرفين الى نصرٍ حاسم . وعمد العدوّ الى رمي العوائق في مجرى النهر كي يمنع العربَ من اجتيازه فملأه بالخشب والحجارة ... وحفر الحفائر والخنادق في أمكنةٍ أخرى فأصبح من الصعب فعلاً اجتياز ذلك السدّ من العوائق ؛ ونزلت آنذاك أمطار غزيرة ساهمت في جعل العرب يعدلون عن عزمهم على مطاردة العدوّ حتى النهاية ، فقفلوا بقيادة الحاجب عبد الكريم ظافرين في ٧ ذي القعدة ٢٠٠ هـ (٨١٦ م) .

وينفرد صاحب البيان المغرب بتقديم وصف دقيق لما حدث ، فبعد ان يصف نهوض المسلمين للغزو ، ووصولهم الى نهر أرون الذي حجز بينهم

---

(١) ابن حيان في المقتبس عن مجلة
Al-Andalus, Madrid - Granada 1954 p. 296 (Textos inéditos del « Muqtabis » de Ibn Hayyān sobre los orígines del reino de Pamplona) por Levi - Provençal (E) y Garcia Gomez (Emilio)

وبين العدوّ ، يتابع حديثه قائلاً : « فلما أصبح ، نهض عبد الكريم معه الى مخائض الوادي ، ونهض أعداء الله اليهم فقاتلوهم على كلّ مخاضة فيها . فجالدهم المسلمون عليها مجالدة الصابرين المحتسبين ، واقتحم اعداء الله النهر اليهم فاقتتلوا على مخاضته ، ثم حمل المسلمون عليهم حملة صادقة . فأضغطوهم في المضائق وأدخلوهم على غير طريق ، فأخذتهم السيوف والطعن بالرماح ، فقتل من المشركين عدد عظيم لا يُحصى كثرة ، ومات أكثرهم بالردى ، وداس بعضهم بعضاً ، وصاروا بعد المطاعنة والمجالدة بالرماح والسيوف الى القذف بالحجارة ، وأكثروا الحرّاس بالمخائض ووعّروها بالخشب ، وحفروا الحفائر وخندقوا الخنادق ونزلت الأمطار ، وكان قد فرغ ما كان للعدوّ من المرافق ، وضاقت الحال ايضاً بالمسلمين ، فقفل عبد الكريم ظافراً لسبع خلون من ذي القعدة »[1] .

لم يكن للأمير الحكم بعد هذه الصائفة أية غزوة معروفة حتى وفاته بعد ستّ سنوات من تاريخها ، ولا بد من تعليل ذلك بنوعٍ من الصلح عقد بين الطرفين هدأت الأحوال بعده لفترةٍ من الزمن .

علاقة الدولة الأموية مع الفرنجة في عهد الحكم « الربضي » :

كنّا قد رأينا في حديثنا عن ثورة عبد الله « البلنسي » على عمه الأمير الحكم ، انّ عبد الله قد لجأ الى بلاد الفرنجة ليستعين بشارلمان في محاولته السيطرة على الأندلس او على أجزاء منها على الأقلّ وان شارلمان قد تردّد ، بل ورفض آنذاك ان يقومَ بمحاولةٍ جديدةٍ ضدّ الدولة الأموية المجاورة لبلاده في الأندلس خوفاً من ان تكونَ نتيجتها كالمرّة الأولى عندما حاول

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١١٢ — ١١٣ . وقد ذكر النويري في هذا الصدد « ان الفرنجة هزموا وأسر جماعة من ملوكهم وكنودهم وقماصتهم فعادوا يلزمون النهر يمنعون المسلمين من عبوره ، فأقاموا ثلاثة عشر يوماً يقتتلون في كل يوم فجاءت الأمطار وزاد النهر فتعذر جوازه فقفل عبد الكريم عنهم » (نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٣٩ — ٤٠) .

الاستيلاء على سرقسطة .

واضطر عبد الله البلنسي الى مغادرة بلاد الفرنجة بعد ان أقام فيها ردحاً من الزمن دون ان يتمكنَ من إقناع شارلمان بتقديم ايّ عونٍ له . ومرّت بضع سنواتٍ بعد ذلك تجمعت لدى شارلمان على ما يبدو مزيدٌ من العوامل التي تشجعه وتدفعه الى التدخل في شؤون الدولة الأموية المجاورة له من جديد ، فقرّر أخيراً تسيير حملةٍ الى برشلونة لانتزاعها من أيدي العرب وضمّها الى بلاد الفرنجة .

وقبل ان ندخل في تفاصيل الحملة الفرنجية على برشلونة وفي تاريخ حصولها : لا بدّ ان نلمح الى ان المصادر العربية القديمة لا تأتي على ذكر اية حملة فرنجية حدثت ضدّ الأندلس قبل حملة برشلونة ، بينما تتحدث الروايات الأجنبية عن تدخل الفرنجة قبل ذلك في شؤون الأندلس بمناسبتين احداهما في عام ١٨٢ هـ (٧٩٨ م) حين قام لويس ملك اكيتانيا وابن شارلمان بغارة على مدينة جيرونه Gerona لم يكن لها نتائج تذكر ، والثانية في عام ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) حين ناوشت حملة فرنجية اخرى حاميتي مدينتين من مدن الثغر هما « لارده Lérida » و « وشقه Huesca » دون ان يتعدّى الأمرُ حدّ المناوشة .

وعلى ايّ حال سواء حدثت تينك الغارتان ام لم تحدثا فالمهم ان تلك السنوات كانت تمهيداً واستعداداً للاستيلاء على برشلونة في عام ١٨٥ هـ (٨٠١ م) .

اذن طالما ان برشلونة سقطت في يد الفرنجة في هذا العام المذكور ، فلا بدّ ان يتبادرَ الى ذهننا بانّ الحملة ضدّها قد سيّرت في العام ذاته . غير اننا اذا اخذنا بما يذكره عدد من المؤرّخين من ان حاكم مدينة برشلونة العربي قاوم الحصار الفرنجي مدة عامين ، رأينا أنفسنا مضطرين الى ان نضعَ تاريخ سير الحملة الفرنجية الى برشلونة في عام ١٨٣ هـ (٧٩٩ م) وليس في عام

١٨٥ هـ (٨٠١ م) حين انتهى الأمر بسقوطها .

اما تفاصيل الحملة التي لا يحاول المؤرّخون العرب ان يتعرّضوا لتفاصيلها اذ يكتفون بالقول : « بان الفرنجة ملكوا برشلونة في سنة خمس وثمانين ومائة فتأخرت عساكر المسلمين الى ما دونها »(١) و « نقل الفرنجة حماة ثغورهم اليها ... وكان سبب ذلك اشتغال الحكم بمحاربة عمّه ... »(٢) نقول ان تفاصيل الحملة كما توردها المصادر الأجنبية تتلخص في انّ جيشاً فرنجياً كبيراً يسير نحو برشلونة ويضع الحصار عليها ويعجز عن فتحها مما يضطر شارلمان الى إرسال المزيد من القوّات العسكرية .

ويصمد حاكم برشلونة الذي يقدم لنا ابن حيّان اسمه وهو « سعدون الرّعَيني » ويرسل رسولاً الى قرطبة لطلب النجدة فتقوم حملة من قرطبة ولكنها عوضاً عن ان تتجه مباشرة الى برشلونة ، تنشغل في إخضاع بعض الحصون في منطقة « البه » فتضعف مقاومة حاكم برشلونة خلال ذلك ويضطر الى تسليم المدينة أخيراً .

والمؤرّخون العرب يعترفون كما سبق ان ذكرنا بسقوط هذه المدينة في يد الفرنجة وفي التاريخ المذكور ويعزون ذلك الى انشغال الحكم آنذاك بالفتن الداخلية وبعدم تقديره الخطر الفرنجيّ حقّ قدره . ويبدو انّ صلحاً قد عقد بعد ذلك بين الحكم وشارلمان خيّم الهدوءُ بعده على منطقة الحدود ولكن لفترة محدودة حتماً اذ سنرى بانّ الفرنجة سيحاولون ان يستفيدوا من جديد من المصاعب الداخلية التي كان يلاقيها الحكم فيحاولون في عام ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) احتلال مدينة عربية اخرى هي « طرطوشه **Tortosa** » دون ان ينجحوا في ذلك ، كما اننا سنرى بأن الحكم بعد ان يفرغ من مشاكله الداخلية يردّ على عدوان الفرنجة بعنف فيرسل جيشاً يصل الى ضواحي

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٥ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٣٠ .

برشلونة ويسحق قواتهم في تلك النواحي .

اما ما ذكرناه في موضوع مهاجمة الفرنجة لطرطوشة فان بعض المؤرّخين الأجانب ، يدّعون بان هؤلاء تمكنوا من الاستيلاء على المدينة ، بينما الواقع انهم لم يتمكنوا من ذلك . والرواية العربية واضحة في هذا الشأن وفحواها انه في عام ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) اجتازت جبال « البيرنيه » قوات فرنجية بقيادة امير اكيتانيا « لودوفيك » الذي تسميه الرواية العربية احياناً بـ « رذريق » واتجهت الى مدينة طرطوشة ، فأسرع الأمير الحكم في إنقاذ ابنه عبد الرحمن على رأس جيشٍ كثيفٍ لمقاومة ذلك الغزو الفرنجي . وكتب في الوقت ذاته الى قائديه عمروس وعبدون ان ينهضا بجيوشهما لتقديم المساعدة للجيش العربي الزاحف ، فاستعدّ الناس وتقدّم عبد الرحمن على رأس جيشه بينما أخذت تتوافى عليه الإمدادات من جند الثغر من المتطوّعين ، فالتقوا « بصاحب الفرنجة » ودارت بينهم حرب شديدة ، هزم فيها الفرنجة واضطروا الى الرجوع من حيث أتوا بعد ان فقدوا معظم جيشهم[1] .

وقد تأخر ردّ فعل الحكم الذي دفعه فيما بعد الى القيام بهجومٍ معاكس ، اذ مضت بضعة أعوام على محاولات الفرنجة قبل ان يقومَ الحكم بذلك الهجوم . واخيراً في عام ١٩٩ هـ (٨١٥ م) وعلى الرغم من أن الأندلس عرفت مجاعةً في ذلك العام ، فان ذلك لم يمنع الحكم من تنفيذ عزمه في إرسال جيشٍ الى برشلونة ، اما لكي يثبت للفرنجة بان الدولة العربية في الأندلس لا زالت على جانبٍ كبير من القوة واما لمحاولة استردادها ، وان يكن ذلك الاسترداد لم يحصل فعلاً .

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٩ . ويؤيد هذه الرواية عدد من المؤرخين المحدثين الاجانب بينما يذهب بعضهم الآخر خطأً كما ذكرت الى القول بان الفرنجة تمكنوا من احتلال المدينة بعض الوقت ثم انسحبوا منها.

وقد عيّن الحكم ابن عمه عبيد الله بن عبد الله البلنسي قائداً للجيش المتجه الى برشلونة فوصل أمام المدينة في يوم خميس من ذلك العام دون ان يحدّد المؤرّخ العربي التاريخ الدقيق لذلك اليوم ، فأراد من معه من الجند ان يبدأوا بالهجوم على الفرنجة لأنهم كانوا متشوّقين للقتال . الا ان عبيد الله منعهم ونصحهم بالانتظار الى اليوم التالي ، كي يستريحَ الجيش وينظم نفسه .

حتى اذا كان اليوم التالي الجمعة ، امر عبيد الله بتعبئة واتخاذ كلّ أهبةٍ للحرب . ثم قام فأدّى الصلاة ونادى في الناس فبدأ الهجوم الكبير الذي سرعان ما خرق صفوف الفرنجة فأعمل فيهم المهاجمون القتل حتى لم ينجُ منهم الا القليل « منحهم الله اكتافهم فانهزموا وقتل عامتهم ومزق جمعهم »[1] .

ولما انتهى القتال وانجلت الحرب امر قائد الجيش عبيد الله بأن تنصب قناة طويلة في الأرض وان تقطع رؤوس الاعداء وتثبت حولها ، فجمعت وطرحت حولها حتى غابت القناة .

وهكذا فقد نال الجيش العربي نصراً مؤزّراً في تلك الحملة وفي المعارك التي جرت خلالها وأعادت الى الأمير الحكم الكثير من اعتباره العسكري ، ذلك الاعتبار الذي نال منه سقوط برشلونة بيد الفرنجة .

وإذا كان الجيش العربي لم يحاول بعد ذلك الانتصار العظيم الذي ناله على الفرنجة في عام ١٩٩ هـ (٨١٥ م) اي بعد أربعة عشرة سنة من احتلالهم لبرشلونة ، اذا كان لم يحاول استعادة المدينة الكبيرة ، فان ذلك مردُّه الى أحد امرين : اما لانه لم تكن لديه الأوامر بأن يفعلَ ذلك وكانت الغاية من الحملة إظهار قوة الدولة العربية في الأندلس فقط ، واما لأنّ المعركة كانت شاقةً وان العرب رأوا صعوبة فتح المدينة بعد المجهودات التي بذلوها لإحراز ذلك النصر ، فأرجأوا الأمر الى مناسبةٍ اخرى ولو ان تلك المناسبة ، لن

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١١١ ، وقد ذكر مثله : النويري في نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٣٥ .

تعودَ مع الأسف . وستظلّ برشلونة خارجةً عن نطاق الممتلكات العربية في الأندلس علماً بأن الفرنجة أنفسهم سيخسرونها فيما بعد فتصبح عاصمةً لمقاطعة من اكبر المقاطعات الاسبانية الحديثة اليوم وهي مقاطعة «كاتالوينا Cataluña » التي تعرف بهذا الاسم حتى اليوم .

شخصية الحكم الأدبية :

يجمع المؤرّخون على ان الأمير الحكم بن هشام كان أديباً وشاعراً في الوقت ذاته ولو انهم لم يقدموا لنا الكثير من إنتاجه ، كما فعلوا مثلاً بالنسبة لجدّه الداخل. ومع ذلك نرى بأن احد المؤرخين وصفه بأنه كان « فصيحاً، بليغاً ، شاعراً ، مجيداً »[1] ووصفه آخر بقوله « انه كان على فظاظته شاعراً مطبوعاً : اثر عنه قول الشعر ... »[2] .

هذا وقد نظم قصيدةً على اثر نجاحه في إخماد معركة الربض الثانية التي قام بها الفقهاء ضدّه قال فيها :

رأيتُ صدوعَ الأرض بالسيف راقعا ... وقدما لأمْتُ الشعبَ مذ كنتُ يافعا
فسائل ثغوري : هل بهـــا الآن ثغرة ... ابادرها مستنضي السيف دارعـــا
وشافه على الأرض الفضاء جماجماً ... كاقماف شريان الهبيد، لوامعـــا
تنبّيك اني لم اكن عن قراعهم ... بوان ، واني كنتُ بالسيف قارعا
واني اذا حادوا جزاعاً عن الرّدى ... فلم أَكُ ذا حيدٍ عن الموت جازعا
حميتُ ذماري وانتهكتُ ذمارهم ... ومن لا يحامي ظَلّ خزيان ضارعا
ولما تســـاقينا سجال حروبنـــا ... سقيتُهم سمّاً من الموت ناقعـــا
وهل زدتُ ان وفيتهم صاعَ قرضهم ... فوافوا منايا قدّرت ومصارعا ؟
فهاكَ بـــلادي ، انني قد تركتُها ... مهاداً ، ولم اترك عليهـــا منازعا

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١١٨ .

(٢) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ١٧ .

ويذكر في هذا الصدد ان عثمان بن المثنّى المؤدّب كان يقول : « قدم علينا عباس بن ناصح قرطبة ايام الأمير عبد الرحمن فاستنشدني شعر الحكم في الهيج ، فلما انتهيتُ به الى حيث يقول :

وهل زدتُ ان وفيتهم صاع قرضهم   فوافوا منايا قــدّرت ومصارعا

قال : « لو وضع الحكم الخصومة في أهل الربض ، لقام بعذره هذا البيت »[1] .

وقد سبق ان ذكرنا في معرض حديثنا عن غزوات الحكم ، ان قصيدة حسنة البناء والأداء القاها امامه الشاعر العبّاس بن ناصح عن استغاثة امرأة به جعلته يهبّ لإغاثتها فعلاً . فلما تمّ له ذلك نظم البيتين القائلين :

ألم ترَ يا عبّاس اني أجبتُهـا   على البعد أقتادُ الخميسَ المظفّرا
فأدركتُ أوطاراً وبردت غُلّةً   ونفستُ مكروباً واغنيتُ معسرا

والى جانب مديح الأدباء له في شعر التفاخر والحرب ، فقد ذكروا له بعض الأبيات التي قالها في مجال الغزل :

قضب من البان ماست فوق كثبـان   ولّين عنّي وقد أزمعن هجراني
ناشدتهن بحقي فاعتزمن على الـ   عصيان لما خـلا منهنّ عصياني
ملكنني ملكـاً ذلّت عزائمـه   للحبّ ذلّ اسيرٍ موثـقٍ عاني
من لي بمغتصبات الروح من بـدني   يغصبنني في الهوى عزّي وسلطاني

وذكر له :

نلتُ كلّ الوصال بعد البعاد   فكأني ملكتُ كلّ العبـاد
وتناهى السرور ، اذ نلت ما لم   يفنِ فيه تكاتف الأجنـاد

---

(١) اخبار مجموعة ص ٦٩ .

وله ايضاً :

ظلّ من فرط حبّه مملوكاً ولقد كان قبل ذاك مليكـــا
ان بكى او شكى الهوى زيد ظلماً وبعاداً يدني حماماً وشيكا
تركته جـــآذر القصر صبّاً مستهاماً على الصعيد تريكـــا
يجعل الخد واضعاً فوق ترب للذي يرتضي الحرير أريكا
هكذا يحسن التذلّل بالحـــرّ اذا كان في الهوى مملوكـــاً

الفصل الخامس

إمارة عبد الرحمن «الثاني» بن الحكم

بويع بالإمارة في عام ٢٠٦ هـ (٨٢٢ م) بعد وفاة أبيه بيوم واحد وذلك يوم الخميس لثلاث بقين من شهر ذي الحجة(١) . ونظراً لأنّ ولادته كانت بطليطلة في شعبان عام ١٧٦ هـ(٢) (٧٩٣ م) فانّ سنّه كانت ثلاثين سنة حين توليه الإمارة . وقد كان تولّيه بعهد من أبيه له اولاً ثم لأخيه المغيرة بعده(٣) ولو انّ الوصية لن تنفذ بكاملها لأنّ المغيرة لن يصل الى الحكم .

يكنّى ابو المطرّف وامه تدعى « حلاوة » وقد أمر بأن ينقش على خاتمة :

خاتم للملك أضحى حكمه في الناس ماضي

عابد الرحمن فيه بقضاء الله راضي(٤) .

وقد وصف بأنه طويل ، اسمر ، أقنى ، أعين ، أكحل ، عظيم اللحية(٥)

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢٢ .

(٢) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٥ .

(٣) نفس المصدر السابق ص ٣٢٢ .

(٤) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٥١ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢٢ .

(٥) نفس المصدرين السابقين .

ويذكره المؤرّخون باسم الأمير عبد الرحمن الأوسط نظراً لأن الاول كان عبد الرحمن الداخل والثالث عبد الرحمن الناصر وان يكن من الأفضل ان يعرف بعبد الرحمن الثاني لان امراء وخلفاء بني أمية في الاندلس الذين سمّوا بعبد الرحمن كانوا في الواقع اكثر من ثلاثة .

لما ولّي الأمير عبد الرحمن استقدم اخوته وأهله ووزراءه وتوجّه اليهم بالكلام قائلاً : « الحمد لله الذي جعل الموت حتماً من قضائه وعزماً من أمره ، وأجرى الأمور على مشيئته فاستأثر بالملكوت والبقاء وأذلّ خلقه ، فما لفناء تبارك اسمه وتعالى جدّه ، وصلّى الله على محمد نبيه ورسوله وسلم تسليماً . وكان مصابنا بالامام رحمه الله مما جلّت به المصيبة ، وعظمت به الرزية ، فعند الله نحتسبه وإياه نسأل الهام الصبر ، واليه نرغب في كمال الاجر والذخر . ولقد عهد الينا فيكم بما فيه صلاح أحوالكم ، ولسنا ممن يخالف عهده ، بل لكم لدينا المزيد ان شاء الله »[1] . ثم قام عنهم وخرجت لهم الأموال والكساء على أقدارهم .

ولقد قيل في شخصيته انه «كان ذا همة عالية »[2] وان « ايامه كانت ايام هدوء وسكون »[3] وانه «كان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة »[4] .

واثنى المؤرخون على عهده فذكروا انه كانت له غزوات كثيرة وفتوحات في دار العدوّ شهيرة ، يخرج اليهم في العدد الجمّ والعسكر الضخم ، يخرّب ديارهم ويعفّي آثارهم ، ويقفل ظاهر الاعتلاء ، قاهر الأعداء[5] .

ويعتبر عهد الأمير عبد الرحمن الثاني ذروة عصر الإمارة في الاندلس

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٥ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) Ibidem .

(٤) المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٥ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٠ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٥١ .

(٥) ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ١٨ .

إذ انه « اول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة ، وكسا الخلافة ابهة الجلالة ، فشيّد القصور وجلب اليها المياه ، وبنى الرصيف وعمل عليه السقائف ، وبنى المساجد الجوامع بالأندلس ، وعمل السقاية على الرصيف ، وأحدث الطرز واستنبط عملها ، واتخذ السكة بقرطبة ، وفخّم ملكه »[١] .

كما انه « ألحق بقصره حوضاً كبيراً لتجميع الماء استعمله الناس للسقاية ، وأقام الجسور ، وزاد في جامع قرطبة رواقين ، ومات قبل ان يستتمه ، فأتمه ابنه محمد بعد ، ورتّب رسوم المملكة ، واحتجب عن العامة ... »[٢]

وفي ايامه وصلت الأندلس أنفس الأشياء وأغربها ، سيق اليه ذلك من بغداد وغيرها خاصة في أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون[٣] . وكثرت الأموال في زمنه ووصلت أموال الجباية على ما قدّرها المؤرّخون إلى ألف الف دينار في السنة بينما كانت لا تزيد على ستمائة ألف قبل ذلك .

كلّ هذا جعل بعض المؤرخين يسمّون عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم « بأيام العروس »[٤] ويعتبرونها من أسعد الأيام التي عاشها أهل الأندلس في ظلّ الدولة الأموية . وهذا هو ما جعل المؤرّخ الأندلسي ابن الخطيب يصف عهده بقوله : « وفي ايامه احتفلت دولة بني أمية بالأندلس ، وعظمت الألقاب ، وشيّدت القصور ، وجلبت اليها المياه ، وجلبت اليه من المشرق ، بعد ان عاثت الفتنة في قصور الأمير وخزائن بغداد ، الذخيرة الرفيعة ، كعقد الشفاء ومثله اعلاق زبيدة بنت جعفر ، وفي ايامه ، اتخذ الطراز ، الذي كان حديث الرفاق وطرفة أهل الآفاق »[٥] .

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٦ ، ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٣ .
(٢) المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٥ .
(٣) يذكر في هذا الصدد ان من جملة ما حمل اليه العقد المعروف بعقد « الشفا » الذي كان يخص زبيدة ام جعفر .
(٤) Ibn Hayyan apud Levi-Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane TIV p. 130
(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٠ .

ولقد ذكر في معرض الحديث عن صفاته الشخصية انه كان كريماً ، متسامحاً ، كلفاً بالنساء ، محبّاً للشعراء والأدباء ... وأورد المؤرّخون أمثلة عملية لتأييد نسبتهم بعض هذه الصفات اليه .

ففيما يتعلّق بكرمه يقدّمون لنا عدداً كبيراً من الأمثلة ، على أعطياته الفخمة للمقرّبين اليه . وفيما يتعلق بتسامحه يقدمون لنا قصة أحد فتيانه الذي سرق مبلغاً من المال والأمير عبد الرحمن يشاهده ومع ذلك فلم يحاسبه على فعلته ولم يطالبه بالمبلغ .

وخلاصة ذلك انه وردت عليه يوماً أموال ليدفعها كأعطيات لجنده فأدخلت اليه وجعلت بين يديه . وكان قد خلا به في مجلسه فتى واحد من فتيانه يقوم بخدمته بينما سهت عين الأمير لحظة فانتهز الفتى الفرصة لكي يأخذ مبلغاً من المال ويخبئه تحت كمه ، فأحسّ به الأمير ورآه دون ان يراجعه في ذلك . فلما عدّ المال ووجد فيه نقص صار كل من الفتيان يرمي التبعة على الآخر ، فلما رأى الأمير بأن الذي اخذ المال يحرص على الا يكشفَ نفسه أمرهم بالكفّ عن التفتيش وقال لهم : « اخذها من لا يردّها وعاينه من لا يقولها » فاعتبر ذلك العفو نوعاً من الكرم والفضل[1] .

واما كلفه بالنساء فيُقدّمُ دليل عليه المعاملة الخاصة التي كان يعامل بها جاريته طروب حتى انها « اصبحت تبرم الامور مع نصرٍ الخصيّ فلا يردّ شيئاً مما تبرمه »[2] .

وقد حصل شيء من الخلاف ذات يوم بين الأمير وجاريته المفضّلة طروب فصدّت عنه وأبدت هجرانه ، فأرسل اليها فامتنعت عليه وأغلقت على نفسها ولم تعد اليه الا بعد ان قدّم لها مبلغاً من المال وعقداً نفيساً من الجوهر غالي الثمن . فلما أعظم بعض وزرائه تلك الهدية الغالية أجابهم عبد الرحمن « بأن لابسه انفس منه خطراً وأرفع قدراً »[3] .

---

(١) اخبار مجموعة ص ٧١ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٣٦ — ١٣٧ .
(٢) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٧ ، اخبار مجموعة ص ٧٠ — ٧١ .
(٣) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٣٧ .

وقد دفع هذا التعلّق من قبل الأمير عبد الرحمن بن الحكم بجاريته طروب ، خاصة بعد ان أصبحت ام ولد فولدت له ابنه عبد الله ، دفعها الى الرغبة في الحصول على السلطة او بالأحرى على مزيدٍ من السلطة طالما أنها كانت تتمتع في الواقع بقسطٍ كبيرٍ منها ، فتآمرت على سيّدها الأمير عبد الرحمن لقتله وتحويل الأمر بعده الى ابن الأمير الذي ولدته له وهو عبد الله ، بدلاً من ان يؤول الى ابنه محمد الذي كان يزمع ان يوليه عهده او كان قد ولاّه عهده فعلاً . ولكن المؤامرة فشلت كما سنرى عند دراسة تفاصيلها بمناسبة الحديث عن ولاية عهد الأمير عبد الرحمن الثاني في أواخر ايام ولايته .

هذا وقد اوردت الروايات اسماء بعض الجواري الأخريات اللواتي حظين عند عبد الرحمن بن الحكم منهن « مدثرة » التي أعتقها وتزوجها و « السناء »[1] و « قلم » التي قصد باسمها على ما يظهر الدلالة على شخصيتها ، اذ كانت أديبة ، حسنة الخطّ ، راوية للشعر ، حافظة للأخبار ، عالمة بضروب الأدب . وكان عبد الرحمن مولعاً بسماع الشعر والأدب ، مؤثراً له على جميع لذاته[2] .

واما ميله لرجال العلم والأدب فليس ادلّ عليه من تقريبه للعلماء امثال يحيى بن حكم الغزال وعبّاس بن فرناس ... وللشعراء امثال عباس بن ناصح وعبد الله بن الشمر ...

وللموسيقيين وعلى رأسهم علي بن نافع الملقّب بزرياب والذي قدم عليه من بغداد فرفع حظوته وأعلى شأنه ... وسنعود لذكر كلمة عن كلّ من هؤلاء الرجال وغيرهم ممن لمعوا في عالم الأدب والعلم زمن الأمير عبد الرحمن بن الحكم .

الفتن في عهده :

ان عهد عبد الرحمل الثاني ، ولو لم يخلُ من بعض الفتن او الثورات

(١) أوردها بعضهم على انها « الشفاء » .
(٢) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٨ .

التي رفعت رأسها إلا انه لا يمكن مقارنته في هذا المجال بعهود الأمراء الذين سبقوه والذين امتلأت سنوات حكمهم بأخبار الثورات التي ظهرت في كلّ مكان ، فان قضاء عبد الرحمن على الفتن لم يكلّفه كبير عناء ولم يكن المهمة الأولى التي وقع عليه عبء التخلّص منها ، لذا فاننا وان خصّصنا حلقةً للبحث عن الفتن في عهده، الا انه لا يجب ان يغيبَ عن بالنا انّ ذلك العهد يعتبر عهد سلامٍ نسبي كما يعتبر عهد رخاء ماديّ وارتفاع ملموس في المستويين الثقافي والعلمي .

نهاية ثورة عبد الله « البلنسي » :

كان عبد الله البلنسي هو عمّ والد الأمير عبد الرحمن . وكنّا قد رأينا بأنه قطع على نفسه عهداً بالركون الى حياة السلم في عهد الأمير الحكم ، فلما توفي هذا الأمير راودته نفسه بالرجوع الى الثورة ، وسار الى تدمير كمرحلةٍ على ما يبدو في طريقه الى قرطبة ، فتجهّز له عبد الرحمن واستعدّ لقتاله ، غير ان عبد الله تحاشى اللقاء مع جيوش الأمير وفضّل العودة الى بلنسية حيث مات في العام التالي اي في ٢٠٨ هـ (٨٢٣ م) فأمر عبد الرحمن بنقل اولاده وعائلته الى قرطبة[١] كيلا يفكر احد منهم بالخروج على الطاعة فيما بعد .

فتنة جند البيرة في قرطبة :

كان الأمير الحكم قد أقدم في الأيام الأخيرة من حكمه على قتل احد كبار الموظفين الماليين وهو القومس « ربيع » الذي كثرت منه الشكاوي لظلمه الناس ومطالبتهم بدفع اموال لم تكن مترتبة عليهم في الحقيقة . فلما توفي الحكم وكان الناس قد تسامعوا بمقتل « ربيع » أخذوا يفدون على قرطبة للمطالبة بالأموال التي كان ربيع قد جباها منهم . ولكن بما ان ردّ الأموال كان متعذّراً نظراً لعدم وجود اثباتات بذلك فان الامير عبد الرحمن حاول صرف الناس

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٤١ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٧

عن ذلك واعتبار الموضوع منتهياً .

وكان جند البيره يشكلون اكبر نسبة من المطالبين بردّ أموالهم واكثر اولئك إلحاحاً على ذلك . فأرسل اليه عبد الرّحمن من يحاول قتلهم فلم يقبلوا ودفعوا من أتاهم ، فتوجّه اليه نفر من الجند واضطر الى قتالهم فانهزم جند البيرة وقتل عدد منهم ، وقضي بذلك على حركة العصيان تلك في بدايتها ، قبل ان يتفاقم أمرها في قرطبة وتنقلب الى حركة أعمّ وأخطر(١).

بين القيسيّة واليمنية :

لم تكن اسباب الخلاف قد استؤصلت أبداً بين القيسية واليمنية ، بل كانت تلك الخلافات تخبو كالنّار تحت الرماد حتّى اذا حدث اي احتكاك بسيط بين الطرفين كان الشرارة الكافية لإثارة كوامن الأحقاد وتفجير الموقف من جديد .

وهذا هو ما حدث بالضبط في مقاطعة تدمير بالأندلس في عام ٢٠٧ هـ (٨٢٣ م) اي في ثاني عام من ولاية عبد الرحمن الثاني ، اذ انفجر الموقف بين القيسيين واليمنيين ودامت المنازعات سبع سنوات كاملة اي حتّى عام ٢١٣ هـ(٢) (٨٢٩ م) قبل ان يتمكن الأمير عبد الرحمن من القضاء عليها .

واذا كانت الروايات التاريخية تقدم لنا سبباً تافها لاستئناف تلك المنازعات وهو اقدام احد المضريين على قطف ورقة دالية من بستان احد اليمانيين(٣) ، ثم اقدام هذا على قتله ... فاننا نعلم بأن هذا السبب المباشر لم يكن سوى الشرارة التي بعثت الخلافات على اثرها من جديد اذ ان القلوب كانت مليئة

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٤٢ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢٤ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٨ .

(٣) كان انبعاث هذه الفتنة وسببها بين المضرية واليمانية على ورقة دالية اخذها مضري من جنان يماني ، فقتله اليماني ، فكان ذلك سبب الحروب التي دارت بين الفريقين ، واتصلت اعواماً ، وكانت الدوائر تدور اكثرها على اليمانية والقتلى منهم ... (ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢٤) .

بطبيعتها وكان كلّ فريق ينتظر ارتكاب اية هفوة من قبل الفريق الآخر كي يحاسبه عليها حساباً عسيراً .

على ايّ حال ما ان علم الأمير عبد الرحمن بنشوب الفتنة حتى أسرع بتجهيز جيش وضع على قيادته يحيي بن عبد الله بن خلف وبعث به الى تدمير لتهدئة الفتنة . فلم يتمكن في بادىء الأمر واعتبرت بعض القبائل تدخله في غير محلّه فقاتلته واشتبكت معه في معركة عرفت بوقعة « المصارة » قرب مدينة لورقة Lorca ، فقدت فيها ثلاثة آلافٍ من القتلى(١) ، دون ان تؤدّي الى نتيجة حاسمة .

بعد سنتين من ذلك اي في عام ٢٠٩ ﻫ (٨٢٥ م) وجد الأمير عبد الرحمن ان الضرورة تستدعي ارسال جيش آخر الى تدمير طالما ان الفتنة لا زالت قائمة بين القيسيين واليمنيين فكلّف قائده أمية بن معاوية بن هشام ان يقودَ جيشه الى تلك المنطقة وان يحاولَ استئصال أسباب الخلاف .

وكانت الغلبة على ما يبدو من النصوص التاريخية آنذاك لليمانيين الذين ولّوا عليهم زعيماً هو ابو الشمّاخ محمد بن ابراهيم فاشتبك امية بن معاوية معه قرب مرسية Murcia في وقعة شبيهة بوقعة « المصاره » السابقة الذكر ، قتل فيها ايضاً عدد من المسلمين ولم تحسم الفتنة . فأمر الأمير عبد الرحمن ممثليه في المنطقة ان يتخذوا مدينة مرسية قاعدة لهم وان يهدموا مدينة « إلّه »(٢) Ello في مقاطعة تدمير ، تلك المدينة التي ثارت الفتنة فيها بادىء الأمر . ونفذ ذلك فعلاً في عام ٢١٠ ﻫ (٨٢٥)(٣) .

وقد كان من المفروض ان تؤدّي هذه الإجراءات كلّها الى القضاء نهائياً

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٨ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٤٢ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٣ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٤٣ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٤ .

(٣) ذكر النويري في هذا الصدد : « فلما رأى عبد الرحمن ذلك ، أمر العامل بتدمير ان ينتقلوا منها ويجعل مرسية منزلة العمال ففعل ذلك وصارت مرسية قاعدة تلك البلاد » .

على الفتنة آنذاك. ولكن الأمر لم يكن كذلك اذ ان القضاء النهائي عليها لم يتمّ الا في عام ٢١٣ هـ (٨٢٩ م) – كما سبق ان ذكرنا – اذ استنزل في ذلك العام زعيم اليمانية ابو الشمّاخ وغيره من القلاع التي كانوا يحاصرون فيها ، وانقطعت عاديتهم وصار ابو الشمّاخ واحداً من الولاة الذين يعتمد عليهم الأمير عبد الرحمن الثاني ويثق فيهم . وسنعرض للحديث عن الدور الذي لعبه بعد ذلك .

الثورة في طليطلة – هاشم الضرّاب :

لم تتخلّ طليطلة عن دورها الثوري في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني فثار فيها هذه المرة في عام ٢١٤ هـ (٨٣٠ م) رجل اسمه « هاشم الضرّاب » أصله من طليطلة ولكنه هاجر الى قرطبة بعد ان اوقع الحكم بوجهاء وزعماء طليطلة في « وقعة الحفرة » فصار يعمل فيها أجيراً عند أحد الحدّادين فعرف « بالضرّاب » .

وبعد ان عاش هاشم ردحاً من الزمن في قرطبة عاد الى طليطلة ودعا أهلها للالتفاف حوله فتبعه الكثيرون « استدعى أهل الشرّ والفساد وألّبهم ، فتألّب اليهم منهم نفر »(١) . وصار هاشم وأصحابه يغيرون على العرب والبربر دون تمييز فيستولون على ما تصل اليه ايديهم . وانتشر صيته وتسامع اهل الشرّ به فاجتمعوا وتمكن بهم من ان يجتاح منطقة « شنتبرية Santaver » . فقرّر الأمير عبد الرحمن القيام بعملٍ حاسم تجاهه وأصدر أوامره الى عامل الثغر محمد بن رستم بالقضاء عليه وأرفق تلك الأوامر بكتابٍ يعتب عليه فيه ويعنفه لتقصيره في حقّ « الضرّاب » فنهض ابن رستم اليه ووقعت بين الطرفين حرب شديدة دامت بضعة ايام وانتهت بهزيمة هاشم ومقتله مع عددٍ كبيرٍ ممن كانوا معه وذلك في عام ٢١٦ هـ (٨٣١ م) .

ومع ذلك فقد استمرّت طليطلة خارجة على طاعة الأمير عبد الرحمن بن

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٤٢ .

الحكم فأرسل اليها ابنه أمية في عام ٢١٩ هـ (٨٣٥ م) فحاصرها وأتلف زروعها وقطع ثمارها وترك « ميسرة » الفتى قائداً على قلعة رباح **Calatrava** لكي يتابع حصار طليطلة والتضييق عليها بينما عاد هو الى قرطبة .

واعتبر اهل قرطبة انسحاب القوات المحاصرة لهم نوعاً من الضعف ، فقرّروا الخروج من مدينتهم ومهاجمة قلعة رباح. فعلم ميسرة الفتى بخبرهم وأمر بأن تكمنَ لهم الكمائن . فلما اقتربوا خرجت عليهم تلك الكمائن وأعملت فيهم القتل .

وهنا يحصل نوع من الخلاف بين المؤرّخين اذ بينما يذكر بعضهم انه قتل عدد كبير من اهل طليطلة حزّت رؤوسهم وجمعت بين يدي ميسرة[١] ، يذكر آخرون أن أهل طليطلة أوقعوا بميسرة وتغلّبوا عليه[٢] . وبينما يذكر اصحاب الرواية الاولى ان ميسرة قد مات بعد ذلك بفترة وجيزة أسفاً وندماً على كثرة من قتل من أهل طليطلة ، يذكر أصحاب الرواية الثانية انه مات غمّاً لهزيمته امام اهل طليطلة .

ونحن اذ نرجّح ان يكون ميسرة وجند الأمير هم الذين تغلّبوا في تلك الموقعة فعلاً لمنطقية ووضوح الأحداث التي يقدمها لنا اصحاب هذا الرأي ، فاضطر اهل طليطلة الى العودة بسرعة نحو مدينتهم ليلجأوا اليها ، نرى ان الروايتين تؤدّيان بعد ذلك الى نفس النتيجة وهي موت ميسرة الفتى صاحب قلعة رباح .

حيال هذه النتيجة عيّن قائد جديد لقلعة رباح هو ابو الشمّاخ الذي سبق ان ذكرنا انه سيلعب دوراً بعد انتهاء الفتنة التي كانت قد ثارت بين المضرية والقيسية في مقاطعة تدمير .

وقد انتهز الأمير عبد الرحمن آنذاك فرصة خروجه في احدى غزواته

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٦ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٤٦ .
(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٨ .

فجعل ابا الشمّاخ يرافقه الى قلعة رباح حيث ابقاه عليها وترك لديه عدداً كبيراً من الفرسان والجند لمناهضة طليطلة بينما تقدم الأمير لمتابعة غزوته .

ولم تؤدّ المناوشات التي حصلت بعد ذلك بين ابي الشمّاخ وأهل طليطلة الى فتح المدينة اذ استمرّ عصيانها ثلاث سنوات اخرى اي حتى عام ٢٢٢ هـ (٨٣٧ م) ، حين انقسم اهل المدينة على أنفسهم فخرج احد زعمائهم ويدعى « ابن مهاجر » فسار الى قلعة رباح واتصل بممثلي السلطة ودعاهم لمرافقته نحو طليطلة لفتحها ففعلوا ونهضوا نحو ابوابها وفرضوا عليها الحصار ، فلما قدم جيش جديد أرسله الأمير عبد الرحمن للمساهمة في فتح المدينة ، كان أهلها قد أوشكوا على التهلكة ، فأسقط في يدهم عندما علموا بنبأ قدوم القوة الجديدة وفتحوا أبواب مدينتهم للمحاصرين فدخلوها .

اما قائد الجيش الذي أرسله عبد الرحمن للمساهمة في فتح المدينة فقد ذكر بعض المؤرّخين انه كان عبد الواحد الاسكندراني[1] ، بينما ذكر آخرون انه كان الوليد بن الحكم أخو الأمير عبد الرحمن بن الحكم وهو الأصحّ .

وعلى ايّ حال فقد فتحت المدينة عنوةً في شهر رجب من عام ٢٢٢ هـ (٨٣٧ م) وعادت طليطلة الى الطاعة لفترةٍ من الزمن على الأقلّ . هذا ويعلّق النويري على ذلك الفتح بقوله : « فتحها الوليد بن الحكم عنوة يوم السبت لثمان خلون من شهر رجب منها وامر بتجديد القصر على باب الجيل الذي كان هدم بأيام الحكم وأقام بها الى آخر شعبان في سنة ثلاث وعشرين حتى استقرّت قواعدُ أهلها »[2] .

ثورة محمود بن عبدالجبار وسليمان بن مرتين في ماردة :

قام بالثورة في ماردة رجل بربري اسمه محمود بن عبد الجبار وما لبث ان انضمّ اليه احد المولّدين واسمه سليمان بن مرتين ، فأعلنا الثورة وتمكنا من

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢٧ .

(٢) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٤٦ .

السيطرة على المدينة وذلك في عام ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) .

يذكر صاحب « تاريخ افتتاح الأندلس » في صدد هذه الثورة « انه قد تحرّك في أخريات ايام الحكم رحمه الله بجانب (موررور) رجل يقال له (قعنب)[١] تنسب اليه فتنة . فضرّب بين العرب والموالي وبين البتر والبرانس حتى قامت فتنة اطفأها الله في صدر ايام عبد الرحمن بن الحكم وفرّ (قعنب) الى جانب ماردة وما والاها . فأقام فيها ايضاً فتنة بين البربر وبين المولّدين ... واتصل بذلك قيام محمود واخت له تسمّى جميلة بقرب وادي تاجه بجوفيّ ماردة وما والاها فدارت بينهما فتنة . وكانت جميلة تدعو الى الطاعة ، وأخوها محمود الى الخلاف والمعصية ... »[٢]

فنحن نفهم من ذلك كلّه اذن ان الرجلين قاما بالثورة في ماردة وان محمود كانت له اخت اسمها جميلة . فلنتابع أحداث الفتنة .

لقد تمكن الثائران من قتل والي المدينة المعيّن من قبل الأمير عبد الرحمن ابن الحكم وهو « مروان الجلّيقي » فقام الأمير بقيادة جيشٍ بنفسه نحو المدينة الثائرة فوضع عليها الحصار حتى وعدوا بالعودة الى الطاعة واعطى اهل المدينة رهائنهم . فعاد الجيش عنهم ، بعد ان خرّب سور المدينة[٣] وبعد ان ترك عليهم حاكماً يمثل حكومة قرطبة هو الحارث بن بزيغ[٤] . ثم أرسل الأمير عبد الرحمن من ينقل أحجار السور الى مكانٍ بعيد كيلا يطمع أهلها في إعادة بنائه من جديد ، فلما رأوا ذلك وكان الأمير قد ابتعد بجيوشه عنهم عادوا الى العصيان وأسروا العامل عليهم وبنوا السور وأتقنوه فسار عبد الرحمن اليهم بجيوشه في سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) ومعه رهائن أهلها فراسلهم وعرضوا عليه

---

(١) يذكر ابن القوطية ان « قعنب » هو لقب لسليمان بن مرتين (تاريخ افتتاح الاندلس ص ٨٨) .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٤٤ .

(٤) هكذا ورد اسمه في ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٨ وفي نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٤٧ بينما ورد اسمه « بن بزع » في كتاب **Levi - Provençal : Hist. de l'Esp. Mus. TIV p. 139**

ان يفتدوا رهائنهم بالعامل الذي أسروه وغيره من رجال السلطة فتمّ ذلك ثم رحل عنهم .

وعاد الى حصارهم بعد ذلك في مرتين متتاليتين عام ٢١٧ ﻫ (٨٣٢ م) و ٢١٨ ﻫ (٨٣٣ م) فتمكن في هذه المرة الأخيرة من فتح مدينة ماردة واضطر محمود بن عبد الجبار واخته جميلة وحليفهما سليمان بن مرتين ان يغادروها فاتجهوا مع جماعةٍ من الجند الى « منت شلوط [١] Monsalut» وامتنعوا فيها .

وكان معنى ذلك ان ثورة الرجلين لم تنته فسيّر اليهما عبد الرحمن جيشاً آخر في عام ٢٢٠ ﻫ (٨٣٥ م) ادّى الى فرار محمود وأخته في جماعةٍ من أنصارهما الى جلّيقية .

ولم يهمل الأمير عبد الرحمن شأنهم فأرسل عدة سرايا في طلبهم الا انها لم تفلح في القبض عليهم بل على العكس من ذلك لقيت الفشل في معاركها معهم الى ان تمكن محمود من الاستيلاء على حصن منيع في جلّيقية فلجأ اليه وظلّ يعيش فيه ما يقرب من خمس سنوات .

يقول ابن خلدون في هذا الصدد : « لحق محمود بدار الحرب ، واستولى على حصنٍ من حصونهم اقام به خمسة اعوام ، حتى حاصره اذفونش ملك الجلالقة ... » [٢] ويقول النويري بنفس المعنى « استولى محمود على قلعة في بلاد المشركين فأقام بها خمسة اعوام وثلاثة أشهر ، فحصره أذفنش ملك الفرنج ... » [٣] .

ونحن اذا اخذنا بعين الاعتبار هاتين الروايتين السابقتين استنتجنا منهما ان محمود استولى على احد الحصون بالقوة واقام فيه خمسة اعوام في حين ان ابن حيان يذكر في تاريخه « المقتبس » ان محمود لجأ الى ملك جلّيقية وان هذا رحّب

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٨ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٤٤ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٨ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٤٤ .

به وشجعه على الإغارة بين الحين والآخر على أراضي الدولة الإسلامية في الأندلس[1] . وعلى كل حال فكلا الروايتين تتفقان في توجهه الى جلّيقية وقضائه هناك بعض الزمن .

ثم يقول ابن خلدون بعد ذلك « حاصر اذفونش ملك الجلالقة الحصن وافتتحه وقتل محموداً وجميع اصحابه سنة خمس وعشرين . »[2] ويذكر النويري مثل ذلك ايضاً .

ومعنى هذا ان خلافاً نشب بين الثائر محمود بن عبد الجبار وبين الفونسو الثاني ملك جلّيقية أدّى الى القتال بينهما والى القضاء على محمود . وهذا الخلاف سببه على ما يبدو انّ محموداً فكّر بالعودة الى طاعة الأمير عبد الرحمن وراسله فعلاً ، فلما اكتشف الملك الفونسو ذلك ، حاربه وانتصر عليه وقتله ، وذلك في عام ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) كما ذكرنا . اما أخته جميلة فقد وقعت اسيرة في يد الجلالقة واضطرت الى الزواج من احد وجهائهم فيما بعد وأنجبت له أولاداً .

وبالنسبة لسليمان بن مرتين الذي كان قد انفصل عن زميله محمود بن عبد الجبار حينما توجّه هذا الى جلّيقية ، فقد تابع ثورته خلال ذلك في بعض جهات مارده الى ان حاصرته قوات عربية في الحصن الذي كان قد لجأ اليه ، فضيّقت عليه واضطرته للخروج من الحصن فلما كان الليل سقط سليمان بن مرتين من فوق ظهر جواده فوق صخرة ملساء فقتل « ووجده رجل فاحتزّ رأسه وادّعى قتله ، ثم عرف أمره » وكان ذلك في عام ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م)[3] .

وهكذا فانه بمقتل سليمان بن مرتين اولاً ثم بمقتل محمود بن عبد الجبار ثانياً ، قضي على تلك الفتنة في ماردة ، التي ظلّت تزعج سلطات قرطبة بضع سنوات .

---

(١) Ibn Hayyan apud Levi - Provençal : Hist. de l'Esp. Mus. TIV p. 141

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٨ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٤٤ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ .

الثورات الأخرى المتفرقة :

قام في تاكرنا Takoronna عام ٢١١ هـ (٨٢٦ م) رجل بربري يدعى « طوريل » فأعلن الثورة على الأمير عبد الرحمن مما اضطر هذا الى ان يرسل اليه قائده ابن غانم على رأس جيشٍ كبيرٍ حاربه وقضى على ثورته .

وفي عام ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) أمر عبد الرحمن بتوجّه بعض قطع الأسطول نحو جزيرة ميورقة التي كان أهلها قد أعلنوا خروجهم عن الطاعة ومهاجمتهم لبعض مراكب المسلمين . وقد توجهت اليهم ثلاثمائة سفينة فتحت الجزيرة وقضت على عصيانهم . ويبدو ان جيش الأمير قد اشتدّ في معاملة اهل ميورقة فأرسلوا في العام التالي ٢٣٥ هـ (٨٤٩ م) كتاباً الى عبد الرحمن يشكون فيه تلك المعاملة ، فأجابهم مذكراً اياهم بأنهم هم الذين بدأوا بنقض العهود وانه يأمل ان يكون ما حلّ بهم رادعاً عن العودة الى مثلها .

وكان مما ورد في كتابه : « اما بعد فلقد بلغنا كتابكم ، تذكرون فيه أمركم واغارة المسلمين ، الذين وجهناهم اليكم لجهادكم ، واصابتهم ما أصابوه منكم من ذراريكم وأموالكم ، والمبلغ الذي بلغوه منكم ، وما اشفيتم عليه من الهلاك وسألتم التدارك لأمركم ، وقبول الجزية منكم ، وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة ، والنصيحة للمسلمين . والكفّ عن مكروههم ، والوفاء بما تحملونه عن أنفسكم ، ورجونا ان يكون فيما عوقبتم به صلاحكم ، وتمنّعكم عن العود الى مثل الذي كنتم عليه ، وقد أعطيناكم عهد الله وذمته »(١) .

وفي عام ٢٣٦ هـ (٨٥٠ م) ثار في الجزيرة الخضراء رجل بربري آخر يدعى حبيب البرنسي ، فاجتمع عليه عدد من أهل الشرّ والفساد وأخرج اليه عبد الرحمن الجيش فهاجمه في معقله وتمكن من إجباره على الخروج منه ، ففُتح الحصن وقُتل عدد كبير من اصحابه ، واختفى الثائر بين عامة الناس ، فكتب عبد الرحمن الى ولاته على الأقاليم ان يجدّوا في البحث عنه ، لكي يوقعَ

(١) نفس المصدر السابق ص ١٣٣ .

به العقاب المستحق .

وأخيراً فقد ظهرت في عام ٢٣٧ (٨٥١ م) حركة اجتماعية اكثر منها ثورية وهي ان أحد المعلمين بشرق الاندلس ، قام هناك فادّعى النبوّة وتأوّل القرآن على غير تأويله ، فاتبعه جماعة من الغوغاء .

وكان من تعاليمه على ما يذكر عدم قصّ الأظافر والشعر عملاً بالمبدأ القائل : « لا تغيير لخلق » . فأرسل اليه الأمير عبد الرحمن قائده يحيي بن خالد فقبض عليه . فلما بدأ التحقيق معه دعا القائد يحيي الى اتباعه والأخذ بمبادئه مما جعل يحيي يتشاور في أمره مع أهل العلم والرأي فأشاروا عليه ان يطلب اليه التوبة فاذا قبل عفا عنه والا ضرب عنقه . فلما دعاه يحيي الى التوبة قال : « كيف أتوب عن الحقّ الصحيح ؟ » فأمر بصلبه ، فلما رفع فوق الخشبة حاول ان ينقذ نفسه بقوله : « أتقتلون رجلاً يقول ربي الله ؟ » فلم يُلتفت اليه وصُلب ثم كتب يحيي بن خالد الى الأمير يعلمه بما جرى[١] .

مهاجمة النورمانديين للأندلس :

لقد أطلق عدد من المؤرّخين المحدثين على قراصنة الشمال اولئك الذين كانوا يأتون من الجهات الشمالية في أوربا ، بالتحديد من بلاد اسكندينافية ، أطلقوا عليها اسم النورمان او النورمانديين بينما غلبت عليهم لدى المؤرّخين العرب القدماء تسمية « المجوس » او « الأردمانيين » وهذه الأخيرة في اعتقادنا ليست سوى تحريف للنورمانديين .

اما في اللغات الأجنبية فقد عرفوا باسم الـ **Vikings** وملأت أخبارهم ألوف الصفحات واعتبروا من اجرأ قرصان العالم واكثرهم تجوّلاً في المياه البعيدة عن مقرّهم في الشمال .

ولكنهم اذا اعتبروا من أجرأ القرصان ، فقد اعتبروا ايضاً من اكثرهم

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٣٤ .

وحشية واكثرهم بعداً عن الاعتبارات الانسانية ، لا يهتمون سوى بالغنيمة والسلب دون النظر الى جنس او نوع او دين الشعوب التي يهاجمونها .

وهكذا فقد بدأ ترويعهم للشواطىء الأوربية الجنوبية في أواسط القرن التاسع الميلادي اي في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ، فبدأوا بمهاجمة بعض السواحل الفرنسية ، ثم انتقلوا منها الى السواحل الاسبانية .

ولقد كان من عادة اولئك القراصنة الشماليين ألا يسيروا إلا جماعات كثيرة كي يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم عند الحاجة ، كما كان من عادتهم ان يرفعوا الأشرعة السوداء ، فتعرف مراكبهم من بعيد بهذه الظاهرة . وفي الوقت الذي يقوم قسم منهم بمهاجمة المدن والقرى الساحلية ويتوغلون فيها ، يظل دائماً قسم منهم على الشاطىء لحماية خطوط عودة اولئك الذين يقومون بالتوغل بعيداً عن الشاطىء وللمحافظة على مراكبهم من ان يقوم احد بمهاجمتهــا .

كان اول ظهور النوماندييين مقابل سواحل شبه الجزيرة الأندلسية في ذي الحجة من عام ٢٢٩ هـ[١] (اغسطس « آب » ٨٤٤ م) عند مدينة لشبونة **Lisboa** عاصمة البرتغال الحالية . وقد حطوا عليها بمراكبهم التي كان يبلغ عددها الثمانين او ربما اكثر من مائة اذ يذكر صاحب البيان المغرب الرقمين ، فيقول في بداية الأمر « حل بالساحل قبله ، أربعة وخمسون مركباً من مراكب المجوس معها اربعة وخمسون قارباً ... »[٢] ثم يقول بعد ذلك : « فخرج المجوس في نحو ثمانين مركباً كأنما ملأت البحر طيراً جوناً ... »[٣] .

وقد نزلوا في لشبونة فأعملوا السلب والنهب فقاومهم سكانها وأسرع

---

(١) ذكر هذا التاريخ النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٤٩ في حين ان بعض المصادر الأخرى قالت ان نزولهم كان في عام ٢٣٠ هـ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٣٠ .

(٣) Ibidem .

عاملها وهب الله بن حزم بإخبار الأمير عبد الرحمن بنبأ نزولهم طالباً اليه المساعدة ، فكتب هذا الى ولاته على المقاطعات الساحلية خاصةً ، بأن يعمدوا الى إرسال المساعدات الى عامل لشبونة لصدّ خطر الغزاة النورمانديين . وقد ظلت لشبونة هدفاً لغاراتهم مدة ثلاثة عشر يوماً كانت فيها بينهم وبين سكانها وقائع [1] الى ان عزموا على التخلّي عنها والانطلاق نحو أهدافٍ أخرى تقع الى جنوبها .

وكانت هذه الأهداف الجديدة هي قادس وشذونة[2] اللتان هاجمهما القراصنة ثم ساروا عنهما عائدين الى مصبّ نهر الوادي الكبير Guadalquivir ليصعدوا مجراه ويصلوا بطبيعة الحال الى إشبيلية .

وقد مرّوا اثناء صعودهم النهر على الجزيرة النهرية المسماة قبطيل Captel التي تتشكل من التفاف ذراعي النهر حولها ، فنزلوا فيها في ١٢ محرم ٢٣٠ هـ (٢٩ سبتمبر ٨٤٤ م) وأقاموا فيها ثلاثة ايام [3] ، انساحت بعض مراكبهم خلالها بضعة اميام في مجرى النهر الى ان وصلت الى «قورة»[4] او « قوريس »[5] Coria del Rio [6] الواقعة على اثني عشر ميلاً من اشبيلية فنزلوا فيها وقتلوا عدداً من سكانها[7] .

وبعد ان اقاموا ثلاثة ايام في قبطيل كما ذكرنا وانساحت بعض مراكبهم خلالها حتّى « قورة » ، تابعت المراكب جميعها طريقها صاعدة مجرى النهر حتّى وصلت الى « طلياطة Tablada » على ميلين من اشبيلية ، فنزلوها ليلاً

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٤٩ .
(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٩ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٤٩ .
(٣) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٣١ .
(٤) نفس المصدر السابق .
(٥) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٤٩ .
(٦) حقق الاسم الاسباني Levi-Provençal : Hist. de l'Ésp. Mus. T. IV p. 148
(٧) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٣١ .

وظهروا في اليوم التالي بموضع يعرف بالفخّارين ثم مضوا بمراكبهم حتى اشبيلية .

وقد حاولت بعض السفن العربية اعتراض طريقهم دون جدوى اذ هزمت وتابع النورمانديون طريقهم فنزلوا اشبيلية واحتلّوها وأعملوا فيها السلب والنهب في حين كانت مقاومة أهلها ضعيفة اذ انّ معظمهم كان قد فرّ الى قرمونة والى الجبال القريبة من المدينة[1] . ولم يعفّ القراصنة عن قتل الشيوخ وسبي النساء والأطفال[2] وساقوا عدداً منهم الى مراكبهم التي ملأوها في الوقت ذاته بكلّ انواع الغنائم والأطعمة والثياب التي وصلت اليها ايديهم .

هذا وحين يحدثنا صاحب « تاريخ افتتاح الأندلس » عن غارة النورمانديين تلك على اشبيلية ، يذكر مهاجمتهم لأحد المساجد الذي لا بد ان بعض السكان كانوا قد لجأوا اليه فيصف كيف انهم «كانوا يحمون سهامهم في النار ويرمون بها سماء المسجد فكان اذا احترق ما حول السهم سقط ... فلما يئسوا من إحراقه جمعوا الخشب والحصر في أحد البلاطات ، ويتصل بالسقف ، فخرج اليهم من جانب المحراب فتى ، فأخرجهم عن المسجد ، ومنعهم دخوله ثلاثة ايام حتى حدثت الوقيعة فيهم ... »[3] .

فاذا ربطنا هذا الوصف بما يذكره ابن حيان من ان المجوس قد أقدموا على قتل عدد من المسنّين في مسجد عرف فيما بعد باسم « مسجد الشهداء »[4] قدّرنا ان حديث المؤرّخين لا بدّ ان يكون منصبّاً على المسجد ذاته .

هذه الأحداث كلّها جرت في أقلّ من شهر ولم تتمكن قوات المقاومة الأولى كما ذكرنا من ردّ الغزاة حتى استطاع الأمير عبد الرحمن اخذ

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ٨٤ .
(٢) ذكر ابن عذاري انهم كانوا يقتلون الرجال ويسبون النساء ويأخذون الصبيان (البيان المغرب ج ٢ ص ١٣١) .
(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٧ – ٨٨ .
(٤) **Ibn Hayyan apud Levi-Provençal : Hist. de l'Èsp. Mus. T. IV p. 149**

الاستعدادات الكافية لمواجهة ذلك الخطر وكان قد كتب الى عمال الكور في استنفار الناس ، فحلّوا بقرطبة . ووضع على رأسهم الفتى « نصر » وأمرهم بالسير نحو اشبيلية ولكنه كسباً للوقت امر فرقة من الفرسان بالإسراع نحو المدينة المنكوبة فقدم على الخيل الحاجب عيسى بن سعيد كما كان من جملة القادة الذين ساروا على رأس تلك الحملة من الفرسان عبد الله بن كليب وعبد الواحد الاسكندراني ومحمد بن رستم(١) فحلّت تلك الفرقة من الفرسان في مكان يعرف « بالشرف » يطلّ على اشبيلية .

وبدأت المناوشات مع العدوّ بوصول كتيبة الفرسان ولو انّ المعركة الكبيرة لن تحدث الا بعد وصول الفتى نصر مع جيشه وكذلك بعد وصول جيش الثغر الذي يقوده موسى بن قسيّ . ويذكر ان الأمير عبد الرحمن ألحّ(٢) على هذا ان يسير الى نجدة أهل اشبيلية فقدم في عددٍ كثيف وكان له وللفتى نصر — كما سنرى — فضل في النصر الذي أحرزه المسلمون .

بدأت المناوشات الأولى في صالح المسلمين اذ يحدثنا أحد المؤرّخين بقوله : « ثبت المسلمون للمجوس وقاتلوهم فقتل من المشركين سبعون رجلاً ، وانهزموا ودخلوا مراكبهم وأحجم المسلمون عنهم فسيّر عبد الرحمن جيشاً آخر فقاتلهم المجوس قتالاً شديداً ورجعوا عنهم فتبعهم العسكر في ثاني شهر ربيع الاول وقاتلهم واتاهم المدد من كلّ ناحية ، فنهضوا لقتال المجوس من كلّ جانب فانهزم المجوس وقتل منهم نحو خمسمائة رجل وأخذوا منهم أربعة مراكب فأخذوا ما فيها وأحرقوها ...(٣) »

ويحدّثنا مؤرّخ آخر بنفس المعنى فيقول : « نصبت المجانيق عليهم ،

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٠ .

(٢) يذكر ابن القوطية ان موسى بن قسيّ قدم من الثغر بعد استلطاف عبد الرحمن بن الحكم له وتذكيره له بولايته للوليد بن عبد الملك واسلام جده على يديه ، فلانَ بعض اللين ، وقدم في عدد كثيف ... (تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٥) .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٤٩ .

وتوافت الامداد من قرطبة اليهم فانهزم المجوس وقتل منهم نحو من خمسمائة علج ، وأصيب لهم اربعة مراكب بما فيها ، فأمر ابن رستم باحراقها وبيع ما فيها من الفيء »[1] .

بيد انّ المعركة الحاسمة حصلت بعد ذلك قرب قرية طلياطة Tablada وذلك بتاريخ ٢٥ صفر ٢٣٠ هـ[2] (١١ نوفمبر « ت ٢ » ٨٤٤ م) فدارت الدائرة فيها على الغزاة وقتل منهم عدد كبير اختلف المؤرخون في تقديره فذكر بعضهم انه كان الفاً وذكر آخرون انه كان اكثر من ذلك بكثير .. كما ألقي القبض على ما لا يقلّ عن اربعمائةٍ منهم ما لبثوا ان اعدموا ونصبت لهم الأخشاب على ضفة النهر أمام أعين رفاقهم من الغزاة الذين كانوا يسرعون نحو مراكبهم ليبتعدوا بها عن المنطقة بعد ان تغلّبت عليهم القوّات العربية .

اما تفاصيل هذه المعركة فيقدمها لنا صاحب تاريخ افتتاح الاندلس وخلاصتها ان موسى بن قسيّ وأهل الثغر عندما وصلوا قرب اشبيلية استوضحوا عن تحرّكات النورمانديين الذين كانوا يحتلّون المدينة فأعلموا بأن العدوّ يرسل كلّ يوم بعض السرايا الى جهة « فريش » و « لقنت » والى جهة « قرطبة » و « موررور » . فسألوا عن مكان يصلح لان يقام فيه كمين ضدّ سرايا العدوّ ، فدلّوا على قرية « كَنْتُش معافر Cantos » التي بقبلي اشبيلية فخرجوا اليها في جوف الليل وكمنوا فيها في الوقت الذي كلّفوا بعض الرجال ان يصعدوا الى اعلى كنيسةٍ مرتفعة وان يراقبوا تحرّكات العدوّ . فلما كان الصباح خرجت سرية من سرّايا العدوّ فعلاً باتجاه موررور ، فشاهدها المراقبون وأخبروا عنها حالاً ، فتركت حتى ابتعدت عن المدينة ثم هوجمت فأعمل السيف في أفرادها وقتل معظمهم .

وكانت سرايا أخرى قد خرجت من العدوّ آنذاك في اتجاه « لقنت »

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٣١ .

(٢) نفس المصدر السابق .

و « قرطبة » فلما علم أفرادها بما حلّ بالسريّة الأولى وبحجم القوات النظامية المهاجمة ، قرّروا الانسحاب فارتفعوا فوق اشبيلية الى جانب قلعة « الرعواق » حيث تلاقوا مع أصحابهم ، ودخلوا المراكب وانحدروا بينما كان الناس يناوشونهم ويرمونهم بكلّ ما وصلت اليه ايديهم .

ويتابع صاحب الرواية حديثه قائلاً : « فلما صاروا تحت اشبيلية بميل ، صاحوا بالناس : ان احببتم الفدا فكفّوا عنّا » فكفّوا عنهم ، وافتدوا من كان لديهم من الأسرى ولم يأخذوا في فدائهم ذهباً ولا فضّة وانما اخذوا الثياب والمأكول[1] .

هذه خلاصة الرواية التي يقدمها صاحب تاريخ افتتاح الاندلس عن المعركة الرابحة التي خاضها المسلمون ضدّ النورمانديين واضطروهم الى الانسحاب من اشبيلية على اثرها في ٢٥ صفر ٢٣٠ هـ — كما سبق ان ذكرنا — وبعد ان ظلّوا يعيثون في انحائها فساداً منذ نزولهم فيها بتاريخ ١٥ محرّم اي طيلة أربعين يومـــاً .

هذا وقد لحق النورمانديون بعد انسحابهم بلبلة Niebla ثم مضوا منها الى باجه ثم قفلوا الى مدينة لشبونة[2] ومنها رحلوا عن البلاد ، فسكن الناس وهدأت الأحوال .

ولقد كان بين قتلى النورمانديين قائدهم ، فلما تمّ التغلّب عليهم اعتبر الأمير عبد الرحمن ذلك نصراً عظيماً فكتب بخبره الى الآفاق ، وكان ممن كتب اليهم حكام طنجة من صنهاجة « يعلمهم بما كان من صنع الله في المجوس وبما انزل بهم من النقمة والهلكة ، وبعث اليهم برأس اميرهم وبمائتي رأسٍ

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٥–٨٦ .

(٢) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٤ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٥٠ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٩ . ويذكر ابن القوطية عن النورمانديين بعد رحيلهم عن اشبيلية انهم توجهوا الى ناكور واسروا بها جد بني صالح ففداه الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وهي يد بني أمية عند بني صالح ، ثم هتكوا الساحلين معاً حتى بلغوا بلد الروم (تاريخ افتتاح الاندلس ص ٨٦) .

من أنجادهم ... »[1] .

وحرص الأمير عبد الرحمن بعد ذلك على ان يتخذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة مثل ذلك الغزو في المستقبل فأمر ببنيان سور اشبيلية وكان قد أشار عليه الوزراء بذلك ايضاً ، فأرسل من اجل ذلك الى بلاد الشام يستقدم رجلاً كان من خاصّته في حداثته وهو عبد الله بن سنان ، فكلّفه ببناء السور ونقش اسم ذلك الرجل او المهندس اذا صحّ التعبير على أبواب السور بعد انتهائه[2] .

وأمر عبد الرحمن كذلك باقامة دارٍ لصناعة السفن في اشبيلية فبدأ بناء المراكب فيها ، واستعدّ برجال البحر في سواحل الأندلس فألحقهم بالأسطول ووسّع عليهم ، وجهّزهم بالآلات والنفط[3] ...

كما يذكر لنا المقرّي في هذا الصدد ان الامير عبد الرحمن قد تقدّم لاصلاح ما خربوه من البلاد واكثف حامياتها[4] .

والمهمّ ان غزوة النورمانديين قد ارتدّت فعلاً ولكنها تركت آثاراً عميقة في حياة سكان المنطقة الجنوبية من الاندلس وخاصة في الناحية العسكرية ، وكانت احد الدوافع الهامّة التي حدت بحكام بني أمية الى زيادة العناية بالأسطول وبدور صناعة السفن، مما سيكون له شأنه في زيادة القوة البحرية خاصة والعسكرية عامة للدولة العربية في الأندلس .

هذا ولا بد قبل انهاء هذا البحث عن الغزو النورماندي للأندلس ان نذكر انه كان من ذيوله ان النورمانديين بدورهم اخذوا فكرة عن قوّة تلك الدولة العربية واصرار القائمين عليها على المدافعة عنها وردّ الغزو عن اراضيها ، فاقتنعوا بضرورة التفاوض معهم وتحسين علاقاتهم بهم ، فأرسلوا سفارة الى

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٣٢

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ٨٦ – ٨٧ .

(٣) Ibidem

(٤) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٤ .

قرطبة للقيام بزيارة دبلوماسية للأمير عبد الرحمن الثاني بهدف توثيق العلاقات وهي تحمل معها رسالة وهدية . وقد استقبل اعضاء البعثة استقبالاً حسناً ، وعوملوا أطيب المعاملة مدة اقامتهم ، وقرّر الأمير ان يردّ على تلك السفارة بسفارة مماثلة ترافق الوفد النورماندي في عودته الى بلاده على ان يرأسها الأديب الشاعر يحيي بن حكم الغزال[1] ويرافقه يحيي بن حبيب .

وقد وقع اختيار الأمير على الغزال او الغزالي كما يطلق عليه احياناً ، لما كان عليه من حدّة الخاطر ، وبديهة الرأي ، وحسن الجواب ، والنجدة والإقدام والدبلوماسية [2].

وقد حمل الغزال معه رسالةً جوابية من الأمير عبد الرحمن الى زعيم النورمانديين وهدية ثمينة ، ثم اتجه الجميع الى مدينة شلب Silves فاستقلوا المراكب ، وكان قد انشيء للغزال وصاحبه مركب خاص مجهّز بكلّ ما يلزم ، واتجه الجميع بحراً نحو الشمال .

وقد هبّت عليهم ريح عاتية وعواصف شديدة جعلت الغزال ينظم بضعة ابيات من الشعر فقال :

قال لي يحيي وصر	نا بين موج كالجبال
وتولتنــا ريــاح	من دبور وشمــال
شقّت القلعين وا	بتّت عرا تلك الجبال
وتمطّى مــلك المو	ت الينا عن حيــال
فرأينا الموت رأي الـ	عين حالاً بعد حال
لم يكن للقوم فينــا	يا رفيقي رأس مال

(١) يذكر انه سمي بالغزال لانه كان وسيماً في صباه . وتذكر المصادر التاريخية انه قد مشى الى بلاد المجوس بقد شارف الخمسين ووخطه الشيب ، ولكنه كان مجتمع الأشد ، ضرب الجسم ، حسن الصورة .

(٢) ابن دحية : المطرب في أشعار أهل المغرب ص ١٣٩ . هذا وقد عبر ابن دحية عن دبلوماسية الغزال بقوله انه قادر على «الدخول والخروج من كل باب » .

وعندما وصلوا بعد تلك العاصفة الى اول جزيرة من جزر النورمانديين — اذ كانوا يسكنون عدداً كبيراً من الجزر — استراحوا بضعة ايام اصلحوا خلالها مراكبهم ثم تابعوا طريقهم فتقدمهم أحد المراكب متوجّهاً الى الجزيرة الرئيسية التي جعلها ملك النورمانديين مقرّاً له فأعلم بخبر الوفد العربي فسرّ بذلك وطلب ان يؤتى بهم الى الجزيرة .

ويصف ابن دحية تلك الجزيرة بأنها « جزيرة عظيمة في البحر المحيط ، فيها مياه مطرده وجنّات ، وبينها وبين البحر ثلاث مجار ، وهو ثلاثمائة ميل ، وفيها من المجوس مالا يحصى عددهم . وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة ، منها صغار وكبار »(١) .

وقد خرج الكثيرون لاستقبال الوفد القرطبي واحتفل النورمانديون بوصولهم وأمر لهم الملك بمنزل حسن ، ثم استدعاهم بعد يومين لمقابلته فاشترط الغزال ألا يسجد للملك النورمانديين وألا يجبر على الإتيان بأيّ أمرٍ يخالف الدين او التقاليد العربية فأجيب الى ذلك .

واخذ الملك مكانه في مجلسٍ مهيب وامر بأن يضيّق المدخل الذي يفضي اليه حتى لا يدخل عليه احد الا راكعاً ، ومع ذلك فقد فضّل يحيى الغزال ان يزحف وهو جالس على ان يدخل راكعاً . فلما أصبح امام الملك خاطبه قائلاً : « السلام عليك ايها الملك وعلى من ضمّه مشهدك ، والتحية الكريمة لك ، ولا زلتَ تمتّع بالعزّ والبقاء والكرامة الماضية بك الى شرف الدنيا والآخرة ، المتصلة بالدوام في جوار الحيّ القيّوم ، الذي كلّ شيء هالك الا وجهه ، له الحكم واليه المرجع »(٢) .

وعندما فسّر له المترجم ذلك الكلام أعجب به وقال : « هذا حكيم من حكماء القوم ، وداهية من دهاته ثم دفع اليه كتاب الأمير عبد الرحمن فقرىء

(١) ابن دحية : المطرب ص ١٤٠ .
(٢) نفس المصدر السابق .

عليه وفسّر له . فاستحسنه واخذه في يده ثم وضعه في حجره وامر بأن تفتح الهدية فأُعجب بما اشتملت عليه من الثياب والأواني ثم عند انتهاء الاحتفال عاد رسل قرطبة الى منازلهم .

وسمعت زوجة ملك النورمانديين بسفير قرطبة فأرادت ان تراه فوجهت اليه فلما دخل عليها سلّم ثم نظر اليها نظرة إعجاب طويلة ، فقالت للمترجم : « سله عن إدمان نظره لماذا هو ؟ ألفرط استحسان ام لضدّ ذلك ؟ فقال : ما هو الا اني لم اتوهم ان في العالم منظراً مثل هذا ، وقد رأيت عند ملكنا نساء انتخبن له من جميع الأمم فلم أرَ فيهن حسناً يشبه هذا . فقالت : سله أمجدّ هو ام هازل ؟ فقال : لا . بل مجدّ . فقالت له : فليس في بلدهم اذن جمال ! فقال الغزال : فاعرضوا عليّ من نسائكم حتى اقيسَها بها . فوجهت الملكة في نساء معلومات بالجمال فحضرن . فصعّد فيهن وصوّب ثم قال : « فيهن جمال ولكن ليس كجمال الملكة ، لان الحسن الذي لها والصفات المناسبة لا يميزها اي كان . وانما يعني به الشعراء . وان أحبّت الملكة ان اصفَ حسنها وحسبها وعقلها في شعر يروى في جميع بلادنا فعلتُ ذلك » .

فسرّت كثيراً وأمرت له بهدية فرفض أخذها ولما سألته عن السبب قال انه يكفيه ان يراها . فأمرت بأن تحملّ الهدية الى منزله وسمحت له بتكرار الزيارة اذا اراد(١) .

قال تمام بن علقمة : سمعت الغزال يحدث بهذا الحديث ، فقلتُ له : وكان لها من الجمال بعض المنزلة التي صوّرت ؟ فقال : وابيك ، لقد كانت فيها حلاوة ، ولكنّي اجتلبتُ بهذا القول محبتها .

وقد عاد يحي بن حكم بعد ان اقام في بلاد النورمانديين بضعة أشهر . وقد اعطاه ملك النورمانديين في عودته بطلبٍ من يحي بن حكم او بمبادرةٍ من الملك ، رسالة الى ملك قشتالة الاسباني لم تذكر المصادر محتواها فقصد

---

(١) نفس المصدر السابق .

مدينة « شنت يعقوب Santiago » وهي مدينة مقدّسة لدى الاسبان ، فسلّم ملكها الرسالة وأقام عنده شهرين ثم خرج منها الى طليطلة فقرطبة .

هذا ولا نرى ان تلك السفارة قد حقّقت الأهداف البعيدة التي كانت تتوخّاها ، ولكنها ربّما أخّرت وقوع غزو نورماندي جديد للأندلس ، اذ ان الهجوم التالي سيحصل في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن وبعد ستة عشر عاماً من حصول الهجوم الأول او من زيارة يحي بن حكم الغزال لجزرهم .

موجة التعصب الديني :

تميّز عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم بموجةٍ من التعصّب الديني اجتاحت نفراً من المستعربين الذين كانوا يعيشون في العاصمة قرطبة ، وعلى رأسهم بعض رجال الدين الذين اعتقدوا انهم يحسنون عملاً باطلاقهم الشتائم ضدّ الدين الإسلامي اثباتاً لجرأتهم وتضحيةً بأنفسهم في سبيل الدين الذي كانوا يعتنقونه ، وكأن الذي كانوا يفعلونه من صميم الدين او من قواعده ، في الوقت الذي كان متعارفاً عليـــه في كلّ زمن أن الاديان تحضّ جميعها على احترام الشعائر والمعتقدات وعدم المساس بها .

ولقد كان اولئك المستعربون الذين يعيشون في قرطبة يتمتعون بمركز ماديّ واجتماعيّ جيّد ، فيمارسون جميع أنواع العمل الحرّ ويحتلّون عدداً من من وظائف الدولة الإدارية وتتجمع ثروات مغرية في أيدي بعضهم . وقد اهتم الكثيرون منهم بأصول اللغة العربية وبآدابها واقتنوا أنفس الكتب وطالعوها وصارت تلذّ لهم قراءتها اكثر مما تلذّ لهم قراءة الكتب اللاتينية ، مما دعا بعض مفكريهم او رجال الدين بينهم الى الشكوى من ذلك الاهتمام الزائد الذي يكرّسه المستعربون لكلّ ما يتعلّق بمختلف فروع الثقافة العربية .

يذكر لنا دوزي في هذا الصدد « ان مسيحيي قرطبة لم يكونوا يتذمرون من الحظ الذي اتاحته لهم الحياة ... فلم يكونوا مضطهدين بل كان يسمح لهم ان يمارسوا شعائر دينهم بحرية ، وكان ذلك كافياً بالنسبة لهم . وقد دخل

الكثيرون منهم سلك الجندية الرسمية بينما احتلّ البعض الآخر مراكز مرموقةً في القصر او في دوائر الدولة . وكانوا يحاولون تقليد العرب في معظم الأمور »[1]

اذن والحالة هذه لم يكن ثمة داعٍ لان يخلقَ بعض اولئك المستعربين تلك المشكلة الخطيرة التي خلقوها بتعرضهم للدين الإسلامي ولمبادئه ولنبيّه ...

ونحن اذا اخذنا بعين الاعتبار ما تذكره المصادر الأجنبية في هذا الصدد ، طالما انها المصادر الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها في معالجة هذا الموضوع نظراً لأنّ المصادر العربية تصمت عنه صمتاً تامّاً ، نرى ان المشكلة قد بدأت بنقاش حصل بين اثنين من المسلمين واحد المسيحيين في أحد شوارع قرطبة تطرّق البحث فيه الى محمد والمسيح ، غضب خلاله الرجل المسيحي وتفوّه بألفاظ نابية حيال الدين الإسلامي ، مما جعل الرجلين يشكوانه الى القاضي الذي رأى نفسه مضطراً بموجب الشرع للحكم عليه بالإعدام . فكانت تلك الحادثة الشرارة التي انطلقت منها تلك الموجة من التعصّب التي دفعت عدداً من المتحمسين الى مهاجمة الدين الإسلامي بالسّباب لكي يلقوا بعدها جزاء الموت وتسجّل اسماؤهم فيما بعد في سجل القدّيسين .

يذكر المؤرّخ الفرنسي « ليڤي بروفنسال » في هذا الصدد « انه ليس من المستغرب ان يحكم القضاة المسلمون بالإعدام على اولئك الذين كانوا يقدمون على سبّ الدين والرسول ، اذ ان العقاب نفسه كان يطبق على ايّ مسلم يقدم على مثل ذلك » . ويضيف المؤرّخ المذكور « بأن القضاء الإسلامي لم يتأخر عن الحكم بالاعدام حتى على احد الرجال المعروفين من المسلمين لاتهامه بالزندقة والاستخفاف بالدين . وعبثاً حاول البعض التأثير على الأمير لكي يتدخل في الامر ويوعز بتخفيف العقوبة ، فان شيئاً من ذلك لم يحصل ، ونفّذ الحكم بالرجل فعلاً »[2] .

---

(١) Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne TI pp : 260 - 261

(٢) Levi-Provençal : Hist. de l'Esp. Mus. T. IV p. 152

وقد قاد حركة التعصّب تلك في قرطبة رجلان من رجال الدين همـا « اولوجيو » و « الڤارو » اللذان أشبعا أنفسهما بمطالعة بعض الكتابات المتحيّزة ضدّ تعاليم الدين الإسلامي وبمطالعة أخبار شهداء المسيحية الأول ، فصارا يتحرّقان شوقاً للاستشهاد مثلهم في سبيل الدين ، وصارا يفتشان عن طريقة توصلهما هما وامثالهما الى ذلك ، فوجداها في اتباع طريق الشتيمة والنقد البذيء .

وقد دفع ذلك المؤرّخ « دوزي » الى القول « بأنه لم يكن اسهل على رجال الدين المسيحي اولئك الذين كانوا يعيشون بين ظهراني العربي من ان يعمدوا الى تثقيف أنفسهم ثقافة صحيحة فيطلعون على مصادر موثوقة بدلاً من ان ينهلوا من المصادر التي كانت بين أيديهم ويصدّقوا الأفكار السخيفة التي كانت تذكرها تلك المصادر فيما يتعلّق بأتباع مكة »(١) .

ويقول في مكان آخر « وهكذا فان رجال الدين كانوا يكوّنون لأنفسهم أفكاراً خاطئة تماماً عن الدين الإسلامي . وكان بعض زملائهم الذين يعرفون أحسن منهم بأنّ محمداً كان يدعو الى مبادىء صالحة ، يحاولون افهامهم ذلك عبثاً ، لانهم كانوا يصرّون على ان يضعوا الدين الإسلامي في نفس مستوى الوثنية الرومانية »(٢) .

على ايّ حال فان القسّين « اولوجيو Eulogio » و « الڤارو Alvaro » بدآ يبثّان افكارهما بين المستعربين ويدفعانهم الى التلفّظ بشتائمهم قصداً وأمام القاضي كي يحكم عليهم بالاعدام وينالوا الاستشهاد ، فأقدم فعلاً عدد منهم على ذلك وحكم عليهم بالموت حتّى ان عددهم بلغ احد عشر رجلاً خلال شهرين .

وتفيض الروايات الأجنبية في الحديث عن الفتاة « فلورا Flora » التي

---

(١) Dozy : Hist. des Mus. d'Esp. T I pp. 263 - 264

(٢) Ibidem

تقول عنها بأنها كانت من أبٍ مسلم وام مسيحية . فلما مات أبوها وهي صغيرة نشأتها امها على الدين المسيحي فاعتنقته على الرغم من غضب أخيها الذي نشأ مسلماً وتهديده اياها .

ولجأت الفتاة الى مغادرة بيتها حيث اوت الى منزل بعض اصدقائها وهناك تعرّف عليها « أولوجيو » فأعجب بها الى ابعد حدّ وبآرائها وباستعدادها للتضحية فلم ينسَ ذكراها بعد ذلك وبقي يكنّ لها حبّاً معنويّاً عميقاً على الرغم من مضيّ ست سنواتٍ بعد ذلك قبل ان يجتمعا مرة ثانية .

اما اجتماعهما الثاني ، فقد كان في السجن اذ ان اولوجيو اقتيد اليه نظراً لآرائه كما اقتيدت هي الى السجن ايضاً مع صديقة اخرى لها اسمها ماريا بعد ان حضرتا امام القاضي وأسمعتاه الكثير من الشتائم ضدّ الدين الإسلامي ، فامر القاضي بسجنهما رأفة بشبابهما ، لعلّهما تعودان عن موقفهما ، وريثما ينظر نهائياً في أمرهما .

وصار اولوجيو يزيد من حماسهما في السجن حتى ثبتتا على رأيهما وحكم عليهما بالإعدام فاعتبر اولوجيو ذلك اليوم بالنسبة له يوماً حافلاً بالنصر .

لم يكن معظم المستعربين راضين عن حركة التعصّب تلك التي كان يذكي عدد منهم نارها ، فوقفوا منها موقفاً معارضاً ووجهوا اليها نقداً شديداً وعلنياً مما أزعج القسّ اولوجيو وجعله يحاول الردّ على اولئك الذين تجرؤ أفواههم على النقد والإساءة الى الشهداءِ في رسالة كتابيةٍ خصّصها للدفاع عن الحركة.

اما السلطة الإسلامية في قرطبة فقد هالتها تلك الحركة التي اضطرتها الى الحكم بالإعدام على عدد من المواطنين واعتبرتها نوعاً من العصيان المدني علاوةً على صبغة التعصّب التي تصطبغ بها ، اذ لم تكن في الواقع سوى نوع من التصرّفات الثورية التي كان يمكن ان تؤدّي الى أسوأ العواقب اذا تُركت تتفاقم ولم يوجد لها العلاج الناجع .

ولذا فقد وجد الأمير عبد الرحمن الثاني ان أفضل ما يمكن عمله في تلك

الحالة هو دعوة كبار رجال الدين المسيحي الى عقد مجمع كنسيّ هامّ يناقش تلك الحركة ويصدر حكمه عليها ، طالما انّ الأكثرية الساحقة من المسيحيين لم تكن موافقةً عليها ومؤيدةً لها ، بل كانت تعتبرها مضرّة بمصالحها ، غير مقدّرة للعواقب التي يمكن ان تنتجَ عنها .

ودُعي القُسُس ورجال الدين فعلاً الى الاجتماع ومثّل الحكومة فيه احد كبار الموظفين المسيحيين المدعو « جومث بن انطونيو Gomez Antonio» الذي كان يتمتع علاوة على مركزه في الدولة ، بعدة صفات هامة ، على رأسها اتقانه للغة العربية ، وذكاؤه الحادّ ووقوفه ضدّ التعصّب الديني .

وقد حذّر ابناء ملّته في ذلك المؤتمر من التمادي في تلك الحركة حتّى لا ينظرَ الى المعتدلين منهم والمتطرّفين نظرةً واحدة فتضيع الفرص على الجميع في الوصول الى مستوىً اجتماعي وسياسي واقتصادي لائق ...

ومع ذلك فلم يكن جومث هو رئيس المجمع الديني الذي دعي الى الانعقاد بل لم يكن كما قلنا سوى ممثل للحكومة وعين رئيس قساوسة اشبيلية المدعو « ريكافريدو Recafredo » رئيساً للمجمع . وبعد مناقشات دامت بضعة ايام ، توصّل أعضاء ذلك المجمع الكنسي الى اتخاذ قرار بحظر الاقدام على مثل تلك الأعمال والتلفظ بتلك الأقوال النابية في حق الدين الإسلامي ، واعتبار من يقوم بها مسؤولاً عن عمله ومخالفاً لتعاليم الكنيسة .

لم يؤدّ قرار المجمع الكنسيّ ذاك الى القضاء على تلك الحركة تماماً وان ساعد على تخفيف حدّتها ، إذ ظلّ عدد من المتعصبين مصرّين على موقفهم مما ادّى الى زجهم في السجن وبينهم القسّ اولوجيو ، ولكن على الرغم من كلّ ما أقدم عليه هذا الأخير وعلى الرغم من ايداعه السجن فقد نجا بحياته ، اذ فضّلت الدولة الإفراج عنه وعدم الإقدام على إعدامه كي لا تزيدَ النـــار تأججاً ، وأملاً في ان يغيّر موقفه .

وخمدت تلك الحركة بعد ذلك بشكلٍ طبيعي مع مرور الزمن وخاصة

بعد وفاة الأمير عبد الرحمن الثاني ، فعادت الأمور الى طبيعتها وعاد التعاون بين المستعربين والسلطات الحاكمة في قرطبة الى ما كان عليه من قبل .

عبد الرحمن الثاني والدويلات الإسبانية :

لم يشذّ عبد الرحمن بن الحكم عن السنّة التي وضعها أمراء وحكام الاندلس العرب من قبله وساروا عليها ، وهي القيام بغزو المناطق الشمالية من الاندلس في محاولة للقضاء على الدويلات الاسبانية والتوغل في ارض الفرنجة اذا أتاحت لهم الفرصة ذلك .

وقد عمد الأمير عبدالرحمن الثاني الى الغزو منذ مطلع حكمه فقاد او وجّه في بداية الأمر ، عدداً من الغزوات طيلة ست سنوات من حكمه بين ٢٠٦ ـ ٢١٢ هـ (٨٢١ ـ ٨٢٧ م) ثم توقّف عن الغزو مدة عشر سنوات ونيّف اما لأنه عقد صلحاً مع ملوك الدويلات الاسبانية واما لأنه شغل بمشاكله الداخلية ثم استأنف الغزو بعد ذلك دون انقطاع حتى نهاية عهده فأحرز الكثير من الانتصارات وتمكن من القيام بكثير من الفتوحات . بل استطاع التوغلّ في أرض الفرنجة حتى مقربة من ناربونة في جنوبي فرنسا .

ان اول غزوة وجهها الأمير عبد الرحمن الأوسط نحو الشمال وذكرت حوادثها المصادرُ التاريخية هي غزوة عام ٢٠٨ هـ (٨٢٣ م) التي قادها الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث والتي اتجهت الى منطقة « ألبه والقلاع Alava » . وعندما وصل مع جيشه الى الحدود ، حلّ بالثغر بضعة ايام فتوافت عليه المزيد من الحشود ثم تحرّك نحو ألبه كما ذكرنا والتي كانت تعتبر جزءاً من جلّيقية وتعرف اليوم باسم « اشتورياس Asturias » . وقد كان دخوله الى تلك المنطقة عن طريق ممرّ ذكر صاحب أعمال الاعلام انه فجّ « جرنّيو »[1] وسماه صاحب البيان المغرب فجّ « جرنيق »[2] وحقّقه

(١) ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ١٩ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٣ .

ليفي بروفنسال على انه « Guernica »[1] او شرنق اي الممرّ الضيّق .

وقد غزا المعاقل التي مرّ بها وخرّبها والتقى بجموعٍ من المقاتلين فهزمهم[2] ووقعت ايدي جنده على كثير من الغنائم فاستصفوها لأنفسهم[3] وصالح بعضاً من امراء العدوّ على الجزية واطلاق اسرى المسلمين[4] وانصرف ظافراً .

وفي العام التالي اي ٢٠٩ هـ (٨٢٤ م) تحرّك الجيش الإسلامي من جديد نحو الشمال ، وان كنّا لا نستطيع ان نعتبر تلك الحملة غزوة نظراً لأنّها لم تتعدّ حدود الأندلس العربية آنذاك ، رغم ان بعض المؤرّخين قد اعتبرها كذلك . فقد كان الحاجب عبد الكريم بن مغيث يتأهّب في ذلك العام للغزو حين فاجأه المرض الذي حدثت وفاته على اثره ، فعيّن الأمير عبد الرحمن ابن الحكم مكانه القائد أمية بن معاوية بن هشام ، فغزا بالصائفة الى « اوريط » ثم تقدم الى شنت برية وتدمير . وهكذا اذن فانه لم يتعدّ حدود الدولة الإسلامية ولا يمكن اعتبار حملته هذه غزوةً خارجية ، بل داخلية بحتة .

اما في العام التالي اي ٢١٠ هـ (٨٢٥ م) فقد كان الغزو على أشدّه . ففي هذا العام توجّه حاكم منطقة جيّان Jaen وهو فرج بن مسرّة على رأس جيشٍ توغّل في المناطق الشمالية وافتتح حصن القلعة[5] او القليعة وعاد منتصراً .

كما توجه في العام ذاته حسب رواية ابن حيّان جيش إسلامي آخر نحو منطقة البه والقلاع واشتبك في معركةٍ كبيرة عند « جبل المجوس » مع جيشٍ معادٍ فهزمه واحرز نصراً كبيراً عليه مما دعا المؤرّخين العرب الى تسمية تلك

---

(١) Levi-Provençal : Hist. de l'Esp. Mus. T IV p. 136

(٢) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٠ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢٣ .

(٤) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٨ .

(٥) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢٤ .

الغزوة « بغزوة الفتح[١] » .

وبعد ذلك بعامين ايضاً اي في ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) توجه عبيد الله بن عبد الله البلنسي بالصائفة الى دار الحرب . وكانت في هذه المرة منطقة أصبحت منذ عهد قريب تابعةً للفرنجة ونعني بها « برشلونة Barcelona » وما حولها ؛ وذلك منذ ان وضع الفرنجة ايديهم عليها في عهد الأمير الحكم كما سبق ان رأينا. وقد جال الجيش الإسلامي في انحائها مدة ستين يوماً لم يجد خلالها مقاومة تذكر إلا امام مدينة برشلونة التي استعصى فتحها آنذاك فأرجأ الأمير ذلك الى مناسبة أخرى وعاد الى قرطبة وقد امتلأت ايدي الجند بالغنائم .

أعقبت هذه الغزوات الهامة المتلاحقة فترة من الركود في عمليات الغزو دامت احدى عشرة سنة طالما ان اول غزوةٍ نعثر على تفاصيلها بعد ذلك يعود تاريخها الى ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م) .

ففي هذا العام اغزى الامير عبد الرحمن أخاه الوليد بن الحكم الى جلّيقية فدخل من جهة الغرب مع جيشه فعاث في أنحائها وكانت له فيها فتوحات كثيرة[٢] . ويذكر احد المؤرّخين عن الغزو في هذا العام ان الجيش الإسلامي نازل حصناً يدعى حصن « القرابة » فاحتلّه وغنم ما فيه وأمر بقتل المقاتلة وسبي النساء والذرّية[٣] .

اما في العام التالي اي ٢٢٤ هـ (٨٣٩ م) فقد عاد عبد الرحمن بن الحكم الى ارسال جيش بقيادة قريبة عبيد الله بن عبد الله البلنسي[٤] واتجه في هذه

---

(١) ابن حيان عن بروفنسال : تاريخ اسبانيا الإسلامية ج ٤ ص ١٣٦ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٧ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٤٦ .

(٤) ذكر كل من النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٤٦ وابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٨ ان قائد الحملة هو عبيد الله ؛ بينما خالفهما ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٨ وذكر ان قائد الحملة هو الحكم بن الامير عبد الرحمن الثاني . ونحن نعتبر ان رأي المؤرخين الاولين هو الأصح .

المرة ايضاً الى منطقة « ألبه » في جليقية ، فلقي العدوّ وهزمه وكثر السبي والقتل الى ان خرج ملك الجلالقة فأجاب على تلك الغزوة ، بالإغارة على « مدينة سالم Medinaceli » . فاشتبك معه ، بتكليف من الأمير عبد الرحمن ، فرتون بن موسى وقاتله فهزمه واكثر القتل والأسر في صفوف جنده ثم سار بعد ذلك الى الحصن الذي كان قد بناه أهل جلّيقية بالثغر لنكاية المسلمين ، فافتتحه وهدمه[1] .

حتى اذا انتقلنا الى السنة التالية ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) نرى ان الامير عبد الرحمن يخرج بنفسه الى غزو منطقة جلّيقية التي كانت تعتبر أقوى منافس للمسلمين في شبه الجزيرة الأندلسية بل الوحيدة القادرة على مجابهتهم بجيوش كبيرة منظمة ، فافتتح فيها عدداً من الحصون وغنم وسبى ثم عاد الى قرطبة بعد ان طالت غيبته .

وبمناسبة هذه الغزوة يذكر ابن عذاري ان الامير عبد الرحمن تعب فيها كثيراً وانه أرق في بعض الليالي فطلب ان يحضر اليه الشاعر ابن الشمر ، ووصف له أرقه وتذكره قرطبة ومن فيها فنظم له ابن الشمر القصيدة التي مطلعهـــا :

عداني عنك قرار العدى   وقُودي اليهم لهاماً مهيبـــا

والتي سنأتي على ذكرها عند الحديث عن شخصيته الأدبية .

في العام التالي اي في ٢٢٦ هـ (٨٤١ م) اتجـــه الغزو الى بلاد الفرنجة . وكان الجيش في هذه المرة قد اتخذ استعدادات كبيرة لبعد المسافة التي كان ينوي قطعها طالما انه قرّر التوغل فيما وراء جبال البيرنيه ، كما انه ضمّ علاوةً على قائد الجيش وهو عبد الواحد بن يزيد الاسكندراني[2] ، مطرّف ابن الأمير عبد الرحمن بن الحكم وموسى بن موسى عامل تطيلة Tudela .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٩ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٩ .

وقد تمكن ذلك الجيش فعلاً من اجتياز تلك الجبال الشاهقة واجتاح مقاطعة « شرطانية Sardaigne »[1] ووصل الى مقربة من مدينة ناربونه ، فاشتبك مع الفرنجة في عدّة وقائع انتصر فيها كلّها وخاصة الموقعة التي حصلت بين ناربونه وشرطانية ودارت رحاها خلال الليل ، اذ عندما بلغت الجيوش الإسلامية تلك المرحلة من التوغل في بلاد الفرنجة فوجئت بالأعداء يحيطون بها من كلّ جانب عندما بدأ الليل يرخي سدوله ، فاضطر الجند المسلمون الى القتال في الليل ودامت المعركة حتى انبلاج الصباح اذ بدأت هزيمة العدوّ مع خيوط الفجر الأولى ، وما لبثت جحافله ان لجأت الى الهزيمة والمسلمون في اثرها حتى ابتعدوا فارّين باتجاه الشمال .

وقد تميّز في تلك المعارك موسى بن موسى حاكم منطقة تطيلة والذي كان يسير في مقدمة الجيش[2] مما اكسبه مديح المؤرّخين عند حديثهم عن تلك المعركة او الغزوة . فقد ذكر عنه أحدهم انه «كان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود »[3] وذكر عنه آخر « بأنه ابلى في تلك الغزاة بلاء حسناً »[4] ولكن الظروف ابت الا ان تعكّر صفو ذلك النصر بنشوب خلاف داخلي بين قادة الجيش الإسلامي في طريق عودتهم الى قرطبة ، وهذا ما يضفي مزيداً من الأهمية على تلك الغزوة في كلّ من وقائعها ونتائجها .

فقد حدث في طريق العودة ان صدرت من احد قادة الجيش الذي يختلف المؤرّخون على اسمه اذ يذكر النويري[5] انه « جرير بن موفّق » بينما يذكر

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٩ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٤٧ ، المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٣ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٩ .

(٤) النويري : نهاية الارب ج ٢٢ ص ٤٧ وابن حيان في المقتبس عن مجلة الاندلس al-Andalus الاسبانية عدد عام ١٩٥٤ ص ٢٩٦ نشر ليفي بروفنسال واميليو جرسيه جومث عن « اصول مملكة بنبلونة » .

(٥) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٤٧ .

ابن حيّان[1] انه «خزر بن مؤمن» والواضح ان الخلاف ناشيء عن طريقة قراءة المخطوطة لاننا نلاحظ ترداد الاحرف نفسها في كل من الاسمين ومهما كان الأمر فقد صدرت عن ذلك القائد – كما ذكرت – معاملة قاسية نحو زميله موسى بن موسى مما أغاظ هذا وجعله يفكر في الانفصال عن الجيش، وما لبث ان نفذ ما جال بفكره فعلاً وابتعد عن قوّات الأمير واتجه الى مركز حكمه الأول في تطيلة وأعلن خروجه عن طاعة عبد الرحمن بن الحكم[2].

وعلم الأمير عبد الرحمن بما حدث فلم يستطع ان يسمحَ لموسى بن موسى ان يستولي على ما بيديه من المقاطعات، فوجّه اليه جيشاً بقيادة الحارث بن بزيغ والتقى الجيشان عند مدينة «برجه Berja» واقتتلا فهزم موسى وقتل ابن عمّ له واضطر الى الانسحاب الى تطيله Tudela بينما عاد الحارث الى سرقسطة. وسيّر موسى ابنه لبّاً الى برجه فعاد الحارث اليها فحاصرها وفتحها وقتل ابن موسى[3] ثم زحف نحو تطيلة لحصار موسى فيها وظلّ يضيّق عليه الخناق حتى حصلت المفاوضات بين الطرفين على ان يتخلّى موسى عن تطيلة ويسلّمها للحارث مقابل تركه حراً يتوجه مع اتباعه الى مكان آخر. وهكذا حصل فعلاً اذ غادر موسى المدينة متوجهاً نحو «أرنيط Arnedo»، بينما دخلها الحارث[4].

---

(١) ابن حيان: المقتبس عن مجلة al-Andalus عدد سنة ١٩٥٤ ص ٢٩٦.

(٢) يقول ابن خلدون في هذا الصدد: «وقعت بين موسى بن موسى وبعض قواد عبد الرحمن ملاحاة واغلظ له القائد فكان ذلك سبباً لانتقاضه فعصي على عبد الرحمن» (العبر ج ٤ ص ١٢٩). ويقول النويري: «وجرى بين موسى وبين جرير بن موفق وهو مَن أكابر الدولة ايضاً شر، فخرج موسى عن الطاعة» (نهاية الارب ج ٢٢ ص ٤٨) ويقول ابن حيان: «واختتم جميل فعله بالانتكاث، وذلك انه تفاقم ما بينه وبين خزر بن مؤمن، فصار ذلك السبب في خلاف موسى ابن موسى للأمير، والداعية الى مروقه عن الطاعة (al-Andalus 1954 p. 296)

(٣) النويري: نهاية الارب ج ٢٢ ص ٤٧ وابن حيان: المقتبس عن مجلة الأندلس عدد ١٩٥٤ ص ٢٩٦.

(٤) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٢٩، النويري: نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٤٨.

ولكن الحارث ما لبث ان نقض ذلك الاتفاق حين سار بعد ذلك بأيام فقط لحصار موسى من جديد في ارنيط ، وكان هذا قد استنجد بالملك الاسباني « غرسية (بن ونقة)[1] Garcia Iñiguez » فأنجده هذا واتفق الطرفان على الحرب فاجتمعا وجعلا للحارث كمائن في طريقه وأعدّ له الخيل والرجال بموضع يقال له « ثلمة »[2] على نهر هناك، فلما جاوز الحارث النهر ، خرجت اليه الكمائن وأحدق به الجند من كلّ جانب ، فحدثت معركة عنيفة كان النصر فيها بجانب موسى بن موسى وحليفه الاسباني الملك غرسية ، وأصيب الحارث في المعركة بضربة في جبهته فقد على اثرها احدى عينيه ، ثم وقع أسيراً في أيديهم .

واستشاط عبد الرحمن بن الحكم غضباً لتلك النتيجة وعزم على القضاء على تلك الحركة فوجّه ابنه محمداً على رأس جيش كبير في عام ٢٢٨ هـ (٨٤٣ م) فحاصر موسى بتطيلة حتى قبل بعقد الصلح ثم تقدم الى مدينة بنبلونة فاحتلّها وأخضع تلك الأنحاء ثم عاد .

ومع ذلك يبدو ان الأمير عبد الرحمن لم يكن واثقاً من دخول موسى في الطاعة اذ نراه يرأس بنفسه في العام التالي ٢٢٩ هـ (٨٤٤ م) جيشاً يتجه به لحصار موسى بن موسى من جديد في تطيلة فيلتقي بقوات هذا مجتمعةً مع قوّات الملك غرسية فيخوض معها معركة عنيفة يحرز فيها نصراً كاسحاً اذ يُقتل الملك غرسية[3] وعدد كبير من جنده ويجرح موسى ولا يتمكن من الفرار الا بصعوبة بالغة .

وكان من المفروض ان تكون هذه آخر الحملات التي تسيّرها حكومة

---

(١) دعاه ابن حيان « غرسيه بن ونقه البشكنسي امير بنبلونة » (المقتبس عن مجلة al-Andalus عام ١٩٥٤ ص ٢٩٨ .

(٢) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٤٨ .

(٣) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٣ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٩ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٤٨ وابن حيان عن مجلة الاندلس عدد ١٩٥٤ ص ٣٠٠ .

قرطبة ضدّ الثائر موسى بن موسى ولكنّ الأمر لم يكن كذلك اذ عاد هذا الى رفع لواء الثورة من جديد وعاد عبد الرحمن يرسل اليه الجيوش لمحاربته. وفي هذه الحملة الأخيرة جعل الامير مركزه في سرقسطة ووجّه ابنه محمداً على رأس الجيوش لمحاربة موسى ، فعرض هذا الدخول نهائياً في الطاعة ، فطلب الامير تسليم رهائن لضمان ذلك فسلّمت ومن بينها ابن الثائر فقبلها الأمير ورضي بابقاء موسى حاكماً لتطيلة .

وقد وردت في ذلك الوقت بالذات أخبار نزول النورمانديين الذين سبق ان تحدثنا عنهم ، فاستعان الأمير عبد الرحمن بن الحكم في صدّهم بقوات موسى مما يدلّ على ان الرجل قد أخلد فعلاً الى الطاعة ، ولو لبضع سنوات على الأقلّ ، وسنعرض لشأنه مرةً أخرى في حينه .

تتابعت الغزوات بعد ذلك نحو الشمال ففي عام ٢٣١ هـ (٨٤٦ م) أرسل عبد الرحمن جيشاً نحو جلّيقية وصل الى مدينة ليون Leon فحاصرها ورمى أسوارها بالمنجنيق فخاف أهلها وخرجوا هاربين وتركوها بما فيها فغنم المسلمون منها ما أرادوا وحاولوا هدم سورها فصعب عليهم ذلك لان عرضه كان سبعة عشر ذراعاً (١) ، فتركوها بعد ان ثلموا سورها في اكثر من مكان .

اما الغزوة التي حصلت في عام ٢٣٢ هـ (٨٤٧ م) فلن نتحدثَ عنها الآن لانها استهدفت موسى بن موسى من جديد ، وهذا يؤيّد وجهة نظرنا السابقة في ان هذا الثائر قد استكان ولكن لمدة موقتة لم تتجاوز السنوات الثلاث .

وفي عام ٢٣٥ هـ (٨٥٠ م) سيّر عبد الرحمن جيشاً بقيادة ابنه المنذر نحو ألبة والقلاع ، فغزا تلك النواحي وافتتح بعض الحصون وعاد بكميات كبيرة من الغنائم .

وأخيراً فان آخر غزوة قام بها كانت في عام ٢٣٧ هـ (٨٥٢ م) اي في

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٥٠ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٩ .

العام الذي سبق وفاته . ويصفها المؤرّخون بأنها كانت وقعة عظيمة ظفرت فيها جيوش قرطبة وانها عرفت فيما بعد باسم « وقعة البيضاء »(١) . بينما ينفرد شيخ مؤرّخي الأندلس ابن حيّان باعطاء بعض التفاصيل عنها فيقول ان اليوم الأول من المعركة لم يكن بجانب المسلمين فاستشهد منهم جماعة وأصيب فيه موسى ابن موسى بخمس وثلاثين طعنة – وكان قد انحاز الى المسلمين آنذاك – اما في اليوم الثاني فقد قاتل المسلمون ببسالة خارقة وسار موسى بن موسى في المقدمة متحاملاً على ألم جراحه فحامى عن المسلمين وحسن غناؤه فهُزم الجلّيقيون أشنع هزيمة وفرشت الأرض بصرعاهم ...

وقد هلك في هذه الحملة « ينقة بن ينقة Iniguez hijo de Iniguez » اخو موسى بن موسى لأمه وحليفه في ثورته سابقاً ، وعاد المسلمون مظفّرين(٢) .

شؤون الحكم والإدارة في عهده :

سار عبد الرحمن الأوسط خلال حكمه « بخير سيرة ، فكانت رعيته معه بخير »(٣) وحاول ان يطبّق مبادىء العدل والمساواة بين أفراد الشعب وان يحكم حكماً صالحاً ، فحرص من أجل ذلك على اختيار رجال دولته اختياراً دقيقاً وبصورة خاصة في مجالات أربعة حسّاسة هي القضاء والحجابة والوزارة والخزانة .

فبالنسبة للقضاء لم يكن يستعمل إلا من ثبت علمه وفضله وتمسكه بمبادىء الدين القويمة وعدم تحيّزه لأية فئة من الناس ... كما انه كان لا يولّي القضاء

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٥٠ ، وابن حيان في المقتبس (مجلة الاندلس عدد عام ١٩٥٤ ص ٣٠٦) وقد عرّف ابن حيان موقع هذه الحملة فقال انها كانت مجاورة لمدينة بقيرة من مقاطعة بنبلونة .

(٢) Textos inéditos del « Muqtabis » de Ibn Hayyān sobre los orìgenes del reino de Pamplona (Levi-Provençal y Garcia Gómez, alA-ndalus 1954 p. 306)

(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩٥ .

أحداً إلا عن رأيه أي لا يجبره عليه ولا يعيّنه فيه إلا برضاه .

ويتحدث المؤرّخون في هذا المجال عن تعظيم الأمير عبد الرحمن للفقيه يحيى بن يحيى وعن احترامه له وحسن معاملته فيذكر أحدهم : « انه كان يلتزم من برّه ما لا يلتزم الابن البارّ للأب الحاني »[1] . ثم يقدمون لنا أسماء عدد من قضاته فيذكرون سعيد بن محمد بن بشير الذي كان قاضياً لأبيه من قبله ، فلما استلم زمام الحكم أبقاه في عمله . ثم يذكرون ابن شراحيل المعافري ، وابو عمر بن بشير ، وفرج بن كنانة الشذوني ، ويحيى بن معمر اللاهاني الاشبيلي الذي ما لبث ان عزله بعد ان هاجمه الفقيه يحيى بن يحيى نظراً لما كان لهذا من قيمة وفضل لدى الأمير عبد الرحمن كما سبق ان ذكرنا . ثم ولى ابن عقبة الجياني ومن بعده ابن صفوان القرشي الذي يذكر انه عزل لان امرأةً وجهت اليه جملةً لم يعترض عليها اذ قالت له : « يا ابن الخلائف ، انظر منّي نظر الله اليك » فلما قبل هذه الجملة ولم ينكرها على المرأة ، شكاه احد رجال حاشية الأمير اليه وهو موسى بن جدير صاحب الخزينة قائلاً له : « تشرك في سلطانك من يتسمّى باسمك » فغضب الأمير من القاضي وأمر بعزله . ثم ولّى احمد بن زياد ومن بعده ابن عثمان الجيّاني الذي استعفى من القضاء بعد فترة وجيزة فعين مكانه اخاه معاذاً ثم ولى اخيراً بعده سعيد بن سليمان الغافقي البلّوطي .

هذا في مجال القضاء . اما في مجال الحجابة والوزارة فيذكرون مثلاً على عظمائهم عبد الكريم بن مغيث الحاجب الذي سبق ان تحدثنا عنه اثناء كلامنا عن أحداث إمارة عبدالرحمن الثاني . ومنهم عيسى بن شهيد ، ويوسف بن بخت ، وعبد الله بن أمية بن يزيد ، وعبد الرحمن بن رستم ، ومهران بن عبد ربه ، وغيرهم ....

وهؤلاء منهم من تولّى الحجابة ومنهم من تولّى الوزارة وكان عدد منهم

(١) نفس المصدر السابق .

لهم باع طويلة في عالم الأدب لان عبد الرحمن كان ممن يقدّرون رجال الفكر ، وله نصيب وافر في ذلك المجال ، سنعرض للحديث عنه بعد قليل .

واما فيما يتعلّق بالخزانة فقد عرف من رجالها موسى بن جدير ، وابن بسيل ، وطاهر بن ابي هارون ، ومهران بن عبد ربه الذي كان خازناً قبل ان يصبحَ حاجباً . وهذه الاسماء الشهيرة كلّها ان دلّت على شيء ، فانما تدلّ على مدى اهتمام الأمير عبد الرحمن بن الحكم بشؤون دولته واختيار الرجال الأكفاء المناسبين لوضعهم في المكان المناسب ، وهي قاعدة إدارية ملازمة لكلّ نجاح ، اذ انّ مخالفتها يؤدّي بالضرورة الى ضعف الجهاز الإداري في الدولة ، ويقود الى أوخم العواقب .

ولاية عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم ومؤامرة طروب :

مال الأمير عبد الرحمن في اواخر ايامه الى تسمية ابنه « محمد » وليّاً للعهد ، فأقدم على ذلك فعلاً وأصبح هو المرشّح للحكم بعده .

وقد غصّ البعض بذلك خاصةً اولئك الذين كانوا يميلون الى بعض أولاده الآخرين وعلى رأسهم عبد الله ابن المحظية طروب التي كان لها منزلة كبيرة في نفس الأمير كما سبق ان ذكرنا . وكانت طروب نفسها هي اول من يشجع ابنها على المطالبة بالإمارة . بل كانت تفعل ما بوسعها للوصول الى ذلك الهدف ، حتى ولو وصل الأمر الى حدّ المؤامرة على حياة سيّدها الأمير . وقد تآمرت عليه فعلاً لقتله والتخلّص منه والتمكن من إلغاء وصيته المتعلّقة بولاية العهد لتحويلها الى ابنها عبد الله .

امّا خيوط المؤامرة فقد حبكتها مع كبير خدم القصر الخصيّ « نصر » الذي يصفه بعض المؤرّخين بأنه كان « القائم بدولة الأمير عبد الرحمن » (١) وانه لم يكن مخلصاً لسيّده ، بل كان يحقد عليه عزمه على تحويل الإمارة من بعده

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٠ .

الى وليّ عهده محمد . في حين كان ميله وهواه مع عبد الله ابن طروب . وقد تمكنت هذه ان تستميلـه اليها بالعطايا التي كانت تقدمها له والسياسة التي كانت تتبعها حياله «كانت تصطنع أهل القصر من النساء والفتيان واكثر الخدمة طمعاً في ذلك »[1] . وقد أيّد هذا الرأي ايضاً ابن خلدون اذ يقول : «كان نصر يضغن على مولاه ويمالىء ابنه عبد الله على ابنه الآخر ولي عهده بما كانت ام عبد الله قد اصطنعته »[2] .

ولكي ينفّذ نصر مؤامرته ضدّ الأمير عبد الرحمن اتصل بطبيب القصر وطلب اليه ان يعدّ له سمّاً قتّالاً وقدم له مقابل ذلك ألف دينار[3] ، فأطاعه الطبيب وأعدّ له السمّ . وهكذا اتحدت جهود نصر وطروب وطبيب القصر للقضاء على الأمير عبد الرحمن .

وبما ان هذا الأخير كان يتناول بعض الدواء لوعكة كان يحسّ بها فقد أذيب السمّ في دوائه ودفع اليه ليتناوله . ولكن عبد الرحمن كان قد علم بأمر السمّ والمؤامرة على ما يبدو بواسطة الطبيب نفسه الذي عزّ عليه ان يقدمَ على قتل مولاه ولم يتمكن في الوقت ذاته من مخالفة نصر خوفاً على حياته ، فأعلم الطبيب احدى جواري الأمير المقربة اليه وهي « فخر » بقصّة السمّ . فأطلعت بدورها سيّدها على الأمر ، وامتنع عبد الرحمن عن تناول الدواء ، بل ابقاه امامه حتى مثول نصرٍ من جديد بين يديه .

وأسرع نصر في صباح اليوم التالي الى لقاء سيّده ليرى فيما اذا كان قد تناول السمّ وقضي الأمر ، فوجد الكأس بين يديه لم يتناول منها شيئاً . فاستغرب الأمر واستوضحه عن ذلك فأجابه : « قد بشعته نفسي فاشربه انت » اي ان نفسه تشمئزّ من تناوله . وهنا وجم نصر ولم يعرف كيف يجيب سيده ، فان رفض كشف أمره وقتل ، وان شربه مات تحت تأثيره .

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ٩٦ .
(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٠ .
(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩٧ .

وما لبث ان اختار الطريق الثاني . أملاً بأنه اذا تناوله ثم أسرع بمغادرة القصر واتصل فوراً بالطبيب لكي يعطيه دواءً مضاداً ، تمكّن من ايقاف مفعول السمّ . وهكذا فقد تناول نصر كأس الدواء الممزوج بالسمّ فشربه ولم تظهر عليه عوارض السمّ فجأة بل بشكلٍ تدريجي ، مكّنه من ان يستأذنَ الأمير في الانصراف ويسرع لمقابلة الطبيب لكي يطلب اليه ايقاف مفعول السمّ . ولكن التدابير التي اتخذت لم تفده في شيء ، او ان الطبيب نفسه لم يشأ كما ذكرتْ بعض الروايات ان يسعفَه ، فقضى نحبَه ومات بالسمّ الذي أعدّه لقتل الأمير عبد الرحمن وقضى معه على أمل طروب في تولية ابنهـــا عبد الله الإمارة بعد أبيه .

اما طروب فلم يأمر عبد الرحمن بقتلها على الرغم من علمه باشتراكها في المؤامرة او بكونها الرأس المدبر لها ، ويظهر انه لم يقدم على ذلك لأنه كان لا زال متعلّقاً بها ، او من اجل ابنهما المشترك عبد الله ، او انه لم يرَ فائدةً من ذلك بعد ان كشفت المؤامرة وقضي عليها دون ان تترك اية ذيول .

ثم عندما توفي الأمير عبد الرحمن بعد ذلك بمدة ، وكان موته بغتة ، واطلع على ذلك كبار فتيان القصر من الصقالبة الذين كانوا يتمتعون بقدرٍ عظيمٍ من السلطة ، أخفوا النبأ ، وأمروا باغلاق أبواب القصر ثم دعوا الى اجتماع عام لجميع الفتيان الذين يعملون في خدمة الأمير صغيرهم وكبيرهم ، فقالوا لهم : « يا اصحابنا ، نزل امر ، صغيرنا فيه ككبيرنا ، فأحسن الله عزاءكم في مولانا » فبكى البعض تأثراً لوفاة سيّدهم الأمير بعد ان امضوا معه وفي خدمته زمناً ليس بالقصير . فقال بعض كبارهم : « دعوا البكاء ! وانظروا بنا لأنفسنا وللمسلمين قبل ، فاذا تمّ ذلك بكينا . فما ترون ؟ » فاندفعوا كلّهم بلسانٍ واحد يقولون « سيدنا وابن سيدتنا المربية لنا والمحسنة الينا » وهم يعنون بذلك عبد الله ابن طروب التي كانت تغدق الهبات عليهم لتكسبهم الى جانبهـــا ، فانتصب احد كبارهم وكان يعرف بابن المفرّج وصاحب فضلٍ وكلمة مسموعة فقال لهم : « على هذا اجتمعتم ؟ » قالوا : « نعم » . قال لهم : « وانا اعلمكم

ان رأيي كرأيكم، واني أشكر السيدة لفضلها عليّ دونكم، ولكنه امران ينفذ فهو سبب لقطع آثارنا من الأندلس ، وان واحداً منّا لا يخطر في طريق ، ولا يمرّ بجماعة . الا قال الناس اللهم العن هذه الوجوه ، فانهم ملكوا أمـــر المسلمين ، فولّوا شرّ من يعرفونه ، وتركوا خير من يعرفونه ، وقد علمتم عبد الله وما له ومن يطوف به . والله لئن ملك شيئاً من أموركم وأمور المسلمين . ليحدثنّ فيكم وفيهم الأحداث ، فيسألكم الله عنهم وعن انفسكم »[1] وقد تأثر الجميع بكلامه ووجدوا انه على حقّ، فسألوه عمن يرشح لمنصب الإمارة ، فأجابهم بأنه يرشح « الصالح العفيف محمد »[2] .

ولما حاول بعضهم الاعتراض على المرشّح الجديد محمد بن عبد الرحمن بقوله انه شديد وبخيل ، اجابهم الفتى الكبير ابن مفرّج بأنه « اذا ولي وملك بيوت الأموال ، فانه سيجود » . فقال له الفتيان : « رأينا ما رأيت » فطلب مصحفاً واستحلفهم جميعاً على مبايعة الأمير محمد بعد وفاة والده ، فأقسموا على ذلك .

وابدى اثنان من كبار الفتيان وهما سعدون وقاسم تخوّفهما من امارة محمد لأنهما كانا يجاهرانه العداء ارضاءً لطروب فطمأنهما اصحابهما وطلبوا اليهما ان يظهرا الخضوع لمحمد ويطلبا اليه العفو فيسير كلّ شيءٍ على ما يُرام ، بل كلّف أحدهما سعدون ان يكونَ هو ناقل النبأ اليه وان يعلمه بوفاة أبيه وإجماع الرأي على مبايعته بالإمارة مكانه .

وقد خرج الفتى سعدون فوجد عبد الله ابن طروب يشرب في قصبته فتجاوزه وتابع طريقه الى دار محمد فألفاه في الحمّام فاستأذن عليه فأذن له وخرج من الحمام اليه وقال له : « ما جاء بك يا سعدون ؟ » قال : « اتيتك لأمضي بك الى ولاية الخلافة عن إجماع منّا ، توفي أبوك رحمه الله ، وهذا

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩٨ .

(٢) نفس المصدر السابق .

خاتمه » فقال له : « يا سعدون . اتق الله ، ولم تبلغ عداوتك لي إلا الى سفك دمي . دعني . بلد الله لي واسع » . فأقسم له سعدون بكلّ يمين انه ما أتى إلا عن إجماع وعن رضى الجميع بمبايعته بعد ان أقسموا الايمان على ذلك وأضاف يقول : « ما أتيتك إلا وقد سألتُ أصحابي ان يؤثروني بالاقبال فيك لأحلّ من نفسك بعض موجدتك عليّ » فقال له محمد : « عفا الله عنك » ثم طلب اليه ان يمهله ليستقدم وكيله محمد بن موسى . فلما حضر هذا قال للأمير محمد : « هذا غرور وخطر ، كيف تخطر بباب ابن طروب وأعوانه وحفدته بحضرته ؟ قال له : « وما تراه ؟ » فقال : « نمضي الى يوسف بن بسيل فنأخذ أعوانه » فوافق محمد .

وكان عدد اولئك الأعوان ثلاثمائة فأنهوا اليهم والى رئيسهم ما تمّ الإجماع عليه فقال رئيسهم ابن بسيل : « يا ابا عبد الملك ، هذه منازعة ، وانما نحن موالي من دخل القصر وملكه » .

حينذاك وامام رفض اولئك الجند السير معه قال محمد بن موسى للامير محمد : « من لم يخاطر ، لم يربح ، اركب على عون الله » فركب محمد حصانه بعد ان تقنّع وسعدون بين يديه ومحمد بن موسى عند ركابه ، فلما قابلوا دار عبد الله بن طروب والغناء والزمر يعزفان في القصبة أنشد محمد :

فهنيئاً لكَ الذي انتَ فيه والذي نحن فيه أيضاً هنانا

وكان اعوانه يشربون في الغرفة القريبة من باب المنزل ، فأحسّوا بالحركة ، وفتح أحدهم الباب ونظر اليهم ثم سأل من هناك ، فانتهره سعدون وطلب اليه ألا يتدخل فيما لا يعنيه ، فظنّ انها ابنة محمد بن عبد الرحمن وهي مارّة امام المنزل ، فأغلق الباب .

وحين وصلوا القصر وأرادوا دخوله اعترضهم عبد السلام البوّاب وأصرّ على معرفة الشخص الذي يضع القناع على وجهه اي محمد بن عبد الرحمن ، فاضطر هذا الى نزع قناعه ، ومع ذلك فقد سأله حارس الباب عن غرضه

من دخول القصر فأجابه بأنه اتى نظراً لوفاة والده الأمير عبد الرحمن فأجابه الحارس : « ليس والله تتجاوز هذا الباب حتى أعرف ان كان ابوك حيّاً او ميتاً » ففعل . ولما تأكد من ذلك عاد فأقبل على يد محمد وقبّلها . وقال له : « ادخل . خار الله لكَ وللمسلمين فيك » . فدخل محمد وتمت بيعته تلك الليلة .

وقد فرّ ذلك الحارس فيما بعد خوفاً على حياته نظراً لأنه عرقل دخول الامير الى القصر ، فلما عرف محمد بذلك امر بتأمينه وحباه وكساه على ما كان منه تلك الليلة واعتبره خير ممثلٍ للخدمة المخلصة .

وقد استدعى محمد في تلك الليلة الوزراء والموالي وكبار رجال الدولة فبايعوه جميعهم وأصبح بذلك الأمير الشرعي للأندلس بعد وفاة ابيه عبد الرحمن بن الحكم وذلك في شهر ربيع الآخر من عام ٢٣٣ هـ (٨٤٨ م) .

شخصيته الأدبية :

التزم عبد الرحمن الثاني اكرام اهل الأدب والشعر في دولته فقدم لهم كلّ نوعٍ من المساعدة المادية والمعنوية وأسعفهم في مطالبهم فعاشوا بخيرٍ في رعايته ونمت فروع الأدب في ظلال إمارته فوصلت شأواً بعيداً من التقدّم والرقيّ . ولقد كان هو بنفسه اديباً ، رفيع الثقافة ، مجيداً للنظم ، ذا حظّ في البـــلاغة .

وللتدليل على بلاغته ذكرت كتب التاريخ بعض قطعٍ من نثره نختار له احداها التي كتبها بمناسبة تردّد أحد مواليه عليه يسأله استخدامه لديه في أحد الأعمال المناسبة ، فردّ عليه الأمير قائلاً : « لم يتقدم لكَ عندنا خبرة نولّيك بها ، ولا تجربة نقدمك بسببها . غير ما رأيناه من بلاغتك وحسن خطابك فيما يرد علينا من كتبك . فان كنتَ انتَ كاتبها ، فقد جوّدتَ وأحسنتَ ؛ وان كنتَ تطلبتَ بعنايتك ، وتخيّرتَ بفضل همتك من حسن ذلك عنكَ ، فقد أحسنتَ في العناية ، وفضلتَ في الهمة ، فأنت بكلتي الحالين متقدم ، وقد رجونا باستلطافك لعلمك وتهذيبك لخدمتك . وقد وليناكَ على الرجاء

فيك . فصدّق ما خيّله الظنّ بك . فانكَ ان حافظتَ على ادنى حظّك ، ادركتَ أقصاه ، وان احسنتَ في بدئه . نلتَ أحسن عقباه »[1] .

وكتب اليه بعض عماله يسأله عملاً رفيعاً ليس من شاكلته ، فوقّع له في اسفل كتابه : « من لم يصب وجه مطلبه ، كان الحرمان أولى به »[2] .

وله ذات مرة وقد أمر جنده بالامساك عن اقتحام اسوار ماردة لدى سماعه صراخ النساء وعويل الصبيان وعجيج البكاء ، كلام بليغ وجهه الى وزرائه وقادته بعد ان جمعهم فقال لهم : « قد علمتم ما كان من تغلّب حشمنا ورجالنا على هؤلاء الظلمة لأنفسهم . ولم يكن رفعنا ما رفعناه عنهم الا رقبة لله عزّ وجلّ فيهم وتخوّفاً من قتل ولدانهم وأطفالهم ومن لا ذنب له ممن استكره على نفسه منهم . ونحن نرى استجلاب النصر من حيث عوّدنا الله وعرّفنا من العفو والصفح . وقد عزمتُ على الانتقال عنهم ، فان أبصر وأقدر يدنا في الإبقاء عليهم ومراقبة الله فيهم والا كان الله من ورائهم محيطا ، وعلى الانتقام منهم قديرا ، فهو الذي أيّدنا وقهرهم ونصرنا وكبتهم » . فما لبثوا ان ارسلوا اليه رسلهم بالطاعة .

وله كذلك يبرّر اهداءه العقد النفيس لجاريته طروب ، قوله : « ان لابسه انفس منه خطراً وارفع قدراً ، ولئن راق من هذه الحصباء منظرها ، ورصف في النفس جوهرها ، فلقد برأ من خلقه جوهراً يغشى الابصار ، ويذهب بالألباب ، وهل على وجه الأرض من زبرجدها وشريف جوهرها أقرّ لعين واجمع لزين من وجه اكمل الله فيه الحسن ونضرته ، والقى عليه الجمال بهجته ؟ » ثم قال لابن شمر وكان حاضراً : « هل يحضرك في ذلك شيء ؟ » فقـــال :

أتقرن حصباء الياقـــوت والشذر ... الى من تعالى عن سنا الشمس والبدر

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ١٩ .

(٢) اخبار مجموعة ص ٧٢ ، ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ١٩ .

الى من برت قدماً يدُ الله خلقه ولم يك شيء غيره أبداً يبري
فأكرم به من صنعة الله جوهراً تضاءل عنه جوهر البرّ والبحـــر
له خلق الرحمن مـــا في سمائه وما فوق أرضيه ومكّن في الأمر

فقال الأمير عبد الرحمن بن الحكم :

قريضك يا ابن الشمر عفّى على الشعر وجلّ عن الاوهام والفهم والفكر
اذا شافهته الاذن ادّى بســحره الى القلب إبداعاً فجلّ عن البحر
وهل برا الرحمن من كلّ ما برا أقرّ لـعينٍ من منعّمة بكـــر
ترى الورد فوق الياسمين بخدّها كما فوّق الروض المنوّر بالزهر
فلو انني ملكتُ قلبي وناظري نظمتهما منها على الجيد والنحر

وقد نظم ايضاً في طروب قصيدة يقول فيها :

اذا ما بـــدت لي شمس النهـــار طالعة ذكـــرتني طروبا[1]

ويقول في تحمله للمصاعب اثناء الغزو (وكان آنذاك يهاجم جلّيقية) في نفس القصيدة :

عداني عنك قـــرار العدى وقودي اليهم لهـــاما مهيبـــا
وكم قد تعسّفت من سبسبٍ ولاقيتُ بعد دؤوبٍ دؤوبـــا
ألاقي بوجهي سموم الهجير وقد كاد منه الحصى ان يذوبا
وأدّرع النقـــع حتى لبستُ من بعد نضرة وجهـــي شحوبا
انا ابن الهشامين من غالب اشبّ حروباً واطغـــى حروبا
سموتُ الى الشّرك في جحفلٍ ملأت الحـــزون به والسهوبا

ومن شعره كذلك :

ولقد تعارض اوجه لأوامـــر فيقودها التوفيق نحو صوابهـــا
والشيخ ان يحوِ النهى بتجاربٍ فشباب رأي القوم عند شبابها

(١) قيل ان هذه القصيدة من نظمه وقيل بل انها من نظم شاعره عبد الرحمن بن الشمر على لسانه .

ومنح عدداً من جلسائه ذات يوم مبلغاً من المال يتراوح بين ٢٠٠ — ٥٠٠ ديناراً . كلّ على حسب قدره ، وكان الأديب المعروف عبيدالله بن قرلمان غائباً ، فلم يسعفه الحظّ بالحصول على المنحة ، فكتب الى الأمير قائلاً :

يا ملكاً حلّ ذرى المجد وعمّ بالإنعـــام والرفد
طوبى لمن أسمعتَه دعـــوة في يوم إجماعك للقصـــد
فظلّ ذاك اليوم من قصفه مستوطناً في جنّة الخلد
وقد عداني ان ارى حاضراً جدّ متى تحظ الورى يكدي
فانتعش العثرة من عـــاثر عدت عليه أنحس القرد
وامنن باصفادي عطاً لم يزل يشمل أهل القرب والبعد

فوقّع له في أسفل أبياته : «من آثر التضجّع فليرضَ بحظّه من النوم » .

فعاد ابن قرلمان يكتب اليه :

لا نمتُ ان كنتُ يا مولاي محروماً ولا طعمت على ما نالني نومـــا
اشقى لحرمان يوم لا اعتياض به لو ان من جنّة الفردوس لي يوما
ورؤيتي منكَ وجهاً ما اكتملتُ به الا تعرفتُ صُنعاً منـــه محتوما
فكيف أمنـــع ورداً منك آملـــه صديان حام رجـــائي فوقه حوما

فأمر له بالصلة وكتب في أسفل كتابه :

لا غروَ ان كنتَ ممنوعاً ومحروما اذا كنت آثرت هوباً يورث النوما
ولم ينل امـــرؤ من عفوه املاً حتى يشدّ على الاجهاد حيزوما
فهاكَ من سيبنا ما كنتَ تـــأمله اذ حمتَ فوق رجاء الورد تحويما

تشجيعه لرجال العلم والفكر والفن :

ليس أدلّ على ميل الامير عبد الرحمن بن الحكم الى الآداب والعلوم والفنون من تلك الباقة من الرجال العاملين في تلك المجالات والذين التفّوا حوله يعملون في ظلّ حكمه فيغدق عليهم عطاياه وهباته ويتحفونه هم بدورهم بنظرياتهم وأبحاثهم ومؤلّفاتهم ...

وكان من اولئك الرجال العالم والاديب والفنّان ... بحيث أصبح بلاطه يضاهي بلاط الخلفاء العبّاسيين في بغداد . وقد سبق لنا ان لمحنا الى أهمّ رجال الفكر اولئك الذين انضووا تحت لواء عبدالرحمن الثاني وعلى رأسهم العالم الرياضي عبّاس بن فرناس ورائد الموسيقى الأندلسية علي بن نافع الملقّب بزرياب والسياسي الكبير الذي جمع بين الدبلوماسية والشعر وهو يحيى بن حكم الملقّب بالغزال والذي سبق لنا ان تحدثنا عن سفارته الى بلاد المجوس والى امبراطور الروم في القسطنطينية ثم عدد كبير من الأدباء والشعراء امثال عبد الله ابن الشمر وعباس بن ناصح وعبيد الله بن قرلمان وغيرهم ....

عباس بن فرناس :

اما عبّاس بن فرناس الملقب بأبي القاسم فقد كان عالماً مرموقاً يلمّ بعدد من المعارف والعلوم على طريقة عصره مما اكسبه لقب « حكيم الاندلس » وهو من أوائل الذين اشتغلوا باستخراج العلوم في الأندلس .

كان من أهم ما عمل فيه عبّاس بن فرناس استنباطه صناعة الزجاج من حجارة خاصة كانت تفيد في ذلك وتوجد في الأندلس بكثرة ، كما كان اول من فكّ في تلك البلاد كتاب العروض للخليل . بل كان عباس بن فرناس موسيقيّاً اذ يقول عنه المقري « انه اول من فكّ الموسيقى »[1] .

وعمل العالم العربي أيضاً في مجال الفلك فصنع الآلة المعروفة « بالمنقالة او النقالة » ليعرفَ الأوقات بطريقة لم يعرفها أحد قبله .

ولكن المجال الذي ذاعت فيه شهرته وملأت الآفاق فقد كان في انكبابه على دراسة طيران الطير ومحاولة تقليده في ارتفاعه وهبوطه . قضى الأوقات الطويلة وهو يدرس تركيب جسم الطير وكيفية طيرانه في الهواء ، ثم لما ظنّ بأنّ ذلك قد تمّ له كسا نفسه بالريش وصنع لنفسه جناحين ليطيرَ بهما ،

---

(١) المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٣٤٥ .

ونجحت التجربة في بادىء الأمر وارتفع عبّاس بن فرناس عن الأرض وظلّ يرتفع ويرتفع حتى وصل الى مائة قدم فوق سطح الأرض. وآنذاك أراد ان يعودَ الى الهبوط ولكن مع الأسف لم يكن لديه شيء يقاوم بواسطته الجاذبية كذنب الطائرة مثلاً وكأنه نسي أن ذنب العصفور يلعب دوراً هامّاً في تحرّكاته وخاصة في هبوطه. ولذا فانه ما لبث ان سقط من الارتفاع الذي كان قد وصل اليه دون ان ينجحَ الجناحان في تخفيف سرعة السقوط، ووقع على مؤخرهِ (١)، فرضّ وجرح وتأذّى وعدل بعدها عن المحاولة... انما لا صحة لما ذكره البعض من انه قتل حالاً في تلك المحاولة، اذ لا يوجد ايّ مصدرٍ تاريخيّ يؤيّد ذلك.

وقد وصف الشاعر مؤمن بن سعيد، عباس بن فرناس، ومحاولته الطيران، بالبيت التالي:

يطمّ على العنقاء في طيرانها اذا ما كسا جسمه ريح قشعم

هذا وقد اهتمّ عباس بن فرناس اهتماماً بالغاً بالفلك اذ ان الاهتمام بالطيران والفلك موضوعان مرتبطانّ، فصنع في بيته هيئة السماء وكان الناظر اليها يستطيع ان يرى فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود... وفيه يقول مؤمن بن سعيد ايضاً:

سماء عباس الاديب ابي الـ قاسم ناهيك حسن رائقهـا

هذا ولم يعدم عباس بن فرناس قريحة شعرية شارك بها معظم أهل الأندلس في ذلك الزمن الذين كانوا ينظمون الشعر في كل مكان وكل مناسبة... وعلى الرغم من انّه لم يبقَ لنا الكثير من شعره الا ان بعض الأمثلة عنه قد حفظت في الكتب القديمة.

غنّى الموسيقي المعروف زرياب يوماً. بيتين من الشعر قائلاً:

ولو لم يشقني الظاعنون لشاقني حمام تداعت في الديـار وقوع

(١) نفس المصدر السابق.

تداعين فاستبكين من كان ذا هوى نوائح ما تجـري لهن دمـوع

فذيّلها عباس بن فرناس يمدح احد الرؤساء بديهة فقال :

شددت بمحمود يداً حين خانها زمان لاسباب الرجـاء قطوع
بنى لمساعي الجود والمجد قبلة اليها جميـع الأجودين ركوع

وكان محمود جواداً فقال له : يا أبا القاسم أعزّ ما يحضرني من مالي القبة — وكانت قد كلّفته خمسمائة ديناراً — خذها فهي لك بما فيها مع كسوتي هذه ونكون في ضيافتك بقية يومنا . ودعا بكسوة فلبسها ودفع اليه الكسوة .

هذه بعض أخبار عبّاس بن فرناس واما الشخصية الموسيقية العظيمة الأخرى فهي شخصية زرياب .

زرياب :

كان يدعى علي بن نافع ويكنّى بأبي الحسن ويقال عنه، انه كان اميراً للغناء والطرب في المشرق والمغرب . عاش القسم الأول من حياته في بغداد مولى للخليفة العباسي المهدي ثم انتقل الى كنف الخليفة الرشيد قبل ان يرحل نهائياً الى الأندلس ويقضي بقية حياته فيها .

غلب عليه لقب زرياب بسبب سواد لونه مع فصاحة لسانه وحلاوة شمائله فشبّه بطائر اسود غرد . ولقد كان شاعراً مطبوعاً ، على قسط كبير من الذكاء ، ذا شعور رقيق ، وحسّ مرهف ، هدي من فهم الصناعة وصدق العقل مع طيب الصوت وصورة الطبع ما فاق به استاذه اسحاق الموصلي ببغداد[1] .

درس زرياب اللحن والموسيقى والغناء على استاذه بضع سنوات وتلقّف الكثير من ألحانه فوضعها في أغانٍ جديدة له مع شيء بسيط من التغيير حتى أصبح من الميسور عليه منافسة اسحاق الموصلي بل والتفوّق عليه .

(١) ابن حيان عن المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ١١٨ .

ولقد ظهر ذلك لأول مرة في الحادثة التالية :

استدعى الخليفة الرشيد في أحد الأيام نديمه ومغنّيه اسحاق الموصلي وقال له : « يا اسحق ، اريدُ منكَ ان تقترحَ عليّ اسم مغنّ غريب مجيد للصنعة لم يشتهر صيته بعد ، فيسمعني صوته وألحانه » . فأجابه : « علي بن نافع يا أمير المؤمنين ، انه مولى لكم ، وسمعتُ له نزعات حسنة ونغمات رائقة لاصقة بالنفس ، واعتقد ان سيكون له شأن » . فقال الرشيد : « هذا طَلِبتي ، فأحضرنيه ، لعلّ حاجتي عنده » .

واستدعى اسحق الموصلي تلميذه زرياب وأفهمه بأن يكون عند حسن ظنّ الخليفة لدى مقابلته اياه . فلما اجتمع هذا بالرشيد وتبادل أطراف الحديث معه أعرب عن أفكاره بأحسن منطق وأوجز خطاب ، فسرّ الرشيد منه وسأله عن معرفته بالغناء فأجابه زرياب : « نعم أحسن منه ما يحسنه الناس ، واكثر ما أحسنه لا يحسنونه ، مما لا يحسن إلا عندك ، ولا يدّخر إلا لك ، فان أذنتَ غنّيتك ما لم تسمعه اذن قبلك » . فأمر الخليفة باحضار عود اسحق الموصلي ، فلما أُدني منه ، أحجم عن تناوله وقال : « لي عود نحتّه بيدي ، وأرهفتُه باحكامي ، ولا أرتضي غيره ، وهو بالباب ، فليأذن لي أمير المؤمنين في استدعائه » . فأمر بادخاله اليه ، فلما تأمله الرشيد وكان شبيهاً بالعود الذي ردّه قال له : « ما منعك ان تستعملَ عود استاذك ؟ » فقال : « ان كان مولاي يرغب في غناء استاذي ، غنّيته بعوده ، وان كان يرغب في غنائي ، فلا بدّ من عودي » . فقال له : « ما اراهما الا واحداً » فقال : « صدقتَ يا مولاي ، ولا يوحي النظر غير ذلك ، ولكن عودي وان كان في قدر جسم عوده ومن جنس خشبه ، فهو يقع من وزنه في الثلث او نحوه ، واوتاري من حرير لم يغزل بماء سمنٍ يكسبها اناثة ورخاوة وبَمُّها ومثلثها اتخذتهما من مصران شبل أسد ، فلها في الترنّم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة

بها ما ليس لغيرها »[1] .

فأعجب الرشيد بوصفه للعود وأمره بالغناء فجسّ ثم اندفع فغنّاه :

يا أيّها الملكُ الميمونُ طائرُه   هارونُ راحَ اليكَ الناسُ وابتكروا

فلما اتمّ الأغنية طار الرشيد طرباً وقال لاسحق : « والله لولا اني اعلم من صدقك لي على كتمانه اياك لما عنده وتصديقه لك من انك لم تسمعه قبل لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامي بشأنه ، فخذه اليك واعتنِ بشأنه حتى أفرغَ له فانّ لي فيه نظراً » .

وهنا أحسّ اسحق الموصلي بالحسد يتسرّب الى قلبه من الحظوة التي لقيها تلميذه زرياب لدى الخليفة الرشيد ، فقرّر ان يتداركَ الأمرَ قبل ان يفلتَ من يده ، ويضيع مركزه في الدولة .

واستدعى زرياب وقال له : « يا عليّ ، ان الحسد أقدمُ الأدواء واردؤها ، والدنيا فتانة ، والشركة في الصناعة عداوة ، ولا حيلة في حسمها ، وقد مكرتَ بي فيما انطويتَ عليه من إجادتك ، وعلوّ طبقتك ، وقصدتُ منفعتك ، فاذا انا قد أتيتُ نفسي في مأمنها بادنائك ، وعن قليلٍ تسقط منزلتي ، وترتقي انت فوقي ، وهذا ما لا أصاحبك عليه ولو انك ولدي ، ولولا رعيي لذمة تربيتك ، لما قدّمتُ شيئاً على ان أذهبَ نفسك ، يكون في ذلك ما كان ، فتخيّر في اثنتين لا بد لك منهما : اما ان تذهبَ عنّي في الأرض العريضة لا أسمعُ لكَ خبراً بعد ان تعطيني على ذلك الايمان الموثّقة ، وأنهضك لذلك بما أردتَ من مالٍ وغيره ، واما ان تقيمَ على كرهي ورغمي مستهدفاً اليّ ، فخذ الآن حذرك منّي ، فلستُ والله أبقي عليكَ ، ولا أدعُ اغتيالكَ باذلاً في ذلك بدني ومالي ، فاقضِ قضاءك » .

فخرج زرياب وهو عالم بقدرة اسحق على تنفيذ ما قال ، فاختار الفرار ومغادرة البلاد وأخبر اسحق في اليوم التالي عزمه على ذلك فأعانه هذا وأعطاه

---

(١) المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ١١٨ — ١١٩ .

بعض المال فرحل عنه ومضى يبغي مغرب الشمس، واستراح قلب اسحق منه .

اما الرّشيد فقد تذكر بعد فراغه من شغل كان منغمساً فيه أمر مطربه زرياب ، فأمر اسحق الموصلي باحضاره فقال له: « ومن لي به يا أمير المؤمنين؟ ذاك غلام مجنون يزعم ان الجنّ تكلّمه وتطارحه ما يُزهى به من غنائه ، فما يرى في الدنيا من يعدلُه ، وما هو الا ان ابطأت عليه جائزة أمير المؤمنين وترك استعادته ، فقدّر التقصير به والتهوين بصناعته ، حتّى رحل غاضباً ، ذاهباً على وجهه مستخفياً عنّي ، وقد صنع الله تعالى في ذلك لأمير المؤمنين ، فانه كان به لمم يغشاه ، فيفزع من رآه » .

صدّق الرشيد كلام اسحق ولكنه لم يتمالك ان يقول : « على ما كان به ، فقد فاتنا منه سرور كثير » .

ومضى زرياب الى المغرب فنُسي بالمشرق خبره ، اذ لم يكن اسمه هناك قد اشتهر شهرته بالبلاد التّي أمّها حديثاً .

ولم يطل مقامه بالمغرب فسرعان ما نزعت نفسه وسمت همته للرحيل الى الأندلس والعيش في كنف أميرها الحكم . وكتب اليه في ذلك وأخبره برغبته في القدوم عليه بعد ان اختاره بين سائر الملوك ليكونَ في خدمته، وأعلمه بمكانته في الغناء والموسيقى وطلب منه الاذن في الوصول اليه . فسرّ الحكم بكتابه وأجابه مظهراً له الرغبة في التعرّف اليه طالباً اليه التعجيل بالالتحاق بــه .

وسار زرياب نحوه بعياله واولاده فاجتاز المضيق الى الجزيرة الخضراء ، فلما وصل اليها بلغه نبأ وفاة الأمير الحكم ، فأخذ يفكر بالعودة الى المغرب لولا ان مرافقه ورسول الحكم اليه « منصور اليهودي المغنّي » ثناه عن ذلك وأقنعه بأن يقصدَ الأمير الجديد عبد الرحمن بن الحكم . وكتب منصور الى عبد الرحمن بخبر زرياب فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطلّعه اليه والسرور بقدومه عليه ، وكتب الى ولاته في جميع البلاد ان يحسنوا معاملته ويوصلوه الى

قرطبة . كما أمر أحد رجال حاشيته ان يذهب الى لقائه ويقدم اليه هدية فاخرة. فدخل زرياب وأهله قرطبة ليلاً وأنزل في دارٍ من أحسن الدور .

وتتالت هدايا عبد الرحمن على زرياب في الأيام الثلاثة الأولى الى ان استدعي لمقابلته في اليوم الرابع . فلما أصبح بين يديه قال له الأمير : « امرنا بأن يدفع لك مائتا دينار راتباً شهرياً وان يُعطى بنوكَ الأربعة الذين قدموا معك وهم عبد الرحمن وجعفر وعبيد الله ويحيى عشرون ديناراً كلّ شهر ، وان يجري عليك من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار . منها لكلّ عيد ألف دينار ، ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار . وان يقطع لك من الطعام ثلثمائة مدى ثلثاها شعير وثلثها قمح ، وان يخصّص لك من الدور والمستغلاّت بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوّم بأربعين ألف دينار » ثم أمر كاتبه بأن يعقدّ له صكّاً بذلك . فأجزل زرياب الشكر للأمير لقضاء حاجته وانجازه وعده .

ولما عرف عبد الرحمن انه قد أرضاه وملك نفسه ، استدعاه وبدأ بمجالسته على النبيذ وسماع غنائه . فما هو الا ان سمعه حتى طار طرباً وسحره صوته الغرّيد فأهمل كلّ غناءٍ سواه واحبّه حبّاً شديداً جعله يقدمه على جميع المغنّين . وكان كلما خلا به اكرمه غاية الإكرام ، وأدنى منزلته ، وقوّى آماله ، وذاكره في أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء ، فوجد فيه بحراً زخر عليه مدّه ، وراقته أقواله ومعلوماته .

وصار زرياب يتناول معظم طعامه بصحبة الأمير عبد الرحمن وأكابر أولاده حتى أصبح هذا لا يطيق فراقه ، ففتح له باباً خاصّاً يستدعيه منه متى أراده . وذكر ان زرياب ادّعى ان الجنّ كانت تزوره كلّ ليلةٍ لتعلّمه الموسيقى ، فكان يهبّ من نومه سريعاً فيدعو بجاريتيه غزلان وهنيدة ، فتأخذان عودهما ويأخذ هو عوده ، ويعزف معهما طول الليل ثم يكتب شيئاً من الشعر ويعود بعد ذلك الى مضجعه .

وقد أدخل زرياب في الأندلس بعض التحسينات على العود ، فزاد عدد أوتاره من اربعة الى خمسة فاكتسب بذلك ألطف معنى واكمل فائدة ، كما انه جعل مضرب العود من قوادم النسر بدلاً من الخشب المدقّق فأصاب في ذلك ، للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته اياه .

هذا وقد كان زرياب يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني وألحانها ويلمّ بمجموعات الكواكب والنجوم وحركاتها واختلاف طبائع الأقاليم وسكانها .

وقد اثر في المجتمع الأندلسي تأثيراً كبيراً فطوّره من حيث العادات والتقاليد واللباس والطعام ، اذ كان يجمع الى خصاله السابقة الذكر ضروب الظرف وفنون الأدب ، ولطف المعاشرة ، وآداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية مما لم يجده أحد من أهل صناعته ، حتى اتخذه ملوك أهل الأندلس وخواصّهم قدوةً فيما سنّه لهم من آدابه ، واستحسنه من أطعمته ، فصار الى آخر ايام اهل الأندلس منسوباً اليه ، معلوماً به .

فمن ذلك انه اوجد طرقاً معيّنة لتصفيف الشعر بالنسبة للرجال وللنساء ، اذ انهم كانوا يرسلونه مفروقاً وسط الجبين ، مغطّياً للصدغين والحاجبين ، فلما رأى الناس زرياب وأولاده ونساءه يصفّفون شعرهم ويقصّرونها دون جباههم ويسدلونها الى أصداغهم ، هوت اليه أفئدتهم واستحسنوا ما جاء به .

ومما عوّدهم عليه ايضاً استعمال « المرتك » لطرد رائحة العرق من الأماكن التي يكثر فيها ، اذ انه أفضل من الورد وزهر الريحان وما شاكل ذلك مما كان يستعمله ملوك الأندلس قبل ذلك .

وزرياب اول من اجتنى بقلة الهليون المعروفة في الأندلس بالاسفراج ، ولم يكن أهلها يعرفونه قبل ذلك[1] . وأخذ الناس عنه تفضيل اواني الزجاج

---

(١) ابن دحية : المطرب في اشعار أهل المغرب ص ١٤٧ ، المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ١٢٣

الرفيع على أواني الذهب والفضّة وايثاره فرش الجلد الناعم على ملاحف الكتّان . وارتداءه في كلّ فصلٍ من فصول السنة نوعاً مختلفاً من اللباس فكان يرتدي الزيّ الأبيض في فصل الصيف الذي حدّده ابتداءً من يوم العنصرة الذي يقع في شهر حزيران « يونية » حتى اول شهر تشرين الأول « اكتوبر » اي حوالي ثلاثة أشهر ونيّف ثم يرتدي اللباس الملوّن في الأشهر الأخرى من السنة (١) .

وزرياب هو الذي أوجد عادة عرف شيء من الموسيقى قبل الغناء ثم ينشد بعده ألحاناً بسيطة ثم يختم الغناء بالمحرّكات والاهزاج . وكان اذا عمد الى تعليم احد تلاميذه الغناء بدأ بتعليمه الجلوس على وسادة مدوّرة وان يشدّ صوته اذا كان قويّ الصوت والا ربط على بطنه قطعة من القماش اذا كان ضعيف الصوت لانّ ذلك يقوّيه. واذا لم يكن التلميذ قادراً على فتح فمه بالشكل الكافي لسببٍ او لآخر ، أدخل في فمه قطعة خشب سمكها ثلاثة أصابع يتركها في فمه بعض الزمن حتى ينفرجَ فكّاه . كما انه اذا اراد اختبار صوت تلميذه ليعرفَ اذا كان موهوباً أو غير موهوب أمره ان يصيح بأعلى صوته : آه . وان يمدّ بها صوته . فان كان صافياً نديّاً مؤدّياً لا يعتريه غنّـــة ولا حبسة ولا ضيق نفس ، عرف انه سيكون مغنّياً لامعاً فأقبل على تعليمه . وان وجده خلاف ذلك فضّل إبعاده .

وكان لزرياب من الذكور ثمانية ومن الاناث اثنتان : عليّة وحمدونه . وكلّهم على ما تقول الرواية غنّوا ومارسوا الصناعة فاشتهر بعضهم اكثر من البعض الآخر ، ولو ان واحداً منهم لم يبلغ شأوَ أبيه .

ولم يقتصر زرياب على الصوت الحسن ووضع الألحان وانما نظم الشعر ايضاً فقد اوردت له كتب الأدب مقطوعات عديدة وجميلة يمكن الرجوع اليها لمن أراد التعرّف على شاعريته .

---

(١) يذكر ابن دحية ان زرياب سن لبس البياض من المهرجان الى نصف اكتوبر وان كان مطراً ، وانه اول من سن التحلي بالحرير والخز والمروية (المطرب ص ١٤٧) .

يحيى الغزال :

حتى اذا انتقلنا الى الحديث عن شعر وأدب يحيى بن حكم الملقب بالغزال بعد ان تحدثنا سابقاً عن دبلوماسيته رأينا انه تميّز بمديحه لأميره عبد الرحمن ابن الحكم على عادة شعراء عصره ولو انّ شعره تميّز بالقوة مع السلاسة . ويكفي مثلاً عليه تلك القصيدة التي نظمها في مديح الأمير لكي يعفو عنه بعد ان كان قد وضعه في السجن لتصرّفه بمستودعات الحبوب ايام القحط دون اذن الأمير . فقد كان هذا ولاّه قبض الأعشار واختزانها في المستودعات فانتهز فرصة غلاء القمح لبيع محتوياتها بسعر مرتفع بينما كان عليه ان يحافظ عليها بصفتها مخصّصة للجند وحاجاته ، فلما طلب منه المال لشراء كميات اخرى من القمح واختزانها رفض ان يدفع المال نقداً وعرض تعويض الدولة بأن يشتري لها نفس الكمية من الحبوب . وكان يقصد من وراء ذلك توفير الفرق في السعر بعد ان كان قد تدنّى كثيراً عما كان عليه . فوضع في السجن برأي الأمير فما كان منه الا ان صنع تلك القصيدة يقول فيها :

من مبلّغ عنّي إمامَ الهدى	الوارث المجد أباً عن أب
أنّي اذا أطنبَ مدّاحُه	قصدتُ في القول فلم أُطنب
لا فكّ عني اللهُ ان لم تكن	أذكرتنا من عُمَرَ الطيّب
وأصبح المشرق من شوقه	اليكَ قد حنّ الى المغرب
منبرُه يهتف من وجده	اليك بالسّهل وبالمرْحب
أطربه الوقتُ الذي قد دنا	وكان من قبلك لم يطرب
هفا به الوجدُ فلو منبرٌ	طار لوافى خطفة الكوكب
الى جميل الوجه ذي هيبة	ليست لحامي الغابة المغضب
لا يمكن الناظرَ من رؤية	الا التماح الخائف المذنب
ان ترد المال فاني امرؤ	لم اجمع المال ولم اكسب
اذا اخذت الحقّ مني فلا	تلتمس الربح ولا ترغب
قد أحسن الله الينا معاً	ان كان رأس المال لم يذهب

فلما قرئت تلك القصيدة للأمير أعجب بها مع من كان في حضرته وأمر باطلاقه .

وقد نظم الكثير في سفارته التي ذهب فيها الى بلاد النورمانديين . وقد سبق ان اوردنا تلك التي نظمها حين هبّت عليهم عاصفة في البحر . كذلك نظم شعراً بمناسبة سؤال ملكة النورمانديين اياه عن سنّه . فقد أجابها ان سنّه عشرون عاماً — وكان في الخمسين — فقالت : من هو ابن عشرين سنة يكون به هذا الشيب ؟ فأجابها :وما تنكر من هذا ؟ الم ترَ مهراً يولد وهو أشيب ؟ فضحكت . وكان اسمها « نود » . فقال في ذلك ارتجالاً :

كلّفتَ يا قلبي هوىً متعباً غالبتَ منه الضيغم الأغلبا
اني تعلقتُ مجوسـيةً تأبى لشمس الحسن ان تَغرُبا
اقصى بلاد الله لي حيث لا يلقى اليها ذاهب مذهبا
يا نود يارُودَ الشباب التي تطلع من أزرارها الكوكبا
يا بأبي الشخص الذي لا أرى أحلى على قلبي ولا أعذبا
ان قلت يوماً ان عيني رأت مشبهه لم أعدُ ان اكذبا
قالت ارى فَوْدَيْه قد نوّرا دُعابةً تُوجبُ ان أدْعبا
قلت لها يا بأبي انه قد ينتج المهر كذا أشهبا
فاستضحكت عجباً بقولي لها وانما قلت لكي تعجبا

هذا وكانت الملكة قد طلبت من يحيى بن حكم ان يصبغَ شعره ، فجاءها في اليوم التالي وقد فعل ، فاستحسنته فقال :

بكَرت تحسّن لي سواد خِضابي فكأنّ ذاك أعادني لشبابي
ما الشيب عندي والخضاب لواصف الا كشمس جلّلت بضباب
تخفى قليلاً ثم يقشعها الصَّبا فيصيرُ ما سُتِرت به لذهاب
لا تنكري وضح المشيب فانه هو زهرة الأفهام والألباب
فلديّ ما تهوين من شأن الصبا وطلاوة الأخلاق والآداب

وعندما رحل الغزال الى العراق كان الجميع يلهجون بالحسن بن هانيء اذ كان قد توفي قريباً ويستصغرون شعراء الأندلس بالنسبة له ويستهجنون اشعارهم ، فحضر مجلساً ذات يوم وقال للحاضرين انه سينشدهم شعراً لابن هانيء ربما لا يعرفونه فقال :

ولما رأيت الشَّرب اكْدتْ سماؤهم — تأبطتُ زِقّي واحتسبتُ عنائي
فلما اتيتُ الحـــانَ ناديتُ ربّه — فهبّ خفيف الروح نحو ندائي
قليل هجـــوع العين الا تعلّـــةً — على وجلٍ منّي ومــن نظرائي
فقلتُ أذقْنيها فلما أذاقــني — طرحت اليه ربطتي وردائي
وقلتُ أعرني بـــذلةً استترْ بها — بذلتُ له فيهـــا طلاقَ نســائي
فوالله ما برّت يميني ولا وفتْ — له غير اني ضامن بوفائي
وأبتُ الى صَحبي ولم أكُ آئباً — فكلّ يغدّيني وحقّ فدائي

فأعجبوا بالشعر وذهبوا في مدحهم له كلّ مذهب . فلما أفرطوا قال لهم : خفّضوا عليكم فانه لي . فأنكروا ذلك . فأنشدهم قصيدة الذي اوله :

تداركتُ في شرب النبيذ خَطائي — وفارقْت فيه شيمتي وحيائي

فلما اتمّ القصيد بالانشاد خجلوا وافترقوا عنه .

هذا وقد قال في الزهـــد :

الستَ تـــرى ان الزمان طـــواني — وبدّل خلقي كلّه وبـــراني
تحيّفني عضواً فعضواً فلم يدعْ — سوى اسمي صحيحاً وحده ولساني
ولو كانت الأسماء يدخلها البلى — لقد بلي اسمي لامتــداد زماني
وما ليَ لا أبـــلى لتسعين حجةً — وسبع اتـــت من بعدها سنتان
اذا عنّ لي شخص تخيّل دونـــه — شبيه ضباب او شبيهُ دخـــان
فيا راغباً في العيش ان كنتَ عاقلاً — فلا وعظ الّا دون لحظ عيـــان

وكذلك من قوله في الزهـــد :

الناس خلق واحد متشـــابه — لكنما تتخالفُ الأعمال

ويقال حق في الرجال وباطل   ايّ امرىء الا وفيه مقال
ولكلّ انسان بما في نفسه   من عيبه عن غيره أشغال
يستثقل اللمم الخفيف لغيره   وعليه من امثال ذاك جبـــال
وينام عن دنياه نومة قانع   بنعيم دنيـــاه وذاك خيال
ورأيتُ ألسنة الرجال أفاعياً   طوراً تثـــور وتارة تغتال
فاذا سلمتَ من المقالة غير ما   تجني فأنتَ الأسعدُ المفضالُ

واتفق على انه نظم ايضاً القصيدة التالية التي يقول في مطالعها :

يا راجياً وُدّ الغواني ضلّة   ففؤاده كلفـــاً بهنّ مُوَكّل
لا تكلفنّ بوصلهنّ فانما الـ   ـكَلِفُ المحبّ لهن من لا يعقل (١)

هذا وليحيى بن حكم بعض قصائد من الشعر المكشوف أوردها كتاب سيرته . وقد عاصر يحيى الموسيقي زرياب واختلف معه في فترة من الفترات وهجاه هجاءً مقذعاً فشكاه للأمير عبد الرحمن وسرد له شيئاً من شعره المفحش في هجائه ، فأمر عبد الرحمن بنفيه عن الأندلس ، فتوسّط له بعض أكابر رجال الدولة فتركه .

ولكن الغزال لم يطب مقاماً بعد ذلك في الاندلس ، فرحل الى العراق وعاش هناك بضعة سنوات ثم حنّ الى مسقط رأسه وعاد الى الاندلس وقد ترك شرب الخمر وتزهد في الشعر وشارف الستين . وقد عاش في الأندلس بعد ذلك حوالي اربعين عاماً الى ان بلغ عمره المائة او جاوزها .

هذه أمثلة عن بعض الشخصيات العلمية والأدبية والفنّية التي عاصرت الأمير عبد الرحمن بن الحكم فترددت على بلاطه وأسبغ هو عليها بدوره رعايته وأحاطها بعنايته فأعطت أحسن الثمار وساهمت في تقدم وازدهار الحضارة في ذلك الجزء من الامبراطورية الإسلامية .

---

(١) لم نورد سوى هذين البيتين لان بقية الأبيات فيها تحامل واضح ضد النساء . ذكرها ابن دحية في المطرب ص ١٤٦ — ١٤٧ .

وفاة الأمير عبد الرحمن الثاني :

كانت وفاته يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر عام ٢٣٨ هـ مخلّفاً وراءه عدداً كبيراً من الأولاد بين اناث وذكور يبلغ عددهم الثمانين اختار من بينهم ابنه محمداً ليخلفه في الإمارة .

فاذا علمنا انّ ولادته كانت في شعبان من عام ٢٧٦ هـ علمنا ان عمره عند وفاته كانت اثنتين وستين سنة وان مدة ولايته كانت احدى وثلاثين سنة ونيّف .

الفصل السادس

إمارة محمد بن عبد الرحمن بن الحكم

هو محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، يكنّى ابو عبد الله وامه ام ولد اسمها « بهير » .

هو الخامس من امراء بني أمية بالأندلس ، قام بالأمر بعد ابيه في يوم الخميس لاربع خلون من شهر ربيع الآخر عام ٢٣٨ هـ (٢٣ ايلول « سبتمبر » ٨٦٢ م) فكانت سنّه بذلك محسوبة بالسنوات الهجرية ثلاثين سنة وخمسة أشهر طالما ان ولادته قد حصلت في شهر ذي القعدة من عام ٢٠٧ هـ . اما مدة حكمه فكانت حوالي خمسة وثلاثين سنة لأن وفاته ستحدث كما سنرى في عام ٢٧٣ هـ فيكون عمره بذلك حين فارق الحياة حوالي خمسة وستين عاماً .

صفاته ومميزات حكمه الداخلي :

وصف بأنه كان ابيضاً ، مشرباً بحمره ، ربع القامة ، اوقص ، وافر اللحية[1] . وأجمع المؤرّخون على مديح صفاته النفسية التي كان يتحلّى بها

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٤١ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٥٢ .

أكان ذلك في حياته وتصرّفاته الشخصية ام في شؤون الحكم والإدارة . فمن ناحية ذكر عنه انه كان ذكياً ، عاقلاً ، فطناً بالأمور ، ذا بديهة وروية ، حليماً ، محتملاً ، كاظماً لغيظه[١] ومن ناحية أخرى قيل انه كان أوحد قومه في البلاغة والرجاحة[٢] ، محبّاً للعلوم ، مشغوفاً بالبيان ، مؤثراً لأهل الحديث ، عارفاً ، حسن الأدب[٣] .

كما انه كان في المجال الأخلاقي : حسن السيرة ، عفيفاً ، متنزّهاً عن الخنى والقبيح ، على أخلاقٍ حميدة ومكارم جميلة[٤] .

يُضاف الى ذلك كلّه انه جرى في العدل على سيرة ابيه[٥] وكان يؤثّر الحقّ واهله[٦] ويحكم بما يرضي الله وضميره .

ولقد أجمع المؤرّخون على انه لم يكن يقبل السعاية اي وشاية انسانٍ ضد آخر . قال احدهم عنه انه « لا يسمع من ساعٍ ولا يلتفت الى قول رامٍ »[٧] وقال آخر « لم يكن ليكدح عنده كادح في شيء عن احدهم فيسمعه او يسمعه »[٨] وقال ثالث انه كان يحرص على التثبت من الأمور اي انه لا يتسرّع في الحكم على شخص ولو أتته ضدّه وشايات كثيرة كما انه لا يحبّ النميمة ويقدّر الاخصام الذين لا يسعون الى ايقاع الشرّ كلّ منهم بالآخر[٩] .

ومما يذكر عنه في هذا المجال انه قال لحاجبه هاشم بن عبد العزيز في شيء

---

(١) اخبار مجموعة ص ٧٣ .
(٢) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٢ .
(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٥٨ .
(٤) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٢ .
(٥) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٥٢ .
(٦) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص٢٢ .
(٧) Ibidem
(٨) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٠ .
(٩) اخبار مجموعة ص ٧٣ .

انكره عليه من عدم التثبت : « يا هاشم ، من آثر السرعة أفضت به الى الهفوة ، ولو انا أصغينا نحو زلاتك وأصخنا الى هفواتك ، لكنّا شركاءك في الزلّة وقسماءك في العجلة ، فمهلاً عليك ، رويداً بك ، فانك ان تعجل يعجل لك »[1] .

هذا وقد أورد صاحب أخبار مجموعة حادثة ذات دلالة مزدوجة اذ تبيّن في جزءٍ منها كيف ان هاشم بن عبد العزيز احد وزراء الأمير محمد رغب في ان يوغرَ صدر الأمير ضدّ احد رجال حاشيته فأزعجه ذلك ، خاصة وان هاشم قد ألح في ذلك . ثم تبيّن في جزءٍ آخر منها كيف انّ الوليد بن غانم الذي يعتبر غريماً لهاشم بن عبد العزيز دافع عن هذا عندما رأى ان غضب الأمير ضدّه يوشك ان يتفجّر ، دافع عنه على الرغم من العداوة الموجودة بينهما ، فقدّر الأمير محمد ذلك الموقف تقديراً كبيراً واعتبر ذلك التصرف يداً بيضاء للوليد عند هاشم وأثنى على أخلاقه الحميدة .

وخلاصة القصّة كما يوردها المؤرّخ ان هاشم بن عبد العزيز حاول بشتّى الوسائل ان يطعن امام الأمير بأحد رجال حاشيته على ألا يكون هو الطاعن بل يرسل من ينوب عنه في ذلك ويبقي نفسه للمشورة والرأي فقط . وكان ينتظر من الأمير ان يبادره بالحديث عن ذلك الرجل بعد كلّ ما سمعه عنه ولكن الأمير لم يتلفظ بأية كلمة في ذلك الموضوع مما جعل صدر هاشم يضيق بصمت الأمير ودفعه الى ان يكشف وجهه فيه فذكر للأمير عنه اكثر مما كان البعض قد طعن فيه وجعل دمه حلالاً للاقتصاص منه . ولما أنهى هاشم حديثه قال له الأمير ما معناه : يا هاشم انت تريد لهذا الرجل التشريد والتنكيل لأن البعض قد سعوا فيه وذكروه بمذمّة ولكنني قبل ذلك أطلب اليك ان تقومَ الى هذه الكوّة التي في المجلس وان تأتيني بحزمة الرسائل التي تجدها فيها .

فلما فعل هاشم وجد انها تحتوي على ما يقرب من مائة كتاب تطعن كلّها

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٠ .

في هاشم ويطلب صاحب كلٌّ منها قتله واحلال دمه ... وجعل هاشم يقرأ الكتب ويده ترتعد وجبينه يرشح ووجهه يزبد ، وكلّما فرغ من قراءة كتاب أمره الامير بقراءة آخر الى ان اتى عليها كلّها فقال له الأمير : يا هاشم ما معذرتك في هذا ؟ فجعل يتنصّل ويقسم ويقول : « انهم حسادي وأهل الطعن عليّ والمتنافسون معي على نعمة الأمير ... وسيّدي أعزه الله أولى بالتثبت في أمري والإبقاء عليّ حتى تنكشفَ براءتي ويتضح له وجه عذري ، وهو على فعل ما لم يفعل أقدر منه على ردّ ما قد فعل ... » فقال الأمير : « يا هاشم ، ربّ عجلة أعقبت ندماً ، وليس من شيمتي الإسراع ، ولو كانت تلك ، لكنتَ اول هالك ، وقد خبرنا هذه المطالبات فرأينا اكثرها إفكاً وزوراً ، ومع هذا فلو رددنا أفك الآفكين منهم واظهرنا لهم الإعراض عنهم ، انكسروا عن مناصحتنا ونكلوا عن مكاتبتنا ، ولكنّا نعي ذلك فهماً ونحيط به علماً حتى نأتي عليه بعينٍ جليّةٍ وصدق روية ، فاياك ان يعرفَ احد من اصحاب هذه البطائق التي أطلعناكَ عليها ، انك فهمتَ شيئاً منها ، فانه ان علم احد منهم انه ستذاع من كتابه لفظة ، عاقبتُك بها أشدّ العقوبة ولم تقم عندي لكَ بعد ذلك قائمة ، فانظر لنفسك او دع ... »

ثم يتابع المؤرّخ قائلاً بأنه حدث بعد ذلك ان هاشماً أصيب وأسر في احدى الوقائع [1] وان الأمير أُخبر بذلك فقال ان اصابته كانت بسبب طيشه وعجلته وقلة إحكامه لنظره وانه لم يزل محدوداً في أمره وتفكيره ... وكان الكثير من رجال الحاشية يحضرون ذلك المجلس فلم يتكلّم منهم أحد سوى الوليد بن عبد الرحمن بن غانم الذي كانت بينه وبين هاشم مباعدة اي نفور فانه تكلّم قائلاً : « أصلح الله الأمير ، لم يكن على هاشم التخيّر في الأمر ولا الخروج عن القدر بل استفرغ نصحه وأعمل جهده وحامى استطاعته فأسلمه الله بخذلان من كان معه ونكول من اطاف به ، فجوزي عن نفسه وسلطانه خيراً » .

(١) هو الواقعة التي تعرف بواقعة «كركر» التي خرج فيها لقتال ثائرين كبيرين هما ابن مروان الجليقي وسعدون السرنباقي فهزم وأسر وسنتحدث عن ذلك في حينه .

فأعجب الأمير بمقالة الوليد واراد ان يسند ما كان بيد هاشم من دار الخيل والقيادة اليه فقال : « أصلح الله الأمير ! انما كان هاشم عبدك ، وسهماً من مراميك ، وسيفاً من سيوفك ، نفذ لأمرك ، وتقدم في المحاماة عن سلطانك ، حتى تقطّع في مرضاتك ، فليحسن الأمير أبقاه الله خلافته في أولاده ، وليخفّف من بعض بلائه بامضاء ولده على خدمته » . فقال الأمير : « يا وليد مثلك ذكر بشريف المنقبة ، وحضّ على سنى المكرمة ، وقديماً ما وفقت فوفقت ، وسدّدت فسدّدت ، وأفضل الأصحاب عندنا الناصح في المشورة ، المذكّر عند الغفلة ، والباعث على المصلحة ، وقد استحسنّا ما رأيت ، فمر ولده بالتمادي على خدمته ، ولا تخلّهم من تفقدك والاشراف عليهم بحسن نظرك[1] .

هذا ويبدو لنا من أحداث قصة مشابهة أوردها مؤرّخ آخر هو صاحب البيان المغرب مع خلافٍ في بعض التفاصيل عن القصّة السابقة انّ الشخص الذي حسده هاشم بن عبد العزيز وسعى ضدّه لدى الأمير محمد دون ان تقبلَ سعايته هو الكاتب عبد الملك بن عبد الله بن أميّة .

فلقد ذكر ان الامير محمد ولّى عبد الملك بن أمية الكتابة اصطناعاً له وجميلاً بصنعه معه . ويدلّل على ذلك برقعة كتبها الأمير الى ذلك الكاتب يقول فيها : « قد فهمنا عنك ولم نأتِ ما اتيناه عن جهلٍ بك ، لكن اصطناعاً لك وعائدة عليك ، وقد أبحنا لك الاستعانة بأهل اليقظة من الكتّاب ، فتخيّر منهم من تثق به وتعتمد عليه ، ونحن نعينك على امرك بتفقد كتبنا والاصلاح عليك ، الى ان تركب الطريقة وتبصر الخدمة ان شاء الله تعالى » .

فحسده البعض على تلك المكانة وكان على رأسهم هاشم بن عبد العزيز الذي أخذ يثير سقطاته ويتتبّع هفواته ويشنّع عليه ، والأمير محمد مدرك غرضه ولكنه متجاهل له ، الى ان دعا هاشماً ذات يوم فقال له : « قد كثر

---

(١) اخبار مجموعة ص ٧٣ — ٧٥ .

أهل خدمتنا واكثرت في هذا الكاتب، تذكرون جهله وندامته، وقد ضممنا اليه من الكتّاب من يستعين بـه ويستظهر على خدمته بمكانه، وانمـا نقفو بخدمتنا ونسلك بمراتبنا طريق من ابتدأها وأسّسها ووضع أهلهـا فيهم، واذا كنّا لا نخلف آباءكم بكم ولا نخلفكم بابنائكـم فعند من نضع احساننا ونربّ ايادينـا ؟ وانت كنت أحـقّ بالحضّ على هذا او تصويب الرأي فيه لما ترجو من مثله في أولادك وعقبك. فرجع هاشم الى الشكر »(1) .

هكذا نرى بأن كلمات الأمير محمد في هذه الرواية تختلف كليّاً عنها في الرواية الاولى ولكننا نرى تشابهاً في أصل القصتين وهو محاولة هاشم بن عبد العزيز الإيقاع بأحد رجال الأمير امامه، ويصعب علينا ان نتصوّر ان يعيد الرجل الكرّة مرتين على الرغم من تقريع الأمير له وتهديده اياه خاصة في الحادثة التي أوردناها أولاً مما دفعنا الى الاعتقاد بأن الحادثتين ربما كانتا واحدة مع الاختلاف في ايراد تفاصيلهما بين المؤرّخين .

هذا وكما ساق المؤرّخون هذه الحادثة للبرهان على صحة ما يصفونه به من عدم قبول السعاية فانهم يسوقون حوادث أخرى للبرهان على ما سبق ان ذكرناه عنه من ميلٍ للعلوم وشغفٍ بالبيان وتمكنٍ من بعض جوانبهما . فلقد أسند مناصب هامة الى بعض الطالبين الذين توجّهوا اليه بكتبٍ حسنة الأسلوب والعبارة، بل انه أسند منصب الوزارة الى الوليد بن عبد الرحمن بن غانم ردّاً على رقعة أدبية كتبها اليه يقول فيها : « عظمت نعمة الأمير ابقاه الله عن الشكر وجلّت أياديه عن النشر فمتى رمتُ شكراً ادني ما غمرني وحمداً يسر ما اشتمل، تلكأ بي الشكر وعجز بي الجهد، ولستُ بمؤمّل مع ذلك عن الاستفراغ في القول والاجتهاد في العمل اذ لم ارهما يدوران الا على نعمة أزلفت، ويقتصران الا على زيادة انتظرت، وانا بينهما مخيّم، وعليهما

(1) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٦٠ – ١٦١ .

معوّل ، والله الفاضل لعباده بطاعتهم له وشكرهم اياه من دار الشقوة الى دار السعادة ومن نصب العاجلة الى راحة الآجلة » .

فكتب اليه الأمير محمد يقول : « ان الله شاكر يحب الشاكرين ، وقد ناديتَ فأسمعتَ ولكلّ اجل كتاب » وبعد أيام من ذلك استوزره .

ثم هنالك قصة « ابي اليسر » الشاعر الذي أطلق عليه لقب « الرياضي » . ومفادها ان ذلك الرجل كان يعيش في المشرق وقد أعيته سبل الرزق فقصد الأندلس وانتحل كتاباً على لسان عالم اسمه « ابن الشيخ » في الشام وألسنة عامة بلده ، بكلّ ما أمكنه من الاستدعاء الى الخلافة وذكر تقارب الدولة ... فلما علم الأمير محمد انه محتال متعيش ، لم يغيّر معاملته له بل أوصى بأن يستمر عطاؤه طيلة مدة مكوثه بالاندلس ، فكان ذلك فعلاً .

ثم بعد مدة من الزمن قرّر « ابو اليسر » مغادرة الأندلس ، فأرسل الى الأمير كتاباً حسن الأسلوب والعبارة يستأذنه في ذلك فاستدعى الأمير آنذاك حاجبه وأخبره برغبة ابي اليسر وتداول معه في الأمر قائلاً له : « هذا انسان طالب معيشة تولّدت له بها هذه الحيلة ، فان صرنا الى تصديقه ومجاوبته على حسب كتبه ، اتخذنا عند بني هاشم مضحكة ، وان كذبناه وحرمناه وقد احتلّ جنابنا ، فلوم مشهور وفعل غير مشكور ، وقد رأينا فيما خاطبنا به عن نفسه تأليفاً حسناً وتجويداً بالغاً يستحقّ عليه معروفنا ويستوجب إحساننا ... »

وهذا يدلّ على ان الامير كان حائراً في ذلك الوقت يتابع تظاهره بتصديق ابي اليسر فيخشى استخفاف هذا به وبالأندلسيين امام بني العبّاس ، وبين ان يكذبه فيسيء اليه بعد ان أحسن .

ولذلك فقد قرّر أمراً يعتبر حلاّ وسطاً بين الاتجاهين وهو أنـه أمر بأن يمنح جائزة خمسمائة دينار تعينه على سفره وان يسلم اليه كتاب ليس فيه غير جملة « بسم الله الرحمن الرحيم » على ان يفضّه بعد خروجه من الأندلس . وخرج الرجل فعلاً ومعه بعض العائدين الى المشرق ، وفي الطريق فضّ

الكتاب فاطّلع على ما فيه وفهم معناه وأدرك انّ الأمير كان عارفاً للحقيقة ولكنه لم يشأ ان يتظاهر بها أمامه ، فجعل يكثر التعجّب من ذكاء الأمير محمد ويقول : « هكذا أعرف بني أمية ! لم يكن ليلام ولم يكن ليخدع »[1] .

هذا ويذكر في مجال تمكنه من بعض نواحي العلوم والآداب انه كان من أعلم الناس بالحساب وطرق الخدمة وانه كان متى أعضل منها شيء رجع اليه فيه ، واذا أخـــلّ احد من خزّانه وأهل خدمة الحساب شيئاً من ذلك لم يُجز عليه باللحظة والنظر[2] . ولقد استدرك على بعض خزّانه في صكّ يشتمل على مائة الف دينـــار ، خمسة عشر درهماً ، فردّ الصكّ وامر بتصحيحه ، فتجمّع الخدمة والكتّاب اليه فلم يقعوا على ذلك النقصان لقلّته وخفائه فرجعوا اليه معترفين بالتقصير ، وأعلموا الرسول ، فردّ الصكّ واعلمه باعترافهم ، فعلّم على موضع الخطأ فاذا هو خمسة عشر درهماً[3] .

هذا وقد امتدح معاصروه رجاحة عقله واتزان تفكيره . فذكر عنه وزيره هاشم بن عبد العزيز « انه كان أصحّ الناس عقلاً ، وأحسنهم تمييزاً ، وأبصرهم بوجه الرأي . كان يستشيرنا فنجتهد ونقول ونحصل ، فان أصبنا أمضى ذلك ، وان كان في الرأي خلل قام فيه بالحجة وأبانه بما تعجز الأوهام عنه تنقيحاً وتهذيباً[4] .

ولقد ذكر عنه مثل ذلك الفقيه بقيّ بن مخلد اذ قال : « ما كلّمتُ أحداً

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٠ — ١٦١. هذا ويذكر في صدد أبي اليسر الشاعر انه سجن في مصر وان بعض زملائه في طريق العودة ، قرروا زيارته في السجن ، فلما دخلوا عليه قال لهم : هل حبستم معي ؟ فقالوا له : ولم تفترض ذلك ؟ قال : من دخل الحبس لم يخرج منه الا برأي السلطان . فظنوه مازحاً، ثم أقلقهم ذلك فذهبوا للخروج فدفعهم الحراس ومنعوهم من ذلك . وظلوا مدة الى ان تمكنوا من رفع أمرهم الى صاحب مصر فيسر إطلاقهم .

(٢) ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ٢٢ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(٣) ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ٢٢ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٩ .

(٤) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٠ .

من ملوك الدنيا أكمل عقلاً ولا ابلغ فضلاً من الأمير محمد . دخلتُ عليه يوماً في مجلس خلافته . فافتتح الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على النبي (صلعم) ثم ذكر الخلفاء خليفة خليفة فحلّى كلّ واحد منهم بحليته ووصفه بصفته . وذكر مآثره ومناقبه بأفصح لسان وابلغ بيان حتى انتهى الى نفسه فسكت »[1] .

هذا وبمناسبة الاستشهاد برأي الفقيه بقيّ بن مخلد الايجابي في شخصية الأمير محمد . فان هذا انقذه بدوره من الاتهامات الخطيرة التي رماه بها عدد من الفقهاء الآخرين الذين كانوا يشعرون بالغيرة من علمه ومكانته بجانب الأمير . فبعد عودة ابن مخلد من المشرق من رحلة طويلة قام بها جمع من العلوم الواسعة والروايات الهامة والمذاهب الفقهية ما لم يكن يدخل في علم اهل الأندلس ، مما أغاظ فقهاء قرطبة أصحاب الرأي والتقليد الزاهدين في الحديث ، والمقصّرين عن التوسّع في المعرفة . وقد حسده هؤلاء وبدأوا يلفّقون التهم له ويرمونه بالإلحاد والزندقة ويشنّعون عليه لدى العامة حتى أدّى بهم الأمر الى المطالبة بسفك دمه فخاطبوا الأمير محمد بشأنه وطلبوا اليه ان يعجلّ بالحكم عليه .

وقد خاف بقيّ بن مخلد عواقب تلك الحملة واستتر ردحاً من الزمن خوفاً على نفسه ، بل انه فكّر بالفرار من الأندلس ولكنّه فضّل قبل ذلك ان يلجأ الى وسيلة اخرى ، وهي ان يطلب من الحاجب هاشم بن عبد العزيز مساعدته . وقد كتب هذا بدوره الى الامير محمد يشرح له الأمر ، ويرجوه التثبت من التهم التي توجه الى ابن مخلد بما اعتاده من الاعراض عن سماع الوشايات او قبولها دون التأكد من صحتها .

واتى تدخل هاشم ثماره اذ بدأ الأمير يعطف على الفقيه ابن مخلد فأمنه وطلب اليه ان يحضر الى قصره ليتناظرَ بحضوره مع خصومه من الفقهاء الذين

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٦٣ .

يتهمونه . وجرت المناقشة فعلاً فأدلى ابن بقيّ بحججه وتفوّق على خصومه واستبان للأمير محمد حسدهم اياه لتقصيرهم عنه ، فردّ دعواهم وتبنّى آراء ابن مخلد وسمح له بالمجاهرة بها وبنشرها بل ساعده على ذلك وأمر بجعله في زمرة الفقهاء المرموقين والرفع من منزلته فاعتلى ذروة العلم ، ولم يزل عظيم القدر عند الناس وعند الأمير محمد حتى وفاته .

هذا وقد رأى الكثيرون في رفض الأمير محمد للاتهامات التي وجهت الى ابن مخلد ، مظاهرَ ميلٍ الى آرائه او على الأقلّ رغبةً في الابتعاد عن انزال عقوبة ظالمة بأحد رجال الدين .

يروى في هذا الصدد حادثة بسيطة تدلّ على ان الامير محمد كان يعرف حدود دنياه . فقد خرج مع هاشم الى الرصافة متنزّهاً ذات يوم ، فقضيا يوماً جميلاً مرحاً مليئاً بالرفاهية والسرور ، ثم لما أمسى المساء عادا متوجهين الى قرطبة فأخبر من سمعهما يتحدثان ان هاشماً قال للأمير : « يابن الخلائف ، ما أطيب الدنيا لولا الموت ! » فقال له الأمير : « يابن ... لحنتَ في كلامك ، وهل ملكنا هذا الملك الذي نحن فيه الا الموت ؟ فلولا الموت ما ملكناه والله أبـــداً » .

أوائل أعماله بعد توليه الحكم :

كنّا قد تحدثنا كيف ان الامير محمد تولّى شؤون الحكم بعد وفاة ابيه وبعد ان وقع عليه شيء من الخلاف بين كبار الفتيان الصقالبة ، انتهى بالإجماع على دفع السلطة اليه . وفي صبيحة ذلك اليوم الذي بويع فيه ، استوزر وكيله محمد بن موسى وعبد الرؤوف بن عبد السلم جدّ بني عبد الرؤوف ، وأبقى معظم رجال ابيه الذين كانوا يتولون الوزارة ، كما وضع عبد الملك بن عبد الله ابن أمية على الكتابة فبقي فيها نحو العامين ، ثم مضى فاضطر الأمير محمد الى تعيين شخصٍ في مكانه ووقع اختياره على احد المستعربين اي احد الاسبان الذين كانوا يعيشونَ في ظلّ الدولة العربية الإسلامية في الأندلس وهو « قومس

ابن انتيان Gomez Antonio » الذي كان أحد ممثلي الدولة في المجمع الديني الذي عقد في عهد عبد الرحمن الثاني للنظر في الفتنة الطائفية التي رفعت رأسها آنذاك وكانت نوعاً من التعصّب الذي أبداه بعض الأحبار .

ولا بد ان الامير محمد كان راضياً عن خدمة « قومس » بدليل انه قال : « لو ان قومساً كان مسلماً ما استبدلناه »[1] فلما علم قومس بذلك تحوّل الى الاسلام وأشهد الشهود على ذلك فثبته الأمير في الكتابة .

ولقد كان قومس حسب المصادر التاريخية ، يجمع الى جانب بلاغته وحسن قيامه بالخدمة عقلاً راجحاً متزناً جعله ممدوحاً من قبل الكثيرين ولكن كان هناك خلاف بينه وبين الحاجب هاشم بن عبد العزيز سيؤدّي الى نزاعٍ خفيّ بين الرجلين .

ونحن قد رأينا حتى الآن في حديثنا عن هاشم هذا وفي اكثر من مناسبة ، خلافه مع بعض المتنفذين ومحاولته الدسّ عليهم لدى الامير للإيقاع بهم ، وذلك ناتج دون شك عن ان هاشماً ، بصفته كان يمثّل مكاناً بارزاً في الدولة ، وكان يعمل بكلّ وسعه على ألا ينافسه احد فيها او يتخطّاه .

وربما كانت الكتب التي وردت الى الأمير محمد معترضة على تولية رجل أجنبي منصباً هاماً كالكتابة ، بدافعٍ من هاشم بن عبد العزيز . وكان من جملة هذه الكتب احدها ارسله محمد بن الكوثر الذي تقول عنه الرواية انه « احد بلغاء الأندلس[2] » وقد كتب الى الأمير : « من أعجب العجب ان يبلغ خلائف بني العباس بالمشرق ان بني امية بالمغرب اضطروا في كتاباتهم العظمى وقلمهم الأعلى ان يولّوا قومساً النصراني ابن انتيان ؛ فيا ليت شعري ما الذي أعماكّ عن اختيار الأفضل ومن تتزين به الخدمة ، ومن يشفع اليها بوراثة النعمة ، انا اصلح لها ، وحامد الزجالي ، وابن مرين ، ومحمد بن سفيان ؛ ومن رجال

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٠١ .
(٢) Ibidem

الاجناد أضحى بن عبد اللطيف بالبيرة. وابن ابي فريعة وابن جوشن بريه، وابن اسيد بشذونة، وحجّاج بن عمر بأشبيلية؛ هؤلاء ابناء نعم الخلفاء من تزدان بهم الخدمة. وتقع منهم في موقعها النعمة، اختر من شئت فهؤلاء لها أهـل »[1].

فلما قرأ محمد الكتاب استدعى احد اولئك وهو « حامد الزجّال » وولاّه الكتابة. هذا ومن المعروف ان الأمير محمد بن عبد الرحمن قد اعتمد في الإدارة على رجال اكفاء مما دعا كتاب سيرته الى القول « بأن اكثر وزرائه مقدّمين في العقل والفضل وحسن السيرة »[2]. وقدموا مثلاً على ذلك عبد الملك بن عبد الله بن أمية ووليد بن غانم وأمية بن عيسى بن شهيد ومحمد بن موسى الاشبيلي وغيرهم ...

وقد حظي من بين هؤلاء جميعاً عبد الملك بن أمية بأكبر مكانة في الدولة وفي الوقت ذاته بكثير من الثناء على تصرّفاته وحزمه وقدرته على تصريفه الأمور تصريفاً صحيحاً. فقد روي عنه انه علم بأن هاشم بن عبد العزيز طلب الى احد جيرانه ان يتخلّى له عن داره فرفض ذلك الجار فأمر هاشم بحبسه في داره. وذهب أمية الى بيت الوزارة فقال لأصحابه: « بلغني ان بعضهم حبس جاراً له عند نفسه. وبالله لئن صحّ هذا عندي لأركبنّ الى الدار ولاعدّن على ما فيها ولاعدمنّها » فارتعد هاشم في مقعده واستدعى احد وصفائه حالاً وكلّفه بأن يسرع إلى إطلاق المحبوس.

كما ذكر بأن رجلاً من أهل العلم قد فرّ من احدى المقاطعات الى العاصمة قرطبة فراراً من حاكم تلك المقاطعة. فكتب ذلك الحاكم الى الأمير محمد يغريه بذلك الرجل العالم ويقول انه أفسد عليه أموره وان شؤونه لا تصطلح إلا بزجّ رجل العلم ذاك في السجن. فنادى الأمير وزيره أمية وطلب اليه ان

(١) نفس المصدر السابق.
(٢) Ibidem

يضمّ ذلك الرجل الى السجن فأجابه أمية بكلّ جرأة : « لا والله ما أحبس رجلاً من أهل العلم ، فرّ عن جور ظالمٍ مشهورٍ بالظلم ، ولو كان فيه خير ما فرّ مثله عنه » . فامتنع الأمير محمد وأمرَ ابن أميةَ بأن يكتبَ الى ذلك العامل يوبّخه على ما فعل .

وفي مرةٍ أخرى خرج الأمير محمد الى احدى غزواته وكلّف عبد الملك ابن أمية بادارةٍ شؤون الحكم في غيابه . وقد شكى البعض الى ابن امية آنذاك سوء تصرف وكيل احد اولاد الأمير ، فأوصى محمد ابنَ الامير بأن يزجرَ وكيله ويمنعه من ان يتطاولَ على الناس . ولكن الوكيل لم يرتدع وتكرّرت منه الشكوى فاستدعاه ابن أمية وقرّعه بعنف فأرسل اليه ابن الأمير من يقول له : « لئن لم تكفّ عن وكيلي لأهبطنّ بنفسي وبمن معي ولأغلبنّك » فضحك مستهزئاً وقال لموفد ابن الامير : « بالله الذي لا اله الا هو ، لئن جاوز باب الدار التي تركه فيها ابوه ، طرحتُه في الدويرة مع كلبين يكون بينهما ، حتى يقفل أبوه او يأتيني عهده باطلاقه » ثم استدعى الحرّاس وأمرهم بأن ينفّذوا ما قال ثم عاد الى تأديب الوكيل من جديد حتى بالغ في ذلك .

حادثة اخرى تبيّن لنا اهتمام الوزير عبد الملك بن أمية حتى بأدقّ شؤون البلاد ، إذ يذكر انه مرّ ذات يوم بدار الرهائن المجاورة لباب القنطرة فسمع رهائن بني قسيّ ينشدون شعراً لعنترة بن شدّاد ، فطلب الى بعض أعوانه ان يحضروا له مراقب الدار ، فلما حضر امامه قال له : « لولا اني أعذرك بالجهل لأدّبتك ، تعمد الى شياطين قد شجى الخلفاء بهم ، فترويهم الشعر الذي يزيدهم بصيرةً في الشجاعة ! كفّ عن هذا ولا ترْوهم الا خمريّات الحسن ابن هانيء وشبهها من الأهزال » . وهذا ان دلّ على شيء فانما يدلّ على مدى عناية ابن امية بشؤون امن الدولة من جهة وبوسائل الإعلام من جهةٍ أخرى .

هذه بعض الأحداث التي ذكرت عن عبد الملك بن أمية وزير الأمير محمد بن عبد الرحمن ، اقول بعضها ولا اقول كلّها ، لان هناك أحداثاً أخرى ، وان لم تكن بنفس الأهمية والمدلول .

هذا وقد كان من أهمّ الاحداث في اول عهده اعلان ابن أفلح صاحب تاهرت في شمال افريقية تأييده للأمير محمد فأصبح «لا يقدم ولا يؤخر في اموره ومعضلاته الا عن رأيه وأمره[1]. وكذلك بنو مدرار بسجلماسة الذين وضعوا انفسهم وامكانياتهم تحت تصرّفه . .

اما ملك الفرنجة فصار يهاديه ويتودّد اليه، وبذلك يكون الأمير محمد قد افتتح عهده بضمان خضوع عددٍ من جيرانه الأقوياء له ، فأمن بذلك شرّهم وتمكن من ان يلتفت الى الدويلات الشمالية التي كان لا بدّ ان تظلّ تناصبه العداء لكونها كانت مصممة على محاولة احتلال الأندلس كلّها ، ايماناً منها بأن الأرض أرضها .

وقد كانت من اوائل اعمال الأمير محمد ايضاً اعفاؤه الناس من الخروج الإجباري في الصوائف التي كان يرسلها غازيةً الى بلاد العدوّ . فلقد كانت العادة حتى ذلك الوقت انّ كلّ من تستدعيه الدولة للقتال ، عليه ان يلبّي نداء الواجب . ولكن الأمير محمد رأى ان يقوم بعملٍ يزيد من شعبيته وتعلّق الناس به فترك امر الخروج للجهاد لمن يريد ان يتطوعَ لذلك بمحض إرادته دون إجبار ، فسرّ الناس بذلك التشريع دون ان تضعفَ قوة الدولة العسكرية لان عدد المتطوّعين ظلّ كافياً .

ويقدم لنا احد المؤرّخين فكرة عن الكمية العددية للجند الذين كانت تقدمهم كلّ من المقاطعات للجهاد . فيقول ان عدد الفرسان المستنفرين للاشتراك في الصائفة التي وجهت الى جلّيقية بقيادة عبد الرحمن بن الأمير محمد في عام ٢٤٩ هـ (٨٦٣ م) كان كالتالي :

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٦١ .

اسم المقاطعة	عدد المقاتلين
كورة شذونة	٦٧٩٠
كورة البيره	٢٩٠٠
كورة ريـــة	٢٦٠٠
كورة جيـــان	٢٢٠٠
كورة قبـــرة	١٨٠٠
كورة موررور	١٤٠٠
كورة استجة	١٢٠٠
كورة باغـــة	٩٠٠
كورة فحص البلّوط	٤٠٠
كورة قلعة رباح واوريط	٣٨٧
كورة تاكرنّا	٢٩٩
كورة الجزيرة	٢٩٠
كورة قرمونة	١٨٥
كورة تدمير	١٥٦
كورة ربينــه	١٠٦
المجمـــوع	٢١٦١٣

اي ما يقرب من اثنين وعشرين الفاً من المقاتلين هذا بطبيعة الحال عدا عن جيوش قرطبة نفسها التي كان عددها يختلف حسب المناسبة وحسب تقدير الدولة لحاجتها منهـــا .

والآن وبعد ان اوردنا هذه النبذة عن مطلع حكمه واوائل أعماله ننتقل الى الحديث عن كيفية مواجهته للاضطرابات التي ظهرت في عهده .

الاضطرابات في عهد الامير محمد بن عبدالرحمن

الثورة في طليطلة :

كنّا قد رأينا ان طليطلة خلدت الى الطاعة بعد ان وجّه الأمير عبد الرحمن الثاني عدة حملات اليها وان اهلها اضطروا الى ان يفتحوا ابوابهم للجيوش الرسمية بعد ان انقسموا فيما بينهم واستعان فريق منهم بالقوات الرسمية المرابطة في قلعة رباح فدخلت المدينة في عام ٢٢٢ هـ (٨٣٧ م) .

ولكن بعد انقضاء مدةٍ من الزمن تقرب من ستة عشر عاماً ، وفي سنة تسلّم الأمير محمد للسلطة ايٍ في ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) عادت طليطلة ترفع لواء الثورة فأعلن سكانها الخروج عن الطاعة والقوا القبض على حاكم المدينة ولم يطلقوا سراحه إلا بعد ان قبلت حكومة قرطبة باطلاق الرهائن التي كانت لديها من سكان طليطلة[1] . كذلك توجهت بعض قوّات الثوار فحاصرتها وتمكنت من تخريب بعض اجزاء من اسوارها[2] فاضطرت حاميتها بل وسكانها ايضاً الى مغادرتها ، فدخلها المهاجمون وعملوا على هدم أسوارها هدماً كاملاً في عام ٢٣٩ هـ (٨٥٣ م)[3] .

ردّاً على هذه التحديات ، جهّز الأمير محمد صائفة بقيادة ابنه الحكم وجّهها الى طليطلة فمرّ الجيش في طريقه على قلعة رباح وأمر الحكم باعادة بناء أسوارها فعاد من فرّ من أهلها اليها وتركت فيها حامية قوية . ثم توجهت بعد ذلك فرقة من الجيش بقيادة قاسم بن العباس وتمام بن ابي العطّاف[4] صاحب الخيل ومعهما الحشم ، لمهاجمة بعض الجهات القريبة من طليطلة . فلما وصلوا الى محلّة اندوجر Andùjar ، خرجت عليهم كمائن أهل طليطلة .

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٤٢ .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٣٠ .

(٣) يقول صاحب البيان المغرب « وكانت قلعة رباح قد أقفرت خوفاً من أهل طليطلة (جـ ٢ ص ١٤٢) ».

(٤) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٤٢ .

فوقعت الحرب وكثر القتل وهزمت الجيوش الرسمية بقياده قاسم وتمام وغنم أهل طليطلة معظم ما كان في معسكرهم من المتاع .

وكان ذلك مدعاةً لغضب الأمير محمد الذي قرّر الايقاع بهم بشدة في السنة التالية اي في ٢٤٠ هـ (٨٥٤ م) فخرج بنفسه الى طليطلة . ولما بلغت سكان هذه المدينة الاستعدادات الكبيرة التي اتخذها الأمير محمد لقتالهم اتصلوا بملك جليقية الاسباني الذي تسميه الرواية العربية « اردون بن اذفونش Ordoño » وطلبوا اليه ان يمدّهم ببعض القوّات لتساعدهم على قتال جيوش الدولة الإسلامية في قرطبة .

ولما كان الملك اردون او اردونيو راغباً في التدخل في شؤون الأندلس فانه لم يتردّد في القبول وأرسل جيشاً بقيادة أخيه(1) لمساعدة أهل طليطلة .

وعلم الأمير محمد بدوره بتلك المعونة الأجنبية التي أرسلت لمساعدة اهل طليطلة فعسكر في « وادي سليط Guazalete » وبدأ ينظّم الجيوش ويعدّ العدّة للمعركة . كما انه رأى ان يلجأ الى الحيلة والكيد فأمر بأن يكمنَ قسم كبير من الجيش بحيث لا يراه العدوّ ويعتقد ان القوات القليلة المهاجمة هي الوحيدة الموجودة في الميدان .

وعند اللقاء حدث ذلك فعلاً اذ عندما اقتربت قوات العدوّ خرجت اليها قوات الأمير محمد فبدت قليلة لا تصعب هزيمتها مما دفع قوات طليطلة الثائرة وحليفتها قوات جليقية الى الهجوم السريع بأمل احراز النصر بسهولة . ولكن ما ان التحم الجيشان حتّى خرجت الكمائن من كلّ جهة وهاجمت الأعداء بعنف فعمّ القتل بينهم وسرعان ما حلّت بهم الهزيمة ففرّ من استطاع الفرار وتركوا في ساحة المعركة ما لا يقلّ عن عشرين ألفاً من القتلى حسب إجماع

---

(١) ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ٢٢ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٢ . ولكن المؤرخ الفرنسي ليفي بروفنسال ذكر بان الجيش الذي أرسله ملك جليقية كان بقيادة أحد أقاربه ويدعى « جاستون Gastôn, conde del Bierzo »

(Hist. de l'Esp. Mus. T IV p. 191)

عدد من المؤرّخين [1] ، كان ثمانية آلاف منهم من جند جليقية [2] والباقي وهم اثنا عشر الفاً بطبيعة الحال كانوا من أهل طليطلة .

وقد كتب الأمير محمد بأنباء نصره العظيم في معركة وادي سليط الى عدد من البلدان الموجودة في شمال افريقية وعلى سواحل البحر وغيرها ... مرفقاً بكتابه عدداً من رؤوس القتلى دليلاً على النصر .

ولكن النصر في تلك المعركة لم يعد طليطلة الى الصواب مع ذلك ، فأرسل الأمير في السنة التالية اي ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) شحنات من المؤن وأعداداً من الفرسان وعيّن عليها حاكماً هو الحارث بن بزيغ لكّي يضيّق على أهلها ويجبرهم على إعلان الطاعة دون ان يحدث ذلك في الواقع إذ انهم عوضاً عن إنهاء ثورتهم حاولوا في عام ٢٤٣ هـ (٨٥٧ م) ان يهاجموا القوّات الرسمية في مدينة طلبيرة Talavera فأعدّ لهم قائد حامية المدينة مسعود بن عبد الله كميناً جديداً حول المدينة وعندما اقتربوا منها خرج عليهم الجند وأعملوا فيهم القتل ففرّوا وبعث القائد مسعود سبعمائة من رؤوسهم الى الامير محمد في قرطبة [3] .

ورأى الأمير محمد في العام التالي اي ٢٤٤ هـ (٨٥٨ م) ان الامر يقتضي منه ان يخرج من جديد بنفسه لقتال اهل طليطلة « وكان عددهم قد قلّ ، وحدّهم قد فلّ بتواتر الوقائع عليهم ونزول المصائب بهم » [4] ففرض الحصار على مدينة طليطلة وبدأ أهلها يستعدّون للخروج الى القتال . ونظراً لأنه كان من المحتّم على أهل المدينة ان يجتازوا القنطرة او الجسر للوصول الى قوّات الأمير فقد كلّف هذا المهندسين والبنّائين وعدداً من رجال الجيش ان يخرّبوا

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٥٣ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٤٣ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٣٠ .

(٢) ذكر هذا الرقم ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢١ وابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٤٣ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٤٤ ، النويري : نهاية الارب جـ ٢٢ ص ٥٣ .

(٤) نفس المصدرين السابقين .

الأسس التي تقوم عليها القنطرة حتى اذا تجمّع فوقها أهل المدينة للعبور عليها ، انهارت بهم .

وقد حصل ذلك فعلاً اذ حين حاول اهل طليطلة عبور القنطرة وتجمعوا فوقها انهارت فغرق قسم كبير منهم في النهر واضطر الباقون الى العودة ، علماً بأن هذا التدبير من قبل الأمير محمد كان يعني عدم التمكن من فتح المدينة طالما انه قطع ايضاً على نفسه امكانية الوصول اليها . وربما كان يقدّر ان فتحها امر صعب فاكتفى بمعاقبة أهلها والتضييق عليهم لعلّهم يطلبون الاستسلام لوحدهم فيكلّفه ذلك عناءاً أقلّ .

وقد حصل ذلك فعلاً في العام التالي اي في ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) إذ طلبوا الأمان من الأمير فعقده لهم وعُرف بالأمان الأول لأنه سيعقد لهم امان ثان بعد اربعة عشر سنة من الامان الاول اي في عام ٢٥٩ هـ (٨٧٢ م) .

ففي هذا العام المذكور خرج الأمير محمد على رأس جيشه الى ناحية طليطلة فأخذ منهم رهائن جديدة خوفاً من ان يعودوا الى اعلان الثورة واتفق معهم على كمية من العشور يؤدّونها كلّ عام للدولة .

ويذكر بهذه المناسبة ان أهواء أهل طليطلة قد اختلفت فأراد بعضهم تولية مطرّف بن عبد الرحمن على المدينة بينما طلب آخرون تولية طريشة بن ماسوية ، فولي كل واحد منهما قسماً من المدينة وصار يحكم منطقة معينة اتفقوا عليها فيما بينهم (١) .

ولكنهما عادا الى التنازع فيما بعد من جديد وأراد كلّ واحد منهما الانفراد بحكم المدينة فغلب انصار طريشه بن ماسويه . ويبدو ان هذه الغلبة لم تحدث سلمياً بل عسكرياً لان « النويري » يخبرنا ان عشرة آلاف من اهل طليطلة هاجموا الحصن الذي كان يحاصر فيه طريشه بن ماسويه ومعه سبعمائة من

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٥١ .

البربر فاحقت بهم الهزيمة (١) .

ولكن ذلك النزاع الداخلي لم يكن يمس سلطة قرطبة على اي حال وانما كان نوعاً من التصفية الداخلية لم يتعارض مع مصلحة الحكومة المركزية وان كان مصدراً لقلقها .

ثورة عبدالرحمن بن مروان الجليقي وسعدون السرنباقي بماردة :

تتميّز هذه الثورة بأن الرجلين القائمين بها هما من المولّدين اي ان اسلافهما كانوا من النصارى الاسبان الذين تحوّلوا الى الإسلام . وتتفق الروايات العربية في ذكران النزاع الذي حصل بين هاشم بن عبد العزيز وعبد الرحمن ابن مروان الجلّيقي هو الذي دفع هذا الأخير الى مغادرة قرطبة والالتحاق بمارده واعلان الثورة فيها كما سنفصّل في ذلك بعد قليل .

ولكنّنا نرى انه لا بدّ لنا قبل ذلك من القول بأن ابن مروان الجلّيقي لم يكن أصلاً من سكان قرطبة بل من سكان الغرب وان النزعة الثورية لديه قد تبدّت عنده قبل ذلك ببضعة سنوات ، منذ أن كان لا يزال يسكن مدينة مارده وله نفوذ كبير فيها طالما ان والده مروان كان عاملاً عليها قبل ذلك . واول ذكر نراه بصدده هو خلال حملة تظاهر الأمير محمد بأنه يقودها باتجاه طليطلة في عام ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) ثم ما لبث ان عرّج بها نحو هدفها الحقيقي : ماردة ، التي كانت قد اعلنت الثورة . ففرض عليها الحصار واضطر اهلها الى ان يقبلوا بتسليم زعمائهم وعلى رأسهم عبد الرحمن بن مروان الجلّيقي وابن شاكر ومكحول وغيرهم ... (٢) فخرج هؤلاء من ماردة ورافقوا جيش الأمير محمد بعيالهم وذراريهم الى قرطبة حيث فرضت عليهم الاقامة هناك . واما ماردة فقد ولي عليها سعيد بن عباس القرشي (٣) وامر الأمير محمد بن عبدالرحمن

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٥٥ .

(٢) يذكر ابن عذاري ان هؤلاء الزعماء كانوا « اهل بأس ونجدة وبسالة مشهورة (البيان المغرب جـ ٢ ص ١٥٠) .

(٣) نفس المصدر السابق .

بهدم أسوارها بحيث لم تبقَ إلا قصبتها مقرّاً للوالي ولمن يأتي بعده من المكلّفين بحكم المدينة .

وهكذا اذن نرى ان ابن مروان الجلّيقي قد أعلن الثورة قبل ان يسكن قرطبة وقبل ان يختلف مع هاشم بن عبد العزيز كما سنرى .

واقام ابن مروان الجليقي في قرطبة سبع سنوات من ٢٥٤ — ٢٦١ ه (٨٦٨ — ٨٧٥ م) ظهر خلالها وكأنه خلد نهائياً الى الطاعة ، ولكنه اختلف مع هاشم — كما ذكرنا — فحقّره هذا وأسمعه كلاماً قارصاً ويروى انه قال له : « الكلب خير منك » وانه أمر بضربه على قفاه ، فلم يتحمل تلك الإهانة ، وهرب مع أنصاره متجهاً نحو غرب الأندلس لإعلان الثورة هناك من جديد .

وهناك بالقرب من ماردة لجأ في بادىء الأمر الى حصن يعرف « بقلعة الحنش »[1] Alange ، ولكن الأمير محمد لم يتركه زمناً طويلاً قبل ان يسير لقتاله ففرض عليه الحصار في تلك القلعة طيلة ثلاثة أشهر كاملة انتشرت المجاعة خلالها بين قوّات ابن مروان حتى اضطر جنده الى أكل دوابّهم كما قطع عنه الماء ورماه بالمجانيق فاضطر الى الإذعان وطلب الصلح .

وجرت مفاوضات بين الطرفين انتهت بقبول الأمير محمد بان ينتقل عبد الرحمن بن مروان الى بطليوس ويسكنها فتمّ ذلك .

ولكن النزعة لدى ابن مروان لم تكن لتخبو بسهولة فلم يمض على ذلك بضعة أشهر حتى عاد ليعلن خروجه عن الطاعة بعد ان اتخذ للأمر عدته وخاصة بعد ان قد وجد حليفاً جديداً له من الثوّار المولّدين ايضاً وهو سعدون السرنباقي ، فقويت به شوكته . ويروي صاحب « تاريخ افتتاح الأندلس » ان اتباع السرنباقي كانوا يعلون من شأنه بقولهم انه « السرور الباقي » ، كما يتحدث عن تحالف الثائرين المولدين فيقول عن ابن مروان « بانه كان له من العقل والكيد والبصر بالشر ما لا متقدم له فيه ، وانه اجتمع بالسرنباقي وضافر

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٢ .

الشرك ، واحدثا في الإسلام أحداثاً عظيمة يطول ذكرها ، وصارا في القفر بين الإسلام والشرك »[1] .

آنذاك قرّر الأمير توجيه جيشٍ لإخضاعه بقيادة غريمه هاشم بن عبد العزيز[2] وذلك في مطلع عام ٢٦٢ هـ (٨٧٦ م) . وقد تمكن هاشم في بداية حملته من احتلال حصن « شنت ملوط Monsalud » الذي كان قد استولى عليه سعدون السرنباقي عندما أعلن الثورة ، فاضطر ان يغادره الآن والتحق بزميله ابن مروان بينما ضبط هاشم الحصن بالخيل والرجال[3] وعندما علم ابن مروان باقتراب جيوش قرطبة انتقل من بطليوس الى حصن كان قد أعدّه لمثل تلك المناسبة يسمّى حصن « كركر[4] Carcar » كما كلّف حليفه سعدون بان يتوجّه الى جلّيقية ليطلبَ المدد من ملكها الفونسو الذي تدعوه الرواية العربية كعادتها « اذفونش ملك جلّيقية »[5] وسرعان ما عاد سعدون فعلاً ترافقه قوة من الجلالقة ولو انّ تلك القوى المتحالفة المؤلّفة من رجال ابن مروان وانصار السرنباقي وجند جلّيقية لم تظهر على حقيقتها امام هاشم ابن عبد العزيز بقصد خديعته .

ويبدو ان قائد حصن شنت ملوط Monsalud هو الذي لاحظ قلّة قوّات الثوّار فكتب بذلك الى هاشم الذي أراد ان ينتهز الفرصة ويفاجيء العدوّ ، فأمر جنده باقتحام الأراضي الوعرة التي كانت تفصله عن خصومه ، فأحيط

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٠٧ .

(٢) ذكر عدد من المؤرخين ان الجيش كان بقيادة المنذر بن محمد وهاشم بن عبد العزيز . وليس ذلك منطقياً لان هاشماً وقع في الأسر بينما لم يأت ذكر المنذر بعد المعركة ابداً ، ولو كان معه فعلا لربما قاسمه نفس المصير او لتحدثت الروايات عن مصيره على الأقل ، وهذا ما لم يحدث مما يؤكد ان الجيش كان بقيادة هاشم لوحده وهذا ما يؤكده مؤرخون ثقة مثل ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣١ وابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ٢١ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٢ .

(٤) اخبار مجموعة ص ٧٤ .

(٥) اخبار مجموعة ص ٧٤ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٣ .

به من كلّ مكان ، خاصةً وان المكان مليء با لممرّات الضيقة ، فنشبت معركة عنيفة دارت الدائرة فيها على هاشم وجيوش قرطبة فجرح وأسر وقتل عدد كبير من جنده بينهم خمسون[1] من أشراف العرب والموالي .

يذكر ابن الخطيب في وصف المعركة : « ان هاشماً أفحص وجاوز الوعر وابعد عن العسكر ، فأخذت المضائق عليه ، وناشبوه القتال ، فأخذته جراح وقتل من أصحابه جماعة وأسر هاشم المذكور »[2] . كما يذكر صاحب تاريخ الافتتاح « ان هاشماً خرج لمحاربتهما (اي ابن مروان والسرنباقي) فلما اقترب الجيش منهما ، تقحّم عليهما هاشم الوعر فهزماه فيه وأسراه ، ثم رفعاه الى الفونش فافتُدي منه »[3] .

هذا وقد أُرسل الأسير الكبير الى الملك الفونسو في جليقية حيث فرض فدية مائة الف دينار لإطلاقه ، ولكنّ الفدية لم تدفع الا بعد حوالي عامين ، وحينذاك أطلق سراحه فعلاً . واعتبر إقدام الأمير محمد على افتداء قائده بذلك المبلغ الكبير لفتةً كريمة منه وعطفاً عليه على الرغم من انه عندما أعلم بخبر أسره قال : « هذا امر جناه على نفسه بطيشه وعجلته »[4] ولكن ذلك لم يمنعه من ان يضحّي بالمال لاسترداد رجلٍ عَمَلَ في خدمته وأخلص له .

هذا وقد عهد الأمير محمد اثناء وجود هاشم في الأسر ، الى ابنه بمناصبه ، تعويضاً للعائلة عن النكبة الموقتة التي أُصيبت بها « وفي عام ٢٦٤ تم اطلاقه ، بعد ان كان الأمير محمد أقعد ابنه عوضاً عنه بمرتبة الوزارة في حال الصغر ، وحفظ عليه جاهه ونعمه ، الى ان قرّت بذلك عينه عند خلاصة نكبة أسره »[5] .

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٠٨ .

(٢) ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ٢١ . وقد اورد النص ذاته ، ابن عذاري في البيان المغرب جـ ٢ ص ١٥٤ .

(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٠٨ .

(٤) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢١ ، اخبار مجموعة ص ٧٤ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٥٤ .

(٥) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢١ .

فأجابه ابن مروان : « مذهبي ان يباحَ لي « البشرنل »[1] وكانت هذه تقابل « بطليوس » Badajoz » وبينهما النهر .

فأجيب الى طلبه وسمح له بان يبني في تلك المنطقة ما شاء فصفت طاعته موقتاً على الأقل لان هاشماً ما لبث ان فكر بأخذ الثأر منه قائلاً للأمير محمد : « انما كان تعاصي امر مروان علينا . بانه كان هو واصحابه على ظهور خيولهم ، ينتقلون من موضع الى موضع . وقد صار الساعة في مدينة ودور وقصور وبساتين محيطة بها ، فنخرج اليه . فانني ارجو ان يظفر الله به . ويخرج معي الولد عبـد الله ، فقد كان لابن مروان اليه انحراف عند كونه بقرطبة »[2] .

ونحن نفهم من هذا النص ان هاشماً صار يأمل بان يكون الاستقرار قد أضعف من عزيمة ابن مروان وانه رغب في ان يرافقه في حملته الجديدة عبد الله ابن الأمير محمد . وهكذا كان فعلاً إذ بدأت الاستعدادات لقيام الحملة او انها قامت وسارت في طريقها نحوه ... فلما علم بالأمر كتب الى الى الأمير محمد يقول : « بلغني ان هاشماً خرج الى جهة الغرب ، ولستُ أشك انه قد اطمعه في اخذ الثأر مني . كوني في حصن مغلق ، وبالله لئن جاز ليلة الي ، لأضرمن بطليوس بالنار ، ثم أعود الى حالي الأول معك » . فلما قرأ محمد كتابه امر بغض النظر عن الحملة ، فدام ذلك الصلح حتى نهاية عهد الأمير .

واما حليفه سعدون السرنباقي ، فلم تعد الرواية تتحدث عنه حتى وقع أسيراً فيما بعد وفي عهد الأمير محمد نفسه ، بيد النورمانديين الذين أغاروا على الأندلس ، ثم ما لبث ان أطلق سراحه وعاد يعيث فساداً في جهات

(١) هناك خلاف حول تحقيق هذا الاسم فبينما قرأه كل من دوزي Dozy وفانيان Fagnan من بعده Achirguerra او « Acherghira قرأه ليفي بروفنسال Esparragosa وهو يقع في مقاطعة بطليوس .

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٠٨ — ١٠٩ .

فأجابه ابن مروان : « مذهبي ان يباحَ لي « البشرنل »[1] وكانت هذه تقابل « بطليوس » Badajoz » وبينهما النهر .

فأجيب الى طلبه وسمح له بان يبني في تلك المنطقة ما شاء فصفت طاعته موقّتاً على الأقلّ لان هاشماً ما لبث ان فكّر بأخذ الثأر منه قائلاً للأمير محمد : « انما كان تعاصي امر مروان علينا . بانه كان هو واصحابه على ظهور خيولهم ، ينتقلون من موضع الى موضع . وقد صار الساعة في مدينة ودور وقصور وبساتين محيطة بها ، فنخرج اليه . فانّي ارجو ان يظفر الله به ، ويخرج معي الولد عبـــد الله ، فقد كان لابن مروان اليه انحراف عند كونه بقرطبة »[2] .

ونحن نفهم من هذا النصّ ان هاشماً صار يأمل بان يكون الاستقرار قد أضعف من عزيمة ابن مروان وانه رغب في ان يرافقه في حملته الجديدة عبد الله ابن الأمير محمد . وهكذا كان فعلاً إذ بدأت الاستعدادات لقيام الحملة او انها قامت وسارت في طريقها نحوه ... فلما علم بالأمر كتب الى الى الأمير محمد يقول : « بلغني ان هاشماً خرج الى جهة الغرب ، ولستُ أشكّ انه قد اطمعه في اخذ الثأر منّي . كوني في حصن مغلق ، وبالله لئن جاز ليلة اليّ ، لأضرمنّ بطليوس بالنار ، ثم أعود الى حالي الأول معك » . فلما قرأ محمد كتابه امر بغضّ النظر عن الحملة ، فدام ذلك الصلح حتى نهاية عهد الأمير .

واما حليفه سعدون السرنباقي ، فلم تعد الرواية تتحدث عنه حتى وقع أسيراً فيما بعد وفي عهد الأمير محمد نفسه ، بيد النورمانديين الذين أغاروا على الأندلس ، ثم ما لبث ان أطلق سراحه وعاد يعيث فساداً في جهات

---

(١) هناك خلاف حول تحقيق هذا الاسم فبينا قرأه كل من دوزي Dozy وفانيان Fagnan من بعده Achirguerra او « Acherghira قرأه ليفي بروفنسال Esparragosa وهو يقع في مقاطعة بطليوس .

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٠٨ — ١٠٩ .

« شنترين Santarén » وقلنبره Coimbra » الى ان قبض عليه ملك جليقية الفونسو وأمر باعدامه .

ثورة بني لبّ في سرقسطة :

بدأت الثورة في سرقسطة عام ٢٥٨ هـ (٨٧٢ م) باتفاق ثلاثة من الرجال على إعلانها هناك وهم الاخوان اسماعيل ومطرّف ابنا لبّ بن محمد ومعهما يونس بن زنباط (١) . وقد غدر هؤلاء الثلاثة بعبد الوهاب بن مغيث عامل تطيلة Tudela وابنه محمد عامل سرقسطة ، فقبضوا عليهما وفرضوا سلطتهم على المدينتين .

ويبدو ان الأمير محمد لم يهتمّ كثيراً بهذه الثورة في بادىء الامر اذ نرى ان اول ردّ فعلٍ له على تلك الثورة كان بعد حوالي عامين اي في ٢٦٠ هـ (٨٧٤ م) حين ارسل ابنه المنذر والقائد هاشم بن عبد العزيز الى سرقسطة لاحتلالها ففُرض عليها الحصار وانتُهبت زروعها وأتلفت ثمارها واشجارها ولكن دون نتيجةٍ حاسمة لأنّ فتحَ المدينة ظلّ مستعصياً .

وبعد سنتين اخريتين اي في عام ٢٦٢ هـ (٨٧٦ م) عاد المنذر الى حصار سرقسطة واتلاف زروعها ثم تقدم منها الى مدينة تطيلة التي كان بنو موسى قد استولوا عليها ، فانتسفها وجعل جنده يجوسون أنحاءها (٢) .

وتكرّرت الحملات على سرقسطة بعد ذلك ببضع سنوات ، اذ توجه المنذر بن الأمير محمد وهاشم بن عبد العزيز لقتال الثائرين فيها فحاصرها الجند وعاثوا في نواحيها وافتتحوا حصن روطة واخذ منه عبد الواحد الروطي (٣) ، ثم تقدموا الى دير بروجه وفيه محمد بن لبّ بن موسى ، ثم قصدوا مدينة

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٥١ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣١ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٤ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٥٦ . ويقول النويري عن الروطي هذا «عمانه كان من أشجع أهل زمانه » .

لاردة وقرطاجنة ومن هناك تابعوا طريقهم الى جليقية لمنازلة جيوشها[1] .

وينفرد صاحب البيان المغرب بذكران العلاقات بين المنذر وبني هاشم ابن عبد العزيز قد بدأت تفسد في تلك الحملة [2] . وسنرى بان المنذر عندما يبلغ منصب الإمارة سيكون اول ما يفعله هو الأمر بعزل هاشم ومصادرة ممتلكاته مع أفراد عائلته .

واخيراً فقد كانت آخر الحملات نحو سرقسطة في عام ٢٧١ هـ (٨٨٥ م) إذ سار هاشم بن عبد العزيز على رأس الصائفة اليها فحاصرها ولما اوشك على فتحها طلب زعماء الثورة فيها النزول على حكمه والتفاوض معه فحصلت المفاوضات :

أقرّ الأمير نتيجةً لها ابن لبّ على سرقسطة وتطيله وطرسونة فأحسن هذا حكمها وقويت شوكته وخاض بعض المعارك ضدّ الفونسو ملك جلّيقية الذي حاول في بعض حملاته احتلال طرسونة فنهض اليه ابن لبّ وقاتله وتمكّن من ردّه على عقبيه منهزماً وقتل من جنده نحواً من ثلاثة آلاف[3] .

ولكن اذا دام انصياع ابن لبّ في سرقسطة لسلطة الأمير محمد ما دام هذا حيّاً فانه قد نقض ذلك الصلح بعد وفاته وخاصة بعد تولّي الأمير عبد الله الحُكم ، وهذا ما سنبحثه في حينه .

ثورات أخرى متفرقة :

وقد ظهر في عهد الأمير محمد عدد من الثورات الأخرى منها ثورة اسد ابن الحارث بن بزيغ بتاكرنا من اقليم « رنده Ronda » وذلك في عام ٢٦١ هـ (٨٧٥ م) فوجّه الأمير محمد اليه الجيوش فحاصرته وقاتلته حتى عاد الى الطاعة[3] .

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٣٢ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٥٦ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٥٧ .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٣١ .

ومنها ثورة سليمان بن عبدوس في مدينة « سُمْريه » عام ٢٥٥ هـ (٨٦٩م) فاسرع الأمير محمد بارسال الصائفة اليه فأحدقت الجيوش بمدينته ورمتها بالمجانيق حتى هدمت بعض اجزاء من اسوارها فقام السكان على سليمان بن عبدوس وأجبروه على طلب الطاعة والنزول على حكم الأمير الذي قاده معه الى قرطبة وأجبره على عدم مغادرتها[١] .

ومنها ثورة عمرو بن عمروس عامل وشقة Huesca الذي ثار فيها عام ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) ، فأخرج اليه الأمير جيشاً لم يستطع ان يقضي نهائياً على ثورته طالما ان عودته الى الطاعة قد حدثت بعد ذلك بثلاث سنوات اي في عام ٢٥٩ هـ (٨٧٣ م) وبعد ان رضي الأمير محمد بابقائه ممثلاً للسلطة في مدينة وشقة [٢] .

ومنها ثورة يحيى المعروف بالجزيري التي أعلنها في الجزيرة الخضراء عام ٢٦٥ هـ (٨٧٩ م) فسار اليه هاشم بن عبد العزيز وأخضعه وقاده معه الى قرطبة [٣] .

ومنها ثورة بني رفاعة في ريّه عام ٢٦٩ هـ (٨٨٣ م) التي سارت جيوش قرطبة لإخمادها في ذلك العام ولكنها لم تستطع القضاء عليها الا في العام التالي ٢٧٠ هـ (٨٨٤ م) « اذاستتمّ محمد بن شهيد استنزال بني رفاعة »[٤] .

ومنها ثورة مظفّر بن موسى بن ذي النون الهواري في شنتبريةSantaver الذي أغار على طليطلة فخرج اليه عشرون الفاً من أهلها فهزمهم بما فيهم مطرّف ابن عبد الرحمن على الرغم من انه كان « فرداً في الشجاعة »[٥] .

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٥٠ .
(٢) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٥٦ .
(٣) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٥٥ .
(٤) نفس المصدر السابق ص ١٥٧ .
(٥) يذكر صاحب تاريخ افتتاح الاندلس حول احداث هذه الثورة « ان بني السليم الساكنين بشذونة عندما اتاهم خبر وفاة عبدالرحمن بن الحكم ثملوا على شراب ونهضوا الى العامل وهجموا عليه في =

وقد خاض الثائر مظفّر الذي نحن في صـــدد الحديث عنه معركة ضدّ « شانجه Sancho » ملك بنبلونة فهزم امامه وتمكن شانجه من اسره ولكنه فرّ من الأسر ورجع الى شنت بريه Santaver . فلم يزل على الطاعة فيها حتى وفاته قبيل الأمير محمد .

ومنها ثورة بني السليم بشذونة في مطلع حكم الامير محمد الذين انتهى الأمر باخضاعهم وسوقهم الى قرطبـــة حيث سجنوا فيها عشرون عاماً ومع ذلك فقد هربوا بعد ذلك من السجن الى ان قبض عليهم ثانية وامر الأمير محمد بضرب أعناقهم .

ومنها ثورة عبيد الله بن عبد العزيز شقيق هاشم بن عبد العزيز الذي أرسل محمد بن أمية بن شهيد لقتاله فتمكن من القبض عليه ونفذ أمر الأمير بضرب رقبته مع من أسر معه فاعتذر محمد بن أمية من ذلك تحرّجاً من زميله القائد هاشم أخي الثائر فأرسل الأمير محمد احد الفتيان « ايدون » فضرب رقبته وأتى برأسه فرفع امام باب القصر .

وكان هاشم يقاتل على حدود العدوّ آنذاك فلما أبلغه الناس الخبر قال : لم استحقّ عنده مع استبلاغي في نصيحته وما أتولاّه ، ان يغفرَ لي ذنبَ أخي ، والله لا نصحتُه أبداً . وعلم الأمير بذلك فلم يعره أهمية لأنه كان يعلم انه موتور لقتل أخيه [1] .

دار الأمانة ، وأخذوا قطيعاً من الجباية ، ووقع الخبر على شيوخهم اهل العقل فيهم ، فتصدوهم وانتزعوا المال منهم وصرفوه الى العامل .

واتصل الخبر بالامير محمد فوجه من اتى بهم ، فصاروا في حبسه نحو العشرين سنة ، فلما طال بهم الحبس ، استألفوا اهل الحبس وحرقوه ليلا ، وخرج في آثارهم فلحقوا في بعض قرى القنبانية Campiña ، وكان الآخذ لهم محمد بن نصر ، صاحب الحشم حتى لحق بهم هاشم ، فجعل السيف على جميعهم ، حاشى بني السليم ، فلما اتى بهم الى باب السدة أمر الأمير محمد بضرب رقابهم . (ص ١١٥ — ١١٦) .

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١١٦ .

بدء ثورة عمر بن حفصون :

كان عمر بن حفصون من المولّدين الذين دخل أسلافهم الإسلام وعاشوا في ظلّ الدولة العربية في الأندلس . وكان عمر على قسط كبير من الطموح دون ان يستطيع ابوه حفص او حفصون الذي كان فلاحاً بسيطاً ان يرضي طموحه من الناحيتين المادية او المعنوية .

وحدث ان تشاجر في مطلع حياته مع شخصٍ من جيرانه فقتله مما دعا اباه الى ان يتبرّأ منه ، ففرّ عمر الى مكان آخر ينزوي فيه خوفاً من العقوبة . ثم تعرّف على بعض الشباب الطائشين الذّين ساعدوه في بعض أعمال السطو وانتهى به الأمر الى عامل ريّه Reyyo قبض عليه بسبب تلك الأعمال دون ان يعلم شيئاً عن الجريمة السابقة التي كان قد ارتكبها فاكتفى بضربه بالسياط .

ولاح الجوّ في الأندلس قاتماً بالنسبة لابن حفصون فقرّر ان يتوجه الى شمال افريقية ونفّذ فكرته فعلاً واستقرّ لبعض الزمن في مدينة تاهرت ووجد عملاً عند رجلٍ من الخيّاطين كان اصله اندلسياً من مدينة ريه نفسها .

ويروي لنا صاحب تاريخ افتتاح الأندلس ان شيخاً مرّ بذلك الخيّاط ومعه قطعة قماش يريد ان يخيطها ثوباً لنفسه ، فشاهد ابن حفصون وعرف انه سيكون له شأن وقال له : « تحارب الفقر بالإبرة ، ارجع الى بلدك فأنت صاحب بني أمية ، وسيلقون منك غيّاً ، وستملك ملكاً عظيماً [1] .. » فقام من فوره وعاد الى الأندلس .

وليس من المقبول بطبيعة الحال افتراض ذلك الشيخ عالماً بالغيب ولكن هذه الأمور لها في بعض الأحيان تأثير نفسي ربما جعل شاباً طموحاً كعمر بن حفصون يقرّر السير في طريق معيّنة .

ولما كان ابوه يعامله بشدّة فقد فضّل بعد عودته الى الاندلس ألا يتصل

---

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٠٩ — ١١٠ .

به بل بعمٍ له كان يعيش في منطقة مجاورة . وقد استعان بعمه لجمع اربعين رجلاً يعلن على رأسهم الثورة في جبل « بُبَشْتَر Bobastro » وكان ذلك في عام ٢٦٧ ﻫ (٨٨١ م) وهي السنة التي يبدأ فيها المؤرّخون العرب[1] بالحديث عن ثورة ابن حفصون .

وقد تمكن من السيطرة على ذلك الجبل وذاع صيته في تلك الأنحاء حتى انّ ثائرين آخرين قاما في منطقتين قريبتين يعلنان الثورة على حكومة قرطبة تأييداً لابن حفصون احدهما يدعى لب بن منذريل والآخر ابن ابي الشعرا[2] .

وقد حاول عامل ريّه عامر بن عامر ان يخمدَ ثورة ابن حفصون ولكن قواته هزمت في المعركة واستولى ابن حفصون على مضربه فكان اول رواقٍ ضربه لنفسه . فرفع ذلك من شأنه واتاه الكثيرون من انصار الشرّ والفسادٌ فاجتمعوا اليه وأيّدوه .

وقد عمد الأمير محمد الى عزل العامل عامر بن عامر عن كورة رية على اثر هزيمته وعيّن مكانه عبد العزيز بن عبّاس فهادنه ابن حفصون وسكنت الحال بينهما[3] ولكن عندما عزل عبد العزيز عاد ابن حفصون الى التحرك والثورة فرأى الأمير محمد ان الأمر قد استفحل فقرّر في عام ٢٧٠ ﻫ (٨٨٣ م ان يسيّر اليه جيشاً بقيادة قائده المفضّل هاشم بن عبد العزيز الذي سار اول الأمر الى اخضاع الثائرين اللذين أعلنا تأييدهما لابن حفصون فقبض عليهما ثم سار لحصار ابن حفصون في ببشتر ونجح في جعله يطلب الصلح والأمان فأعطي له ذلك الصلح واستنزل من حصنه وعاد الجميع برفقة هاشم الى قرطبة حيث اعطي ابن حفصون دار للسكن وأُجريت عليه الأرزاق[4] .

---

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٥٦ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٢ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٥ .

(٢) أورد الاسمين بهذا الشكل صاحب تاريخ افتتاح الاندلس ص ١١٠ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٥ .

(٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ١١٠ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٧ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٥٦ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص١٣٢

وفي العام التالي اي ٢٧١ هـ (٨٨٤ م) عندما قرّر القائد هاشم قيادة صائفة إلى الأراضي الجلّيقية كما كانت العادة في أغلب السنوات ، رافقه عمر بن حفصون واشترك معه في حصار مدينة بنبلونة ، فدارت حرب عظيمة أبلى فيها ابن حفصون بلاءً حسناً . ويبدو ان البعضَ أعجب به فعاد يتوقّع له مستقبلاً عظيماً اذ قال له بعضهم : « ارجع الى حصنك الذي نزلتَ منه، فليس ينزلك منه الا الموت . وستملك من الأندلس قطيعاً عظيماً ، وستحارب قرطبة على ابوابها »[1] .

فاذا اضفنا الى هذه التحريضات بعض المآخذ التي كان يأخذها ابن حفصون في قرطبة على بعض رجالات العرب من حيث استعلائهم عليه ، فهمنا لماذا بدأ يفكر بالهرب ، او بالأحرى لماذا فرّ عن قرطبة وعاد الى مركز ثورته ليعلنها من جديد ، مصمّماً على المقاومة حتى النهاية ، قبل ان يعودَ شخصاً عاديّاً الى قرطبة .

هذا وكان هاشم قد أمر عند استنزاله لابن حفصون من ببشتر ان تبنى دار كبيرة في أعلى الجبل أسكن فيها عامل تلك المنطقة « التجوبي » فتوجّه ابن حفصون مع بعض أتباعه اليها فطرد التجوبي واستصفى جاريته لنفسه وولدت له فيما بعد ولده المكنّى بأبي سليمان ، واشتدّ أمره واخذ يستفحل حتى ملك ما بين الجزيرة الخضراء وتُدمير فكان على الدولة ان تعودَ الى حربه بالسرعة الممكنة .

وقد انتدب في هذه المرة لقتاله المنذر بن الأمير محمد فتوجّه اليه في عام ٢٧٣ هـ (٨٨٦ م) وفرض عليه حصاراً شديداً دام مدةً من الزمن وكان يمكن ان يثمرَ لولا ان توفي أبوه الأمير محمد في ذلك الوقت اي في ٢٨ صفر من ذلك العام (٤ أغسطس « آب » ٢٧٣م) فرأى من الحكمة ان يرفعَ الحصار ويعودَ الى قرطبة خاصةً وان مسؤوليات السلطة ستقع على عاتقه بعد وفاة أبيه .

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ١١١ .

وبذلك توفي اول امير من الأمراء الذين عاصروا ثورة ابن حفصون دون ان يستطيعوا إخمادها نهائياً ولن يتمكن من ذلك كما قلنا سوى الخليفة العظيم « الناصر » .

الغزو النورماندي في زمن الأمير محمد :

عاد النورمانديون الى غزو الأندلس ثانية في عهد الأمير محمد وفي عام ٢٤٥ ﻫ (٨٥٩ م) كما يجمع على ذلك المؤرّخون العرب[١] ، بعد ان كانوا قد غزوها للمرة الأولى – كما سبق ان رأينا – في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني .

وكان عدد مراكب اولئك القراصنة الاسكنديناقيين اثنين وستين مركباً هاجموا فيها بادىء ذي بدء شواطىء جلّيقية ثم انحدروا نحو الجنوب نحو شواطىء الأندلس الإسلامية .

هذا وكان الأسطول العربي قد أصبح مستعدّاً بعد هجومهم في المرة الأولى للالتقاء بهم وخوض معركةٍ معهم وكانت سفن الأسطول العربي تقوم بحراسة الشواطىء « وجد المجوس البحر محروساً ومراكب المسلمين معدّة ، تجري من حائط افرنجة الى حائط جلّيقية في الغرب الأقصى »[٢] حتى اذا بدت طلائع مراكب النورمانديين امام الشاطىء الأندلسي هاجمتها المراكب العربية وتمكنت من اسر اثنين منها للوهلة الأولى ، فاستولى البحّارة العرب على ما كان فيها من المتاع والمال .

اما بقية المراكب التي كانت قد وصلت الى مصبّ نهر الوادي الكبير الذي يوصل الى اشبيلية فانها لم تجرؤ على دخول مجرى النهر حساباً لما ستلقاه من مقاومة الأسطول العربي ، علماً بأن بعض الروايات التاريخية العربية تذكر انهم وصلوا اشبيلية دون ان تعطي اية تفاصيل مما يدلّ على انّهم ظلّوا بعيدين في

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٠ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٥٣ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٥ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٥ .

هذ المرة عن تلك المدينة وفضّلوا ان ينحدروا جنوباً نحو الجزيرة الخضراء Algeciras حيث هاجموا واحرقوا جامعها[١] .

والدليل على عدم وصولهم الى اشبيلية ما يذكره صاحب البيان المغرب من انهم « عندما وصلوا الى مصب نهر اشبيلية في البحر ، اخرج الأمير الجيوش ونفـّر الناس من كلّ أوب .. فتقدمت من مصبّ نهر اشبيلية حتّى حلـّت بالجزيرة الخضراء »[٢] .

بعد الجزيرة الخضراء توجّهت مراكب النورمانديين او المجوس كما تسمّيهم الرواية العربية الى شمال افريقية حيث هاجموا الشاطىء المراكشي ثم عادوا بعد ذلك الى الشواطىء الأندلسية فهاجموا ساحل مرسية Murcia وقاموا بغارة برّية وصلت بهم الى حصن اوريولة Orihuela .

لكن هذه الغارات لم تكن سهلة بالنسبة اليهم ، او لم تظلّ بدون عقاب بدليل انهم فقدوا من مراكبهم حوالي اربعين مركباً[٣] قبل ان يغادروا الشواطىء الاندلسية مما يدلّ على انّ معارك بحرية قد وقعت اولاً وانهم هوجموا من قبل القوات البرية ثانياً دون ان يكون لدينا تفاصيل عن تلك المعارك .

وبعد ان غادروا الشواطىء الأندلسية صعدوا نحو سواحل جليقية وخاصة العاصمة بنبلونة Pamplona فتصدّى ملكهـــا غرسيه Garcia وجيوشه لمقاومتهم ولكنهم تمكنوا من أسره وساقوه إلى مراكبهم ولم يتركوه إلا مقابل فدية دفعت لإطلاق سراحه مقدارها سبعين الف ديناراً[٤] .

---

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٥٤ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣١ ، ابن عذاري البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٥ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٥ .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) ذكر هذا الرقم : ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٣٠ وابن حيان في المقتبس عن مجلة الاندلس عدد عام ١٩٥٤ ص ٣٠٨ ، بينما ذكر النويري انه كان تسعين الفاً . وأعتقد ان الخلاف ناتج عن كيفية قراءة المخطوطة فقط .

بعد ذلك تابعت مراكب القراصنة طريقها الى السواحل الفرنسية حيث أغارت عليها فاجتاحت مدينة آرل Arles ونيمس Nimes وغيرهما ... بل وصلت غاراتها آنذاك الى الشواطىء الايطالية .

وسنرى بأن هذا الهجوم النورماندي على الاندلس سيكون آخر هجوم تتحدث عنه الروايات التاريخية العربية قبل ان يمضي مائة عام على ذلك ، فلا تعود مراكبهم الى الظهور الا في عهد الخليفة الحكم الثاني الأندلسي كما سنرى ذلك في حينه .

غزوات الأمير محمد بن عبدالرحمن :

شغلت العمليات الحربية جزءاً هاماً من وقت الأمير محمد على الرغم من قيام عدد من الثورات في عهده ، وذلك لاعتقاده بان الجهاد ضرورة وواجب ولانه رأى ان الدويلات الاسبانية التي تشكلت في شمال شبه الجزيرة أخذ عددها يزداد وقوتها تطرد وأنها أخذت تتوسع شيئاً فشيئاً على حساب الدولة العربية ، فحاول ان يضع حداً لذلك التوسع والانسياح نحو الجنوب ، ومن هنا اتى قيامه بذلك العدد الكبير من الغزوات نحو الشمال ، ومن هنا ايضاً أتت أهمية العمليات العسكرية في عهده .

بدأ نشاط الأمير محمد العسكري في السنة الأولى من حكمه على ما يذكر المؤرخون اي عام ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) حين بعث جيشاً بقيادة موسى بن موسى صاحب تطيلة Tudela ، فعاث في نواحي ألبه والقلاع Alava وفتح بعض حصونها ورجع . كما وجه جيشاً آخر الى ناحية برشلونه وما وراءها فهاجم تلك الانحاء وفتح بعض الحصون التي كان منها حصن « طراحه[1] Tarrega » . ولا بد ان المسلمين قد غنموا الكثير من ذلك الحصن لان خمسه

---

(١) هكذا أورد ابن عذاري في البيان المغرب جـ ٢ ص ١٤٤ اسم هذا الحصن الذي حققه ليفي بروفنسال في كتابه « تاريخ اسبانيا الاسلامية » جـ ٤ ص ٢٠٤ ، بانه Tarrega وانه يبعد خمسين كيلومتراً شرقي مدينة لاردة Lérida .

استعمل في توسيع المسجد الجامع بسرقسطة الذي كان قد أسّسه ونصب محرابه احد التابعين وهو حنش الصنعاني[1] .

وبعد ذلك بعامين اي في ٢٤٠ ﻫ (٨٥٤ م) رأينا في اثناء حديثنا عن ثورة طليطلة كيف ان الامير محمد تمكن من الانتصار على جيوش ملك جلّيقية اوردونيو الاول Ordoño I التي كانت قد هرعت لنجدة الثائرين من أهل طليطلة وذلك في معركة وادي سليط الذي ذهب ضحيتها عشرون الفاً من الأعداء كان ثمانية آلاف منهم من الجلالقة .

وفي العام التالي اي ٢٤١ ﻫ (٨٥٥ م) قاد الأمير محمد الصائفة وكان قد كتب الى موسى بن موسى وأهل الثغور بان يتوافوا اليه مع جندهم للدخول معه الى منطقة البه والقلاع في جلّيقية . فساروا اليه ودخل معهم أرض الجلالقة فبلغ أقصى تلك المنطقة وانتسف ما امامه وفتح كثيراً من الحصون[2] .

ثم مضت خمس سنوات بعد ذلك قبل ان يستأنفَ الأمير محمد عمليات الغزو وذلك لسببين أولاً انّ بعضَ قادته المرابطين في الثغور اي على حدود العدوّ كانوا يقومون أحياناً بمهمة الغزو نيابةً عنه وثانياً لأنّه شُغل في تلك الفترة بالغزو النورماندي الذي سبق ان تحدّثنا عنه في حينه .

حتى اذا كان عام ٢٤٦ ﻫ (٨٦٠ م) وجّه الأمير احد قادته على رأس جيشٍ كبير لغزو بنبلونه عاصمة نافارا Navarra وصاحبها يومئذٍ غرسيه ابن ونقه[3] Garcia Iñiguez الذي كان متضافراً آنــذاك مع اوردونيو

---

(١) ذكر ابن عذاري في البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٤ ان هذه الأحداث قد وقعت عام ٢٤٢ ﻫ واتبعه في ذلك المؤرخ ليفي بروفنسال ، بيد أنني أفضل الأخذ بما أورده المؤرخان : ابن خلدون في العبر ج ٤ ص ١٣٠ والمقري : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٨ من ان هذه الأحداث قد وقعت في التاريخ الذي أوردته وهو عام ٢٣٨ ﻫ ، خاصة وأن ليفي بروفنسال نفسه يذكر أن مؤرخاً لاتينياً قد ذكر ايضاً بأن تلك الأحداث قد وقعت قبل ذلك بأربع سنوات اي عام ٢٣٨ ﻫ .

(٢) انفرد بذكر هذه الغزوة ابن حيان في المقتبس عن مجلة الاندلس عام ١٩٥٤ ص ٣٠٨ .

(٣) المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٨ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٦ .

صاحب جلّيقية . فخرج ذلك القائد خروجاً فريداً من نوعه لكثرة جمعه وكمال عدّته وظهور هيبته[١] فعاث في نواحي بنبلونه وأقام في تلك المنطقة اكثر من شهر (اثنين وثلاثين يوماً) ينتسف ما أمامه ويفتح المدن والحصون في تلك المنطقة اكثر من شهر (اثنين وثلاثين يوماً) ينتسف ما أمامه ويفتح المدن والحصون التي يعدّد بعض المؤرّخين العرب عدداً منها .

وكان من أهمّ ما حدث في تلك الحملة ان وقع فرتون **Fortùn** ابن الملك غرسية أسيراً بيد المسلمين فحملوه معهم الى قرطبة حيث أودع السجن وبقي فيه عشرين سنة[٢] قبل ان يصدرَ الأمير محمد تعليماته بالإفراج عنه وردّه الى بلده . ويلقّبه المؤرّخون العرب « بالانقر[٣] » لانه كان قد فقد احدى عينيه ، كما يذكرون عنه بانه قد عمر مائة وستاً وعشرين عاماً .

في السنة التالية اي ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) يذكر المؤرّخ الرازي[٤] ان القائد محمد بن السليم غزا أرض الحرب دون ان يوضّح المكان الذي قصده ولو ان النويري[٥] كان أوضحَ منه في ذلك اذ يذكر ان الجيش اتجه الى برشلونة من ممتلكات الفرنجة . وكان موسى بن موسى قد كتب الى الأمير محمد يذكر ما ناله وجماعته من التعب والنصب في قتال العدوّ ويطلب ان يكون دخول الجند من غير منطقته ، فأجيب الى طلبه واتبع الجيش الإسلامي طريقاً آخر .

وعندما وصل العرب الى منطقة برشلونة ارسل اهلها يطلبون المدد من ملك الفرنجة فأرسل اليهم جيشاً كثيفاً ورأى المسلمون أنفسهم مضطرين لان يطلبوا المدد بدورهم فأتاهم فعلاً ونازلوا برشلونة وقاتلوا المدافعين عنها قتالاً شديداً فملكوا أرباضها وبرجين من أبراجها وقتل من الفرنجة عدد

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٤٦ .

(٢) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٨ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٤٦ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٤٦ .

(٤) الرازي عن نفس المصدر السابق .

(٥) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٥٤ .

كبير وعاد الجيش الغازي مظفّراً غانماً .

ثم تأتي حملة عام ٢٤٩ هـ (٨٦٣م) التي وجّهت الى جلّيقية بقيادة عبد الرحمن ابن الأمير محمد يساعده القائد عبد الملك بن العبّاس ، والتي سبق ان ذكرنا شيئاً عنها في معرض حديثنا عن أعمال الأمير محمد والتي بيّنا في حينه عدد القوّات التي اشتركت فيها من كل مقاطعة او كورة ، تلك القوّات التي بلغ عددها بين ٢١ — ٢٢ الفاً من المقاتلين والتي ساهمت كورة شذونة باكبر قسط منها (٦٧٩٠ رجلاً)[1] . فقد توجهت تلك الحملة الى منطقة ألبه والقلاع كمعظم الحملات التي كانت تغير على جلّيقية نظراً لأنّ هذه المنطقة هي اقرب المناطق الى حدود الدولة العربية ، فاجتاحت المنطقة ودمرت ما أمامها وافتتحت عدداً من الحصون . ثم أخرج اوردونيو أخاه الى مضيق الفجّ ليحول دون المسلمين ويقاتلهم عنده ، فتقدم عبد الملك بن عبّاس الى المضيق واشتبك مع الجلالقة فمالت الكفّة معه دون ان يستسلم العدوّ على الرغم من النجدات الجديدة التي وصلت الى عبد الملك وانضمّت اليه في التحامه مع العدوّ .

ويعترف المؤرّخون العرب بأنّ الأعداء صبروا في تلك المعركة صبراً عظيماً[2] ولكنهم هزموا في النهاية وقتل منهم عدد كبير كما قتل من قوامسهم او من قادتهم تسعة عشر[3] مما يدلّ على عنف المعركة .

وننتقل بعد ذلك الى الحديث عن حملة عام ٢٥١ هـ (٨٦٥ م) التي تتحدث عنها معظم التواريخ العربية[4] وان كان اكثرها تفصيلاً حول

---

(١) يمكن الرجوع الى الأرقام المذكورة عن هذه الحملة في ص ٢٤٧

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٧ .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) انظر النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٥٥ والمقري : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٨ وابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ١١٥ وابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٧ وتحقيق بعض اسماء الاماكن التي قام بها ليفي بروفنسال في تاريخه ج ٤ ص ٢٠٦ .

احداث هذه الحملة هو صاحب البيان المغرب . فقد بعث الأمير محمد ابنه المنذر على رأس جيش وأوصاه بان يجتاح جلّيقية وذلك في شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة . فتقدّم المنذر حتى حلّ ناحية نهر دويرة Duero ثم توالى عليه الجند من كلّ ناحية فرتّبها ثم تقدم نحو فجّ برذيش Pradanos [1] وكانت عليه اربعة حصون ، فتغلّب الجند عليها وغنم المسلمون جميع ما فيها وخرّبوها ، ثم أخذ ينتقل من مكان الى مكان في جميع أنحاء البلاد حتى لم يبقّ للذريق صاحب القلاع ولا لقائده صاحب توقه ، ولا « لفنند شلب Conde de Silves » صاحب برجيه ، ولا « لقومسGomez » صاحب مسانقه ، حصن من حصونهم الا وعمّه الخراب .

ثم قصد « الملاّحة La Bureba » ، وكانت من اجمل اعمال لذريق ، فحطّم ما حولها وعفا آثارها ثم تقدم يريد متابعة السير فتصدّت له جيوش الأعداء عند الفجّ المعروف باسم « المركوين Malacuera » الذي كان لذريق قد عني بوضع العوائق فيه مدة طويلة من الزمن حتى « ارتفع جرفه وانقطع مسلكه » لمنع الجيوش الاندلسية من عبوره ، فحصل اللقاء عنده واشتدّ القتال حتى مال النصر الى جانب العرب واضطر جند جلّيقية الى تسلّق هضبة كانت بجانب الممرّ او الفجّ كما كانوا يسمّونه .

ثم نصب الأمير المنذر فسطاطه وامر الناس بضرب خيامهم فقامت المحلّة ، وبعد قسط من الراحة عاود القتال فتمّ النصر للجيش العربي وأعمل العدوّ الفرار حتّى اضطر جنوده الى خوض نهر « ابره Ebro » في أمكنة عميقة منه ، فغرق فيه عدد كبير وتمّ النصر لجند الأمير محمد . وذلك في الثاني عشر من شهر رجب عام ٢٥١ هـ (٩ اغسطس « آب » ٨٦٥ م) فكان عدد من قتل في تلك الوقعة من جنود الأعداء (٢٠٤٧٢) رجلاً [2] .

---

(١) حقق هذا الاسم بروفنسال في تاريخه جـ ٤ ص ٢٠٦ وقال انه يخالف Barrau Dihigo الذي حقق الاسم قبله على انه Briviesca لأن ذلك التحقيق لا ينسجم مع الاسم العربي لا صوتياً ولا كتابة .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٤٧ — ١٤٩ .

ويصف ابن خلدون ذلك النصر بقوله انه « كان فتحاً لا كفاء له »[1] بينما يصفه النويري بانه « كان فتحاً عظيماً »[2] . ولم يترك الامير محمد فرصة لاعدائه للاستراحة فأعاد الكرّة ضدّهم في العام التالي اي ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) بقيادة ابنه عبد الرحمن فغزا نفس المنطقة ألبه والقلاع « فحارب أهلها وأفسد زروعها وغادرها هشيماً . وكان أهل هذا الجانب في ضعفٍ ووهنٍ شديد ، منعهم من التجمّع والاحتشاد . ما نالهم في العام الفائت من النهب والقتل الذريع »[3] .

ومع ذلك فقد عاد الأمير الى غزو المنطقة في العام التالي اي ٢٥٣ هـ (٨٦٧ م) حيث قوّد ابنه الحكم هذه المرة على الجيش فضرب الحصار على حصن جرنيق Guernica وفتحه عنوةً فدخله المسلمون وغنموا ما فيه وتركوا حاميةً للدفاع عنه .

بعد هذه الحملة نرى بضع سنواتٍ تمرّ دون ان يقومَ الامير بالغزو وما ذلك حتماً إلا لانشغاله بثورة ابن مروان الجلّيقي وخروج موسى بن موسى ثم بعده ابنه لبّ عن الطاعة من حينٍ لآخر .

وكانت اول حملةٍ بعد فترة الانقطاع تلك ، في عام ٢٥٩ هـ (٨٧٣ م) إذ توجهت هذه المرة نحو بنبلونة عاصمة ناڤارا وليس نحو جلّيقية كمعظم الحملات . كما ان الحملة التي تلتها في عام ٢٦٠ هـ (٨٧٤ م) استهدفت بنبلونة ايضاً . فاذا تذكرنا بان الحملة الاولى ضدّ ناڤارا كانت في عام ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) ، نرى بانّ عدد الحملات التي وجهت الى بنبلونة عاصمة ناڤارا أصبحت ثلاثاً علماً بانه سيكون هنالك اخرى رابعة تقع احداثها في عام ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) فيقتصر بذلك عدد الحملات ضدّ هذه المنطقة على أربع

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٣١ .
(٢) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٥٥ .
(٣) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٤٩ .

طيلة عهد الأمير محمد بينما اتجهت الاخرى كلّها نحو جلّيقية وخاصة منطقة البه والقلاع القريبة ، كما سبق ان ذكرنا .

وليس في حملتي عامي ٢٥٩ و ٢٦٠ هـ (٨٧٣ و ٨٧٤ م) ضدّ ناڤارا اية احداث خارقة تستحقّ الوصف بل استهدفتا إضعاف قوة العدوّ وعدم السماح له ليجهّز نفسه ويستعدّ لشنّ هجومٍ على نطاقٍ واسع .

ثم خطر بعد ذلك للأمير محمد اتخاذ خطوةٍ جديدة في الحرب ضدّ اعدائه وخاصةً ضدّ جلّيقية وهي استعمال الاسطول البحري ضدّ شواطئها . وسرعان ما أصدر أوامره ببناء المزيد من المراكب في الموانيء الواقعة على نهر الوادي الكبير وخاصة قرطبة واشبيلية لتوجيهها ضدّ جلّيقية . فلما تمّ له ذلك وجّهها الى البحر المحيط وذلك في عام ٢٦٦ هـ (٨٧٩ م) لتسيرَ في مياهه وتهاجمَ الشواطىء الجلّيقية عند بلوغها . ولكن لسوء حظ تلك المراكب انّ العواصف قد داهمتها بقوة فحطمت عدداً كبيراً منها ولم تستطع ان تبلغ هدفها بل اضطر ما بقي منها للعودة الى قواعده دون ان يقومَ باية عملية حربية .

يقول النويري في هذا الصّدد : « لما دخلت البحر المحيط تقطّعت فلم يجتمع منها مركبان ولم يرجع منها الا اليسير »(١) ويقول ابن خلدون : « لما تمّ انشاؤها وجرت في البحر أصابتها الريح فتقطّعت » .(٢)

وكانت آخر غزوة تتحدث عنها الروايات العربية في عهد الأمير محمد هي غزوة عام ٢٦٨ هـ (٨٧١ م) نحو ألبة والقلاع ايضاً . وقد قاد الجيش في هذه المرّة المنذر ابن الأمير محمد والقائد هاشم بن عبد العزيز فافتتحا حصوناً كثيرة وتركوا حاميات في بعضها بينما تركوا البعض الآخر خالياً من الجند خوفاً من سقوطه مجدّداً بيد العدوّ ، نظراً لضعف امكانياته الدفاعية .

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٥٦ .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٣١ .

ومما يذكر عن هذه الحملة انّ العلاقات بين المنذر وبين هاشم بن عبد العزيز قد فسدت خلالها مما سيؤدّي في المستقبل وحين سيصبح المنذر أميراً للأندلس الى ان يبطشّ بقائد ابيه هاشم.

هذا ولا بدّ أخيراً ان نشير في هذا المجال الى انّه في عام ٢٧٠ هـ (٨٨١م) شرع اسماعيل بن موسى ببناء مدينة لاردة فجمع صاحب برشلونة جموعه وهاجمه لمنعه من ذلك فاشتبك اسماعيل معه وهزمه وقتل عدداً كبيراً من جنده. هذه المعركة وان لم تكن غزوة رسمية انما قاتل فيها اسماعيل باسم الأمير، فوجب التنويه عنها.

وبذلك نختتم هذه السلسلة الطويلة من غزوات الأمير محمد التي ساعدت دون شكّ على إيقاف تقدّم الجيوش الإسبانية نحو الجنوب لفترةٍ من الزمن على الأقلّ.

هذا وبعد أعوام ثلاثة من آخر غزوة قام بها الأمير محمد اي في عام ٢٧٣ هـ (٨٨٤ م) توفي بعد ان حكم فترة طويلة من الزمن قاربت اربعة وثلاثين عاماً. وكانت وفاته يوم الخميس لليلةٍ واحدة بقيت من شهر صفر وهو ابن خمس وستين سنة[1].

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٢.
(٢) ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ١٣٢.
(٣) النويري: نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٥٦.

الفصل السابع

إمارة المنذر بن محمد

هو المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ... يكنّى ابو الحكم وامه تسمى « أيل » . عرف عنه انه كان اسمراً ، طويلاً ، جعد الشعر ، كثّ اللحية ، بوجهه أثر للجدري ، خلف عدداً قليلاً نسبيّاً من الأولاد لأنّه لم يحكم سوى سنتين تقريباً ومات وهو في ريعان الشباب ومع ذلك فلم يحكم احد من اولاده بعده ، بل خلفه اخوه عبد الله كما سنرى .

خصّه المؤرّخون بالكثير من مديحهم وتنبّأوا له بمستقبل باهر وحكم سعيد فيما لو طال أمد إمارته فقالوا عنه انه « لو عاش عاماً واحداً زائداً ، لم يبقَ بين يديه ثائر في الأندلس »[1] .

وصف بانه من أهل العقل والسخاء والإكرام لاهل العلم والاصطناع لكلّ من اخذ بخطٍ من علم او ادب[2] . كما وصف بانه كان من الصلاح والفضل بمكانٍ كبير[3] . كما قيل عنه انه كان بعيد الهمة ، قويّ الشكيمة ، يكرم اخوانه ويحبّهم ، ويدني مجالسهم ، ويصلهم ويحضرهم مجالس أنسه .

---

(١) ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ٢٤ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٨١ .

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١١٨ .

(٣) نفس المصدر السابق ص ١١٩ .

وكان يجزل العطاء للشعراء وينشدونه غازياً وراجعاً . كما كان من اشهر شعرائه احمد بن عبد ربه . والعكّيّ وغيرها من شعراء العرب(١) .

هذا ولم يكن احد من الخلفاء في شجاعته وصرامته وحزمه وعزمه . ومن الأدلّة على ذلك ان موتَ ابيه لم يسقط في يده او يحرجه او يجعله عاجزاً عن اخذ المبادرة في التصرّف والحكم ، وانه ما ان اتاه خبر نعيه حتّى اسرع في طريقه الى ريّه . وكان في ذلك الوقت يحاصر حصن الحامة ويقاتل المرتدّ عمر بن حفصون ، فنظّم أمور تلك المدينة الإدارية ، ونظر في مشاكلها ، وولّى عليها سليمان بن عبد الملك بن أخطل يساعده عبد الرحمن بن حُرَيْش ، مدعّمَيْن بحاشيةٍ من رجالات العرب والحشم .

وعندما وصل الى قرطبة تمت له البيعة في نفس اليوم ففرّق العطاء في الجند وتحبّب الى أهل قرطبة والرعية بصورةٍ عامة بأن أسقط عنهم العشورَ في ذلك العام ، ونظر فيما يتفق مع مصلحتهم ، فكانت تلك بدايةً سليمةً لحكمه(٢) .

هذا وكان من أوائل أعماله انه عزل سليمان بن أسود البلّوطي عن القضاء وعيّن مكانه ابا معاوية عامر بن معاوية اللخمي ، وتمسّك بوزراء أبيه بصورةٍ عامة وأعاد تماماً بن علقمة ومحمداً بن جهور الى الوزارة .

وعلى الرغم من انّ العلاقات بينه وبين القائد او الوزير هاشم بن عبد العزيز كانت سيّئة منذ ان ترافقا في تلك الغزوة التي سبق لنا الحديث عنها في عهد الأمير محمد ، فان الأمير المنذر نوى ان يصفحَ عنه ، وولاّه الحجابة . ولكن أهل السوء أصرّوا على الإيقاع بين الرجلين مما ادّى الى نكبته مع افراد عائلته .

---

(١) ابن الخطيب : اعمال الأعلام او تاريخ اسبانيا الإسلامية ص ٢٣ .
(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٧١ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٤ .

نكبة بني هاشم :

لم تكن نكبة الوزراء او المتنفذين آمراً جديداً في تاريخ الأندلس فلقد اعتدنا ان نرى ذلك يتكرّر من قبل الخلفاء في المشرق الإسلامي وخاصةً زمن العباسيين إذ نكب الرشيد بالبرامكة ونكب المأمون بالفضل بن سهل ونكب الأمين بعد ذلك بالفضل بن الربيع ، وكانت نكبة بني هاشم على يد المنذر من جملة تلك النكبات التي كانت تحلّ بكبار رجال الدولة عندما يتفاقم نفوذهم ويعتقد الخلفاء انهم أصبحوا يشكّلون خطراً عليهم ، ينافسونهم في السلطان .

اما الأسباب التي دعت الأمير المنذر الى البطش بهاشم بن عبد العزيز وأفراد أسرته فهي وان كانت متعدّدة الا انها لم تثبت شيئاً من خيانته او خروجه عن الطاعة .

فمنذ ان ساءت العلاقات بين الرجلين في تلك الغزوة ، اتّهم المنذر القائد هاشم بانه يحاول ان يستبدّ بالامر لوحده دون الرجوع الى أحد وانه يعتدّ برأيه اكثر مما يجب ، وان نفوذه قد زاد عن الحدّ . وعلى الرغم من ان الايام التي مرّت بعد ذلك كانت كفيلةً بأن تزيلَ سوءَ التفاهم ذاك وعلى الرغم من اننا ذكرنا منذ قليل ان المنذر نوى نسيان ذلك الحادث بعد تولّيه الامارة ، فان المركز الكبير الذي كان يتمتع به هاشم قد أوجد له كثيراً من الحسّاد والمبغضين ، وهذا أمر طبيعي في كلّ زمان ومكان إذ ان الناس يغصّون بمن يرتفع شأنه . ويعملون على التآمر به دون ان يسيء اليهم .

وهكذا كثرت السعايات ضد هاشم وساهم فيها بعض الوزراء احياناً مثل محمد بن جهور الذي كان من أشدّ الناس عداوةً لهاشم [1] . فمن قائل بانه احتجز السلطة لنفسه ، ومن قائل بانه يفكر بانتزاع الامارة ، ومن قائل بان هاشماً عندما وورى جثمان الأمير محمد كان ينتحب بصوتٍ مرتفع وانه

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ١١٩ .

انشد شعراً على قبره يتفجّع فيه ويقول :

أعزّي يا محمد عنك نفسي ... معاذ الله والمنن الجسام (١)
فهلاّ مات قوم لم يموتوا ... ودوفع عنك لي كأس الحمام

فوجد من أوّل ذلك للمنذر بانه يعنيه وانه كان من الأفضل لو مات هو وظلّ ابوه ، فاضطغن عليه منذر ذلك وأضمر له السوء .

هذه هي أهمّ الأسباب التي دعت المنذر الى ان يأمر بحبس هاشم ومصادرة أملاكه وتغريمه أموالاً طائلة والقبض كذلك على عددٍ كبير من أفراد عائلته وزجّهم في السجن .

يقول ابن الخطيب في هذا الصّدد : « فلما مات الأمير محمد ، اراد المنذر ان يتبع به فعل ابيه ، فولاّه الحجابة ، ثم تمالأ عليه حسّاده وكثروا ، وحرّفوا كلامه ، حتى نفذ قضاء الله ؛ وكان مفخرة دولتهم وزينة ملكهم »(٢) .

وهكذا زجّ هاشم في السجن فترةً من الزمن حاول فيها ان يسترضي الأمير المنذر دون جدوى . وكان يتألم لوشاية حسّاده وأرسل الى جاريةٍ مقرّبة اليه اسمها « عاج » اشعاراً من سجنه يقول فيها .

واني عداني ان ازورك مطبق ... وباب منيع بالحديد مضبّب
فان تعجبي يا عاجُ مما أصابني ... ففي ريب هذا الدهر ما يتعجب
تركتُ رشاد الأمر ، اذ كنتُ قادراً ... عليه ، فلاقيتُ الذي كنت أرهبُ
وكم قائل قال: انجُ ويحك سالماً ... ففي الارض عنهم مستراد ومذهب
فقلتُ له : ان الفرار مذلّة ... ونفسي على الأسواء احلى واطيب
سأرضى بحكم الله فيما ينوبني ... وما من قضاء الله للمرء مهرب
فمن يكُ أمسى شامتاً بي ، فانه ... سينهل في كأسي وشيكاً ويشرب

---

(١) هكذا ورد الشطر الثاني من البيت في ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٤ بينما اورده ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٤ (امين الله ذا المنن الجسام) واورده صاحب اخبار مجموعة ص ٧٧ (معاذ الله والأيدي الجسام) .

(٢) ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ٢٤ .

ثم أمر بقتله بعد ذلك ، وظل أقرباؤه في السجن . ومما يستحق الذكر في هذا المجال ان الأمير المنذر حين ذهب بعد ذلك لحصار ابن حفصون وتذكر وهو يحاول اخضاع بربشتر ، ان خصومه من بني هاشم لا زالوا في السجن ، اراد ان ينهيَ أمرهم ويأمر بقتلهم ، فأنفذ أمره الى ابي عروة حفص بن بسيل صاحب المدينة باخراج بني هاشم من السجن وكذلك كاتبه سعيد بن سليمان وصهره مطرّف بن ابي الربيع وان يصلبهم قبل رجوعه لكي يراهم على تلك الحال عند عودته .

ولكن القدر شاء ان يموتَ المنذر او يقتل حول أسوار بربشتر وهو يحاصر ابن حفصون فآل الأمر حالاً بعده الى أخيه عبد الله الذي كان قد انضمّ اليه آنذاك ، فأسرع بالكتابة الى ابي عروة يأمره باطلاق سراحهم وضمّهم الى القصر وجعلهم بين يديه على باب السدّة الى ان يقدم ، فأتاهم الفرج في الوقت الذي كانوا ينتظرون فيه البلاء ، بل ان الامير عبد الله بعد عودته أعاد اليهم ضياعهم وولّى احدهم الوزارة والقيادة[1] .

ثورة ابن حفصون :

رأينا كيف بدأت ثورة هذا الرجل وكيف أخلد الى الطاعة فترةً من الزمن فلم يطق البقاء في قرطبة وعاد الى اعلان الثورة ففرض عليه المنذر بن محمد الحصار ثم اضطر الى رفعه نظراً لوفاة والده .

اذن فان ابن حفصون ظلّ حرّاً طليقاً ، وما ان سمع بوفاة الأمير محمد وانصراف جيوش المنذر بعيدة عنه حتى نهض من فوره فراسل الحصون التي كانت تقع بين منطقته والساحل ودعاها الى طاعته فاستجابت اليه ثم سار بعد ذلك نحو باغة Priego وجبل شيبه فأخذ من الأموال كميات كبيرة ليستعينَ بها على تقوية نفسه وشراء الأسلحة اللازمة ، إعداداً لاستئناف الحرب مع حكومة قرطبة ، لانه كان يعرف ان ذلك آتٍ عاجلاً ام آجلاً .

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٢٠ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٥ .

وكان يحاول ان يخدع الناس بأهدافه وأسباب ثورته فيقول لهم انه قام ليحررهم من عبوديتهم ويأخذ بثأرهم : « طالما عنف عليكم السلطان وانتزع اموالكم وحملكم فوق طاقتكم واذلّتكم العرب واستعبدتكم ، وانما أريد ان أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم »[١].

ويبدو ان الكثيرين استجابوا له وتبعوه حتى قويت شوكته ، وعمت سطوته . ويحمل عليه بعض المؤرخين لثورته على الإمارة الإسلامية في قرطبة ولخداعه الناس بالمظاهر ومعسول الكلام فيقول أحدهم عنه : « كل ذلك منه بلا قوة ولا كثرة من مال ولا عدد . ولكنه كان عذاباً من الله ونقمة انتقم بها من عبيده . واتفق له زمان هرج وقلوب قاسية فاسدة ونفوس خبيثة ، متطلّعة الى الشرّ ، مشرئبّة الى الفتنة ، فلما ثار وجد من الناس انقياداً وقبولاً للمشاركة والموافقة . فتألّبت له الدنيا ... »[٢]

ولكنّ المؤرّخين العرب أنفسهم يعترفون لابن حفصون بكثير من الخصال التي جلبت له تأييد الناس ودفعتهم الى الانضمام اليه فيقولون انه كان يتحبّب لأصحابه ويتواضع لهم وانه كان رغم شروره ، شديد الغيرة ، حافظاً للحرية .

وكذلك يذكرون ان المرأة في ايامه اصبحت تسافر بالمال والمتاع منفردة من بلد الى آخر فلا يجسر احد على اعتراضها لأن عقوبة المعتدي كانت السيف رجلاً كان ام امرأة ام صبيّاً ولا يطلب ابن حفصون على ذلك شاهداً بل يكتفي بالشكوى على ان تكونّ منطقية معقولة . وكان يأخذ الحقّ حتى من أولاده ويبرّ الرجال ويكرم الشجعان ويعفو عنهم عند القدرة ...

هذه الأمور كلّها كانت عوناً معنوياً كبيراً لابن حفصون مكنته من ان يحتلّ مساحاتٍ شاسعة من الاندلس حتى ربما كانت أملاكه اوسع من املاك دولة قرطبة .

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٢ .
(٢) نفس المصدر السابق .

وصل ابن حفصون بغاراته الى قبره والى قرية الحالية وأغار على القبذيق من أعمال البيرة Elvira وعلى ضواحي جيّان Jaen وأسر عبد الله بن سماعة عامل باغة Priego وجمع أنصاره في حصن « اشرس » في منطقة ريّه Reyyo فارتاع أهل المدن القريبة واتصل الأمر بالمنذر فأرسل قائده أصبغ بن فطيس في خيلٍ كثيفةٍ الى حصن أشرس فحاصروه حتّى افتتحوه وقتلوا من كان فيه.

كذلك أرسل الأمير المنذر قائديه عبد الله بن محمد بن مضر والفتى الصقلبي « ايدون » على رأس فرقة من الفرسان الى ناحية لجانة من أعمال قبرة ، فهاجموا انصار ابن حفصون المسلّحين وقاتلوهم وقضوا على عددٍ كبير منهم ، دون ان تؤدّي تلك الوقائع الى نتيجةٍ حاسمة .

حتّى اذا كان العام التالي ٢٧٤ ﻫ (٨٨٧ م) خرج الأمير المنذر بجيوشه نحو عمر بن حفصون فافتتح الحصون التي كانت بيده في منطقة ريّه Reyyo وفي منطقة قبره ، ثم توجه الى مدينته الرئيسية بربشتر Bobastro فحاصره فيها ودمر ما حولها وضيّق عليه ثم انتقل عنه الى ارشذونة Archidona وبها حليفه عيشون فحاصرها فترةً من الزمن الى ان سئم أهلها ذلك الحصار وفاوضوا الأمير على أن يسلّموه عيشوناً ، فقبل ودخل المدينة وقبض على عيشون وأصحابه كما ظفر بحلفائه من بني مطروح وكان زعماؤهم ثلاثاً هم حرب وعون وطالوت . ثم افتتح حصونهم بجبل باغة Priego وارسل بعد ذلك من يقتاد زعماء بني مطروح وعدد من اتباعهم بلغ مجموعهم اثنين وعشرين رجلاً الى قرطبة حيث أمر بقتلهم وصلبهم .

اما العام الأخير من امارته ٢٧٥ ﻫ (٨٨٨م) فقد قصد الأمير المنذر المقرّ الرئيسي لابن حفصون مباشرة وهو بربشتر Bobastro وكان لا بد له من المرور على أرجذونة التي سبق له ان أخضعها كما رأينا ولكنها عادت الى الانحياز لابن حفصون ، فخرج رسل أهل المدينة وقدّموا له الطاعة فقبل أوبتهم ولو انّ القصبة بقيت ممتنعة عليه يحاصر فيها نفر من جند ابن حفصون فحاصرها وفتحها وأسر قائد ابن حفصون فيها ثم سار الى بربشتر .

وطال حصار المدينة وبدأ اليأس يخامر أهلها وهنا خطرت لابن حفصون فكرة وهي طلب الطاعة من الأمير المنذر والنزول على إرادته على ان يجعله الأمير من خاصة قادته ويسكنه قرطبة مع جميع افراد عائلته وان يجري عليه الأرزاق . فقبل المنذر تلك الشروط واعطاه الأمان ، وأمر بان تحمّل مائة من البغال بالثياب والطعام والمؤونة وان ترسل الى جماعته وأمر بان يقودها اليه عشرة من العرفاء ومائة وخمسون من الفرسان اكراماً له وتدليلاً على حسن نيّته ، بينما كان ابن حفصون الى جانب الأمير في معسكره .

واخذ الجيش بفكّ الحصار عن المدينة والاستعداد للرحيل وما ان خيّم الليل حتى انتهز ابن حفصون الفرصة وهرب من معسكر الأمير وتبع البغال المرسلة اليه وحرسها فقاتل الحرس واستخلص منهم تلك الأشياء وعاد الى الثورة مما اثار غضب المنذر الى أبعد حدّ ، فأقسم الا يحلّ عنه قبل ان يخضعه وألا يقبل منه الطاعة او الاستسلام بعد ذلك .

وشدّد الحصار فعلاً على بربشتر حتى قاسى كلّ من الطرفين الأمرّ ، فجماعة ابن حفصون ضاقوا بالحصار وكذلك جند الأمير ، تعبوا من المجهودات التي كانوا يبذلونها لفتح المدينة والأمير مصرّ على عدم مبارحتها قبل فتحها ، الى ان نفذ القدر ووافت المنية الأمير المنذر وهو يحاصر مدينة الثائر .

أسباب وفاة المنذر :

يختلف المؤرّخون في سبب وفاته ، هل كانت وفاة طبيعية ام كانت عن مرض ألمّ به ام كانت نتيجة لمؤامرة دبّرها له اخوه عبد الله ليرثَ الإمارة بعده ام كانت بتدبير من الفتى الصقلبي « ميسور » الذي هدّده المنذر بانه سيوقع به بعد عودتهم الى قرطبة ؟

كلّ هذه التساؤلات طرحت نفسها ووجدت من يؤيّد احداها على الأخرى . ولذلك فانه يصعب علينا في الواقع ان نجد الجوابَ الصحيح ، ولو اننا نستطيع ان نؤكدَ بانّ الوفاة لم تكن عادية تماماً لان الوفاة العادية

تحصل حين يتقدم الانسان في السن ويشيخ ، وكان الأمير المنذر في ريعان الشباب . فاذا أبعدنا هذا الاحتمال بقي امامنا الاحتمالات الثلاث الأخرى التي يمكن ادماج اثنين منها في واحد فقط فتصبح احتمالين : اما وفاة عن مرض واما نتيجة لمؤامرة كانت بتدبير من اخيه عبد الله او بتدبير من الفتى « ميسور » او بالاشتراك بين الرجلين .

هنالك مؤرّخون يميلون الى الأخذ بانّ المرض هو الذي أودى بحياته ، ويدلّلون على رأيهم بانه استدعى أخاه عبد الله الى جانبه « بعث الى قرطبة في امارة اخيه عبد الله ابن الأمير محمد لينوبَ عنه بعد ان اتصل مرضه » [١] . وذكر مؤرّخ آخر : « وكانت قد أصابته علّة اكذبت نفسه وكدّرت انسه ، فبعث في أخيه عبد الله لينوبَ منابه ، وينتدب في تلك الحال انتدابه ، فلما وصل اليه ، وحصل في المظلّة لديه ، خرجت في الحين روحه ، وبكاه من كان يغدوه ويروحه »[٢] .

فهذا النفر من المؤرّخين اذن يؤكد ان وفاته حصلت من مرض ٍ ألمّ به حتى قبل ان يلحق اخوه عبد الله بالمعسكر فيبرئون الأخ بذلك تماماً من تهمة التآمر عليه .

بينما هنالك فريق آخر من المؤرّخين يؤكد انه مات مقتولاً اما بمبادرة من الفتى الصقلبي « ميسور » الذي خاف ان ينزل به العقاب بعد عودة الجيش الى قرطبة فسمّ له القطن الذي استعمله معه في جرح الفصد كما يقول احد المؤرّخين[٣] واما ان يكونَ قد دفعه الى ذلك العمل عبد الله أخو المنذر لاستبعاد اقدامه على مثل ذلك العمل الخطير بمفرده .

واذا كنّا سنقبل نظرية وفاته مقتولاً فاننا نرى بانّ الرأي القائل بان

---

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٥ .
(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٨ .
(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٢٠ .

القتي قد اقدم على ذلك بتحريض من عبد الله هو الرأي الراجح نظراً لان المؤرّخين الثقة امثال ابن الخطيب وابن عذاري ... يجمعون على ذلك ويقولون : « احتال عبد الله على أخيه المنذر رغم ايثاره له ، فواطأ عليه حجّامه بان سمّ له المبضع الذي فصده به »[1] .

وهكذا يبقى على المرء ان يقتنع باحد الرأيين : الموت نتيجة للمرض او الموت نتيجة للقتل ، ونحن نميل الى الأخذ بالرأي الثاني نظراً لما ذكر عن الأمير عبد الله من انه كان « سفّاكاً ، تهون عليه الدماء »[2] .

هذا وكانت وفاته في منتصف شهر صفر ٢٧٥ هـ (٨٨٨ م) وقيل بل في الثالث عشر من الشهر المذكور .

انسحاب الجيش بقيادة الأمير عبدالله :

عندما انتشر نبأ وفاة المنذر بدأ الجند حالاً برفع الحصار ومغادرة المعسكر لأنهم كانوا قد ملّوا القتال . وعبثاً حاول الأمير الجديد عبد الله ، الذي بويع على الفور من قبل الحاضرين ، ان يثبتهم كيلا يستفيد ابن حفصون من الموقف ولكنه لم ينجح في ذلك ، واستفاد ابن حفصون فعلاً اذ ما لبث ان هاجم المعسكر لكي يقاتل الأمير عبد الله والقلّة التي ثبتت معه من الجند ، فوجد هذا انّ من الأفضل له ان ينسحب ، فغنم ابن حفصون ما كان في المعسكر وحمل جثمان المنذر على جملٍ الى قرطبة حيث دفن هناك في مقبرة العائلة .

وهكذا كانت الظروف في هذه المرة ايضاً مواتية لابن حفصون الذي اخذ في التوسع بعد ذلك حتى وصلت سلطته آنذاك اقصى مداها ، ولم يبقَ كما ذكر احد المؤرّخين » بينه وبين دار الملك الا مقدار مرحلة قصيرة »[3] .

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٦ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣٣ .
(٢) ذكر ذلك عنه معظم مؤرخي الأندلس .
(٣) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٥ .

الفصل الثامن

إمارة عبد الله بن محمد

هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ... يكنّى ابو محمد وامه ام ولد تسمى « بهار » او « عشار » على خلاف بين المؤرّخين . ويعتبر السابع من امراء بني امية بالأندلس وقد بويع بالخلافة في نفس اليوم الذي فارق اخوه المنذر فيه الحياة وهو يحاصر بربشتر وعاد الى قرطبة ليتسلّم مقاليد الحكم .

وصف بانه كان ابيضاً مشرباً بحمرة ، أزرق العينين ، أقنى الأنف ، ربع القامة . وأجمع المؤرّخون من حيث صفاته النفسيّة والخلقية على انه كان مبتعداً عن الشراب والملذّات وان معظم الخاصة والعامة اقتدوا به في ذلك لرؤيتهم بان اميرهم يعطيهم المثل الأعلى .

كما أجمعوا أيضاً على شدّة تقواه وورعه ومداومته على إقامة الصلاة والقيام بواجباته الدينية فلقد كان « حافظاً للقرآن ، كثير التلاوة له ، وكانت له صدقات كثيرة ونوافل جزيلة ، وكان متقدّماً في ورعه وفضله ، محبّاً للخير وأهله ، كثير الصلاة ، دائم الخشوع والذكر لله »[1] . كما قالوا

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٨ .

عنه في هذا الصدد انه « لم يزل يرفع منار الدين ويسلك سبيل المهتدين ، لم تمنعه الفتن من النظر لنفسه والعمل ليوم فاقته وحلول رمسه ، وكانوا يعدّونه من أصلح خلفاء بني أمية بالأندلس وامثلهم طريقة واتمهم معرفة وامتنهم ديانة .. » (١)

وأتبع المؤرخون ذلك الوصف بان قالوا عنه انه كان شديد التواضع ، شديد الوطأة على ذوي الظلم والجور حتى كان اهل المكانة وذوو القدر يتحفظون من كلّ امرٍ يوجب الشكوى بهم ، ويتحاشون التحامل على من دونهم لانهم كانوا يهابون عقابه .

وتابع المؤرّخون الحديث عن مزاياه فذكروا انه كان يتوخّى العدل في أحكامه وتصرّفاته وانه فتح باباً في قصره سماه باب العدل كان يجلس امامه يوماً معيّناً في كلّ أسبوع فترفع اليه فيه الظلامات وتصل اليه الكتب فلا يتعذّر على ايّ انسان ان يوصلَ بطاقته الى الأمير بيده او يشكو اليه مظلمته .

وقد ذكر في هذا المجال ان احد مواليه اساء واعتذر اليه فقال له : « ان مخائل الأمور لتدلّ على خلاف قولك وتنبيء عن باطل تنصّلك ولو أقررتَ بذنبك واستغفرتَ لجرمك لكان أجمل بك وأسدل لستر العفو عنك » . فاجابه المولى : « قد اشتمل الذنب عليّ وخاق الخطأ بي ، وانما انا بشر وما يقوم لي عذر » . فقال له : « مهلاً عليك ، رويداً بك ، تقدّمت لك خدمة وتأخرت لك توبة ، وما للذنب بينهما مدخل ، وقد وسعك الغفران » . اما من الناحية الأدبية والعلمية فكان رجلاً ذا شأن متفنّناً في ضروب العلوم ، بصيراً باللغات ، حافظاً لأشعار العرب وايامها وسير الخلفاء ، فصيح اللسان ، حسن البيان . وكان يجالس في معظم الأيام وزراءه ووجوه رجاله ، فاذا انتهوا من التحدث في شؤون الحكم والإدارة ، خاض معهم في الأخبار والعلوم .

---

(١) نفس المصدر السابق .

بيد ان هذا المديح الذي كاله له المؤرخون لم يمنعهم في الوقت ذاته من ذكر مساوئه فذكر عنه البعض انه كان بخيلاً [1] بينما سمى البعض الآخر ذلك اقتصاداً فقالوا عنه انه كان مقتصداً في أموره من مطعم وملبس ، منكراً للإسراف[2] . وقد حاولوا على ايّ حال ان يعلّلوا ذلك الاقتصاد او البخل كما سماه بعضهم بانه كان بسبب تدهور الأحوال الاقتصادية على اثر انتشار الفتن والثورات في جميع انحاء البلاد ونقصان المبالغ التي كانت ترد الى بيت المال . وبالفعل فان ابن خلدون يحاول ان يبرهن ، على ذلك بقوله : « لما كثر الثوّار قلّ الخراج لامتناع أهل النواحي عن الأداء ، وكان خراج الأندلس قبله ثلاثمائة الف دينار ، مائة الف منها للجيوش ومائة الف للنفقة في النوائب وما يعرض ومائة الف ذخيرة ووفر ، فانفقوا الوفر في تلك السنين وقلّ الخراج »[3] .

وهناك سيّئة أخرى نسبت للأمير عبد الله وهي انه كان « قتّالاً تهون عليه الدماء »[4] وانه قد أساء الى تديّنه لما كان من هوان الدماء عليه ويذكر المؤرّخون في هذا المجال تدبيره لقتل أخيه المنذر ثم قتله ولديه معاً بالسيف واحداً بعد الآخر واقدامه بعد ذلك على قتل أخويه هشام والقاسم .

ولم يوجد سوى مؤرّخ واحد عارض هذا الرأي ونعته بلين الجانب وهو النويري ولو انه لا يمكن الاخذ برأيه نظراً لكثرة المؤرّخين الذين وصفوه بعكس ذلك ونظراً لإقدامه على ما نسبوه اليه من قتل أقاربه . ومع ذلك فلا مانع من ايراد رأي النويري اذ يقول : « كان ليّن الجانب ، بلغ من لينه ان ابنه مطرّفاً قتل اخاه محمد بن عبد الله والد الناصر فلم ينكر عليه ذلك ، بل قال قد سوغتك قتل أخيك ، فاللهَ اللهَ في ابن امية ، يعني وزيره ، فانكَ ان

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٣ .
(٢) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٦ .
(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٢ — ١٣٣ .
(٤) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٦ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٣ .

قتلتَه . قتلتُك به » .(١)

هذا وكان ذلك صحيحاً . الا انه ما لبث ان اقدم بعد ذلك على قتل ذلك الابن مما جعل المؤرّخين يصفونه بتلك الكلمات .

حتّى اذا انتهينا من الحديث عن شخصيته انتقلنا الى الحديث عن تطوّر الأحداث الداخلية في عهده .

الأحوال الداخلية في عهده :

لقد اعتمد الأمير عبد الله على شخصيات مرموقة في جميع المجالات : في الحجابة والوزارة والقضاء والكتابة وولاية المدينة وقيادة الجيوش ، الا ان الظروف كانت اقوى منه ، فلم تمكنه من التغلّب على عشرات الثورات التي قامت ضدّه في كلّ ناحية من نواحي الأندلس ، واضطر الى ان يترك مهمة تهدئة الأحوال الى خليفته وحفيده من بعده عبد الرحمن الناصر .

فيما يتعلّق بالحجابة ، فقد وجد عليها منذ وصوله الى السلطة ، عبد الرحمن بن امية بن شهيد ، فأبقاه فيها ثم عزله بعد ذلك بمدة وعيّن مكانه سعيد بن محمد بن السليم ، وعندما فرغ مكانه لم يعين فيه احداً .

بالنسبة للوزارة برز في زمنه عدد من الأسماء مثل براء بن مالك القرشي وعبّاس بن عبد العزيز القرشي وعبد الملك بن عبيد الله بن أمية وأصبغ بن عيسى بن فطيس وعبد الله محمد الزجّالي .

اما الكتاب فقد عرف منهم عبد الله بن محمد الوزير وعبيد الله بن محمد ابن ابي عبده وموسى بن زياد .

وعاصره من القضاة النضر بن سلمة القيسي ثم موسى بن زياد ثم محمد بن سلمة اخو النضر ، ثم أحمد بن محمد بن زياد اللخمي .

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٦٠ .

هذا وقد ولي المدينة محمد بن وليد بن غانم وآخرون غيره جمعوا احياناً منصب الوزارة الى ولاية المدينة ، كما جمع آخرون منصب الوزارة الى الكتابة .

اما القادة العسكريون فقد برز منهم في عهده جعفر بن عبد الغافر والعاصي ابن عبد الله بن ثعلبة وتمام بن عمرو بن علقمة .

الا انه على الرغم من هذه الشخصيات اللامعة كلّها في عهده فقد عمّت الثورات البلاد حتى وصف أحد المؤرّخين الحالة بقوله : « أفضت الخلافة اليه وقد تحيّفها النكث ومزّقها الشقاق وحلّ عراها النفاق ، والفتنة مستولية ، والدجنة متكاثفة ، والقلوب مختلفة ، وعصا الجماعة متصدّعة[1] » ...

ولما كانت أهمّ تلك الأحداث وأخطرها هي ثورة عمر بن حفصون فان الامير عبد الله بدأ بتوجيه اهتمامه اليها ومحاولة القضاء عليها ، كي يتاحَ له بعد ذلك الالتفات الى غيرها ، رغم انه لم يتمكن من ذلك ، بل تفاقم سلطان ابن حفصون وتزايد ، فلنرَ كيف تطوّرت احداث هذه الفتنة وكيف تطوّر النزاع بين الثائر والأمير .

ثورة ابن حفصون :

تابع ذلك الثائر الطموح عصيانه وخروجه على اوامر حكومة قرطبة ، بل انّ ساعده قد قوي في عهد الأمير عبد الله لأنه كان ثالث امير اموي اندلسي يعاصره ابن حفصون دون ان تستطيع الجيوش الرسمية القضاء على ثورته .

ولقد اعتبر ابن حفصون ان القدر بجانبه يقدم له يد المساعدة ، اذ ان مقرّه في بربشتر كان محاصراً على وشك السقوط عندما مات الأمير عبد الرحمن الثاني ففكّ الجند الحصار وعادوا الى قرطبة . وكذلك كان الأمير المنذر

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٣ .

يحاصره بعد ان أقسم انه لن يغادر حصون مدينة الثائر الا بعد ان تسقط بيده او يحول دونه ودون ذلك الموت ، فكان من مشيئة الأقدار ان مات فعلاً وانفض الحصار ثانية . فالأمير عبد الله في رأي ابن حفصون لن يكون أسعد حظاً من سابقيه في القضاء عليه . وبالفعل على الرغم من طول المدة التي حكمها الأمير عبد الله مدة ربع قرن من الزمن ، وعلى الرغم من تعدد وتنوع الحملات التي أرسلها لقتاله ، فان ثورة ابن حفصون لم تخبُ بل ظلت جذوتها مشتعلة على الرغم من ان زعيمها كان قد جاوز الخمسين من عمره .

هذا ولا يجوز ان يتراءى لنا بان الحظ فقط هو الذي كان يخدم ابن حفصون ، فالرجل الى جانب الصفات القليلة الحسنة التي كان يتصف بها كالشجاعة والحرص على نشر الأمن ، كان انتهازياً من الدرجة الاولى اذا كانت هذه الكلمة تكفي للتعبير عن طبيعته المتقلبة وعن انجرافه وراء كل الوسائل في سبيل الوصول الى غايته . ولم يكن ابن حفصون ثائراً ينادي بمبادىء معينة وبالوصول الى أهداف محددة ... ولم يكن له اتجاه واضح يسير فيه ويخلص له ، بل كانت اهدافه وغاياته واتجاهاته تتغير وتتقلب بحسب الظروف وحسبما تمليه عليه مصلحته الشخصية قبل كل شيء .

أعلن ثورته لأنه كان طموحاً يبغي الحصول على شيء من السلطة والجاه والمال ، ولم يعلنها لتحرير رقعة من الأرض ، كما يمكن أن يتبادر الى اذهان البعض ، او لتحقيق مبدأ يؤمن به مثلاً ... ولذلك فانه لم يتأخر عن الاتصال والاتفاق مع اية جهة كان يعتقد انه يمكن ان يصيبه من ورائها منفعة . فقد كاتب ابن الأغلب صاحب افريقية وهاداه وقوى صلته معه ولو ان الأمير الأغلبي تردد في توثيق عرى التحالف مع ابن حفصون لانه كانت لديه مشاكله في افريقية ولم يكن يعرف بالضبط مدى الفائدة من تحالفه معه .

وأظهر ابن حفصون بعد ذلك الدعوة العباسية ودعى للعباسيين على منابر مساجد المنطقة التي كانت تقع تحت حكمه . ثم عندما رأى ان الاتصال بالأغالبة في افريقية والعباسيين في المشرق لم يفده اتصل بملك جليقية وعرض

عليه ولاءه مقابل دعمه ضدّ حكومة قرطبة بل وصل به الأمر الى اكثر من ذلك انه اعلن تركه للاسلام واعتناقه للنصرانية كي يثبت اخلاصه للملك جلّيقية فلم يكن من الصعب على ايّ انسان ان يستنتج بان الايمانَ الحقيقي لم يعرف طريقه الى قلب ذلك الرجل .

ثم عندما تغلب الفاطميون على الشمال الافريقي واحتلّوا القيروان وانتزعوها من يد الأغالبة ، أرسل ابن حفصون طاعته الى الفاطميين ودعا لعبيد الله الفاطمي . وبعد بضع سنواتٍ من ذلك تربّع الأمير او الخليفة عبد الرحمن الناصر على كرسي الحكم في الأندلس وأظهر الكثير من القوة والحزم وحالفه التوفيق ، فأعلن ابن حفصون عودته الى طاعة بني أمية في الأندلس ، ولو ان الناصر لن يُخدعَ به وسيتمكن من القضاء عليه وعلى ثورته .

هذه اللمحة السريعة على تصرّفات ابن حفصون وعدم استقراره على مبدأ واحد وفي اتجاه واحد ، تظهر ببساطة صحة حكمنا عليه حين قلنا بأنه كان رجلاً انتهازياً وانانياً ، لم يضع نصب عينيه في يومٍ من الأيام مصلحة البلاد التي كان يعيش فيها .

اما علاقات الأمير الجديد عبد الله بالثائر ، فانه ما ان بويع في قرطبة حتى طلب الى احد قادته ابراهيم بن حُميد ان يتوجه الى ابن حفصون وان يدعوه الى نبذ العصيان والدخول في طاعة الأمير ومبايعته . وقد استقبل ابن حفصون ممثلي الأمير أحسن استقبال ووافق على إعطاء بيعته بل انه عرض عربوناً لإخلاصه تقديم ابنه حفص وجماعة من اصحابه كرهينة ، فأخذت بيعته وعاد الوفد الرسميّ مودّعاً بالكرامة والرعاية ، تاركاً الى جانب ابن حفصون شريكاً له في الحكم ممثلاً للدولة هو عبد الوهاب بن عبد الرؤوف . ولكن هذا الموقف الموالي لم يطل سوى بضعة أشهر ، غيّر ابن حفصون رأيه بعدها وأعلن العصيان من جديد فتغلّب على عبد الوهاب وأخرجه من المنطقة وهاجم المناطق القريبة فاستولى عليها ومدّ سلطته على مساحة واسعة من الأرض .

وقرّر الأمير عبد الله أن يسير لعقابه في عام ٢٧٦ ﻫ (٨٨٩ م) فخرج بنفسه في اتجاه بربشتر وحصون ريّه Reyyo ، فانتسف بعض المناطق ودمّر بعض التحصينات ثم عاد بعد ان ترك في ريّه متسلّماً هو محمد بن ذقين[1] .

وردّ ابن حفصون على ذلك بأن احتلّ استجه Ecija وحصن استبه Estepa فرأى الأمير عبد الله ان يعود فوراً لقتاله ولكن ابن حفصون حيلةً منه ونفاقاً طلب مقابلة الأمير واعترف بذنبه وطلب الأمان ، فسرّ بذلك عبد الله واعطاه الامان الذي لم يدم اكثر مما دام في المرة السابقة اي بضعة أشهر .

نقض ابن حفصون اذن الصلح بعد بضعة أشهر وقصد مدينة « بيانه » فحارب أهلها . ثم أعطاهم العهد . فلما نزلوا اليه غدر بهم وقتلهم وأخذ أموالهم وسبى ذراريهم ثم توجّه الى جيّان Jaen فطرد عامل الأمير منها وفرض على أهلها مبالغ جسيمة من المال ، وظلّت جيّان والبيرة مدة من الزمن دون والٍ من قبل الأمير .

وكذلك ساهم ابن حفصون في تلك الفترة وفي عام ٢٧٧ ﻫ (٨٩٠ م) بالذات في القضاء على الثائر ابن شاكر الذي كان يرغب الأمير عبد الله في إخماد ثورته ، فأرسل ابن حفصون الى ذلك الثائر مدداً بحجة مساعدته ضدّ قوات الأمير عبد الله فما ان خرج للقائهم حتى قبضوا عليه وفتكوا به وأرسلوا برأسه الى ابن حفصون الذي عمد بدوره الى إرساله للأمير عبد الله ، اما ليتقرب منه ، او ليظهر له بأنه يستطيعُ ان يفعل ما لا يستطيعه الأمير .

وظلّت سلطة ابن حفصون في تزايد بعد ذلك حتى تجرّأ على مهاجمة ضواحي قرطبة والاستيلاء على مواشيها في اكثر من مناسبة ، فوجد الأمير عبد الله انّ الموقف لم يعد محتملاً وان عليه ان يقوم بعملٍ حاسم حيال ابن حفصون قبل ان يتمكن هذا من فرض سلطته على جميع انحاء الأندلس .

وبالفعل بدأ الأمير عبد الله باتخاذ الاستعدادات اللازمة للسير الى قتال ابن

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٤ .

حفصون الذي كان قد ابتنى لنفسه حصناً في منطقة قبرة غير بعيد عن قرطبة دعاه حصن بلاي[1] Poley. وضرب الأمير سرادقه خارج قرطبة بعد ان جمع عدداً من المقاتلين بلغ أربعة عشر الفاً من أهل قرطبة وأربعة آلاف من الحشم اي من الجند الرسميين فكان مجموعهم ثمانية عشر الفاً [2].

وعندما بلغت ابن حفصون تلك الاستعدادات . قرّر ان يسير على رأس فرقة من فرسانه لمهاجمة سرادق الأمير لعلّهم يستطيعون ان يفوزوا به بسرعة وقبل ان تكمل استعدادات الأمير للسير لقتاله . ولكن حرس السرادق من الفرسان قاموا بهجوم معاكس وطردوا المهاجمين بعد ان قتلوا عدداً منهم وكاد ابن حفصون ان يدفع حياته ثمناً لتلك المغامرة وأسرع نحو حصن بلاي فلجأ اليه .

ولم يستكن ابن حفصون الى الراحة في انتظار قدوم الأمير عبد الله وجيشه بل جمع له من أنصاره ما استطاع حتى بلغوا ثلاثين الفاً اي حوالي ضعف الجيش الذي كان مع الأمير عبد الله . اما هذا فانه خرج من قرطبة في مستهل صفر من عام ٢٧٨ هـ (١٥ مايو « ايار » ٨٩١ م) وسار باتجاه حصن بلاي ليجد بأن ابن حفصون وقواته كانوا بانتظاره على سفح الجبل الذي يقوم عليه الحصن .

ولما اقترب الجيشان هجم جند الأمير عبد الله بعنف على جند ابن حفصون فصدموهم صدمة قوية واحتد القتال ولكنّه لم يطل اذ سرعان ما مالت كفّة

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص ١٣٥ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٨٦ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٥٩ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٨ .

(٢) ذكر ليڤي بروفنسال في تاريخه جـ ٤ ص ٢٣٦ ان عدد الجند كان اربعة عشر الفاً ، عشرة آلاف من المطوعة وأربعة آلاف من الجند . بينما اكد النويري ان عدد أهل قرطبة كان اربعة عشر الفاً والحشم اربعة آلاف وان المجموع ثمانية عشر الفاً (نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٥٩) كما اكد ذلك ابن عذاري بقوله : وكان عدد عسكر الأمير ثمانية عشر الفاً (البيان المغرب جـ ٢ ص ١٨٦) وهذا هو الرقم الصحيح .

النصر الى جانب القوّات الرسميّة فانهزم ابن حفصون مع جنده وأسرعوا في الدخول الى حصن بلاي في حين لاحقت القوّات الرسمية فلولَ المنهزمين فقتلت عدداً كبيراً منهم قبل ان يتمكنوا من دخول الحصن .

وسرّ الأمير بتلك النتيجة وأخذ يستعدّ لمهاجمة الحصن وافتتاحه في اليوم التالي بينما كان ابن حفصون يفتح ثغرةً في الجهة الثانية من السور ويخرج منها مع أهله وأمواله ، فلما علم الجند بذلك ، اقتدوا بزعيمهم وولّوا مدبرين لا يلوي منهم أحد على أحد(1) .

وعلم الأمير عبد الله بذلك فأرسل خيلاً في اثر ابن حفصون فلم يعثر له على اثر ثم دخل حصن بلاي فاحتلّه ووجده مليئاً بالذخيرة وأسر الفاً من رجال ابن حفصون، ألقي القبض عليهم وهم يهمّون بالفرار ، فسيقوا الى الأمير عبد الله الذي أمر بقتلهم .

وقد استحقّ ذلك النصر قصيدةً نظمها ابن عبد ربّه بتلك المناسبة منها قولـــه :

رام ابن حفصون النجاة فلم يسر — والسيف طالبه فليس بنـــاج
في ليلةٍ اسرت به فكأنمـــا — ....(2) ليلة المعـــراج
ما زال يلقح كل حرب حائل — فالآن انتجبها بشرّ نتـــاج

---

(1) هنا ايضاً اخالف المؤرخ ليڤي بروفنسال الذي يذكر ان ابن حفصون دخل الحصن وهو ينوي الدفاع عنه ولكن جنده هم الذين فروا فاضطر هو الى الفرار ايضاً . في حين نرى ان النص صريح في نهاية الأرب اذ يقول النويري : « ودخل ابن حفصون الحصن وصار يخرج من بقّي فيه فثلم فيه ثلمة وأخرج منها أهله وما كان له ، فلما انتهى ذلك الى اهل عسكره ولوا مدبرين » ... « ج ٢٢ ص ٥٩) . فواضح من هذا النص ان ابن حفصون هو الذي بدأ بالفرار . كما ان ابن عذاري يقول : « ثم خرج منه مع بعض أصحابه ونجا ونجوا ... » وهنا ايضاً يقدم خروجه على خروج أصحابه . ولم نجد نصاً يقول بان ابن حفصون كان ينوي القتال وان اصحابه هم الذين تخلوا عنه ، بل هو الذي تخلى عنهم .

(2) الشطر ناقص في المصدر الذي أورد الأبيات .

ركبوا الفرار بعصبة قد جربوا غبّ السرى وخوافت الأدلاج
واذا سألتهم : موالي من هم ؟ قالوا : موالي كلّ ليـــل داج

توجه الأمير عبد الله بعد ذلك الى استجه فحاصرها وقاتل المدافعين عنها من انصار ابن حفصون فصُرع عدد منهم ولحق بهم التعب وانتابهم الخوف من مصيرهم فصعد أهل المدينة فوق الأسوار « مستصرخين ، ضارعين ، راغبين في العفو »[1] فقدّر الأمير ظروفهم وعفا عنهم فعلاً . ثم تابع طريقه بعد ذلك قاصداً بربشتر فحاصر ابن حفصون اياماً ثم انصرف عنه[2] .

واستعادت حكومة قرطبة هيبتها بتلك الانتصارات على الثائر الكبير ابن حفصون وهابها بقيّة الثوّار . ويبدو ان ابن حفصون نفسه قد طلب الصلح في تلك الفترة اذ اننا وان لم نكن نملك نصّاً واضحاً على طلبه الصلح ، انما يمكننا استنتاج ذلك من جملة اوردها صاحب البيان المغرب قال فيها : « وفي عام ٢٧٩ هـ ، نقض ابن حفصون ما كان انعقد من سلمه وطوعه »[3] فاذا قدّرنا بأن المعارك السابقة وقعت قبل ذلك بعام ، جاز لنا ان نستنتج ان ابن حفصون كان قد طلب الصلح ثم نقضه كعادته .

يؤيد هذا الرأي مؤرّخ آخر بقوله انّ ابن حفصون قدّم رهينةً للأمير عبد الله دليلاً على خضوعه ، قدّم له ابن أخٍ له احتجزه الأمير في قرطبة « وكان لابن حفصون ابن اخ مرتّهن عنده »[4] ونحن نعلم ان الرهينة في المرة الاولى كان ابنه حفص ، فلا مجال للاعتقاد بأن الأمان كان هو نفسه .

وعلى كلّ حال فقد عادت العلاقات بين الطرفين الى ما كانت عليه من سوء ، وحشد ابن حفصون أعوانه وهاجم البيره الى ان تغلّب عليها وقبض على عاملها ، فقرّر الأمير عبد الله ان يوجه اليه قائده احمد بن أبي عبدة .

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٨٧ .
(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٣٥ .
(٣) نفس المصدر السابق .
(٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٢٩ .

وبصدد تكليف هذا القائد بحرب ابن حفصون يذكر صاحب تاريخ افتتاح الأندلس « ان ابن ابي عبدة قام بحرب ابن حفصون وغيره من المنتزين بالأندلس واستجلب الشجعان من الرجال من كلّ بلد وضمّهم الى الحقّ . فاجتمعت حوله عقدة من ثلاثمائة فارس لم يجتمع بالأندلس قبله ولا بعده مثلها . فلم يزل يدفع ابن حفصون عن استطالته وانبساطه حتى حاربه على بابه . وقوي امر الأمير عبد الله . حتى خرجت الطوائف من قرطبة الى جوانب الأندلس »[1] .

وقد تمكن القائد ابن ابي عبدة من الانتصار عليه في المعركة التي حصلت بين الفريقين وجرح ابن حفصون جراحاً متعددة واضطر للانسحاب الى حصنه في بربشتر « فلما تدانى الفريقان وتراءى الجمعان ، هجمت خيل ابن ابي عبدة على خيل ابن حفصون . فأثقل ابن حفصون بالجراح ... واحتمل الخزي والعار ، وبلغ حصن بربشتر مغلولاً خاسراً ذليلاً »[2] .

ثم في عام ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) ارسل الأمير جيشاً بقيادة ابنه ابان والقائد ابن ابي عبدة هاجمت أراضيه دون ان تتمكن من القضاء عليه .

هنا وقبل ان نتابع مراحل القتال بين جيش الأمير عبد الله الذي أصبح يقوده في معظم المعارك ، احمد بن أبي عبدة وابان ابن الأمير عبد الله من جهة ، وبين الثائر ابن حفصون من جهةٍ أخرى ، لا بدّ لنا ان نذكر أمراً ذا أهمية حصل في عام ٢٨٦ هـ (٨٩٩ م) وهو إعلان ابن حفصون النصرانية وأمره ببناء الكنائس في منطقته وتقوية صلته بملك جلّيقية .

وقد سبق لنا ان ذكرنا عند حديثنا عن بداية ثورة ابن حفصون ان أسلاف هذا كانوا من المولّدين الذين دخلوا الإسلام ، ومعنى ذلك أنهم لم يكونوا مسلمين في الأصل . وهكذا فان المؤرّخين يقولون في هذه الحادثة ان ابن

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٢٤ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

حفصون عاد الى دين اجداده وانه كان يعتنقه في قرارة نفسه ولكن يمتنع عن إظهـــاره .

والنسب الذي يقدّمه لنا ابن خلدون نقلاً عن شيخ مؤرّخي الأندلس ابن حيّان يؤيّد نسبه المسيحي اذ يقول عنه « انه عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن اذفونش او الفونسو « القسّ » اي ان جدّه الاكبر كان قساً (١) .

ولكن اعلان ابن حفصون اعتناقه للنصرانية أضرّه اكثر مما أفاده من الناحيتين السياسية والعسكرية ، فاذا كان حكام شمال افريقية من الأغالبة او الفاطميين يتعاطفون مع قضيته كثيراً او قليلاً ، فقد كفّوا عن ذلك عند تركه الاسلام واعتبره الجميع خارجاً عن الدين يحلّ قتاله بل يجب اعلان الحرب المقدّسة ضدّه ، حتى انه وجد في شمال افريقية اناس جمعوا الجموع واجتازوا الى الاندلس لمقاتلته لانهم اعتبروا خطوته تلك نوعاً من التحدّي . يقول صاحب البيان المغرب : « فتبرّأ منه خلق كثير ونابذه عوسجة بن الخليع وبنى حصناً في (نيط) وصار فيه موالياً للأمير عبد الله ، محارباً لابن حفصون ، واتصلت عليه المغازي من ذلك الوقت ، ورأى جميع المسلمين ان حربه جهاد ، فتتابعت عليه الغزوات بالصوائف والشواتي لا يني القوّاد عنه في الحلّ والترحال » (٢) .

هذا وعندما ضايقه القائد ابن ابي عبدة بغزواته طلب من ابن حجّاج زعيم اشبيلية موالاته ومساعدته وذلك في عام ٢٨٧ ﻫ (٩٠٠ م) . وكان ابن حجّاج من اكبر الثوّار في الأندلس ، وسنعرض للحديث عنه وعن ثوّار اشبيليـــة بصورة عامة عند انتهائنا من بحث ثورة ابن حفصون — فقبل هذا مساعدته وارسل اليه معونات مادية وعسكرية وأصبح الرجلان على صلة وثيقة .

وبعد اتفاقهما بعامين توجه ابن حفصون لزيارة ابن حجّاج في مدينـــة

(١) ابن خلدون : العبر ج٤ ص ١٣٤ .
(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٠ .

قرمونة التي كانت تابعة له ثم بعد ذلك بعام واحد عاد الثائران الى الاجتماع فقال ابن حفصون لابن حجاج : « اجمع لي خيلك وكلّ شجاع فيها ، وابعث الي بها مع العربي الشريف ، يقصد فجيل بن ابي مسلم الشذوني ، وكان يتولّى قيادة خيل ابن حجّاج ، فاني أعزم على لقاء ابن ابي عبدة في اول حوزٍ من أحوازي وارجو ان اقلعه ثم نغتنم قرطبة في اليوم الثاني »[1] فأجابه فجيل وكان من اكثر الناس شجاعة وافضلهم تفكيراً : « يا ابا حفص لا تستقلل عدد ابن ابي عبدة ، فانهم قليل كثير ، ولو جمع لهم اهل الأندلس كلهم لما سمحوا لهم بالهزيمة » فقال له : « يا سيّد العرب لا يجنني عنه ، ما مقداره ومن معه . ومعي (١٦٠٠) شجاع ومع ابن مستنه (٥٠٠) ولعلّ معكم انتم (٥٠٠) ، فاذا اجتمع هؤلاء كلّهم أكلناهم » فقال له فجيل : « لعلّ ردعة او هزيمة ، فما أطمعك فيه لأنّي اعرف من اصحابه ما لا تعرفه »[2] .

ووافق ابن حجّاج على امداده بما طلب فبثّ العيون على ابن ابي عبدة واتوا يعلمونه انه قد اجتاز وادي شنيل Genil وانه في منطقة استبه Estepa . فتحرّك ابن حفصون ومن معه نحوه وقام بالهجوم عليه ، فدارت الدوائر على ابن حفصون وقتل من رجاله (٥٤٣) رجلاً وغنم ابن ابي عبدة ما كان في معسكره .

ولم يقتنع ابن حفصون بما اصابه من سوء الحظّ في تلك المعركة ، فأرسل الى الحصون المجاورة يجمع الرجال حتى صار عنده (١٥٠٠٠) من المشاة عدا الفرسان ، فاجتمع مع فجيل ثانية وقال له : « باسم الله يا سيّد العرب » فقال له فجيل : « الى اين ؟ » قال : « الى ابن ابي عبدة » قال : « يا ابا حفص ، خصلتين في نهارٍ واحد ! تحكمٌ على الله واستغلال لما انعم به ، قد لطمتَه لطمة ، فاحترز منه جهدك وتحفظ طاقتك » فقال له : « نكاثره ونهجم عليه

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٢٦ .
(٢) Ibidem

في المعسكر . فنغطيه وكثير له ان يركب فرسه » فقام فجيل ودعا بسلاحه وقال : « اللهم انّي بريء من سوء هذا الرأي » .

وتوجّه الجميع الى القائد ابن ابي عبدة ثانية فوجدوه يصلّي العصر ثم يضع طعاماً ليأكل وأصحابه من حوله ، فلما شعروا بالعدوّ يقترب منهم نهض احدهم وهو عبد الروطي وكان ممن جمع له العقل والشجاعة فقال : « يا أصحابنا طمع والله فينا ، وكأني ارى ابن حفصون مقبلاً بركبه ورجله » فنهض القوم إلى سلاحهم وغلوا خيلهم ثم قال بعضهم لبعض : « اطرحوا الرماح من ايديكم وحوّلوها الى السيوف » ففعلوا ، وصدموا ابن حفصون ومن معه صدمة لم يستطع مقاومتها وما لبث ان هزم ووصلت قوّات الأمير عبد الله الى معسكر ابن حفصون فأصيب ممن كان معه (١٥٠٠) رجلاً وفرّ الباقون(١) .

وعندما علم الأمير عبد الله بنبأ ذلك وكان ابن اخ الثائر ابن حفصون رهينةً عنده ، كما ذكرنا ، وكذلك عبد الرحمن بن الحجّاج ، امر باخراج الرهينتين وقطع رأسهما فقطع رأس قريب ابن حفصون اولاً ، ثم عندما همّ الجلاد بقطع رأس عبد الرحمن بن الحجّاج ، اقبل بدر مولى الأمير عبد الله — وكان واقفاً يشاهد تنفيذ الحكم — على سيده وقال له : « يا مولاي ، قد نفذ قتل ابن اخ ابن حفصون ، فان قتل ولد ابن حجّاج معه ، عقدتَ ما بينهما الى الموت وابن حجّاج يُرجّى ، وابن حفصون لا يُرجّى » فدعا بالوزراء وشاورهم فيما قال ، فاستصوبوا رأيه وصدرت الأوامر بايقاف تنفيذ اعدام ابن حجّاج .

وتابع بدر تدخله لدى الأمير في مصلحة ابن حجّاج وأشار عليه باعادته الى ابيه على ان يضمن بدر بنفسه طاعته وعدم خروجه وطلب الى التجيبي خازن بيت المال ان يؤيده في رأيه امام الأمير ويشير عليه باطلاقه ، فقبل الأمير ذلك

---

(١) ابن القوطية : تايخ افتتاح الاندلس ص ١٢٧ — ١٢٨ .

الرأي وأمر باعادته الى أبيه بل ولاّه رسمياً على اشبيلية وولّى أخاه على قرمونة ، فلما عاد الولد الى أبيه كانت سعادته به غامرة وحلّ الوفاق الذي كان بينه وبين ابن حفصون ولو انه لم يصبح عدّواً له ابداً ، بل ظلّ بين الرجلين شيء من المراسلة .

ويذكر ان ابن حجّاج قد ثابر على طاعة الأمير عبد الله وصار يرسل اليه جباية الأموال والهدايا « وصلحت أحوال أهل قرطبة ، بانفتاح باب اشبيلية اليها ، وكان سبباً بانفتاح باب الغرب كلّه بالميرة ، وقدم بدر بسبب ذلك الى محلّ الوزارة والشورى »[1]

وعادت الحرب بعد ذلك بين قوّات الأمير عبد الله بقيادة كل من ابنه ابان وقائد الفرسان احمد بن محمد بن ابي عبدة من جهة وبين قوات الثائر ابن حفصون من جهة أخرى وذلك في يوم الخميس ٥ جمادي الآخرة ٢٩١هـ[2] (٩٠٤ م) ، فتوجهت قوات الأمير الى ريّه وحلّت بوادي نسقانيه[3] فخرج اليها ابن حفصون والتقى الجيشان ، فهزم ابن حفصون من جديد وقتل عدد كبير من اتباعه وأضرم جيش الأمير النار في قرى ذلك الوادي وما حولها . وانتقل الجيش بعد ذلك الى وادي بنيش[4] المجاور لببشتر فوقعت الحرب من جديد وكان النصر ايضاً في هذه المرة حليفه .

وتكرّرت انتصارات القوات الرسمية على ابن حفصون في تلك السنة في محلة طلحيره ثم عند حصن لوشه ثم عند حصن الخشن الى ان انتهت بعودة ابان وابن أبي عبدة الى قرطبة يوم الجمعة لخمس بقين من رمضان ، فدامت الغزوة بذلك ثلاثة أشهر وعشرين يوماً .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٢٩ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٢١١ .

(٣) Ibidem

(٤) Ibidem

وتكرّرت تلك المعارك بين الأمير عبد الله وابن حفصون عبر السنوات التي تبقّت من حكم وحياة الأمير اي خلال عشر سنوات أخرى لأنّنا نعلم انه توفي عام ٣٠٠ هـ (٩١٣ م) فكانت الهزيمة فيها باستمرار من نصيب ابن حفصون حتى ضعفت قواته وتمكن عبد الرحمن الناصر من القضاء عليه نهائيـــاً .

ولا نرى داعياً لسرد تلك السلسلة المتبقية من المعارك والغزوات بين الطرفين ، فما سبق هو الأهمّ ، عدا عن اننّا لا نملك من المعلومات عنها سوى القليل المتشابة بحوادثه . ولا ننسى في النهاية ان نذكر ان ابن حفصون خلال ذلك كلّه كان يفتش باستمرار عن الحلفاء لمساعدته فينضمّ تارةً الى هذا وطوراً الى ذاك ويراسل كلّ الأمراء الذين يأمل منهم المساعدة داخل الأندلس وخارجها حتى تمكن بهذا الشكل ان يبقى مستقلاً بأملاكه ثائراً فيها طيلة حكم أربعةٍ من الأمراء كان آخرهم الخليفة الناصر .

هذا وقد عالجنا في حديثنا عن ثورة ابن حفصون في عهد الأمير عبد الله ابن محمد ، تطوّر علاقاته بحكومة قرطبة دون ان نتحدث في الواقع عن طبيعة تلك العلاقات مع زعماء الثورات الآخرين الذين أعلنوا عصيانهم ضدّ الأمير عبد الله أيضاً والذين ربطتهم علاقات حسنة او سيّئة بالثائر الكبير ابن حفصون ولو انّ الغلبة كانت بجانبه في معظم الأحيان .

ونحن ان لم نتعرض لهذه الناحية ، فانما لنوفّيها حقّها عند حديثنا عن كلّ من اولئك الثوار على حدة ، ولو فعلنا غير ذلك لأصبح ابن حفصون محور تأريخنا لهذه الفترة ، مع انه لم يخرج عن كونه واحداً من كثير من اولئك الثوّار الذين ظهروا في الأندلس ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يعيقوا مسيرة الدولة الأموية فيها .

اتساع نطاق الفتن الداخلية :

انتشرت الثورات في عهد الأمير عبد الله في معظم انحاء الأندلس حتى

زاد عددها على الثلاثين وكان زعماؤها ينتمون الى جميع فئات المجتمع الأندلسي فبعضهم مولّدون اي من أصلٍ اسباني ودخلوا في الدين الإسلامي وبعضهم الآخر برابرة والقسم الثالث من العرب . فكأنّ كلّ صاحب نفوذ أصبح يريد ان يدلي بدلوه لعلّ الحظّ يكون حليفه فيوصله الى المركز الأول في الدولة ، ولكن الحظّ لم يحالف أيّاً منهم ، بالشكل الذي كان هو يتمناه ، وظلّ الأمير عبد الله يتربّع على عرش السلطة في قرطبة دون ان يستطيع أحد من الثوّار ان يهدّد مركزه ، حتّى ولا ابن حفصون بعد سلسلة الانتصارات التي أحرزها ضدّه كما سبق ان رأينا .

هذا وكأنّ الأندلس بوجود ذلك العدد من الثورات فوق أرضها قد أرادت ان تستبقَ الأحداث وتتشبّهَ في أوضاعها السياسية بفترة ملوك الطوائف التي لن تعرفها الأندلس قبل مرور حوالي قرن ونصف من الزمن على الفترة التي نحن فيها ، ولكنّها كانت في وضعٍ شبيه فعلاً بوضع الأندلس في عهد ملوك الطوائف وكانت مهدّدة بالانقسام الى عشراتٍ من الممالك منذ ذلك الوقت . ولكن اذا قيّض للأندلس ان تبقى وحدةً متماسكة خلال مائة وخمسين سنة أخرى فما ذلك في اعتقادنا الا لظهور رجلين بعد الامير عبد الله تحلّيا بكلّ ما يلزمهما من الصفات للحيلولة دون تجزئة البلاد ولمّ شملها في ظلّ حكمهما واعني بهما الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي حكم طيلة نصف قرن والحاجب المنصور العامري الذي حكم اكثر من ربع قرن وحاول ولداه من بعده ان يتبعا السياسة التي سار عليها .

ان بعض هذه الثورات التي نتحدث عنها في عهد الأمير عبد الله لم يدم سوى أشهر قليلة ولكن بعضها الآخر دام سنوات ، ومنها ما عاش حتّى بعد موت الأمير عبد الله ليواجه رجل الدولة الحديدي عبد الرحمن الناصر الذي لم يسمح لأيٍّ من تلك الحركات ان تظل حيّةً فوق أرض الأندلس ، فخبت بظهوره وأطاعته البلاد .

ولكن كثرة تلك الثورات وسعة انتشارها نغّصت حكم الأمير عبد الله

واضطرته الى ان يكونَ دائم اليقظة حيالها كيلا يتفاقمَ أمرها ويصبح خطراً على الدولة كلّها . كما انها منعته كما سنرى من توجيه الاهتمام الكافي للغزو ومقارعة اعدائه في الخارج مما كان له أسوأ الأثر على أحوال الدولة الاقتصادية منها والسياسية والعسكرية .

وفي هذا المجال يقول المؤرخ النويري : «كانت في ايامه فتن عظيمة وكثر قيام الثوّار عليه حتى لم يبقَ في يده الا مدينة قرطبة وحدها وخالف عليه أهل اشبيلية ، وشذونة ... ولم تبقَ مدينة الا خالفت عليه ثم عزموا على الدعاء على منابر الأندلس للمعتمد بالله العباسي ، فأرسلوا الى ابراهيم بن الأغلب يسألونه ان يبعث اليهم رجلاً من قبله فتثاقل عنهم ابراهيم وشغله ايضاً اضطراب اهل افريقية ، فأمسكوا عن ذلك »[1] .

وهذا يبرهن لنا على ان الجوّ السياسيّ قد أصبح مشحوناً اذ أنّ الثوّار ارادوا الاستعانة بمدد خارجي يأتيهم من العباسيين أو من الأغالبة ولو انّ ذلك لم يصل الى مداه لانشغال تلك الأطراف بمشاكلها الداخلية أيضاً .

اما من الناحية الاقتصادية فيقول ذلك المؤرّخ ايضاً : « وقلّ رجال عبدالله ابن محمد وذهب عنه من كان يلوذ به وبآبائه من الموالي والأصحاب ، وقلّت الأموال في يده لخروج أهل المدن وامتناعهم عن اداء الخراج له ، وكان خراج الأندلس الذي يؤدّى الى آبائه ثلاثمائة الف دينار في السنة ، فلما امتنع اهل مدن الأندلس من اداء الخراج اليهم ، رجعوا الى تلك الذخائر فأنفقوها واتصلت عليهم الحروب خمس عشر سنة فنفقت ذخائرهم واحتاجوا للقروض وكانت أيامه على هذه الحال الى ان توفي »[2] .

وكذلك يقدّم لنا صاحب « أعمال الأعلام » نصّاً بليغاً عن مدى اتساع الفتنة والقائمين بها فيقول : « وتصيّرت اليه الخلافة وقد تحيّف النكثُ

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٥٩ .
(٢) نفس المصدر السابق .

أطرافها . واقتسمها الثوّار ، وكلب عليها الأشرار ، ولم يبقَ منها الا الاسم فوق ظهر منبر قرطبة والقليل من غيرها ، وساءت الظّنون ، ولم يدرِ عبد الله الى اين يصرف وجهه : الى ابن حفصون كبير الثوّار المجاور لقرطبة ، وقد استولى على أعظم البلاد مثل البيره وريّه وما الى ذلك ، ام لابن حجّاج ، وقد استقلّ باشبيلية وقرمونه وما إلى ذلك ، ام لعبد الرحمن بن مروان الجلّيقي ببطليوس ، ام لعبد الملك بن ابي الجواد بباجة الغرب ، ام لابن السليم بشذونة ، ام لابن إلياس بالقلعة المنسوبة اليه ، ام لخير بن شاكر بشوذر ، ام لعمر بن مضمّ الهتروني ، ام لسعيد بن هذيل بحصن المنتلون ، ام لسعيد بن مستنة بباغو ، ام لبني هابيل بحصون جيّان ، ام لاسحق بن عطّاف بحصن منتاشه ، ام لسعيد بن سليمان بن جودي بغرناطة ، ام لمحمد بن أضحى كبير العرب بالبيرة ، ام لابي بكر بن يحيي بشنت مرية ، ام لسليمان بن محمد الشذوني بشريش ، ام لعبد الوهّاب بمورين ، ام ليحيي التجيبي الأنقر بسرقسطة »[1] .

ونستطيع ان نرى من هذا النصّ الذي لم يحتوِ في حدّ ذاته على ذكر جميع زعماء الثورات والمناطق التي ثاروا فيها ، صحة ما يردّده المؤرّخون عن مدى اتساع نطاق الفتنة آنذاك ، ولا نرى هناك داعياً او مجالاً لإيراد المزيد من هذه النصوص العامة عن أوضاع الفتنة في تلك الفترة ، بل نكتفي بالنصّين السابقين كنموذجٍ لما ذكره الباحثون في هذا المجال .

فلننتقل الى الحديث عن تلك الثورات ونبدأ بأهمها وهي :

ثورة اشبيلية — النزاع بين العرب والمولّدين :

كان المجتمع في اشبيلية يضمّ آنذاك ثلاث فئاتٍ من الناس : المولّدون والعرب والنصارى الذين ظلّوا على دينهم يعيشون في ظلّ الدولة الإسلامية . وكان اكبر هذه الفئات عدداً هم المولّدون ولو انّ العرب لم يكونوا يقبلون

(١) ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ٢٧ .

بأن يروا نفوذ هؤلاء قد ارتفع فوق نفوذهم . ومن هنا كان التنافس على السلطة والتحاسد بين الفئتين .

واذا كان الهدوء قد خيّم على اشبيلية حتّى ذلك الحين والى ان تفجّر الموقف ، فذلك عائد الى سلطة الدولة وقواتها التي كانت تسيطر على الموقف وتمنع ايّاً من الفئتين من الاستئثار بالسلطة .

واذا كانت المصادر التاريخية لم تتعرض لذكر زعماء المولّدين في اشبيلية فذلك لأنهم لم يكونوا ينتمون أصلاً الى عائلات عربية عريقة كتلك التي كان ينتمي اليها الزعماء العرب في تلك المدينة . اما هؤلاء فقد برزوا من بيوتات ثلاث هي عائلة بني عبدة وعائلة بني خلدون وعائلة بني حجّاج .

اما بنو عبده فقد عرف تاريخ الأندلس كثيراً منهم كقادة ورجال دولة وكان أبرزهم آنذاك في اشبيلية هو أمية بن عبد الغافر بن ابي عبدة الذي كان يتمتع بمكانة حسنة لدى حكومة قرطبة .

واما بنو خلدون فكانوا يفتخرون بنسبهم الحضرمي[1] ويتمتعون بمركز ماديّ جيّد . واليهم ينتسب العالم الاجتماعي الكبير والمؤرّخ الذي ظهر بعد ذلك بمئات السنين وهو عبد الرحمن بن خلدون . ذكر عنهم ابن حيان قوله : « نسبهم في حضرموت وهم باشبيلية نهاية في النباهة ، مقتسمين الرياسة السلطانية والعلمية »[2] . وكان ابرز رجالهم آنذاك هم كريب بن خلدون واخوه خالد .

واما بنو حجّاج فقد كانوا أصحاب نفوذ قديم في البلاد اذ انهم كانوا ينتمون من ناحية الأم الى سارة القوطية حفيدة ملك القوط الذي اغتصب لذريق عرشه ، وابرز افرادهم آنذاك هم عبد الله بن حجّاج وأخوه ابراهيم .

كان هؤلاء الزعماء العرب او بعضهم هم الذين بدأوا النزاع في اشبيلية

---

(١) ابن حيان عن ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٥ .
(٢) Ibidem

بين العرب والمولدين ويبدو ان كريب بن خلدون كان هو صاحب المبادرة ، فقد خرج من المدينة واجرى تحالفات مع بعض جيرانه ضدّ المولّدين فردّ هؤلاء باجراء تحالفات مضادّة وحصلت معارك بين الطرفين لا نرى ضرورةً للحديث عنها بالتفصيل اذ ان ما يهمّنا في هذا المجال هو الثورة على الامير عبد الله وليس المنازعات فيما بينهم . اذ طالما ان النزاع في بادىء الأمر لم يمسّ الأمير او الدولة . فانه لم يكن يعتبر بمثابة ثورة على السلطة ، ولكنّه سيعتبر كذلك منذ ان ترجح كفة العرب في اشبيلية على المولّدين ويتلذّذ الأولون بطعم الانتصار فيصمّمون على المحافظة على مكاسبهم وعدم الاهتمام بطاعة الأمـــير .

وهكذا فان النزاع بين العرب والمولدين ادّى الى انتصار الأوّلين واستئثار احد زعمائهم خاصة وهو امية بن عبد الغافر بن أبي عبدة بالسلطة في اشبيلية ، وكان جدّه ابو عبدة والياً على المدينة في عهد الأمير الأموي الأول عبد الرحمن ابن معاوية .

ولكن الأمير عبد الله . خشية ان تخرج اشبيلية عن طاعته ، كان قد أرسل اليها ابنه محمد ليضبط امورها فأصبح الرجلان أمية بن ابي عبدة ومحمد ابن الأمير عبد الله يديران شؤونها . ولكن هذه الحال لم تطل اذ سرعان ما قامت ثورة على ابن الأمير في القصر واضطر الى مغادرة المدينة لكي يستبدّ امية بعد ذلك بحكمها (١) .

وعندما حاول عبد الله بن حجّاج ان ينافسه على السلطة دسّ اليه من قتله ولكن قام اخوه ابراهيم بن حجّاج مكانه يحاول ان يثأرَ لأخيه .

واجتمع بنو خلدون وبنو حجّاج على مناوأة ومقاومة ابن ابي عبدة ، وتطوّر الأمر بينهم الى العداء الصريح فجمع الأوّلون أنصارهم وساروا الى القصر حيث كان امية بن عبد الغافر بن ابي عبدة فحاصروه وشدّوا عليه

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٥ .

الحصار حتى ضاق به ذرعاً وعرف ان لا مفرّ له من القتال وبالتالي من الموت نظراً لقلّة من كان معه نسبيّاً . فقرّر ان يحمل سيفه ويخرج من القصر فيقاتل حتى يقتل . ولكنه أقدم على عمل قاسٍ قبل ذلك . اذ قتل أفراد عائلته لئلاّ يتركهم عرضةً للسبي او للمهانة وأتلف موجودات قصره ثم قاتل حتى قتل في عام ٢٨٠ ه (٨٩٣ م) .

وصفا الأمر لبني خلدون وبني حجّاج واشتركوا في إدارة المدينة وهم ثلاثة : ابراهيم بن حجّاج وكريب بن خلدون واخوه خالد بن خلدون . وقد كتبوا الى الأمير عبد الله على اثر ذلك يقولون له بأنّ امية قد خلع وانّ الشعب أقدم على قتله ، فقبل الأمير ذلك منهم وأرسل عمّه هشام بن عبد الرحمن الى اشبيلية لكي يمثله في حكم المدينة .

وكما حصل في المرة الأولى حين أرسل الأمير ابنه محمد فلم يكن له من الأمر شيئاً وانتهى به المطاف الى ترك المدينة ، فان هشام لم يكن له من الأمر اكثر من ذلك وأصبح اكثر العرب نفوذاً هو كريب بن خلدون ، بينما رضي ابراهيم بن حجّاج بالمركز الثاني « انزل نفسه منزلة الخديم ، واستبدّ كريب وعسف أهل اشبيلية »[1] .

غير ان استبداد كريب بالأمر وسوء معاملته لأهل المدينة ، نفّر الناس عنه وجعلهم يكرهونه في الوقت الذي كان ابن حجّاج يظهر لهم الرفق والمعاملة الطيّبة حتى كسب قلوبهم وشاعت محبته بين الناس .

ثم قام ابراهيم بن حجّاج بعد ذلك بخطوةٍ أخرى وهي مكاتبة الأمير عبد الله طالباً منه اعطاءه ولاية اشبيلية رسميّاً ، فوافق الأمير على ذلك وأرسل اليه عهده سرّاً .

وفي الوقت ذاته كتب بنو خلدون الى الأمير عبد الله يحاولون ان يوغروا

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٣٥ .

صدره ضدّ ابن حجّاج . ويبدو ان احد تلك الكتب وقع في يد هذا الأخير فقرّر ان يوجهّ لبني خلدون ضربةً قاضية وكان ذلك في عام ٢٨٦ هـ[١] (٩٠٣ م) . فدعا وجوه القوم وعلى رأسهم كريب واخاه خالد الى طعام في منزله . فلما اجتمع الشمل بدأ ابن حجّاج في معاتبة الأخوين على تصرّفهما حياله وهما يردّان عليه ثم ما لبث ان أظهر الكتاب الذي وقع بيده فعرضه عليهما وبالغ في عتابهما . فأخرج خالد سكيناً كانت في كمه فضرب بها رأس إبراهيم بن حجّاج فجرحه جرحاً بليغاً ثم ضربه في وجهه ولكن هذا أسرع بالنهوض ودعا اليه أنصاره فأعملوا فيهما السيوف حتّى قتلوهما وألقوا برأسيهما الى أصحابهما في الخارج فتفرّقوا ، وصفت الحال لابراهيم بن حجّاج الذي أعلن ولاءه للأمير فعلاً منذ اللحظة الأولى .

هذا واذا كان بعض المؤرّخين قد ذكروا بأنّ الأمير قد عهد بولاية اشبيلية الى ابن حجّاج قبل ان يقدم على قتل ابن خلدون وأخيه ، فان هناك آخرين ذكروا ان ذلك حصل بعد اقدامه على قتلهما[٢] . ولا أهمية لذلك طالما ان ابراهيم بن حجّاج هو الذي أصبح صاحب السلطة في اشبيلية .

هذا ونودّ ان نستدرك هنا انه بعد ان بدأت الفتنة في اشبيلية بقليل وعندما حاول الأمير عبد الله اكثر من مرّة التدخل لتهدئتها ، أخذ رهائن من الزعماء العرب عربوناً على طاعتهم كان من بينها عبد الرحمن بن حجّاج الذي بقي لدى الأمير في قرطبة الى ان اصبح أبوه كما ذكرنا والياً رسمياً على اشبيلية بعهدٍ من الأمير نفسه .

فكان من الطبيعي ان اول ما يصبو اليه ابراهيم بن حجّاج بعد ان اصبح مقرّباً بل ممثّلاً لحكومة قرطبة ، ان يستعيدَ ابنه . ولكنّ الأمير عبد الله لأسبابٍ لا توضحها المصادر التاريخية ماطل في إطلاق الابن وفضّل الاحتفاظ

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٨٩ .

(٢) Ibidem

به . ونحن نرى ان تلك الأسباب لا تخرج عن كونها احتياطاً للمستقبل ، وضماناً لاستمرار بقاء والي اشبيلية الجديد على طاعته ، بل ربما كان قد بدأ يترامى اليه شيء عن امكانية الاتفاق بين ابن حجّاج والثائر الأول عمر بن حفصون .

والمهمّ ان والي اشبيلية تجاه رفض الأمير اعادة ابنه اليه ، قبل تلبية طلب ابن حفصون للتحالف معه وارسل اليه معونة مادية وعسكرية ، سبق ان تحدثنا عنها وعن ذلك التحالف عند كلامنا عن ثورة ابن حفصون .

ووقعت معارك بالفعل بين قوّات الأمير وقوّات الحليفين ابن حفصون وابن حجّاج ، لم تؤدّ الى نتيجة تذكر ولكنها كانت كافية لان تجعل الأمير عبد الله يقرّر قتل الرهائن التي كانت لديه من قبل ابن حفصون وابن حجّاج . ولا نرى داعياً لان نردّد هنا تفاصيل ما سبق ان ذكرناه من انه بعد مقتل رهينة ابن حفصون تدخل الحاجب بدر للعفو عن ابن حجّاج فعُفي عنه فعلاً وأُعيد الى ابيه « فعاد ابراهيم الى ما كان اولاً عليه من الطاعة واستقامت أحوال تلك النواحي على يديه »[1] .

هذا ولم تكن سلطة ابن حجّاج تقتصر على اشبيلية بل تشمل مدينة قرمونة ايضاً وعدداً كبيراً من القرى التابعة لهما . وقد تسلّم امور اشبيلية محمد بن ابراهيم بن حجّاج في حياة أبيه وظلّ والياً لها حتّى بعد ان توفي والده .

وقد أسّس ابراهيم بن حجّاج في اشبيلية حكومةً شبه مستقلّة وحاول ان ينظمَ مدينته كأنها دولة لها كيانها الخاص ، فاتخذ لنفسه الجند الذين بلغ عدد الفرسان بينهم خمسمائة ورتّب لهم الأرزاق ، وعيّن قاضياً للفصل في الخصومات ، وصاحب مدينة لاقامة الحدود ، وبنى داراً للطراز ، فقلّد بذلك أمير قرطبة وغيره من الملوك المستقلّين .

وكانت قرمونة كما ذكرنا تابعة له يعتني بها مساعدة لابنه في حكمها وهو

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٩٠ .

الذي حصّنها وأصلح سورها وترك فيها خيله ، مما كان يجعله يتردّد عليها باستمرار .

وعرف عن ابراهيم بن حجّاج انه كان قاسياً على المجرمين واللصوص والأشرار . مقصوداً من قبل الشعراء والأدباء وطالبي الثروة الذين كانوا يسعون للالتحاق ببلاطه او لبيعه طرائف غريبة وتحفاً نادرة .

وكان الشعراء يحظون فعلاً في بلاطه ، اذ كان كريماً ، يقدّر المديح ويرتاح للثناء فيجزل العطاء للشعراء الذين كان من ابرزهم في بلاطه الشاعر احمد بن عبد ربه . وقد مدحه هذا بقصائد عديدة ، وصف في احداها تنقله من اشبيلية الى قرمونة قائلاً في بعض أبياتها :

ألا ان ابـــراهيم لجة ســـاحلٍ　　من الجو أرست فوق لجة ساحل
فإشبيلية الزهراء تزهو بوجهه　　وقرمونة الغرّاء ذات الفضـــائل
اذا ما تحلت تلك من نور وجهه　　غدت هذه للناس في زيّ عاطل
وان حلّ هذي فهو يوحش هذه　　فتهدي برســـلٍ نحوه ورســـائل

وقال ايضاً من قصيدةٍ أخرى له في مديح ابن حجّاج :

كتاب الشوق يطويه الفؤاد　　ومن فيض الدموع له مداد
تخطّ يـــد البكاء به سطوراً　　على كبدي ويمليها السهاد
وكيف وبي فؤاد مستطير　　بمن لا يستطير له فـــؤاد
امن يمنٍ يكون الجود خلواً　　وابراهيم خاتمها الجواد
وباركه بمن يأتيـــه حجّ　　ومدحته ربـــاط او جهاد
ومالي في التخلّف عنه عذر　　ولي في الأرض راحات وزاد

هذا وقد قصد الشاعر القرطبي محمد بن يحيى القلفاط الأمير ابراهيم بن حجّاج يمدحه بقصيدةٍ نونية اولها :

أرقت رحلتي فأهمت جفونا

فأنشد أبياته الأولى في مديحه ثم اخذ في هجاء اهل قرطبة وكبرائها وعظماء دولتها على الرغم من انه كان يعيش فيها فبالغ في هجائهم فاستاء منه ابن حجّاج وصرفه من حضرته دون ان ينعم عليه بشيء بل انه ذمّه وذكره بالسوء .

ولما عاد الشاعر الى قرطبة اخذ يهجو ابن حجّاج بقصيدة اولها :

لا تنكري للبين طول بكائي

فلما علم ابراهيم بذلك غضب واوصى من قال له ان ابراهيم أقسم ايماناً مغلّظة بأنك لو عدتَ الى ذلك لأرسل اليك من يأخذ رأسك وانت في فراشك بقرطبة ، فخاف الشاعر القلفاط وكفّ عن ذلك ، وكانت تلك الحادثة مجالاً لمديحه في قرطبة نظراً لامتناعه عن سماع الهجاء يكال لرؤسائها وساكنيها .

وقد قصده شاعر آخر من الحجاز يدعى « العذوبي » فرعى حقّه واكرم مثواه وأغدق عليه الهبات ، فارتفع ذكره بين الناس .

وتروى عن ابن حجّاج نادرة تثبت اهتمامه باقتناء كلّ ما هو ثمين نادر بما في ذلك الجواري . فقد سمع بجارية بغدادية اسمها « قمر » فأرسل رسولاً له بمبلغٍ كبير من المال ليشتري له تلك الجارية ، فنجح هذا في مهمته وعاد فعلاً مع الجارية ، فأعجب ابن حجاج بفصاحتها ومعرفتها بالألحان والغناء ، فعاملها أحسن معاملة وأكرمها وأغدق عليها الهبات وظلّت تتألّق في سماء بلاطه طيلة حياته الى ان توفي عام ٢٨٨ ﻫ (٩٠١ م) .

ويذكر عن « قمر » انه كان لها شعر حسن ، منه :

قالوا أتت قمر في زيّ اطمار	من بعدما هتكت قلباً باشفار
تمشي على وحلٍ تغدو على سبلٍ	تشقّ امصار ارضٍ بعد أمصار
لا حرة هي من احرار موضعها	ولا لها غير ترسيل وأشعار
لو يعقلون لما عابوا غريبتهم	لله من أمةٍ تزري بأحرار
ما لابن آدم فخر غير همته	بعد الديانة والإخلاص للباري

دعني من الجهل لا أرضى بصاحبه　　لا يخلص الجهل من سبّ ومن عار
لو لم تكن جنّة الا لجاهلةٍ　　رضيتُ من حكم ربّ الناس بالنّار

هذا وبعد ان توفي ابراهيم بن حجّاج في السنة المذكورة كما سبق ان نوّهنا اقتسم دولته ابناه عبد الرحمن ومحمد ، الأول يحكم اشبيلية والثاني يحكم قرمونة .

وقد عرف عن محمد بن حجّاج انه كان له بقرمونة دولة حسنة وايام مزدهرة وانه كان ممدوحاً من قبل الناس ، مقصوداً من قبل المادحين والشعراء كما كان ابوه ، حتى أصبحت لا تقلّ شأناً عن اشبيلية ، بل نافستها في كلّ شيء .

وقد توفي عبد الرحمن بن حجّاج والي اشبيلية بعد وفاة الأمير عبد الله بعام واحد في ٣٠١ هـ بينما توفي أخوه محمد والي قرمونة بعده بسنةٍ واحدة في ٣٠٢ هـ . وعلى الرغم من انّ أحداث هاتين السنتين الأخيرتين كانت على قسطٍ من الأهمية إلا ان الحديث عنهما يدخل ضمن الحديث عن خلافة عبد الرحمن الناصر . ولذلك فاننا نفضّل ان نعالجها في حينها .

ثورة البيرة : النزاع بين العرب والمولّدين :

كما ان النزاع بين هاتين الفئتين قد تفجّر في اشبيلية ، فكذلك حصل في البيره وبصورةٍ خاصة في ناحية البراجلة[1] ، اذ انضمّ العرب الى زعيم ظهر في تلك المنطقة يدعى يحي بن صقالة القيسي[2] ضدّ التكتل الذي شكله المولّدون خاصّة وان الثائر الخطير ابن حفصون كان احدهم ، وكانت حركته تكسبهم قوةً وجرأة على العصيان .

غير ان كفة المولّدين قد رجحت في بداية الأمر وتمكنوا من قتل يحي بن

(١) ابن الابار : الحلة السيراء ج ١ ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٢) يقول ابن الابار ان يحيى بن صقالة كان اول الخارجين بالبراجلة ، فصب على المولدين والعجم منه ومن اصحابه أعظم آفة ، الى ان اصابوا منه غرة فثاروا به بغتة وقتلوه (الحلة السيراء ج ١ ص ١٤٨) .

صقالة زعيم الفئة العربية واحتلّوا الحصن الذي كان قد جعله مركزاً له فالتفّ العرب من جديد حول زعيم عربي آخر هو سوّار بن حمدون .

وكان سوّار قبل ذلك احد حلفاء او قادة يحيى بن صقالة وعرف عنه انه كان رجلاً شجاعاً محنّكاً فتمكن من ان يؤثّر في الموقف وان يجعل كفة النزاع تميل نحو العرب ، فقد تمكن من استرجاع حصن منت شاقند او منت شاقر Montejicar [1] وطرد منه المولدين بعد ان قُتل عدد كبير منهم[2] وعاد الى جعله مركزاً رئيسياً له كما كان قد فعل الزعيم الذي اتى قبله ونعني به يحيى ابن صقالة القيسي .

وقوي امر سوّار بن حمدون بعد ذلك وأخذ يستولي على حصون خصومه من المولدين وغيرهم ويقتل من يظفر بهم ويغنم اموالهم مما ادّى الى التفاف المولّدين حول جعد بن عبد الغافر عامل الأمير عبد الله على كورة البيرة Elvira الذي رأى بدوره بأنه اذا لم ينهض الى العمل فان المقاطعة كلّها ستضيع وتصبح بيد سوّار الذي لا يعترف بسلطة الحكومة الرسمية .

لذلك استعدّ جعد لحرب سوّار فسار اليه بعد ان انضمّ اليه المولّدون فحصلت معركة حامية بين الفريقين انتهت بهزيمة جعد ووقوعه في أسر سوّار ومقتل سبعة آلاف من جنده[3] .

وقد احتفظ سوّار بأسيره فترة قصيرة من الزمن ثم أطلق سراحه بعد ذلك فعاد الى محاربته . وزادت سلطة سوّار واحتل حصن غرناطة القريب من مدينة البيره ، فاجتمعت اليه فيه أعراب المنطقة وكاتبته عرب تلك النواحي حتّى قلعة رباح . فأخذ خصومه يعدّون أنفسهم لمعركة جديدة بهدف اخراج سوّار من حصن غرناطة . ووقع القتال من جديد فعلاً ويبدو ان الثائر الشهير ابن

---

(١) حققه البعض على انه باللاتينية Monte Sacro بينما الأصح هو ما أوردناه في سياق النص .

(٢) ذكر انه اجتمع بالحصن من المولدين وحلفائهم نحو من ستة آلاف رجل (الحلة ج ١ ص ١٤٨)

(٣) ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ١٤٩ .

حفصون شارك فيه هذه المرّة الى جانب المولّدين أمثاله ضد سوّار .

وعلى الرغم من انّ عدد القوات المعادية لسوّار قد بلغ ثلاثة وعشرين الفاً من المقاتلين بينما كان عدد انصار سوّار اقلّ من ذلك بكثير فقد تمكن من ان يلحق بهم هزيمةً جديدة في معركة عرفت « بواقعة المدينة »[1] قتل منهم فيها بين احد عشر الف رجلاً واثني عشر الفاً[2] .

وقد وصف تلك الواقعة القائد والشاعر سعيد بن جودي احد اصحاب سوّار والذي سيحلّ محلّه بعد مقتله — اذ كان العرب كلما قتل لهم زعيم انتخبوا مكانه زعيماً آخر — وصفها بقصيدة رائعة قال في بعض أبياتها :

لقد ســلّ سوّار عليكم مهنّداً يجذّبه الهــامات جذّ المفاصــل
به قتــل الله الذين تحــزّبوا علينا وكانوا اهــل إفكٍ وباطل
سما لبني الحمراء اذ حان حينهم بجمعٍ كمثل الطود أرعنَ رافل
يقودهم ليث هزبــر صُبارِمٌ مِحَشٌّ حروبٍ ماجدٌ غيرُ خاملِ
أرومته من خير قيسٍ سما بــه الى المجد قدما والعــلا كل فاضل
له ســورة قيسية عــربية بها ذاد عن دين الهدى كلّ جاهل

هذا وليس من الواضح فيما اذا كانت واقعة المدينة هذه هي المعركة الّتي جرح فيها ابن حفصون ام انها معركة اخرى لأن صاحب البيان المغرب يذكر انه بنتيجة المعركة « انقلب ابن حفصون مهزوماً وتولّى ملوماً مذموماً ، قد أثقل بالجراح وقتل قواده في ذلك الكفاح »[3] .

وعلى ايّ حال فانه بعد انسحاب ابن حفصون وهزيمة المولّدين في وقعة المدينة استلم قيادة المقاومة ضدّ سوّار احد قادة ابن حفصون وهو حفص بن المرّة.

---

(١) ابن الابار : الحلة السيراء ج ١ ص ١٤٩ .

(٢) ذكر الرقم الاول (١١ الفاً) ابن عذاري في البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٢ بينما ذكر الرقم الثاني (١٢ الفاً) ابن الابار في الحلة السيراء ج ١ ص ١٤٩ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٢ .

وقد أعمل هذا الحيلة للنيل من سوّار . فاتبع الخطة الكلاسيكيّة التي تقضي باظهار جزءٍ من الجيش واخفاء جزءٍ آخر ، حتى اذا اعتقد سوار بأن خصمه في عدد قليل ، قام بمهاجمتهم وهو واثق من النصر ، فخرجت عليه وعلى أصحابه كمائن حفص بن مرة فقتل سوار وعدد كبير من أصحابه وأرسل رأسه الى ابن حفصون .

ورأى العرب ان عليهم ان ينصبوا زعيماً جديداً لهم بعد ذلك فوقع اختيارهم على سعيد بن جودي ، وكان سعيد من اصحاب سوّار وأبرز مساعديه بل كان علاوة على ذلك شاعراً مبدعاً نظم القصائد في كلّ مناسبة وخاصة عند انتصار سوّار على جعد بن عبد الغافر ، وعند انتصاره في وقعة المدينة[١] وقد علّق عرب البيرة آمالهم على الزعيم الجديد وان لم يستطع ان يبلغ المكانة التي بلغها سلفه سوّار بن حمدون ولكنه اتصف بعدد كبير من الصفات الحميدة عدّها البعض عشرة وقالوا انها : الجود والشجاعة والفروسية والجمال والشعر والخطابة والشدة والطعن والضرب والرماية[٢] .

وقد أعلن سعيد بن جودي العداء المستحكم ضدّ ابن حفصون وتمكن من الانتصار عليه اكثر من مرة ولو ان ابن حفصون نجح في احداها بايقاعه في الأسر فأبقاه عنده سجيناً في بربشتر لبضعة أشهر ثم قَبِلَ ان يتلقّى فدية كبيرة لإطلاق سراحه ، فعاد سعيد بن جودي الى قتال ابن حفصون الى ان اغتيل على يد أحد المتآمرين عليه وقيل على يد عشيقةٍ له .

وقد ذكر ان اغتياله كان بايعاز من الأمير عبد الله نفسه لأنه سمع عن لسانه بيتين من الشعر في ذم بني أميه اذ قال :

يا بني مروان جدّوا في الهرب نجم الثائـر من وادي القصب
يا بني مـروان خلّوا ملكنـا انما المـلك لأبناء العـرب

(١) اورد صاحب الحلة السيراء هذه القصائد في ج ١ ص ١٥٠ — ١٥٤ .
(٢) نفس المصدر السابق ص ١٥٥ .

وكان خليفة سعيد بن جودي في زعامة العرب في منطقة غرناطة او البيرة هو محمد بن أضحى الهمداني الذي اتبع سيرة سابقيه في معارضة ابن حفصون ومقاتلة المولّدين وظلّ يسيطر على أجزاء كبيرة من تلك المنطقة ويحظى بتأييد الأمير حتى مجيء الخليفة الناصر الذي قضى على رؤوس الشغب إجمالاً في الاندلس وجعل جميع مقاطعاتها تتبع له تبعية مباشرة .

ثورة ابن مروان الجليقي وعلاقتها بثورة ابن تاكيت المصمودي بمارده :

بعد ان رأينا دور عبد الرحمن بن مروان الجلّيقي في عهد الأمير المنذر ، أسرع الأمير عبد الله في اول عهده الى بطليوس لقتاله وفرض الحصار عليه فترةً من الزمن دون ان يستطيعَ فتح المدينة فعاد عنه الى قرطبة ولو ان أحداثاً ستقع وتؤدّي الى الاتفاق الموقّت بين الطرفين ونعني بها ثورة ابن تاكيت المصمودي بماردة .

كان محمد بن تاكيت من قبائل مصمودة وقد بدأ ثورته في ناحية الثغر اي في الشمال قرب حدود العدوّ ثم ما لبث ان زحف الى ماردة وبها يومئذ جند من العرب ومن قبائل كتامة فأعمل الحيلة في إخراجهم منها ونزلها هو وقومه من مصمودة (١) .

ولكن الأمير عبد الله أسرع الى حصاره في ماردة وجاء عبد الرحمن بن مروان الجلّيقي بجنده من بطليوس – وقد سبق ان تحدثنا عنه في عهد الأمير محمد ورأينا كيف أقرّه على بطليوس عندما عجز عن إخضاعه ، فانضمّ الى جند الأمير في حصار ماردة ولكنهم بعد أشهر من الحصار لم يتمكنوا من فتح المدينة واضطروا الى الانسحاب كلّ الى مقرّه .

ومن الطبيعي ان نتصوّر ان العلاقات بين ابن تاكيت وبين ابن مروان قد ساءت بعد ذلك الى حدّ بعيد نظراً لاشتراك هذا الأخير مع القوّات الرسمية في

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٣٣ .

حصار ابن تاكيت ولذلك فقد نشبت سلسلة من المعارك بين الطرفين وكانت الغلبة فيها لابن مروان الجليّقي كما كان من أشهرها معركة جرت بالقرب من مدينة لقنت Alicante قتل فيها عدد كبير من اتباع ابن تاكيت .

واستمرّ كلّ من الثائرين قائماً في بلده - ممتنعاً عن الاعتراف بطاعة الأمير عبد الله حتى مات ابن مروان فحلّ ابنه عبد الرحمن في السلطة مكانه فحارب الزعماء البرابرة المجاورين له ولكنّه لم يظل في الحكم سوى شهرين قضى نحبه بعدها . وحينذاك فقط أصبح للأمير عبد الله كلمة مسموعة في بطليوس فعقد لاميرين من العرب عليها بينما اضطر افراد عائلة عبد الرحمن بن مروان للالتجاء الى حصن في تلك المنطقة يعرف بحصن شونة[1] .

اما الاميران اللذان توليا شؤون بطليوس فما لبثا ان تنازعا ايضاً فيما بينهما وانتهى الأمر بأن دخل الأمير عبد الله وأعاد سلطته اليها .

وقد أصبح من السهل على الأمير بعد احتلاله بطليوس ان يشنّ الحرب على الثائر ابن تاكيت في ماردة ، ففعل وتمكن من ان يهزمه وطلب هذا الصلح ولكنّه ما لبث ان عاد الى النكث ثانية وظلّ خارجاً عن الطاعة حتى آخر ايام الأمير .

ثورة ديسم بن اسحق في تُدمير :

خرج عن الطاعة كغيره من الثوّار في ذلك الزمن واستكثر من الرجال والمدرّبين على القتال ، وابتاع عدداً كبيراً من العبيد فاستطاع ان يكون جيشاً ضمّ خمسة آلاف من الفرسان عدا الرجال . وقد وصفه صاحب البيان المغرب بقوله : «كان مودوداً من طبقات الناس ، رفيقاً برعيته ، جواداً منتجعاً ، له افضال على الشعراء والأدباء »[2] .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٣٤ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٥ .

وقد أسرع الأمير عبد الله بتوجيه جيش اليه كانت غايته على ما يبدو تحصيل جباية تلك المنطقة اكثر من تفكيره في القضاء نهائياً على الثورة ، اذ ان الدولة أصبحت تهتمّ بالموارد المالية قبل كلّ شيء نظراً لأنّ الخزينة قد فرغت ولم يعد لدى الدولة اي احتياطي .

وعندما اقترب جيش الأمير من معقل ديسم بن اسحق كتب اليه قائد الجيش يأمره بايراد ما يستحقّ عليه من الجباية التي كان قد توقّف عن ارسالها منذ ان فرض سيطرته على المنطقة . فلما قرأ الكتاب استخفّ به واظهر التهاون بشأنه . وشاور ديسم أصحابه في الأمر فأظهروا كل ثقة بالنفس وقالوا له : « ائذن لنا نأتيك به الساعة » ثم قالوا له : « اذا قربت محلّته منّا ، طالعنا عسكره حتى نرى قدره ، فانه بلغنا ان عدده قليل »[1] .

وبالفعل أرسلوا من يستطلع عدد جيش الأمير فرأوه قليلاً نسبيّاً فأعدّوا للهجوم عليه عدته . فلما كان الصباح ونهضوا اليه وجدوه على رأس ثلاثمائة فارس من شجعان الأندلس ، فنشب القتال بين الطرفين ولم يدم اكثر من ساعة حتى هزم أصحاب ديسم بن اسحق وقتل منهم عدد يزيد على الألف .

بعد ذلك تقدّم احد ضباط جيش الأمير حتى نزل على نهرٍ فاصل بين المدينة وبين المعسكر فنادى اهل تدمير وخاطبهم بما بمعناه انه اذا لم تدفع المدينة وقائدها ابن اسحق ضعف الجباية المطلوبة ، فانّ الجيش سيهاجم المدينة وسينتقم من أهلها .

ورأى ابن اسحق بعد هزيمته ان لا قبل له بالمقاومة ففضّل دفع ضعف الجباية التي كان عليه ان يدفعها ، عوضاً من ان يعرّض نفسه ومن معه للخطر ، فأرسل المال عشية ذلك اليوم ، وعاد الجيش عنه .

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٢٥ .

حركة احمد بن البراء في سرقسطة :

كان الأمير المنذر قد ولّى احمد بن البراء بن مالك القرشي سرقسطة وما حولها لكي يعاندَ بني قسيّ الذين رأينا بأنّهم كثيراً ماكانوا يخرجون عن طاعة الأمير ، فعلا شأنُ الرجل واخذ كغيره من الولاة اصحاب الطموح يستكثر من الرجال ويكوّن لنفسه جيشاً قويّاً دون ان يخرجَ عن الطاعة .

وزاد في قوّة ذلك الوالي ان اباه البراء بن مالك كان وزيراً للأمير عبد الله ، ولكنّ مصدر القوّة ذاك سيكون ايضاً مصدر البلاء .

فلقد نمي ذات يوم الى الأمير عبد الله كلام على لسان البراء بن مالك أزعجه وأخافه منه ويقال انّ جميع الوزراء قد سمعوه يتلفّظ به[1]. فعمل الأمير عبد الله على ان ينتقم من ابنه احمد لاعتباره ان هذا يشكل قوة عسكرية يمكن لأبيه ان يعتمدَ عليها عند الحاجة . واتصل الأمير لهذا الغرض بمحمد بن عبد الرحمن التجيبي المكنّى بأبي يحي وامره في كتاب ارسله اليه ان يحاول الفتكَ بأحمد بن البراء وارسل مع رسالته تلك سجلاً بتوليته على سرقسطة وما والاها. وقد أطلع محمد التجيبي اباه عبد الرحمن بن عبد العزيز على الامر ، واتفقا على تنفيذ طلب الأمير . وبالفعل تمكنا من ان يرشوا بعض اعوان احمد بن البراء فدخلوا عليه وقتلوه . وما ان علم الأمير بالخبر حتّى امر بعزل ابيه عن الوزارة ، فسقطت اسهم تلك العائلة ونحّيت عن السلطة .

ثورات اخرى متفرّقة :

اما الثورات الأخرى الكثيرة التي حدثت في عهد الأمير عبد الله فلا نملك حيالها سوى القليل جداً من المعلومات التي لا تتعدّى احياناً اسم الثائر والمكان الذي ثار فيه ، ولذلك سنحاول ان نوردَ بها قائمة تفيدنا لمجرّد الاطلاع على مدى اتساع الفتنة في عهد هذا الأمير والمجهودات التي سيضطر خلفه الى بذلها

(١) نفس المصدر السابق ص ١٣٠ .

لاعادة الأمور الى نصابها .

ففي السنة التالية لتسلّم الأمير عبد الله مهامّ الحكم اي في عام ٢٧٦ ﻫ (٨٨٩ م) ثار عبد العزيز التجيبي المعروف بالأنقر في الثغر الأعلى كما ثار في العام ذاته اهل جيّان وأخرجوا عاملها عباس بن لقيط لكي يستلم السلطة مكانه الثائر خير بن شاكر . وقد سار اليه في العام التالي القائد ابن ابي عبدة فحاربه وحاصره وقتل جماعة من أصحابه وأحرق كثيراً من دور جيّان . اما مقتل ابن شاكر فقد تحدثنا عنه عند كلامنا عن ثورة ابن حفصون ورأينا كيف انه حاول ان يتقرّب الى الامير عبد الله بارسال رأسه اليه .

وفي عام ٢٧٩ ﻫ (٨٩٢ م) ثار اهل ارجذونه **Archidona** على احمد بن هشام كما ثار سعيد بن مستنه في منطقة باغه **Priego** وتضافر مع ابن حفصون فسار عبد الملك بن أمية الى ابن مستنه بعد ذلك بمدة ونازل حصن أشر وقتل عدداً من المدافعين عنه ثم هدم حصن السهلة وعاد الى قرطبة . ولم تنته ثورة ابن مستنة بل ستوجه حملات كثيرة لقتاله فيما بعد .

وثار بعد ذلك عبيد الله بن أمية المعروف بابن الشالية فملك كورة جيّان ودخل حصن قسطلونة . كما ثار عبد الملك بن ابي الجماعة في مدينة باجة Beja وتحصن بحصن مارتلة Mertola المنيع وعقد أواصر الصداقة مع ابن مروان صاحب بطليوس وابن بكر صاحب اكشونبه Ocsonoba ، فكانوا يداً واحدة على من خالفهم .

واستقلّ منذر بن ابراهيم بن محمد بن السليم بمقاطعة شذونة بيد انّه لم يكن متطرّفاً وحرص على عدم نبذ الطاعة نهائياً الى ان قتله أحد مماليكه ، فخلفه في تلك المنطقة وليد بن وليد وظلّ خارجاً عن طاعة حكومة قرطبة حتى مجيء الخليفة الناصر .

وثار كذلك محمد بن عبد الكريم بن الياس وامتنع بقلعة « ورد » في مقاطعة شذونه ولم يتمكن عبد الله من القضاء على ثورته حتى اذا جاء الناصر ، ساقه

الى قرطبة حيث مات فيها .

وكذلك رفع لواء الثورة عمر بن مضمّ البنزوتي او الهترولي حسب بعض المصادر المعروف بالملاّحي وكان ضابطاً في خدمة الوالي ، فثار عليه وغدر به واحتلّ القصبة .

ومن الثوّار ايضاً سعيد بن هذيل في حصن المنتِلون من مقاطعة جيّان Jaen وبنو هابل الأربعة وهم اخوة اكبرهم منذر بن حريز بن هابل والثاني يلقب ابو كرامة ويدعى هابل بن حريز والثالث عامر والرابع عمر . ولقد ثاروا ببعض حصون جيّان في عهد الأمير عبد الله ولكنهم ما لبثوا ان قبلوا بعد فترة امانَ الأمير ، وحسنت طاعتهم .

وكذلك ثار اسحاق بن ابراهيم بن عطّاف العقيلي بحصن منتلشه فبناه وحصّنه وامتنع به الى ان غلبه الخليفة الناصر وساقه الى قرطبة حيث توفي فيها .

وثار عمر بن أضحى بن عبد اللطيف الهمذاني بكورة البيرة وظلّ حاكماً بأمره في تلك المنطقة حتى ايام الناصر .

اما في مدينة شنت برية Santaver من مقاطعة اكشونبة Ocsonoba فقد ثار بكر بن يحيى بن بكر من زعماء العرب ، فبنى حصناً منيعاً وضع فيه أبواباً من حديد . وكان يستخدم عدداً كبيراً من الرجال وعدّته موفورة ويحاول التشبّه في حكمه بابراهيم بن حجّاج زعيم اشبيلية . ولذلك فقد كان له مستشارون وكتاب للعمل كما تمكن من نشر الأمن بصورة تامة في منطقته فأصبح المتجوّل فيها آمناً لا يخاف .

وثار خليل وسعيد ابنا المهلّب وهما من وجوه قبائل البربر بكورة البيرة فاستمرّت ثورتهما ايضاً الى ايام الناصر .

كما ثار سليمان بن محمد بن عبد الملك الشذوني بشريش Jerez وشذونة Sidonia وهو الذي بنى « بنريشة » وحصنها .

وثار بحصن «كور» كل من الاخوين عبد الوهاب بن جرج ومحمد بن عبد الرحمن بن جرج . فحاربهما الأمير وأخرجهما من الحصن فمات عبد الوهاب ولحق محمد بالثائر «ابن الشالية» فضمّه اليه وبنى له حصن مورينه Morena في مقاطعة جيّان ، فأقام فيه الى ان ساقه الناصر الى قرطبة .

وثار ابن خصيب بحصن منت‌ميور في منطقة لبلة Niebla فوجه اليه الأمير عبد الله ابنه ابان فحاصره ونصب عليه المجانيق ورماه بها حتى قبل الدخول في الطاعة .

وثار في كورة جيان ايضاً فهر بن أسد فوجهت اليه صائفة افتتحت حصنه الرئيسي وأخذ فهر أسيراً وسيق الى قرطبة فأمر الأمير عبد الله بصلبه .

وثار بنو الخليع في حصن قنيط التابع لمقاطعة تاكرنا Takoronna ، فسار اليه القائد احمد بن محمد بن ابي عبده ففتح الحصن وسار الثوّار معه الى قرطبة .

وكذلك قامت ثورة في الجزيرة الخضراء سار لقمعها ابان ابن الأمير عبد الله ففتح بعض حصونها ثم سار لمحاصرة مشاور بن عبد الرحمن الذي ثار في مقاطعة ريّه فأحرقت الأحياء المحيطة بالمدينة ، فعرض مشاور الاستسلام واعطاء الرهائن فقبل منه ذلك وأخذت رهائنه وعاد الجيش . وفي نفس الوقت تابع ابن الأمير جولته الى حصون البيره فأخضع بعضها ثم عاد إلى قرطبة.

وثار محمد بن عبد الملك الطويل في حصن منتشون ومدينة لاردة ولعب دوراً هامّاً طيلة حكم الأمير عبد الله . فقد افتتح حصوناً كثيرة فيما بعد لحسابه الخاص في منطقة برطانية ثم سار بعد مدة الى منطقة بليارش Pallares فقتل عدداً كبيراً من أهلها فوفد عليه رسول سكان حصن روطة يطلبون الصلح ويعرضون الرهائن والجزية فلم يقبل منهم ذلك فخرجوا هاربين من الحصن وأخلوه فتقدّم اليه وهدمه . كما تغلّب في نفس الفترة على حصن منت

بطروش[1] وهو المعروف بجبل الحجارة . وكان له كذلك غزوات الى الدويلات الاسبانية . في الشمال سنتحدث عنها في حينها .

وثار كذلك محمد بن عبد الرحمن التجيبي في مدينة شيبه كما ثار أهل قلعة رباح فغزاهم الوزير عباس بن عبد العزيز وافتتح مدينتهم .

وبذلك نرى ان الفتن قد عمت البلاد في زمن الأمير عبد الله ولكن ذلك لا يجوز ان يحجبَ الحقيقة عن أعيننا فيجعلنا نعتقد بأن ذلك الأمير كان ضعيفاً او متواكلاً ، فلقد أدّت ظروف كثيرة اجتماعية وسياسية واقتصادية وعسكرية الى قيام تلك الفتن ، التي كانت كفيلة بأن تطيحَ بأيّ عرش ، لولا ان الامير عبد الله كان يتحلّى بمجموعة من الصفات الجيّدة جعلته يصمد في وجه تلك الزوبعة الهوجاء فيتمكن من القضاء على بعض الثورات ، ويحصر البعض الآخر في المكان الذي قامت فيه دون ان يسمحَ لها بالتوسّع او تهديد الحكم المركزي فاستطاع بذلك في الواقع ان ينقذَ الدولة العربية في الأندلس من الانهيار قبل الأوان.

الغزو في عهد الأمير عبد الله :

لم يتح للأمير عبد الله القيام بالغزو لانشغاله بمجموعة الفتن الداخلية التي قامت ضدّه ولو ان بعض القادة او الولاة في عهده حلّوا محلّه في هذا المجال فقام « الطويل » ببعض الغزوات كما ساهم في ذلك بنو قسيّ او بنو لبّ .

ففي عام ٢٩١ هـ (٩٠٤ م) خرج لبّ بن محمد الى بايش Baeza في مقاطعة ألبه Alava فافتتح حصن بايش وما يتبعه ، بينما كان الفونسو يومئذٍ يحاصر حصن عرمون ، فلما بلغه دخول لب بن محمد الى اراضيه وافتتاحه لذلك الحصن فكّ الحصار وعاد الى مركز حكمه[2] .

---

(١) كلمة « منت » هي في الأصل اسبانية وتحريف عن Monte اي جبل . كما ان بطروش لا بد ان تكون من اصل اسباني وتحريف عن Piedras اي حجارة بالاسبانية . ويكون بذلك معنى الاسم « منت بطروش » هو « جبل الحجارة » .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢١٢ .

وفي السنة ذاتها سار لب بن محمد نفسه الى ناحية بليارش Pallares فافتتح حصن «الحرونفة» وحصن «ايلاس» وحصن «قشتيل شنت» وحصن «موله» ، وقتل في هذه الحصون ما يقرب من سبعمائة من المدافعين عنها كما وقع في يده ألف من السبايا .

ثم في عام ٢٩٤ ﻫ (٩٠٧ م) خرج لب بن محمد الى جهات بنبلونه فنزل في نهوره وشرع في بنيان حصن هرين فحشد له الملك سانشو جيشاً كبيراً وجهه اليه واشتبك الطرفان في اكثر من معركة فقتل لب بن محمد وعدد كبير ممن كان معه . وكان عمره آنذاك ثمانية وثلاثين عاماً وتسلّم منصبه أخوه عبد الله ابن محمد وانسحب الجيش الى قواعده .

وفي السنة نفسها غزا محمد بن عبد الملك الطويل جهات برطانيه فافتتح بعض الحصون ووقع في يده عدد من السبي . واعاد الطويل الكرة بعد عامين في ٢٩٦ ﻫ (٩٠٩ م) فهاجم منطقة بليارش وأوقع بأهلها . ثم أعاد الغزو في السنة التالية ٢٩٧ ﻫ (٩١٠ م) الى المنطقة ذاتها فافتتح حصن اوريواله Orihuelo واصاب ثلاثمائة من السبي وقتل عدداً كبيراً من جند العدوّ . وقبل ان يغادر الحصن الذي احتلّه هدمه وتقدم الى حصن « غلتمر » و « الفران » فهدمها وعاد بعد ان غنم من الفيء ما قيمته ثلاثة عشر الفاً .

اما في عام ٢٩٨ ﻫ (٩١١ م) فقد جعل الطويل وجهته بنبلونه على ان يجتمع هناك مع عبد الله بن محمد بن لب . وعندما وصل الى « حصن البربر » امر باحراق ما حوله ثم غيّر رأيه بالنسبة للقائه مع ابن لبّ للسير نحو بنبلونة فعدل عن الفكرة وانصرف الى احتلال احد الحصون التابعة لناڤارا ويعرف بـ « شارة قشتيله » ولكن عندما عرف ان ملك ناڤارا يعدّ للهجوم عليه ، فضّل الانسحاب .

ولكن ما ان انسحب الطويل حتّى وصل عبد الله بن لب الى المنطقة وعلم ان الطويل قد عدل عن ملاقاة شانجه Sancho فصرف جهده الى محاصرة احد

حصونه « لوازه » فلم يتمكن من فتحه ، ثم التقى ببعض قوّات ملك نافارا واشتبك معها وتمكن من الانتصار عليها[1].

وأخيراً ففي عام ٢٩٩ هـ (٩٢١ م) اي في العام الذي سبق وفاة الأمير عبدالله خرج محمد بن عبد الملك الطويل الى وادي برشلونة فأغار على تلك الجهات فخرج اليه قائد المنطقة الاسباني واعترض طريقه فاشتبك الطرفان وغلبت كفـّة قوّات القائد العربي ، فقتل من خصومهم عدد كبير .

مقتل محمد ابن الامير عبد الله ثم مقتل اخيه المطرّف :

كان الأمير عبد الله يفضّل ابنه محمداً على بقية اولاده فأقدم على ترشيحه للإمارة بعده فسخط من اجل ذلك اخوه المطرّف الذي كان يأمل ان يؤول الامر اليه بعد ابيه ، وبدأ النفور يدبّ بين الأخوين ويتسع خرقه يوماً بعد يوم .

وقرّر المطرّف ان يكيدَ لأخيه ويحاول ان يوغرَ صدر أبيه عليه لعلّه يتخلّص منه ويزيحه من طريقه ، فصار يعمل على الدسّ عليه باستمرار وايهام ابيه بأن اخاه محمداً يسعى للوصول الى السلطة بأقرب وقتٍ ممكن ولو كان ذلك عن طريق التآمر .

ولم يكن لدى المطرّف بطبيعة الحال برهان على ذلك ، انما نظراً لكثرة ترديده لذلك الموضوع امام ابيه ، بدأ هذا يشعر بالوحشة حيال ابنه محمد . ويبدو أنه حصل في تلك الفترة ان محمداً اقدم على قتل احد اتباع المطرّف فاستغلّها هذا فرصة ليزيد في الدسّ على أخيه .

وعندما لاحظ محمد بأن اباه قد بدأ يتبدّل فعلاً حياله ، خاف العاقبة فسار الى السجن وأخرج منه بعض أعوانه وصحبهم خارجاً من قرطبة متجهاً الى القاعدة الرئيسية لابن حفصون فانضمّ اليه مخالفاً لأبيه .

ولكن ما ان مضت فترة قصيرة من الزمن حتّى اتصل الامير عبد الله بابنه

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٢٢ .

وعرض عليه الأمان في حال قبوله العودة الى قرطبة . علماً بأنّ بعض المؤرّخين يجعلون محمداً هو صاحب المبادرة بالاتصال بأبيه . وأنتجت تلك الاتصالات فعلاً اذ عاد محمد الى قرطبة واستأنف فيها حياته العادية .

بيد ان السبب في تلك المشاكل وهو اخوه المطرّف لم تعجبه عودة المياه الى مجاريها . فعاد الى الدسّ على أخيه وصار يؤكد لأبيه بأنّ أخاه محمداً لم يقطع صلاته بابن حفصون وانه يراسله ويمهّد له الوصول الى السلطة .

وخشي الأمير ان يكون ذلك صحيحاً وهو امر خطير يمكن ان يهدّد سلامة الدولة ، فأمر بسجن ابنه محمد . ويذكر البعض في هذا المجال ان الأب ما لبث ان ندم وأمر باطلاق سراح ابنه ، ولكنّ المطرّف عاجله وقتله في السجن ، بينما يذكر البعض الآخر ان الاب لم يغيّر رأيه وانه ترك ابنه في سجن القصر وخرج في احدى غزواته . فاستغلّ المطرّف فرصة غياب أبيه ودخل السجن فقتل أخاه محمداً .

وكان وقع النبأ على الأمير شديداً وقاسياً ولكن كان امامه أحد أمرين : اما ان يقتله بأخيه فيخسر بذلك اثنين من ابنائه او يغضّ النظر عنه لعلّ سيرته تتحسّن في المستقبل . ففضّل الابقاء عليه ، وارسل من اتى له بعبد الرحمن بن محمد القتيل فضمّه اليه وعني به وأخذ يربّيه بنفسه ، فكان ذلك بدايةً لوصول حفيده عبد الرحمن الى الحكم بعده ليصبح الخليفة الناصر .

واخذ الأمير فكرة سيئة عن ابنه المطرّف وعلم بأنه لن يتراجع عن شيء في سبيل هدفه . وقد لاحظ ايضاً بأن هنالك نفوراً بين ابنه المطرّف وبين الوزير عبد الملك بن أمية ، فخشي ان يقدم على قتله ايضاً فاستدعى ابنه وقال له : « قد سوّغتك قتل أخيك محمد اذ عاند ، وخالف ، وبالله لئن أحدثتَ في ابن اميّة حدثاً . لأقتلنّك به » . كما استدعى الوزير عبد الملك وقال له : « لا يجمعنّك به السرادق ولا تراه الا على ظهر دابتك » . فأخذ الوزير حذره منه .

وينفرد صاحب « تاريخ افتتاح الاندلس » بالقول ان موقف المطرّف

العدائي من أميّة كان سببه ان ابن الأمير كان يطمح في الحكم وفي خلع ابيه عن العرش ليجلس مكانه ، وانه كان يعلم ان تنفيذ ذلك في غاية الصعوبة بوجود رجل مخلص مثل ابن اميّة ، فأراد ان يزيحه من طريقه «كان قبيح النية في ابيه عبد الله وكان ينوي خلعه »[1] .

وربما صحّ ذلك لاننا رأينا غيرته من أخيه عندما أراد أبوه ان يعهد او عهد اليه بولاية العهد فأقدم على قتله .

وحدث في عام ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) ان سار المطرّف والوزير ابن امية معاً نحو اشبيلية لإخضاعها وفيها يومئذٍ كريب بن خلدون وابراهيم بن حجّاج ، فلما وصلا مع الجيش قرب اشبيلية عمد المطرّف الى الاتصال بزعماء الثورة في اشبيلية وقال لهم : « قد عرفتم عداوة ابن امية لكم ، وقبح اياديه عندكم ايام ولايته لكم ، وهو على تلك الطريقة حتى الآن باغراء الأمير ابقاه الله ، فان أرحتكم منه تخرجوا اليّ » فوعدوه بذلك .

وعندما ضمّه سرادق واحد مع الوزير ابن أمية هجم عليه بمساعدة بعض أعوانه ثم قطع رأسه وأرسله الى زعماء الثورة في اشبيلية ، ففتحوا الأبواب وخرجوا اليه فعلاً . ويبدو ان انضمام هؤلاء اليه جعله اكثر طموحاً وجعله يفكر في اغتصاب السلطة من أبيه فوراً ، فسار معهم نحو شذونة ليطلبوا الى زعمائها ايضاً الانضمام اليهم ، وينفّذوا ما يرغب فيه المطرّف من خلع ابيه .

في خلال ذلك علم الأمير بما حدث ووضحت له سوء نيّة المطرّف فأرسل الى أهل اشبيلية والى أهل شذونة يحذّرهم من مغبّة الأمر ويدعوهم الى الانفضاض عن ابنه المطرّف فرفض بنو عبد الملك حكام شذونة فتح ابواب مدينتهم والانضمام اليهم .

وعندما اراد ابن حجّاج وابن خلدون ان يدخلوا المدينة بالقوة فاجأهم اسحق بن ديسم بالهجوم عليهم ، فشغلوا بقتاله عن دخول شذونة وعرف

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٢٢ .

المطرّف بأنه لن يستطيعَ في تلك الظروف تحقيق هدفه ، فكتب الى أبيه يسأله الأمان فأمّنه[1] ، وعين هشام بن امية في الوزارة مكان ابيه عبد الملك[2] .

وعاد المطرّف الى قرطبة فنميت عنه تصرّفات وأقوال شاذّة اذ ذكر ان بعض وجهاء البلد وفقائها مثل الشيخ ابن لبّابة وابي صالح وابن الصفّار وعبيد الله بن يحيي ذهبوا للتسليم عليه مهنئين بقدومه من السفر وبتأمين ابيه له ، فلما خرجوا من داره قال لكاتبه مروان بن عبيد الله بن بسيل : « ان عشت قليلاً لأطعمنّك اسفريا من لحوم هذه الجزر ما أكلتَ منها قطّ »[3] فنقل الكاتب ذلك القول الى عبيد الله بن يحيي الذي نقله بدوره الى اصحابه فأجمعوا على التدبير ضدّه واعتبروا دمه حلالاً لانّه هو بدوره استحلّ دماءهم على الرغم من كونهم من اعلام المسلمين في الاندلس .

وتوجهوا جميعاً الى الحاجب ابن السليم فقالوا له : « اننا قد بغينا على الجلاء عن دورنا لإضافة مطرّف لنا ورغبته الينا في البيعة له وخلع أبيه ، فان كنتم تحمونا ، والا صرنا الى الجلاء ، فمعنا علوم لسنا نفقد من يكرمنا بها حيث توجهنا »[4] .

فأبلغ الحاجب ذلك الى الأمير عبد الله فأرسل الى قصره عبيد الله بن محمد صاحب الخيل وعبد الله بن مضر صاحب المدينة للقبض عليه ، فقاومهما ومن معهما أشدّ المقاومة ودامت المعركة يومين الى ان تمكنا في اليوم الثالث من القبض عليه ، فساقه ابن مضر الى دار الوزراء ، فلما علم الحاجب بذلك قال لابن مضر : « لماذا سقته ، ارجع به الى داره فاضرب رقبته » فقتل .

هذا وقد أقدم الأمير عبد الله على قتل أخ له اسمه القاسم اتّهم ايضاً امامه

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٢٣ .
(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٧ .
(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٢٣ .
(٤) نفس المصدر السابق .

بالتدبير عليه ، ولذلك سمح بعض المؤرّخين لأنفسهم –كما سبق ان ذكرنا في مطلع الحديث عن حكمه– بالقول ان الدماء كانت تهون عليه ، ولو ان المتمعّن في تفاصيل هذه الأحداث الماضية ، يجد ان ابنه محمداً قد تآمر عليه فعلاً بانضمامه الى ابن حفصون وان المطرّف قد استهان بأبيه عندما اقدم على قتل وزيرٍ من وزرائه ، على الرغم من انّه كان قد نهاه عن ذلك .

أدب الأمير عبد الله :

كان للأمير عبد الله باع طويل في عالم الشعر والأدب ، فله توقيعات بليغة وأشعار بديعة في الغزل والزهد لا يكاد ان يقع مثلها او ينتسب الى من تقدمه نظيرها[1] وقد كتب الى احمد بن محمد القائد في يوم عيد : « اما بعد فالتزم التوكل على الله تبارك وتعالى والثقة به في جميع أمورك وما انتَ بسبيله من ثغرك فانهما حرز من كلّ ضرّ يتّقى ، وبلاغ لكلّ خيرٍ يُرتجى ، وكن من التحفظ في ايام عيدك على احسن الذي يجب عليك الأخذ به والتحفظ منه فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين »[2] .

واعتذر اليه بعض مواليه يوماً ، فوقّع على عذره : « وان مخايل الأمور لتدلّ على خلاف قولك ، وتنبيء عن باطل تنصّلك ، ولو بؤتَ بذنبك واستغفرتَ لجرمك ، لكان أحجى لكَ واسدلى لستّر العفو عنك » فكتب اليه : « انما انا بشر ، وما يقوم لي عذر » . فقال : « مهلاً عليك ، رويداً بك ، تقدمت لك خدمة وتأخرت لك توبة ؛ وما للذنب مجال بينهما وقد وسعك الغفران »[3] .

واملى كتاباً الى بعض عماله يقول فيه : « اما بعد فلو كان نظرك فيما خصصناك به ، واهتبالك به على حسب متوترك بالكتب واشتغالك بذلك على

(١) اخبار مجموعة ص ٧٨ .
(٢) Ibidem
(٣) ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ٢٦ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣٠ .

مهمّ أمرك ، لكنتَ من أحسن رجالنا غناء وأتمهم نظراً وأفضلهم حزماً ، فاقلل من الكتاب فيما لا وجه له ولا نفع فيه ، واصرف همتك وفكرتك وعنايتك الى ما يبدو فيه اكتفاؤك ويظهر فيه غناؤك ان شاء الله(١) .

وله في الغـــزل :

ويلي على شادن كحيل ... في مثله يخلع العذار
كأنمـــا وجنتاه ورد ... خالطه النّور والبهار
قضيب بانٍ اذا تثنّى ... يدير طرفاً بـــه احورار
فصفو ودّيً عليه وقف ... ما اطّرد الليل والنهـــار

ومن قوله ايضاً في مثل ذلك :

يا مهجة العشاق ما اوجعك ... ويا اسير الحبّ ما اخضعك
ويا رسول العين ما لحظها ... بالردّ والتبليـــغ ما اسرعك
تذهب بالسرّ فتأتي بـــه ... في مجلسٍ يخفى على من معك

وله في الزهـــد :

يا من يراوعه الأجـــل ... حتّى م يلهيك الأمـــل
حتّىم لا تخشى الـــردى ... وكأنه بـــك قد نـــزل
أغفلت عن طلب النجاة ... ولا نجـــاة لمن غفـــل
هيهات يشغلك المنـــى ... ولا يـــدوم لك الشغل
فكأنّ يومـــك لم يكن ... وكأنّ نعيك قد نـــزل

وله ايضاً في الزهد :

ارى الدنيا تصير الى فنـــاء ... وما فيها لشيء من بقاء
فبادر بالانـــابة غير وانٍ ... على شيء يصير الى فناء
كأنك قد حملت على سرير ... وغيّب حسن وجهك في الثراء
فنافس في التقى واجنح اليه ... لعلّك ترضينْ ربّ السماء .

---

(١) اخبار مجموعة ص ٧٩ ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣١ .

وفاة الأمير عبد الله ، آخر من تلقّب بالإمارة :

كانت وفاة الأمير عبد الله في مستهلّ شهر ربيع الأول من آخر المائة الثالثة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) بعد ان حكم اكثر من ربع قرن وبلغ الثانية والسبعين من عمره . فتولّى بعده حفيده عبد الرحمن بن محمد .

ويصطلح المؤرّخون على القول بأن الأمير عبد الله كان آخر امراء بني أمية في الأندلس . لأن خلفه وحفيده عبد الرحمن بن محمد كان اول الخلفاء .

فحكام بني أمية في الأندلس منذ عبد الرحمن الداخل حتّى عبد الله بن محمد اكتفوا لأنفسهم بلقب « الأمير » الى ان جاء عبد الرحمن الثالث او الناصر فقرّر بعد ستّة عشر عاماً من وجوده في الحكم ولاسبابٍ وعواملَ مختلفة سنتناولها بالحديث عند معالجتنا لعهده ، قرّر اتخاذ لقب « الخليفة » فبدأ بذلك عصر الخلافة في الأندلس الذي سيدوم حتّى زوال سلطة بني أمية نهائياً في عام ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) حين تتجزّأ الأندلس الى ما يعرف بممالك الطوائف ، ويدخل تاريخها في مرحلةٍ جديدةٍ من مراحل الوجود العربي فوق أرضها .

المراجع والمصادر العربية

ابن الأبّار : إعتاب الكتاب ، حقّقه وعلّق عليه وقدم له الدكتور صالح الاشتر . دمشق ١٣٨٠ ﻫ (١٩٦١ م) .

— : التكملة لكتاب الصلة ، طبعة مدريد ١٨٨٦ م .

— : الحلّة السِّيَراء . حقّقه وعلّق حواشيه الدكتور حسين مؤنس. الطبعة الاولى . القاهرة ١٩٦٣ م .

— : المعجم . طبعة مدريد ١٨٨٥ م .

ابن الأثير : الكامل في التاريخ . طبعة القاهرة ١٩٤٨ م .

ابن بشكوال : الصلة . طبعه وقدم له وعلّق عليه ووضع حاشيته فرانسيسكو كوديرا وزيدين . مدريد ١٨٨٤ م .

ابن حزم : جمهرة أنساب العرب . حقّقه أ . ليڤي بروڤنسال . القاهرة ١٩٤٨ م .

الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار . تحقيق أ . ليڤي بروڤنسال . القاهرة . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ م .

ابن خاقان : قلائد العقيان . القاهرة ١٢٨٤ ﻫ .

— : مطمح الأنفس . القاهرة ١٣٢٥ ﻫ .

ابن الخطيب : اعمال الاعلام او تاريخ اسبانيا الاسلامية تحقيق أ . ليڤي بروڤنسال . بيروت ١٩٥٦ م .

ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ... القاهرة ١٢٨٤ هـ .

ابن خلّكان : وفيات الأعيان . تحقيق محمد ومحي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٤٨ م .

ابن خير : الفهرسة . حقّقه فرانسيسكو كوديرا وخوليان ريبيرا . سرقسطة ١٨٩٣ م .

ابن دحيـــة : المطرب في أشعار أهل المغرب . تحقيق ابراهيم الابياري وحامد عبد المجيد واحمد احمد بدوي . القاهرة ١٩٥٤ م .

ابن ابي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . عنـــي بتصحيحه ونشره وترجمته
Carolus Johannes Tornberg (Upsaliae 1843)

ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب . تحقيق شوقي ضيف . القاهرة ١٩٥٥ م .

الضبّـــي : بغية الملتمس . حقّقه فرانسيسكو كوديرا وخوليان ريبيرا . مدريد ١٨٨٤ م .

الطبـــري : تاريخ الأمم والملوك . طبعة القاهرة ١٣٥٦ هـ.

ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب . تحقيق عبد المنعم عامر . القاهرة ١٩٦١ م .

العمـــري : مسالك الأبصار فيممالك الأمصار. تحقيق احمد زكي باشا . القاهرة ١٣٤٢ هـ ١٩٢٤ م .

ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، حقّقه كوديرا . مدريد ١٨٩٠ م .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة . الطبعة الثالثة . مصر ١٣٨٢ هـ ١٩٦٣ م .

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس . حقّقه عبد الله انيس الطبّاع بيروت ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م .

الكتبي : فوات الوفيات . مصر ١٩٥١ م .

المراكشي (عبد الواحد) : المعجب . حقّقه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي . القاهرة ١٩٤٩ م .

المراكشي (ابن عذاري) : البيان المغرب . طبعه وقدّم له وعلّق عليه ووضع حواشيه أ. ليڤي بروڤنسال . جـ ١ طبعة بيروت ٤٧ ــ ١٩٥٠ م ، جـ ٢ طبعة بيروت ٤٨ ــ ١٩٥٠ م .

المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر . الطبعة الثالثة مصر ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م .

المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم .

المقّري : نفح الطيب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٤٩ م .

مؤلف مجهول : اخبار مجموعة في ذكر الأندلس وذكر امرائها والحروب الواقعة بها بينهم . نشره وعلّق عليه لاخوينتي والكنترا . مدريد ١٨٦٧ م .

مؤلف مجهول : نبذة تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى ، منتخبة من كتاب مفاخر البربر ومنشورة بعناية ليڤي بروڤنسال . الرباط ١٩٣٤ م .

النباهـــي : تاريخ قضاة الأندلس . تحقيق أ . ليفـــي بروفنسال . القاهرة ١٩٤٨ م .

النويـــري : نهاية الأرب في فنون الأدب . الجزءان التاريخيان الأخيران . تحقيق وترجمة جاسبار ريميرو Gaspar Remiro . غرناطة ١٩١٧ م .

المراجع الأجنبية

Altamira (R) : Historia de España y de la civilización Española. Barcelona 1900.

Asin Palacios (Miguel) : Contribución a la Toponimia Arabe de España. Segunda Edicion. Madrid-Granada 1944.

Conde (José Antonio) : Historia de la Dominación de lòs Arabes en España. Paris 1840.

Dozy (Reinhart Pieter Anne) : Histoire des Musulmans d'Espagne. Traduction Espagnole par Magdalena Fuentes. Barcelona 1954.

— : Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le moyen âge. T I, 3ème Edition. Leyde 1881. T. II, 2ème Edition Leyde 1860.

Gonzalez Palencia (Angel) : Historia de la Literatura Arabīgo-Española. Trad. Arab par Dr. Hussein Mu'nés. Caire 1955.

Levi-Provençal (E) : Islam d'Occident. Trad. Arabe par A. Salem et M. S. Hilmi. Caire 1956.

— : Histoire de l'Espagne Musulmane. Trad. Esp. par E. Garcia Gomez. Collection Menendez Pidal. 2ème Edition, Madrid 1957.

— E. Garcia Gomez: Textos inéditos del «Muqtabis» de Ibn Hayyān. Sobre los origenes del reino de Padplona, al Andalus 1954.

Ramirez de Arellano (Rafael) : Historia de Cordoba desde su Fundacion hasta la muerte de Isabel la catolica. Ciudad Real 1915.

Ribeira (Julian) : Disertaciones y opusculos. Madrid 1928.

Saavedra (E.) : Estudio sobre la Invasion de los Arabes en España. Madrid 1892.

فهرس المواضيع